



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أحمد دراية - أدرار

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية

قسم العلوم الإنسانية

رَكْبُ الْحَجِّ الْجَزَائِرِيِّ خِلالَ الْعَهْدِ الْعُثْمَانِيِّ (1518-1830م)

دراسة تاريخية واجتماعية من خلال الرّحلات الحجازية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر

المشرف:

أد/ محمد حوتية

إعداد الطالب:

أحمد بوسعيد

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
د. مبارك جعفري	أستاذ محاضر أ	رئيساً	جامعة أدرار
أد. محمد حوتية	أستاذ التعليم العالي	مشرفاً	جامعة أدرار
أد. ناصر الدين سعيدوني	أستاذ التعليم العالي	مناقشاً	جامعة الجزائر 2
أد. بن يوسف تلمساني	أستاذ التعليم العالي	مناقشاً	جامعة البليدة
د. الشبير غانية	أستاذ محاضر أ	مناقشاً	جامعة الوادي
د. محمد مرغيث	أستاذ محاضر أ	مناقشاً	جامعة أدرار

الموسم الجامعي: 1438هـ - 1439هـ / 2017م - 2018م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَلَدُ الْجَزَائِرِ مَا أَمَرَ نَوَاهَا كَلَّفَ الْفُؤَادُ بِحُبِّهَا وَهَوَاهَا
يَا عَاذِلِي فِي حُبِّهَا كُنْ عَاذِرِي يَكْفِيكَ مِنْهَا مَاؤُهَا وَهَوَاهَا

المقري التلمساني... حجة 1028هـ/1619م

"إنَّ الجزائريين الذين توجَّهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد
العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرِّخين أو سُوح، وإنما
توجَّهوا إليها حجاجاً يُؤدُّون الفريضة ويزورون الحرم الآمن،
لذلك كانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم، وخيالهم
يتجاوز مرمى أبصارهم، وأشواقهم إليها تنسيهم آلام الطريق
ووعناء السفر"

المرحوم أبو القاسم سعد الله



الإهداء



إلى من لولاها ما رسمت بخط ولا أهديت قط

والذي الكريمين حفظها الله على الدوام

إلى من كانت على العهد نعم العون والعُصْد: زوجتي الوفيّة

إلى زينة حياتي: محمد علي، عبد الهادي وعبد النور

إلى من قاسمني طعم الأيام ودعمني على ممّر الأعوام

إخوتي: مختار، محمود وعبد المالك. وأخواتي جميعاً

إلى منتسبي "الدار الكبيرة" حيثما وجدوا، أقارب وأصهاراً

إلى زملاء الدراسة والتدريس في المستويين المتوسط والعالِي

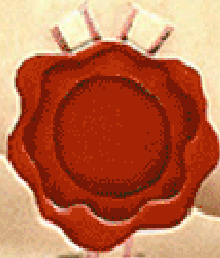
إلى من علّمت أقدامهم وحوافز ركبهم طريق الحج: حجاج الركب

إلى سفراء الجزائر العثمانية بالمشرق: أعلام وعلماء ركب الحج

إلى كلّ من ساهم في إخراج هذا العمل من العدم

أهدي ثمرة هذا الجهد المقلّ

أحمد



التشكرات " شُكْرُ الْمُؤَلَّى هُوَ الْأَوْلَى "

ما دام شكر الناس من شكر الله فإني أتوجه بجزيل معانيه وأسمى مبانيه إلى:
- الأستاذ الدكتور محمد حوتية على تفضله بالإشراف، وعلى ما أسدى من نصائح وتوجيهات طيلة فترة إعداد الأطروحة.
- من تشرفنا بوفودهم إلى جامعة أدرار، فوجهونا إلى البحث في إرث الجزائر العثمانية الخصب، وأخص بالذكر الأستاذين الدكتورين المرحومين: أبا القاسم سعد الله وعائشة غطاس، والأستاذة الدكتورة فاطمة الزهراء قشي.
- روح الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، الذي كان له الفضل في إعادتنا إلى مجرى البحث التاريخي... سقى الله قبره شآبيب الرحمة والرضوان.
- الأساتذة الكاترة: أحمد جعفري، محمد دباغ، أحمد الحمدي، مبارك جعفري، عبد الله بابا، عبد الحميد بايشي، عبد الرحمن بعثمان، عبد السلام كمن.
- الأستاذ الدكتور: عبد المالك بوعريوة رئيس القسم، وكافة زملاء التدريس.
كما أتوجه بشكر خاص إلى السادة الباحثين والمؤسسات البحثية:

- الحاج محمد سالم بن عبد الكريم بأدرار.
- مولاي عبد الله اسماعيلي بأدرار.
- الشيخ أحمد بن حسان بتسايت.
- الحاج الطيب شاري بكوسام.
- موظفي المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة.
- موظفي الأرشيف الوطني بالجزائر العاصمة.
- موظفي مكتبة السلمانية الجامعية باسطنبول.

فجازى الله الجميع خيراً، وأجزل لهم أجراً

المقدمة

المقدمة

ظلَّ الحُجُّ إلى بيت الله الحرام مؤمَّلَ المسلمين جميعاً حيثما كانوا، تُحدي إليه الرواحل والمطايا من كلِّ حدبٍ وصوب، شوقاً لرؤية تلك البقاع والمواطن، وتقديساً لما حواه ثراها من ذكرى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأزواجه وأصحابه. وقد ارتبط الجزائريون - والمغاربة عموماً - بتلك الشعيرة أيما ارتباط، منذ القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد)، بعد أن هداهم الله لدينه الحنيف، فحرصوا على تلبية نداء سيدنا إبراهيم الخليل والإتيان من كلِّ فجٍّ عميق زرافات ووحदानا.

لم يُثنِ الجزائريين عن الحُجِّ في العهد العثماني بُعدُ الشُّقَّة ولا عِظْمُ المشقَّة. مواجهين مخاطر السفر، وطول الطريق، وتقلبات الأحوال، ومفارقة الأهل والخلائن والأوطان. فكان الاهتداء إلى مِّ شمل الحجاج الجزائريين ورواحلهم ضمن قافلة كبرى موسمية، تُحاكي مجتمعاً منظماً، شكَّلت ما عُرف بركب الحج. ذلك الإطار المنظَّم لشؤون الحجاج هو موضوع هذه الدراسة "ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني دراسةً تاريخيةً واجتماعية من خلال الرِّحلات الحجازية".

أهمية الموضوع وأهداف الدراسة:

تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يرصد ظاهرة دينية في منطلقها (الحج إلى بيت الله الحرام)، لكنَّها تأخذ أبعاداً تاريخية، اجتماعية إنسانية، تجارية وثقافية... كما أنَّ الحج إلى بيت الله الحرام اعتُبر لقرون خلَّت الوسيلة الهامة في تدعيم التقارب الحضاري والاجتماعي بين الأفراد والمجتمعات الإسلامية، ومصدراً رئيساً من مصادر الإعلام والإخبار بمختلف المستجدات والتطورات السياسية والأمنية والمذهبية الطارئة في العالم الإسلامي. ومن المرجو كذلك أن يُعطي هذا الموضوع فترة زمنية هامة من تاريخ الجزائر في العصر الحديث، هي فترة الارتباط بالدولة العثمانية، فيُجَلِّي النظرة الرسمية للسلطة العثمانية المحلية حيال ركب الحج الجزائري، ومدى مساهمتها في الإعداد أو التنظيم والتوجيه.

تأتي هذه الدراسة في إطار تبيان التطور التاريخي لركب الحجِّ الجزائري خلال ثلاثة قرون من الوجود العثماني، من حيثُ تنظيمه وإمارته (قيادته) ومراحلُ التحضير والإعداد لرحلة الحج، والمسارات والمحطَّات التي كان الركب يسلكها، ومظاهر التكافل الاجتماعي والتواصل الإنساني ضمن الركب، وعلاقات الركب الجزائري بأركاب الحج المحاورة، والمعيقات الطبيعية والأمنية التي كان الركب يواجهها، وانعكاسات التطورات السياسية في البلدان الإسلامية على الحجاج الجزائريين،

المقدمة

وظروف وصول الركب إلى أرض الحجاز، انتهاءً بخط العودة وسلامة الركب وعادات استقبال الحجاج. وذلك كله بالاعتماد على ما دوّنته كتب الرحلات الحجازية الجزائرية . بصفة خاصة . المطبوعة منها والمخطوطة، خلال الفترة الزمنية المذكورة آنفاً.

كما أنّ من الأهمية بمكان تأصيل الأحداث المرتبطة بركب الحج وفرزها وتوثيقها، وذلك من خلال الاعتماد على ما دوّنته كتب الرحلات الحجازية الجزائرية خاصة والمغربية عامة، واستنباط الإشارات ذات الدلالات التاريخية والاجتماعية والحضارية، التي تزخر بها تلك "المذكرات الحجية"، إذ لا يخفى أنّها المصدر الأول والرئيس في كلّ ما يتعلّق بمراحل السفر للحج وظروفه.

والجزائريون . على غرار المغاربة . أبدعوا في كتابة رحلاتهم الحجازية خلال الفترة المختارة للبحث، ومن تلك الرحلات على سبيل الذكر لا الحصر: رحلة ابن أبي محلي الساوري السجلماسي سنة 1001هـ/1593م، ورحلة أحمد المقرئ التلمساني سنة 1028هـ/1619م، ورحلة المجاجي سنة 1063هـ/1653م، ورحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) سنة 1091هـ/1680م، ورحلة ابن عمار الجزائري سنة 1166هـ/1752م، ورحلة الورثلاني سنة 1179هـ/1766م، ورحلة الفلاني القبلاوي سنة 1183هـ/1769م، ورحلة عبد الرحمن بن عمر التلاني التواتي سنة 1188هـ/1774م، ورحلة إبراهيم المصعبي سنة 1196هـ/1782م، ورحلة أبي راس الناصري المعسكري سنة 1204هـ/1789م، ورحلة عبد القادر بن عומר التلاني التواتي سنة 1232هـ/1817م، ورحلة الأمير عبد القادر الجزائري مع والده الشيخ محي الدين سنة 1241هـ/1825م....

دوافع اختيار الموضوع:

وقّع اختياري على موضوع ركب الحج الجزائري نتيجةً لدوافع شخصية ذاتية وأخرى علمية موضوعية، أوجزها في الدواعي التالية:

- مواءمة طبيعة الموضوع لتخصص الدراسة في مرحلة الماجستير، وهو التاريخ الاجتماعي والثقافي المغربي عبر العصور، ورغبتني في الاستمرار ضمن هذا النوع الحصب من الدراسات التاريخية، الذي يحتاج إلى المزيد من البحث والإثراء.

المقدمة

- الرغبة الشخصية في الإطّلاع على كلّ ما يتعلّق بمسيرة وخطّ سير الحجاج الجزائريين خلال العهد العثماني من مُنطلقها إلى مُنتهاها، وإبراز صور ومعاني التحدي والصبر التي طبعت رحلات أولئك الحجاج الجزائريين.

- محاولة القيام بإعداد دراسة تاريخية "تقنية". إنَّ صحَّ التعبير. عن الركب (أو القافلة المنظّمة) الجزائري في حدّ ذاته، بعيداً عمّا درج عليه كثيرون في الاكتفاء باستخراج مظاهر التأثير والتأثّر المرتبطة بالحج فقط، إنَّ على مستوى القوافل الحجّية فيما بينها، أو على مستوى التفاعل ما بين المشرق والمغرب من خلال تلك الشعيرة.

- توفّر كمية لا بأس بها من المادة الخام حول الموضوع، والمتمثلة في ما حوتّه مخطوطات ومطبوعات الرّحلات الجزائرية الحجازية وغيرها من المصادر ذات الصلة، الغنية بأخبار ركب الحج ومجالات سفره التجارية والاجتماعية والثقافية. لكنّ معظمها - رغم ذلك - يحتاج إلى كثير من التمحيص والتدقيق والتخريج.

- محاولة الإسهام في تدوين وحفظ جانب هام من التاريخ الوطني الجزائري في شقّه الاجتماعي والثقافي، خلال فترة هامة من تاريخ الجزائر وهي العهد العثماني.

- توجيهي من قِبَل الأستاذ المشرف - مشكوراً - وتشجيعه إياي على السير قدماً في هذا الموضوع.

إشكالية البحث:

تسعى هذه الدراسة التاريخية إلى تبيان وتتبع التطور التاريخي لركب الحج الجزائري شكلاً ومضموناً، اعتماداً على ما توفّر من مصادر ونماذج من رحلات الحج الجزائرية. وذلك من خلال طرح الإشكالات الرئيسة التالي: ما هي الظروف والأوضاع العامة التي أحاطت أو أسفرت بركب الحج الجزائري في غدوّه ثمّ رواحه من الحجاز خلال العهد العثماني؟

لا تتسنى الإجابة عن ذلك التساؤل إلا باستعراض التفاصيل والجزئيات المتعلقة بالركب عبر فصول الدراسة ومباحثها، وتوضيح النقاط والإشكالات الفرعية التالية: كيف كان يتّم الإعداد لرحلة الحج؟ وممّ كان يتكون الركب عدّة وعتاداً؟ وما هي العائلات التي أُنيطت بها مهمة قيادته؟ وماذا عن الصعاب والمعيقات التي كان يواجهها الركب؟ والطرق التي كان يسلكها ومحطات الراحة والعبور؟ وهل اختلفت الأوضاع في رحلة الإياب عن الذهاب؟ وهل حفظت رحلة الركب الجزائري

المقدمة

أسماء بعض الأعلام من الحجاج الذين استمرّ إشعاعهم الفكري بعد انقضائها؟ وماذا عن الغرائب والطرائف التي ميّزت سفر الركب إلى الحج؟ وغيرها من الأسئلة المرحلية.

المنهج المتبع في البحث:

نظراً لاحتواء هذا النوع من المواضيع على المعطيات المعرفية المباشرة، وغناه أيضاً بالإشارات والدلالات المحصّلة بالنقد والاستنتاج، فقد حاولتُ أن أجمع بين أداتين رئيسيتين في المنهج التاريخي هما: الأسلوب الوصفي والأسلوب أو الأداة التحليلية النقدية.

فبالأسلوب التاريخي الوصفي يلائم طبيعة الموضوع، المعتمد على وصف وسرد مجريات وظروف رحلة الركب، وما يحيط بها من أحداث ومستجدات، وإحصاء مكوّنات الركب ومحطّاته، واستعراض التأثيرات الاجتماعية والثقافية ضمن الركب وخارجه، واستقراء المواقف المختلفة الجماعية والفردية للحجاج الجزائريين من الأحداث المترامنة مع رحلة حجّهم.

أمّا الأسلوب التحليلي فقد وظّفته في دراسة المادة العلمية التي تزخر بها المصادر، ومن ثمّ تحليلها ونقدها بحثاً عن حقيقة التطور التاريخي لركب الحج الجزائري خلال تلك الفترة، والوقوف على أهمية هذه المناسبة في تعضيد عُرى التعاون والتضامن بين الجزائريين، واستنتاج الأفعال وردود الأفعال اتجاه الظروف المحيطة برحلة الحج من بدايتها إلى نهايتها.

مجال البحث:

يتمثّل الحدّ الزمني للبحث في الفترة ما بين ق10 ومنتصف ق13هـ (ق16 وبداية ق19م)، والتي تُمثّل مراحل العهد العثماني بالجزائر، إلّا أنه لا يتمّ التركيز كثيراً على القرن 10هـ/16م، باعتباره مرحلة مفصلية في تثبيت الوجود العثماني، وبناء مؤسّساته الإدارية والعسكرية، واسترجاع مقوّمات الكيان الجزائري إثر التحرشات الأوروبية. كما أنّ الفترة الزمنية المختارة للبحث غنية بعشرات الرحلات الحجازية الجزائرية والمغربية، المخطوط منها والمطبوع، مما يساهم في الإحاطة بالموضوع من جلّ جوانبه وإيفائه نصيبه من الدراسة.

أمّا الإطار المكاني فيشمل الجزائر كلّها، من بحرّها إلى تلبّها وصحرائها، إضافةً إلى المسارات الجغرافية والحواضر التي كانت أركاب الحج تنزل بها. فأركاب الحج كانت تسلك تلك الدروب

المقدمة

والمسالك جملةً واحدة، بعيداً عن الحدود الجغرافية الحديثة وتعقيداتها، وبغضّ النظر عن مواطن النفوذ العثماني السياسي والإداري في ربوع الجزائر خلال تلك الفترة.

نقد المصادر والمراجع المعتمدة:

اعتمدتُ في جمع المادة العلمية حول ركب الحج الجزائري على جملةٍ من المصادر، بعضها مطبوع وبعضها الآخر لا يزال مخطوطاً، وتأتي في مقدمتها الرحلات الحجازية الجزائرية بصفة خاصة، والمغربية بصفة عامة، المدوّنة خلال الفترة المدروسة، لأنها هي السند الأساس والمنطلق المرجعي للدراسة، بحكم أنّ الرخالة أو المصنّف هو حاجٌّ مُتَمِّم لركب الحج أولاً، قبل أن يكون كاتباً لتفاصيل رحلته، فهو يعيش يومياتها، ويكابُد ما يلقاه جميع الحجاج في سفرهم. أذكر من أهمّ كتب الرحلات التي أفدتُ منها ما يلي:

- رحلة أحمد المقرّي التلمساني صاحب "نفع الطيب" سنة 1028هـ/1619م، المسماة "الرحلة إلى المغرب والمشرق"، وقد عاجلتُ من خلال رحلته تلك . التي تمّ بعضُ مراحلها بحراً . الحياة الثقافية والأدبية في عصره (أي في القرن 11هـ/17م)، كما استنتجتُ منها معلومات تاريخية عن بلاد المغرب ومصر وأرض الحجاز واليمن، وبعض القضايا الفقهية والفكرية التي كانت تُثار بين أفراد ركب الحج. رغم أنّ تلك الرحلة يكاد جانبُ الإجازات والمراسلات الأدبية يطغى عليها.

- رحلة عبد الرحمن المجاجي سنة 1063هـ/1653م المعنونة بـ "رحلة منظومة حول الحج إلى مكة"، في مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 1565، وهي منظومة في غاية الأهمية، أفدتُ منها في معرفة أسماء بعض أمراء (شيوخ) ركب الحج الجزائري، وأشهر الأعلام العلماء المداومين على الحج، وأسماء أهمّ المحطات والمنازل التي يرتادها الركب، وحالات الوفاة في رحلة الحج وكيفية التعامل معها. وكان يُمكن أن تُفيد في البحث أكثر، لولا ضياعُ جزئها الأول المتضمّن تفاصيلَ الركب الجزائري في طلوعه (أي ذهابه) من الجزائر إلى الحجاز، ورغم ذلك فقد أفادني المقطع المتوفّر الخاص بأخبار الركب في هبوطه (أي رجوعه).

- رحلة أبي سالم العياشي الكبرى سنة 1072هـ/1662م، المعنونة بـ "ماء الموائد" في مجلدين، فهي من أهمّ الرحلات المغاربية وأكثرها شيوعاً، ورغم أن منطلقها كان من سجلماسة بأرض المغرب، إلا أن ركب الحج المغربي كان يمرُّ بالجزائر وتونس وطرابلس والقاهرة، قبل أن يصل إلى

المقدمة

الحرمين الشريفين، ولطالما سائر الركب الجزائري في الذهاب والإياب، فأشار الرحالة إلى بعض الملاحظات عنه، وعن علاقته ونظرته للركب المغربي، وذكره باللفظ "ركب الجزائر" أو "ركب أهل الجزائر" عدة مرات. بل إن العياشي نفسه رافق الحجاج الجزائريين خلالها، فانضمَّ إلى ركب الجزائر في بعض محطات الطريق أثناء العودة من الحج، وسجّل يومياته ويوميات الركب الجزائري كذلك. والرحلة زاوجت بين الجانبين الديني والعلمي، قياساً لشخصية صاحبها، حيث سجّل العياشي كلّ ما صادفه في طريقه، من أفكار ومعتقدات، وأعراف وعادات، وطقوس وممارسات، فكانت - بحق - مصدراً هاماً، ليس لأخبار الركب المغربي فحسب، بل لأركاب الحج المغاربية بصفة عامة، ومن ضمنها الركب الجزائري وأخبار حجّاجه، لأنَّ بعض الطرق والمقاطع كان الحجاج المغاربة يقطعونها سوياً، وأهمُّها طريق درب الحجاز (من مصر إلى مكة المكرمة)، كما أنّ الرحلة شملت بالذکر العديد من العلماء الحجاج الجزائريين، المرتحلين أو المجاورين بالحرمين الشريفين.

- رحلة جوزيف بتس (أو الحاج يوسف الجزائري) سنة 1091هـ/1680م، وهي رحلة مترجمة صغيرة في حجمها، لكنَّ قيمتها كبيرة بالنظر إلى التوصيف الدقيق لسير الحجاج وما يقع داخل الركب من مظاهر التعاون، وللمدن التي حلَّ بها الحجاج الجزائريون ومميزاتها الاجتماعية والإدارية، رغم أنّ الرحالة بتس - الذي أسلم بعد أسره في الجزائر - كان يستخدم بعض التهكم والأحكام المسبقة ضد المسلمين بمناسبة تجمّعهم في موسم حجّهم.

- الرحلة الورثلانية سنة 1179هـ/1765م، الموسومة بـ "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، لصاحبها الحسين بن محمد الورثلاني، وهي من أشهر الرحلات الحجية الجزائرية وأكثرها فائدة، نظراً لمتنها الطويل (ثلاثة مجلدات)، ولما تضمنته واستفدت منه، من تسجيلٍ دقيقٍ ليوميات سفر الركب الجزائري من محطة لأخرى، ووصفٍ لكثير من المناطق الساحلية والداخلية الشرقية أثناء فترة الحكم العثماني، وإحالةٍ إلى أسماء بعض الأعلام والمؤلّفات التاريخية النادرة، وتذكيرٍ بأخبار حجّتين سابقتين للورثلاني. لكنَّ يعيبها الإفراط في الإحالات واقتباسُ نصوصٍ كاملةٍ من رحلتي ابن ناصر وأبي سالم العياشي المغربيين، رغم إشارة الورثلاني إلى ذلك.

- رحلة عبد الرحمان التلاني التواتي سنة 1188هـ/1774م، وهي رحلة قيّمة كان منطلقها منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري، سجّل فيها صاحبها كلّ ما ارتبط بمحطاتها ضبطاً ووصفاً، وما أحاط بمجرياتها من لقاءات ومحاورات علمية. كما صوّرت تلك الرحلة الحجازية أوجهاً متعددة،

المقدمة

فمنها الوجه التاريخي الذي نستنبطه من خلال الحديث عن المزارات التاريخية في توات وفزان وطرابلس ومصر والحجاز وغيرها، وذكر الوقائع والمواقف الحرجة التي تعرّض لها ركب الحج، والمظهر الجغرافي المتمثل في وصف الجبال والوديان والدروب التي مرَّ بها الركب منذ انطلاقه. والوجه الثقافي الذي جسّدته الإشارة إلى بعض الشخصيات التي صادفها الحجاج في طريقهم أو حلّوا ضيوفاً عليها. إلا أنّ أخبار الركب تقتصر على الذهاب فقط، بسبب وفاة المصنّف في مصر.

- رحلة إبراهيم بن بحمان المصعبي سنة 1196هـ/1782م، وتتميّز بكونها قصيدة منظومة، تُعدُّ واحداً وعشرين ومائتي بيت (221)، سجّل فيها المصعبي تفاصيل سفر الحجاج إلى الحجاز. وقد استخلصتُ منها بعض الظروف الصعبة التي أحاطت بركب الحج، مثل مشقة السفر، ووعورة الطريق، والتعرّض لقطاع الطرق، والحجز من طرف السلطات المصرية، كلّ ذلك وقفَ عليه صاحب الرحلة باليوم والشهر، متحريراً الدقّة.

- رحلة أبي راس الناصري المعسكري سنة 1204هـ/1789م، وعنوانها "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، وهي مفعمة بالنشاط الثقافي الملحق بركب الحج، مختلفة عمّا سبق لغلبة الطابع العلمي عليها أكثر من الطابع الديني. ومنها استنتجتُ ظروف ملاقات أعلام الركب الجزائري للمشايخ والعلماء المشاركة، حين يحطُّ الركب في حاضرة من الحواضر العلمية، وأيضاً في وصف العلوم والمسائل التي كانت تشغل أبحاث الحجاج، وأوجه التباحث والتحاور بشأنها، رغم تشبُّه هذه الرحلة في أسلوبها بالمقامات المسجوعة.

- رحلة عبد القادر بن عומר التنلاي سنة 1232هـ/1817م، وتتميز هذه الرحلة المخطوطة بتغطيتها لأخبار الركب المنطلق من الجنوب الجزائري ذهاباً وإياباً، فاعتمدتُ عليها في تحديد معالم ذلك المسار الصحراوي ومحطاته، وتقدير المراحل الزمنية التي كان يقطعها ركب الحج، وأزمة مغادرته ووصوله. برغم صعوبة قراءة نسخة المخطوط.

وهناك نوعٌ آخر من الرحلات الحجازية الجزائرية وهي الرحلات "الافتراضية"، أي التي صنّفها أصحابها لأجل النصيحة وتوجيه الحجاج إلى ما يُسهّل عليهم سفرهم إلى الحجاز، وذلك من منطلق شوقهم إلى زيارة الحرمين الشريفين، وكذلك بحكم ما اكتسبه بعضهم من خبرات في رحلات سابقة إلى الحجاز، ومعظمها تمّ نظمه شعراً، لمواءمته لحمل معانيها. ومنها:

المقدمة

- رحلة ابن مسايب التلمساني في القرن 12هـ/18م ، وهي رحلة هامة، نظّمها صاحبها بلسان الشعر الملحون، وأسدى لمن يرغب في الحج من الجزائريين جملة من التوجيهات المتعلقة بالمحطات التي كان الركب يتوقّف بها، ووجههم للمخاطر التي قد تعترض طريقهم. ولحسن الحظ فقد نشر المفكّر الجزائري محمد بن شنب نصّها كاملاً بالمجلة الإفريقية LA REVUE AFRICAINE، بالعدد رقم 44 سنة 1900م.

- الرحلة العامرية سنة 1152هـ/1739م، لمحمد بن الحاج بن منصور العامري التلمساني، وهي قصيدة رائعة المعنى رغم بساطة ألفاظها وغلبة اللغة الدارجة عليها، استفدت منها كثيراً لأنها توجّز كلّ ما يتعلّق بسفر الحاج والركب إلى الحجاز، وتذكر أبسط اللوازم والمعدّات التي يحتاجها الحاج في طريقه، وتبيّن أسماء منابع الماء المنتشرة في الطريق، وهي متوفّرة ضمن ملاحق الأستاذ محمد المنوني في كتابه "من حديث الركب المغربي".

- رحلة ولد سيد الحاج القبلاوي مطلع القرن 13هـ/19م، وهي قصيدة شوقية شفوية، لأن صاحبها نوى الحج وزيارة قبر المصطفى . صلى الله عليه وسلم . إلا أنّ حاله لم يُسعفه لذلك، فنظّم رحلته المأمولة شعراً ملحوناً، صوّر من خلاله محطاتها المعهودة لدى الحاج، ابتداءً من منطقة تيدكلت بالجنوب الجزائري، إلى غاية البقاع المقدسة، اعتماداً على الرواية والسماع.

- رحلة أبي سالم العياشي الصغرى سنة 1068هـ/1658م، والمعنونة بـ "تعداد المنازل الحجازية" أو "التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز"، وهي تصنيف موجز، وظفّفته في ما له صلة بمحطّات ومنازل الطريق إلى الحجاز، ومعرفة العُدّة واللوازم التي كان الحاج يُنصحون بأخذها معهم، لأنّ الرحلة جاءت في شكل توجيهات عامة، تهّم الحاج المغاربة جميعهم.

ومن الرحلات المغربية الأخرى المعتمد عليها في البحث: رحلة ابن مليح القيسي السراج، ورحلة ابن الطيب الشرقي، والرحلة الناصرية لابن ناصر الدرعي، ورحلة الحضيكي، ورحلة الهلالي السجلماسي، و"الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا" لأبي القاسم الزباني، وكلّها مصادر ساعدتني في الإلمام بموضوع البحث من مختلف جوانبه.

أمّا المصادر الأخرى المفيدة لموضوع ركب الحج فقد توزّعت على المذكرات وكتب التراجم والسير وحوليات تواريخ البلاد المعنية برحلة الركب إلى الحجاز. ومنها:

المقدمة

- مذكرات الشريف الزهار نقيب الأشراف بالجزائر أواخر العهد العثماني، حيث وردَ فيها بعض الأخبار عن الركب الجزائري البحري، وأسماء بعض الشخصيات السياسية والعسكرية والإدارية التركية والجزائرية التي أدت مناسك الحج. كما أنّ المفردات الموظفة في هذه المذكرات تتقاطع مع المفردات المستخدمة في تدوين الرحلات الحجازية، والدارجة على نطاقٍ واسعٍ في ذلك العصر.

- تاريخ الجبرتي المسمّى "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" بأجزائه الأربعة، وهو من أهم المصادر التي أرّخت لمصر أواخر العهد العثماني، ومحاولات الوالي محمد علي باشا الاستقلالية، وأشارت لبعض من حلّ بالبلاد من الوافدين ضمن أركاب الحج المغاربية طيلة القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م. وقد دأب المؤلف (الجبرتي) على تسجيل أخبار أركاب الحج المغاربية وعلاقتها بالسلطات المصرية حينئذ في مختلف السنوات التي أرّخ لأحداثها ضمن كتابه.

- كتاب "حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج" لأحمد الرشيدى، اعتمدتُ عليه في تبيان علاقة العثمانيين بتنظيم أمور الحج وتأمين المسالك، خاصة مقطع "درب الحجاز" آخر مقطع يعبره ركب الحج الجزائري قبل الوصول إلى الحرمين الشريفين.

- تاريخ مكة لأحمد السباعي، وهو مرجع هام لتاريخ بلاد الحجاز، وفّر لي الكثير من المعلومات عن أمراء مكة المكرمة (أشراف الحجاز)، وظروف تنظيم مواسم الحج في العهد العثماني، وانعكاس الأوضاع الداخلية بالحجاز على أركاب الحج بما فيها الجزائري.

تلك نماذج عن أهمّ المصادر والمراجع المعتمدة في البحث، وقد تطلّب مني سعة مجال الدراسة زماناً ومكاناً الاستعانة بمصادر ومراجع أخرى، على غرار كتب التراجم، ومعاجم الأماكن والبلدان، فضلاً عن أعمال الندوات والملتقيات التي عالجت موضوع ركب الحج، وكلّ ما له صلة بموضوع البحث من قريب أو من بعيد.

الدراسات السابقة:

من خلال عملية استقرائية لبعض الكتابات والأبحاث والرسائل الجامعية التي تناولت موضوع الحج عند الجزائريين في العهد العثماني، تبين لي بأن معظمها لم يكن موجّهاً لدراسة ركب الحج الجزائري وتفصيله في حدّ ذاته، وإنما جاءت في سياق مواضيع لها صلة بالحج، على غرار: العلاقات بين المشرق والمغرب من خلال رحلات الحج، أو رحلات المغاربة إلى المشرق ودورها في

المقدمة

تعزيز ثقافة التواصل بين الجانبين، أو قوافل علماء الجزائر في الحج إلى بيت الله الحرام وآثارهم العلمية والثقافية، أو مواكب الحج في التراث الإسلامي، أو أدب الرحلات الحجّية في المغرب العربي. أو في إطار تحقيق رحلة من الرحلات الحجازية، التي لا زال الكثير منها مخطوطاً.

ومن الكتب الهامة بخصوص ركب الحج كتاب "من حديث الركب المغربي" لمحمد المنوني، المنشور سنة 1953م، وهو كتاب هام يتناول تاريخ تأسيس الركب المغربي وأقسامه وكثيراً من التفاصيل المرتبطة به. أما الرسائل والأطاريح الأكاديمية الجامعية التي عاجلت هذا الموضوع بتفاصيله فهي . حسب علمي بما تمّت مناقشته . نادرة، منها ما ركّز على جانبٍ بعينه مثل:

- "ركب الحج للمغرب العربي خلال العثماني"، من إعداد: حمزة رحالي، وإشراف: أرزقي شويتم وهي مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر 2.

- "التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية"، من إعداد: ليلي غويني، وهي مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر 2.

خطة البحث:

يتورّع هذا البحث الموسوم بـ "ركب الحجّ الجزائري خلال العهد العثماني (1518-1830م) دراسة تاريخية من خلال الرحلات الحجازية" على مقدمة، ومدخل تمهيدي، وخمسة فصول مجزأة إلى مجموعة من المباحث، تتوّجها خاتمة، وتعبها مجموعة من الملاحق التصويرية والبيانية الإحصائية لتوضيح مضامين المتن. وفيما يلي إيجازٌ لمحتويات تلك الفصول:

يقتصرُ الفصل التمهيدي (المدخل) المتعلّق بـ "ركب الحج مفاهيم وبدائيات" على عرض المفاهيم والتعاريف اللغوية والاصطلاحية لمفردة "الركب"، والأبعاد التي أخذتها تلك التسمية، والمصطلحات التي لها علاقة بالركب مثل: الأركاب والركبان والركاب والرواحل والرحلات.... والفروق الموجودة بينها. ويستعرض أخبار الحج من بلاد المغرب عامة ومن الجزائر خاصة في الفترات التي سبقت مجيء العثمانيين الأتراك، ومظاهر انبعاث ركب حج جزائري منظم.

المقدمة

ويتضمن الفصل الأول بعنوان "ركب الحج الجزائري تنظيمه وإمارته" مظاهر خصوصية واستقلالية الركب الجزائري عن بقية أركاب المغرب الإسلامي، والإشارات الواردة في مختلف المصادر، الدالة على وجود ركبٍ خاص بالحجاج الجزائريين، ومواطن التقاطع بين ركب الجزائر والأركاب المغاربية. بالإضافة إلى أنواع الركب والجهات التي كان ينطلق منها أو يتجمع فيها بالتراب الجزائري، وأصنافه ما بين البري والبحري. وكذا علاقة الركب الجزائري بالسلطات العثمانية القائمة بأمر البلاد وقتئذ، ومدى الاهتمام الذي كان يُوليه إتياء العثمانيون. وأخيراً كل ما يتعلّق بإمارة أو مشيخة ركب الحج، من ذكر أشهر بيوتات الإمارة ومقوماتها إلى مهام أمير الركب.

أما الفصل الثاني "الإعداد لرحلة الحج وتشكيل الركب" فيتناول أولاً المشاعر الجياشة التي كان موعد الحج يبعثها في الوجدان الجمعي للجزائريين، ومظاهر التعبير عن ذلك، وإنفاقهم الأموال من أجل تحصيل ذلك الشرف العالي، فضلاً عن شيوع ظاهرة الوقف على الحرمين الشريفين بصفة مُلفتة في الجزائر العثمانية. ويُفصّل في كيفية تجهيز الركب عُدةً وعتاداً، مع التركيز على الرواحل المستخدمة في السفر، وعلى رأسها الإبل التي كانت تُعتبر أهم وسيلة نقل في ذلك الزمان. ومن شق اجتماعي التعرّف على التشكيل البشري للركب، مع تخصيص جانبٍ منه للحديث عن المرأة الجزائرية وظروف أدائها للحج حينئذ، وإحصاء نماذج عن حاجات جزائريات تحدّين الصّعاب لأجل أداء واجب الحج. ويُختّم الفصل بالحديث عن حجم الركب الجزائري نسبةً إلى بعض الفترات المعلمية في تاريخ الوجود العثماني، وكذا المواعيد السنوية المعتادة لخروجه من الجزائر، وأشهر المراحل الداخلية والخارجية المقطوعة في طريق سفره للحج.

وفي الفصل الثالث المعنون بـ "طرق الحج محطّاتها وإكراهات مجالها" يتمّ استعراض كلّ ما يتعلّق بمسير الركب، وما يُحيط به منذ الانطلاق إلى الوصول، من حيث المسارات والطرق الرئيسية المشهورة، ومحطات العبور والراحة التي تعتبر نقاط تواصل مع أركاب الحج الأخرى (المغربي، التونسي، الليبي، المصري... الخ). وإشكالية عجز السلطات العثمانية وولاءة أقاليمها عن تأمين طرق الحج، بدليل ما كان يتعرّض له الحجاج من سلبٍ ونهب واعتداء من طرف قبائل البدو الرحل في مختلف المقاطع. إضافةً إلى المعيقات الطبيعية والظروف المناخية القاسية التي كان الركب يواجهها، وسبل مواجهتها أو التقليل من آثارها، وكذا التقلبات السياسية والتطورات الأمنية

المقدمة

الحادثة في بعض المحطات وأثرها على ركب الحج. انتهاءً بوصول الحجاج الجزائريين إلى بلاد الحجاز مقصديهم، وردود الأفعال والتعبير حيال ذلك.

ويُخصَّص **الفصل الرابع** "التواصل الاجتماعي في رحلة الركب وظروف عودته" للأبعاد المختلفة التي تشملها رحلة ركب الحج، بدءاً بالمتغيرات الحاصلة على خط سير العودة من الحجاز إلى الجزائر، وما يميّز به نزول ركب الحج في محطات الطريق أثناء رجوعه، مقارنة بنزوله فيها أثناء طلوعه، مع إبراز بعض المستجدات الحادثة في رحلة العودة. ومن أبعاد الرحلة إلى الحج البعد التجاري، حيث ساهمت الأسواق الموسمية المنعقدة بمناسبة موسم الحج بالطريق والمحطات الرئيسية في تيسير أعباء السفر، وإيجاد فضاء للتبادل والتواصل بين الحجاج ومرتادي تلك الأسواق. مع توضيح البضائع الرئيسية المتداولة في نشاط ركب الحج بيعاً وشراءً. ومن أهم الأبعاد على الإطلاق البعد الاجتماعي، فالركب مجتمع متنقل، كرّس العلاقات البينية، وجسّد تواصل الحجاج المباشر مع فضاء الرحلة إلى الحج، سواء كان ذلك في المدن والحوضر التي يحط فيها الركب، أو كان ذلك في القرى والبوادي والبنادر التي ينزل بها الركب لفترات معدودة. وأخيراً يُختتم الفصل بذكر العادات التي كانت تتم في قرى الجزائر ومدنها فرحاً بعودة ركب الحج، والمخاطر الصحية الناجمة عن أوبئة الحجاج، والدور الذي غدا ركب الحج يؤدّيه في نقل أخبار المشرق إلى بلاد المغرب.

بينما يتناول **الفصل الخامس الأخير** "الإشعاع العلمي والفكري للركب الجزائري"، أي العطاء العلمي والفكري لأعلام ركب الحج الجزائري ثقافةً ومثاقفةً، و ماهية العطاء العلمي للعلماء الجزائريين المنخرطين في ركب الحج، من خلال مزاجتهم بين الحج والنشاط العلمي. ثم مدى تأثر ركب الحج الجزائري بالمبول الصوفي الطاغي على منطلقه وطريقه، ومظاهر ودلالات ذلك التأثير. وإلى التنوع المذهبي الحاصل بالمشرق والذي يُلامسه الحجاج في رحلتهم. وأخيراً جملة من الطرائف ومظاهر الاستئناس التي كانت تسجلها يوميات ركب الحج الجزائري.

أما الخاتمة فتحتوي مجموعةً من النتائج والاستنتاجات التي انتهى إليها البحث حول هذا الموضوع، وعدداً من التوصيات المأمولة من أجل دراسةٍ أوسع وأدق في هذا المجال.

صعوبات البحث:

المقدمة

لا يخلو جهدٌ علمي من صعوبات ومُعيقات تعترض سبيل الباحث العلمي، ويتضاعف حجم هذه الصعوبات في البحث التاريخي القائم أصلاً على ثنائية "الزمان والمكان" المعقدة. وهذا البحث في موضوع ركب الحج واجهته الصعوبات التالية:

- توزع المادة المعرفية للبحث على مظان متباينة، وضرورة الإحاطة بكلّ الضروريات وحتى الجزئيات المرتبطة بتلك الفترة الطويلة، وبذلك الفضاء الجغرافي الشاسع جداً لموضوع البحث، بحكم تعدد مسارات ومحطات ركب الحج الجزائري.

- إشكالية التسمية أو النسبة للإقليم في كتابات العهد العثماني، وطغيان لقب "المغربي" للدلالة على سكان وأعلام بلاد المغرب كافة في العديد من المصادر التي اطلعت عليها، وبسبب ذلك كادت العديد من الشخصيات "الجزائرية" تفقد نسبتها الحقيقية لوطن الجزائر، مكتفية بالإشارة على أنها "مغربية" فقط.

- ضرورة الإلمام بأحوال وأخبار بلدان متعدّدة (تونس، ليبيا، مصر، الحجاز) خلال فترة العهد العثماني الواسعة، لأنها كلّها محطات عبور كان الركب الجزائري يمرُّ بها، وقد يمكث في بعضها لفترات طويلة. وذلك من خلال جمع أخبار الحجاج الجزائريين، ومقارنتها بما دوّنته كتب الرحلات الحجازية، وقد تطلّب ذلك مني جهداً مضاعفاً.

- عدم التمكن من التوصل إلى جميع مصنّفات "الرحلات الحجازية الجزائرية"، بحكم إمكانية أن يكون بعضها لا زال مخطوطاً بعيداً عن متناول الباحثين، شأنه شأن بقية المخطوطات الجزائرية المحبّأة في الخزائن الخاصة.

- ندرة المادة التاريخية التوثيقية ذات الصلة بركب الحج، مثل مراسيم تعيين أمراء الركب وتجديد العهد لهم، أو رسائل التوصية من طرف الحكام، أو وثائق الجرد المتعلقة بمعدّات ولوازم الركب... وهي وثائق هامة تميّز بها أرشيف الركب المغربي دون الركب الجزائري!.

وما أرحوه - في الأخير - هو أن أكون قد وُفِّقْتُ إلى حدّ ما في كشف بعض الجوانب المتعلقة بركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني. ولا شكّ أنّ هناك هناتٍ ونقائص قد أصابت أجزاء من ثنايا هذه الدراسة المتواضعة، إذ الكلام عن ركب الحج الجزائري - المتجدّد في كلّ موسم حجّ طيلة ثلاثة قرون - مقصّرٌ لِمَا معناه وافّرٌ مديد. وإنّ كنتُ قصّرتُ في بلوغ الهدف والغاية فهذا

المقدمة

جُهدُ المقلِّ وطاقَةُ المجتهدِ، و"لا تجوِّدُ نفسٌ إلَّا بما تجدُ". والحمد لله على كلِّ حال، والشكر الجزيل له - وحده - في الحلِّ والتَّرحالِ، على أن يسرَّ لي ولغيري حجَّ بيته الحرام، وتكحيلِ العينينِ بزيارة المصطفى خير الأنام، عليه أفضلُ الصلاة وأزكى السَّلام.

مدخل:

ركب الحج مفاهيم وبدايات

- تمهيد

- المبحث الأول: مفهوم الركب وأبعاد التسمية

- المبحث الثاني: أخبار الركب الجزائري قبل العهد العثماني

مدخل: ركب الحج مفاهيم وبدايات

يُعتبرُ هذا المدخلُ بمثابة فصلٍ تمهيدي، يتضمّن شرحاً للمعاني اللغوية والدلالات الاصطلاحية لكلمة "الركب"، والفروق المعنوية بين المفردات التالية: الركب، الركاب، الركائب، الركبان، الأركاب، المطايا، الراحلة، القافلة، وهي جميعها مصطلحات تمّ تداولها بكثرة في المصادر المتعلقة برحلة الحج المقدسة في العهد العثماني. ويوضّح كذلك مختلف أوجه استخدامات مصطلح الركب شعراً ونثراً، ولماذا سادَ هذا المصطلح للدلالة على قافلة الحج دون غيره؟ ورجح على مصطلحات متداخلة في معناه، على غرار: الرحلة، القافلة، الحجة؟

كما حاولتُ أن أمهد للدراسة بذكر بعض أخبار ركب الحج الجزائري قبل مجيء العثمانيين، وخاصةً في العهد الزياني، بحكم أنّ ظهور "ركب الحج" في إطار تنظيمي ليس قديماً في بلاد المغرب، رغم ارتباط الجزائريين والمغاربة عموماً بالحج منذ الفتح الإسلامي للمغرب منتصف القرن 01هـ/أواخر القرن 07م، مع ملاحظة وجود ركب جزائري قائم بذاته منطلق من مدينة تلمسان، سواء وهي تحت حكم بني عبد الواد، أو كانت تحت حكم بني مرين المجاورين. ثم وصلت أخيراً إلى بدايات العهد العثماني، مبيّناً استمرارية ودورية رحلة الركب الجزائري مع مجيء العثمانيين للجزائر، لأنّ الذهاب إلى الحج قد يتأثر في تنظيمه بالمستجدات السياسية الحاصلة في الجزائر، لكنّه يبقى في أصله مُنبعثاً دينياً روحياً، يحرص عليه الجزائريون في كل الظروف.

المبحث الأول: مفهوم الركب وأبعاد التسمية

01. الركب لغة:

يقول الله - عزّ وجلّ - في مُحكم التنزيل ((إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ))¹، من هذه الآية الكريمة اهتدى ابنُ منظور في "لسان العرب" إلى أنّ الركب اسمٌ من أسماء الجمع كالنفر والرّهط، وتصغيره الركب، وهم أصحاب الإبل في السفر دون غيرها من الدواب، ويرى الأخصّص أنهم العشرة فما فوقهم، وفيه أيضاً أنّ الركب ركبان الإبل²، أي

¹ - سورة الأنفال، من الآية 42.

² - محمد جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، د ط، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د س، مادة: ركب، ص 1712.

الذين يمتطون ظهور الإبل فقط. وينحو الفيروز آبادي في قاموسه نحو ابن منظور، ويرى أيضاً أن الركب رُكبانُ الإبل في الأصل، لكنه قد يكون للخيل أيضاً، وهم العشرة فصاعداً¹. غير أن ابن منظور استدلّ كذلك بالآية الكريمة السابقة من سورة الأنفال، واستنتج بأن الركب يحتمل أن يكون ركب خيل، كما يغلب عليه كونه ركب إبل، وقد يجوز أن يكون منهما جميعاً².

أما مرتضى الزبيدي صاحب "تاج العروس" فيستدلّ على جواز إطلاق لفظ الركب على الخيل كما يُطلق على الإبل بقول السُّلَيْك بن السُّلَيْكَة أحد شعراء الجاهلية الصعاليك - وكان فرسه قد عطب أو عُقِرَ - وقد هالَهُ وأحزَنَهُ أَلَّا يَجِدَ ما يَرُدُّ به الإغارة الخاطفة من "فرسان" الركب الأعداء، فقال³: (الوافر)

وما يُدْرِيكَ ما فَقَّرِي إِلَيْهِ إِذَا ما الرَّكْبُ فِي نَهَبٍ أَعَارُوا

والرأي السابق أشار إليه مفسِّرو الآية الكريمة من سورة الأنفال سالفه الذكر، إذ ذكر الطبري في تفسيره "جامع البيان" عند الحديث عن الركب إلى "العير" التي ضمَّت أبا سفيان وأصحابه في غزوة بدر الكبرى، وقد كانوا في موضع أسفل من المؤمنين بمحاذاة ساحل البحر⁴. وكذا الشأن بالنسبة للقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن"، حيث أورد رأيين متباينين: أولهما أن المقصود بالركب في الآية الكريمة هو ركب المشركين الذي كان يقوده أبو سفيان، وفي الرأي الثاني أشار إلى أن المقصود بالركب إنما هي الإبل التي كانت تحمل أمتعة المسلمين في تلك الغزوة، وقد أنعم الله عليهم بأن حماها من الكفار وأمن موضعها⁵. رغم ما ذكر من شواهد وتفسير قرآنية وغيرها يبقى الإجماع على الرأي الأول هو الغالب.

¹ - محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ط08، تحقيق: محمد نعيم العرقشوسي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م، مادة: ركب، ص91.

² - ابن منظور، المصدر السابق، مادة: ركب، ص1713.

³ - محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ط02، تحقيق: علي هلاي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 2004م، ج02، مادة: ركب، ص522.

⁴ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط01، تحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحريستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م، ج04، ص43.

⁵ - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ط01، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006م، ج10، ص36.

وهكذا يذهب معظم اللغويين إلى أنّ الركب والأركوب لا تكون في الأصل إلا على الإبل¹، فهي الرواحل والمطايا التي تُركب ويُسافر بها، لكن الأمر اتسع . فيما يبدو . وأصبح يُطلق على كل من ركب دابة، بعيداً كانت أو خيلاً أو بغالاً أو حميراً ونحوها. يقول الشاعر²: (السرير)

كَمْ أَنْتَ عَنْ رُكْبِ مَكَّةَ سَاهِي فِي شُغْلِ دُنْيَاكَ وَاللَّهِ لَأَهِي

فالركب هنا يشمل كل وسيلة سفر من الدواب المتاحة الموصلة صاحبها إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وإلا اعتُبر المتخلف عن الركب . كما جاء في البيت . ساهياً ومقصراً!.

ويمكن أن نُميّز الركب وهو الكل عن الرّكاب وهي الجزء في معرض الحديث النبوي التالي الذي جمع المفردتين معاً، وأوضح كذلك العدد الذي يُشترط لتسمية القافلة ركباً. فقد روى أبو يعلى قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحدّث أصحابه إذ قال لهم: سَيَطْلُعُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَاهُنَا رُكْبٌ هُمْ خَيْرٌ أَهْلِ الْمَشْرِقِ، فقام عمر فتوجّه نحوهم فلقني ثلاثة عشر راكباً، فقال مَنْ الْقَوْمُ؟ فقالوا من بني عبد القيس، قال ما أقدمكم هذه البلاد إلا التجارة، قالوا لا، قال أما إن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكركم فقال خيراً، ثم مشى معهم حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر هذا صاحبكم الذي تُريدون، فرمى القوم بأنفسهم عن ركبهم، فمنهم مَنْ مَشَى إِلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ هَرَوَلَ وَمِنْهُمْ مَنْ سَعَى، حَتَّى أَتَوَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"³.

فالركاب إذاً هي الإبل المركوبة، أو الحاملة شيئاً، أو التي يُراد الحمل عليها، وواحدتها راحلة، والركاب ذُكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى ((وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ))⁴. وقد نزلت في أموال اليهود من بني النضير، مما أفاء الله على رسوله، مما لم يُوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، ولم يلثوا بها حرباً ولا مشقة، إذ مشوا إليها مشياً، ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً، إلا النبي . صلى الله عليه وسلم . فإنّه ركب جملاً، وقيل: ركب حماراً مخطوماً

¹ - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مجمّل اللغة، ط02، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م، ج01، مادة: ركب، ص396.

² - أبو العباس أحمد بن عمّار الجزائري: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ط01، مطبعة بيب فونتانة الشرقية، الجزائر، 1902م، ص31.

³ - علي بن أحمد بن نور الدين العزيمي: السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير، ط01، المطبعة الخيرية، القاهرة، 1887م، ج01، ص477.

⁴ - سورة الحشر، من الآية 06.

بليّف، فافتتحتها صلحاً، وأجلاهم، وأخذ أموالهم¹. والملاحظ في الآية الكريمة استثناء عنصر الخيل من مجموع ما تحمله كلمة الرّكاب، بحكم خصوصية ركوب الخيل، إذ لها صولات وجولات في الغزوات والحروب، لولا أنّ الفتح هنا قد تمّ صلحاً، دونما حاجة إليها.

وفي السُّنة النبوية الشريفة أيضاً، عن جابر بن عبد الله عن النبي - صلى الله عليه وسلّم - قال: "إِذَا سِرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَمْكِنُوا الرِّكَابَ مِنْ أَسْنَانِهَا وَلَا تَجَاوِزُوا الْمَنَازِلَ"²، بمعنى لا تنسوا للركاب (أي الدواب) حقّها من العُشب، فأمكِنوا أسنَانَهَا من المرعى. وإلى معنى الرّكاب ضمن الركب الحجازي المتكامل كذلك يُشير الشاعر في قوله³: (جزء الكامل)

يَا رَعَى اللَّهُ فُؤَادِي كَمْ لَهُ لِلْحِمَى ثُوقُ
كُلَّمَا حَتَّ الرِّكَابُ بِذُلِّهِ هَزَّةَ الشُّوقِ

والشاهد في البيتين قوله "حَتَّ"، إذ هو فعلٌ مرتبط بالإبل عادة، والمقصود منه الركب التي تحتُّ السير من أجل بلوغ الحرمين. وهي إشارة لطيفة إلى أنها ألفت وآنست ركب الحجاج المتجّه نحو طيبة، وقد أخذها الشوق أيضاً إلى زيارة قبر المصطفى - صلى الله عليه وسلم -.

وعلى غرار الجمال يتمّ إسقاط مصطلح "الرّكاب" على الثوق أيضاً، ويتضح ذلك في قول الشاعر محمد الإدوّعلي التواتي (ت1198هـ/1784م)^{*}، أثناء حديثه عن ركاب الحج القاصدة جبل الحجاز المعروف باسم "إلال" مجازاً، وقد خلّفت وراءها المشتاقين لزيارة قبر الرسول - صلى الله عليه وسلّم - غير قادرين على الصبر، مُسقطاً الرّكاب على الرّكب بأكمله⁴: (الوافر)

¹ - محمد بن أبي بكر القرطبي، المصدر السابق، ج 20، ص 346.

² - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، د ط، ترتيب: يوسف النبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، د س، ج 01، ص 120.

³ - أحمد بن عمّار، المصدر السابق، ص 16.

^{*} محمد الإدوّعلي التواتي (ت 1198هـ/1784م) يُنسب إلى قبيلة "إداوعل" الشنقيطية، وُلد بشنقيط ودرس بها، ثم خرج منها على رأس وفد من الحجيج يُريد الحرمين الشريفين، ثمّ استقرّ لاحقاً بتوات (بقصر اعباري)، فطاز صيته وأضحى له باعٌ في اللغة والأدب، عُرف باسم "شاعر المديح النبوي". يُنظر ترجمته وآثاره في: أحمد أبو الصافي جعفري: الشيخ سيدي محمد الإدّاعلي حياته وشعره، ط01، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2008م، ص 13 وما بعدها.

⁴ - أحمد أبو الصافي جعفري: المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الأفريقية، ط خ، دار نور شاد، الجزائر، 2015م ص 194.

وَمَا قَالَ الْمَشُوقُ وَرَاءَ نُوقٍ رِكَابُ أَحِبَّتِي قَصَدَتْ إِلَّا لَا
 رِكَابُ أَحِبَّتِي قَصَدَتْ إِلَّا لَا فَأَضْحَى الصَّبْرُ بَعْدَهُمْ مُحَالًا
 فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لَمَّا تَوَلَّتْ تَمَسَّكَ بِالسُّلْوِ فَقَالَ لَا لَا

وما يمكنُ استنتاجُه من عرض الشواهد السابقة هو أنَّ مصطلح "الرَّكَاب" قد يوظَّف للإشارة إلى جميع الدواب في الركب، وليس للإبل فقط، رغم أنها هي أساس الركب. يقول القاضي محمد عبد الله بن الجوزي القوراري التواتي* في رحلته الحجازية التي تَمَّت سنة 1263هـ/1847م¹:
 (الطويل)

فَارْزَادَ تِسْيَارُنَا وَإِسْرَاعُ نُوقِنَا وَكُلُّ رِكَابِنَا عَنْهَا الصَّبْرُ مَحْجُورٌ

فرغم أنَّه سبق ذكر النوق وقصدَها بالكلام دون الرِّكَاب، إلا أنَّه اعتبر النوق جزءاً من الرِّكَاب في المخصَّلة، وعليه فإنَّ هذه الرِّكَاب المقصودة تحوي أصنافاً أخرى من الرواحل والدواب. كما يُستخدم مصطلح الرِّكَاب للدلالة على الرِّكَاب بشكلٍ أوسع، إلى ذلك يُشيرُ أبو سالم العياشي في رحلته قائلاً: "...فتفتقد الناس قُرْبَهُمْ ورووا رِكَابَهُمْ"²، إذ بعضُ الحجاج يمتطون البغال مثلاً، كما أنَّ السقي في السفر ليس مقتصرًا على الإبل فقط، بل يشمل الدواب جميعها.

ومن المفردات المتداولة في إطار الركب كذلك "الرِّكبان"، وهم كل من يعقلُ في الركب، أو جمعٌ من يضمُّهم الرِّكبُ، أو الجماعةُ من أصحاب الرِّكَاب، وتُستخدم لركب الحج وغيره، كأن يُقال "...إنَّه شاعرٌ مشهور سارت بأشعاره وأخباره الرِّكبان"، أو "أمرٌ سارت به الرِّكبان"، بمعنى أن ذلك الأمر ذاع واشتهر. يقول الحاج أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلايسي التلمساني طيبُ

* محمد عبد الله بن الجوزي القوراري التواتي قاضٍ وعالمٌ من أسرة الجوزي (أولاد القاضي) الشهيرة بمنطقة قورارة أو تينجورارين (شمالي توات)، ذاع صيته في الأفطار القورارية والتواتية منتصفَ القرن 13هـ/19م، تبوأ منصب القضاء على إقليم قورارة عام 1233هـ/1818م، أسَّس زاوية بقصر أولاد سعيد، فتدفقت عليها وفودُ الطلاب من كل الجهات، من مؤلفاته رحلةٌ حجازية منظومة. يُنظر المزيد في: حميدة بن زينة: ترجمة القاضي محمد عبد الله بن الجوزي، ملتقى إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث، جامعة أدرار، 19-20 أبريل 2010م، ص 29 وما بعدها.

¹ - مولاي التهامي غيتاوي: الفتح الميمون في تاريخ قورارة وعلماء تيميمون، د ط، العالمية للطباعة والخدمات، الجزائر، 2013م، ص 130.

² - أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية (ماء الموائد)، ط 01، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006م، ج 01، ص 75.

السلطان الزياني الشهير أبي حمو موسى الثاني، محلياً إياه بموشح أندلسي يوم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لسنة 767هـ/1365م¹: (الهرج)

لي مَدْمَعُ هَتَّانُ يَنْهَلُ مِثْلَ الدَّرَرِ
قَدْ صَيَّرَ الْأَجْفَانَ مَا إِنَّ لَهَا مِنْ أُنْرٍ
فَسَارَتْ الْأَظْعَانَ يُحْدَى بِهَا فِي السَّحَرِ
وَاسْتَبَشَرَ الرِّكْبَانَ بِقُرْبِ نَيْلِ الوَطْرِ

وعلى ذكر "نيل الوطر" فإن لفظ الركبان كان يُطلق في القديم كذلك على أصحاب السِّلَع في القافلة التجارية، فحين يخرج أهل البلد لملاقاة الركب التجاري يشيع بينهم القول التالي: "تلقي أو ملاقاة الركب"، أي تفقد بضائعهم والشراء منهم. وهذا الرحالة الجزائري أحمد المقرئ التلمساني (ت1041هـ/1631م) يبيِّن لنا الفروق اللغوية بين المفردات الثلاث: الركب، الركبان والركاب، حيث بدأ بالركب الساري إلى أرض الحجاز وهو الأصل، ثمَّ عرَّج على جزء منه وهم الركببان الذين يُنيحون الركب في تلك الأرض، وإن كانت الإناخة مرتبطة بالإبل فقط، وذلك بحكم عددها وغلبتها في الركب على غيرها، يقول المقرئ في رحلته²: (السريع)

وسرى الركب للحجاز ولا هادي إلى أشواقه والغرام
وأناخ الركببان في خير أرض حلها المصطفى الرسول الإمام

ويُجمع الركب على "أراكيب"، وأشهر منه "أركاب"، كما يُجمع التفر على "أنفار"، غير أن الركب الواحد يظلّ وحدة مستقلة مهما كُبر وتضاعف حجمه، بحكم أن مردّ التسمية هو الغرض منه أو البلد الذي ينتمي إليه. مثلاً يوظّف الرحالة العياشي ذلك الجمع مع الإبقاء على خصوصية كل ركب قائلاً: "...ودخلت علينا الأركاب الآتية من المغرب: ركب أهل فاس، وركب أهل مراكش، ولم يقدم علينا أحد من أهل بلدنا..."³. وها هو الرحالة ابن الطيب الشرقي الفاسي يستخدم كذلك جمع الأركاب للإشارة في حالة مغايرة إلى ركبين من بلدين مختلفين هما الجزائر

¹ - عبد الرحمن بن محمد الجليلي: تاريخ الجزائر العام، ط02، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، ج02، ص255.

² - أبو العباس أحمد المقرئ التلمساني: رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، ط01، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، 2004م، ص149.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص501.

والمغرب الأقصى، يقول الشرقي في رحلته الحجازية: "... ووجه جنوده لفحص الأركاب وتفتيشها، فتعرّضوا أولاً لركب الجزائر، ثم تعرّضوا لركب فاس...."¹.

يتبين لنا مما سبق أن مصطلح "الركب" أشمل في اللغة من الركبان والركاب، وأوسع من أن يوسم بأنه ركب الإبل فقط. فمجموع الدواب الموظفة في الرحلة إلى الحج على اختلافها - وإن كانت ركاباً في دلالات ركوبها - تظل هي وركبها جزءاً مضافاً للركب في مدلوله الجامع الكلي. والتركيز الملاحظ في كل ما سبق على "الركاب" يعود سببه إلى كونها المطايا التي لا يُعتبر بكيان الركب دون وجودها ضمنه. يقول الشاعر محمد بن أبي المزمري التواتي (ت 1160هـ/1747م)* في إحدى قصائده المدحية، موضحاً ذلك²: (الطويل)

سَلامٌ سَلامٌ ما تَرَمَّ شادٍ وَحَثَّ مَطايا الركبِ نَعْمَةُ حادي

على مَنْ سَما قَدراً ومَرَبَّةً ومَنْ بِمَراهُ عُنوانُ العِنايةِ بادي

بل ولا زلنا إلى وقتنا الراهن نستخدم مصطلح "الركب" للدلالة على الزهط أو الصَّحْب المرتجلين لأجل مناسبة معينة، على غرار ركب "سيدي الشيخ" الذي يُقام سنوياً بولاية البيض. أو للدلالة على الجمع الحضاري الذي سار بعيداً عنّا وحلّفنا وراءه، ووددنا لو لحقنا به في إحدى محطاته، ولكن هيهات! فنقول مثلاً: أما آن لهذه الأمة أن تلحق بركب الحضارة والتقدم؟

02. الركب اصطلاحاً:

نستنتج مما سبق ذكره أن المعنى الموائم لمصطلح "الركب" إجمالاً هو: القافلة الجامعة لأشخاص (ركبان) راحلين برواحلهم (ركاب) ومستلزماتهم، السائرة لأداء غرض معين. ويمكن إدراك هذا المعنى من خلال ما تحمله الأبيات التالية في وصف مدرسة زاوية، بناها المرينيون بمدينة تلمسان - بعد استيلائهم عليها - لابن السبيل والضيف الوارد والركب السائر³: (الكامل)

¹ - ابن الطيب الشرقي الفاسي: الرحلة الحجازية، نسخة مصورة من مخطوط بجامعة ليبيك، فيينا، رقم: 746، و54.

* محمد بن أبي المزمري من أشهر علماء منطقة توات في القرن 12هـ/18م وأكثرهم تأليفاً، نبغ في علوم العربية والعروض بشكلٍ مُلفت، فأبدع فيها وألّف نثراً ونظماً. يُنظر: سيد عمر محمد عبد العزيز: قطف الزهرات من أخبار علماء توات، ط 02، دار هومة، الجزائر، 2002م، ص ص: 111-117.

² - عبد المجيد قدي: صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة، د ط، د م، د س، ص 71.

³ - المهدي البوعبدلي: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي (الحياة الثقافية بالجزائر)، ط 01، جمع: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 31.

دَارٌ عَلَى الْإِحْسَانِ شِيدَتْ وَالثَّمَى فَجَزَاؤُهَا الْحُسْنَى وَعُقْبَى الدَّارِ
هِيَ مَلَجًا لِلْوَارِدِينَ وَمَوْرَدٌ لِابْنِ السَّبِيلِ وَكُلُّ رَكْبٍ سَارِي
فِي عَامِ أَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ انْقَضَتْ مِنْ بَعْدِ سَبْعِ مِئِينَ فِي الْأَعْصَارِ

وهناك مثال آخر لتأكيد العلاقة بين الركب والقافلة، فقد تحدث الرحالة الجزائري الحسين الورثلايني في رحلته الحجازية عن أحد أشياخه الصالحين وجولاته ببعض المدن قائلاً: "... وذات ليلة ذهب لزيارة بجاية، وذهب معه ركب كبير"¹.

أما المقصود بالركب هنا بالذات - في موضوع البحث - من حيث معناه الاصطلاحي فهو جماعة الحجاج الذاهبين إلى مكة المكرمة، وبالضرورة العائدين منها لاحقاً، أو قافلة الحجاج راكبي الإبل وغيرها من الدواب، الذين يحملون معهم زادهم وأمتعتهم². أو هو مسير قافلة الحجاج أو الحجيج، القاصدين بلاد الحرمين الشريفين: مكة والمدينة، من أجل أداء وإتمام مناسك الحج المقررة والمعهودة³. وهناك من يرى بأن الركب يحمل كذلك معنى الموكب المتكوّن رأساً من مجموعة قوافل الحجاج المنطلقة من وطن (إقليم) معيّن، وكذا المنضمة إليها أثناء السير، والتي تقصد في سفرها الوصول إلى مكة المكرمة لأداء الحج⁴. وهذا ما سنلاحظه - مثلاً - في معرض الحديث عن تنظيم الركب الجزائري، أيّ تدعيم قوافل الركب المنطلق بقوافل أخرى أثناء السير.

وبما أن الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء ركن الحج قد يكون غالباً عن طريق البر، وأحياناً تكون بعض مراحلها عن طريق السفن الحاملة للركاب والركبان على حدّ السواء، فإنه يمكن القول بأن ركب الحج - بمعنى أوسع - يشمل القوافل التي تقصد بلاد الحجاز برّاً، وكذا الجماعات التي تركب السفن نحو موانئ مصر وخاصة الإسكندرية، ومنها تُواصل سفرها إلى الحجاز برّاً أو بحراً في

¹ - الحسين بن محمد الورثلايني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثلاينية)، تعليق: ابن مهنا القسنطيني، تقديم: محفوظ بوكراع وعمار بسطة، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ج 01، ص 155.

² - رينهارت دوزي: تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، د ط، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980م، ج 05، ص 201.

³ - عبد المجيد القدوري: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليّة الحزيت، د ط، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1991م، ص 127.

⁴ - عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثلاينية، المؤتمر الدولي "ثقافة التواصل"، جامعة فيلادلفيا، عمّان، نوفمبر 2009م، ص 06.

بعض الأجزاء¹، بما أن المحطة الأخيرة وهي مكة المكرمة ليست ميناءً على البحر، وهذا النوع يمكن أن نسميه مجازاً بالركب البحري.

لقد تعددت الاشتقاقات التي أطلقها المغاربة على هذه "الرحلة الجماعية" إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج، فهناك من استعمل "ركب الحج" أو "ركب الحاج" أو "ركب الحجيج"، وهناك من وظف مصطلح "الركب النبوي"، لأن الركب يزور المسجد النبوي أيضاً. بينما فضل آخرون استخدام لفظ "ركب الحجاز" الذي يشمل الحرمين الشريفين المقصودين، بحكم أن القافلة متوجهة لبلاد الحجاز، يتضح ذلك الانتساب في قول الشاعر²: (الطويل)

خُذُوا الْقَلْبَ يَا رُكْبَ الْحِجَازِ فَإِنَّهُ تَوَى الْجِسْمَ فِي أَسْرِ الْبِطَالَةِ ضَائِعًا
وَلَا تَصْرِفُوهُ إِنْ فَعَلْتُمْ فَإِنَّمَا أَمَانَتُكُمْ إِلَّا تَرُدُّوا الْوَدَائِعَا

تميّز الرحالون المغاربة عن غيرهم باستخدام صيغة "الركب النبوي"، فالركب وإن كان هو الجمع الزاحل أو السائر إلى مكة المكرمة لأجل أداء مناسك الحج بالإجمال، فإن التركيز على زيارة المدينة المنورة حيث قبر المصطفى - عليه الصلاة والسلام - أكيد في الذهاب إلى الحج بالنسبة للحجاج عموماً، وللمغاربة خصوصاً الذين لم ينقطعوا عنها في أحلك الظروف. يُحمل ذلك المعنى في الشاهد "الشوقي" التالي³: (الرجز)

الرَّكْبُ نَحْوَ الْحَبِيبِ قَدْ سَارَ يَوْدُ شَوْقًا إِلَيْهِ لَوْ طَارَ
بَلَّغَ كَثِيرَ السَّلَامِ لِلهَادِي لَعَلَّ تُطْفِي مِنَ الْحَشَى نَارَا

وبما أن لابن بطوطة المغربي رحلات شهيرة إلى الحج، فهذا أحد الكتاب المشاركة يُعرّف بطبيعة الركب الذي كان ينوي ابن بطوطة السير في جملته إلى الحجاز، بأنه "... قوافل خاصة بالحج، منظمة تنظيمًا دقيقاً، وفيها ناسٌ متخصصون في كلِّ ما يتصل بالحج، من معرفة الطريق ومراحله وأوقاته، ومزودة بكلِّ مطالب الحجاج... إنَّه ركب الحاج المغربي"⁴.

¹ - خليفة حماش: الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، إشراف: أ د/ فاطمة الزهراء قشي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007/2006م، ص76.

² - أحمد بن عمّار، المصدر السابق، ص10.

³ - المصدر نفسه، ص31.

⁴ - حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، د ط، دار المعارف، القاهرة، 2003م، ص18.

وركب الحج في العهد العثماني هو الإطار الرسمي أو الحيز الحمي، الذي كان يحرص كل من رغب في أداء مناسك الحج على الانتماء إلى قوافله، ومُصاحبة أفراده، لأنَّ المنقطع عن الركب في رحلة الحج الشاقة والطويلة، أو المسافر من الجزائر إلى بلاد الحجاز بمفرده ما وصل إليها قطُ سالمًا، إلا من عصمه الله وصانته¹. لذلك فقد أضحي الركب بمثابة "المحلّة" أو "الحامية" المتنقلة التي تؤمّن الحجاج قدر المستطاع، وتجعلُ بعض أمراء البلدان الواقعة في طريقها يرتابون منها، فيتجسّسون على الركب، ويطوفون به ويختبرونه²! حتى إذا ما أيقنوا أنه ركب حجاج خلّوا سبيله.

والركب في نظر رحّالة آخرين هو "الحملة" المنظمة التي تتكوّن من مجموعة قُطُر، والقُطُر جمع قطار kitar، وهو مجموعة من الإبل تُربط ببعضها البعض، مع مُراعاة وضع أربعة جمال في المقدمة، ويسير كلُّ قطار وراء قطار آخر، حتى أنه يمكن عدّ المئات منها، بمجموعٍ قد يصل إلى آلاف الإبل³. فمن ميزات الركب الترابط والانسجام، كأنّه وحدة غير قابلة للتجزئة، لذلك نجد الرحالة الورثلاني - مثلاً - تأسّف لتشتت حال الركب الجزائري في إحدى محطات الطريق، وذلك بسبب الظروف الطبيعية القاسية التي واجهته⁴. كما أنّ صعود الركب (ارتحاله) أو نزوله (توقفه) يعني أنّ القافلة بحجمها الكبير وبزخْم مكوّناتها قد ارتحلت أو قد نزلت، بمنّ فيها وبما فيها. يقول أحد الشعراء الرحالين - وقد عاينَ نزول الركب الذي ضمّه⁵: (الرمّل)

نَزَلَ الرِّكْبُ بِوَادِي الْمُنْصَرَفِ وَعَلَى لُقْيَاهُ كَمَ مَالٍ صُرِفِ
نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي جِئْنَا لَهُ وَجَمِيعُ الْهَمِّ عَنَّا مُنْصَرَفِ

وهناك ما يؤكّد أنّ مظاهر الاستعراض والبذخ التي أضحت تُحيط بركب الحج بسبب أفعال بعض الحجاج بدأت في الظهور منذ منتصف ق 01هـ/07م! فقد زوي أنّ الصحابي عبد الله بن

¹ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 03، ص 134.

² - أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي (السزاج): أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعارب، د ط، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، 1970م، ص 32.

³ - جوزيف بتس: رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط 01، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1995م، ص 67.

⁴ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج 01، ص 418.

⁵ - أبو القاسم الزباني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برباً وبحراً، تحقيق: عبد الكريم الفيلاي، ط 02، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991م، ص 218.

عمر - رضي الله عنه - كان إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج في زمنه من كثرة الزينة والموادج في الأركاب القادمة إلى مكة المكرمة لأداء الحج يقول: إنَّ الحجَّ قليلٌ والركب كثيرٌ!¹ واستمرَّ ذلك التباهي في تزيين الأركاب وإظهار حجمها وقوتها في كلِّ موسم حج، بسبب التنافس المستمر بين الأقاليم الكبرى للعالم الإسلامي مشرقه ومغربيه.

03. حدود التقاطع بين "الركب" و"الرحلة":

تعرفنا فيما سبق على منظومة ركب الحج والتّرحم المصاحب لها، هذه المنظومة الحجية لا يمكن أن نتيّن أبعادها المختلفة إلا في إطار رحلة الحج الطويلة والشاقة، فهي التي ترسم ملامح الركب وتوجّهات الرّكبان (الحجاج) الحضارية. لذا وجبّت الإشارة إلى أنّ مسيرة الركب بعنوان "الرحلة" أبلغ وأوسع تعبيراً ومجالاً من عنوان "الحجّة"، لأن المغاربة عموماً تعودوا على توظيف هذا المصطلح للدلالة على سفر الركب إلى الحج، والرحلة تعني عادةً تسجيل الحاج للمشاعر والحوادث والمشاهدات التي تقع له منذ خروجه من بلده إلى عودته إليه، أمّا كلمة "حجّة" فهي لا تعني بالضرورة تسجيل المشاعر والحوادث والمشاهدات.²

وإذا ما وازنّا كذلك بين مصطلحي "الرحلة الحجازية" و"الرحلة الحجية" نجد الأول أليق وأنسب لسببين رئيسيين، هما:

أولاً: لأن مجال الرحلة الحجازية أوسع من مجال رحلة الحج، إذ أنّه يرتبط - فضلاً عن الفريضة الدينية وشعائرها - بالجوانب السياسية والتعليمية والتجارية، كما تحتاج الرحلة الحجازية إلى مالٍ وجاهٍ وأعباء سفر إضافية، والأخطار فيها أكثر. لذلك شاع في كتب التراجم والسير في ذلك العهد القول: "رحل إلى المشرق بقصد الحجاز" رغم أنّ المراد هو: "بقصد الحج"³!

ثانياً: لأن صاحب الرحلة قد يكون غير مسلم، فهو غير معني برحلة الحج أصلاً، وإنما قصده الوصول إلى بلاد الحجاز لغرض يتغيه، سواء صادف وصوله موسم الحج أو لم يُصادف. وعليه

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص77.

² - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ط01، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص268.

³ - كمال فيلاي: الهجرة العلمية والطلابية إلى قسنطينة في عهد عبد الكريم الفقون علامة العصر (988-1073هـ)، أعمال المنتقى العلمي الأول "سوسولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر"، مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة قسنطينة، ماي 2008م، ص20.

فإن كلَّ رحلة حجية هي حجازية بالضرورة، بينما العكس غير صحيح. لذلك نجد الكثيرين من الأعلام والرحالين المغاربة الذين دوّنوا تفاصيل وحيثيات رحلاتهم لأداء الحج فضّلوا استخدام العنوان التالي: "الرحلة الحجازية".

لقد اهتمَّ بعضُ الرحالين الجزائريين منذ أمدٍ بعيد بتدوين رحلاتهم الحجازية، فكتب الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني* منذ القرن 12/هـ/06م تفاصيلها أبياتاً شعرية بعدد أيام السنة، بدأها بقوله¹: (الطويل)

عَذِيرِي عُدْرًا مِنْ ذَوَاتِ الْمَعَاجِرِ ذَوَاتِ الْعُيُونِ التُّحْلِ سُودِ الْعَدَائِرِ

كما ضَمَّنَ محمد بن محمد المقرّي التلمساني** في القرن 14/هـ/08م رحلته مراحل طريق الحج بدءاً من تلمسان، وأخبار الحرمين والقاهرة ودمشق، وأسماء الأعلام الذين لقيهم أثناءها². ويرى المرحوم أبو القاسم سعد الله أنّ أفضلَ الرحلات الحجازية الجزائرية الثرية المدوّنة في العهد العثماني متناً وأهميةً، وأقرّها محاكاةً إلى نظيراتها الأخرى الشهيرة (مثل رحلات: ابن جبير، ابن سعيد، العبدري، ابن بطوطة، العياشي، الدرعي...)، هي رحلة الحسين الورثلاني ورحلة أبي راس الناصري في القرن الأخير من الوجود العثماني بالجزائر³.

* أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الوارجلاني من أشهر علماء وارجلان (ورقلة) الأباضيين في النصف الثاني من القرن 12/هـ/06م، قرأ في عصر شببته بقرطبة، فحصل فيها علوم اللغة والحديث. ثم انقطع إلى خدمة العلم بوارجلان، فأقام سبعة أعوام ملازماً دازه، إمّا ينسخ، وإمّا يدرس، وإمّا يقابل، وإمّا يبري الأقلام، وإمّا يطبخ الخبز، وإمّا يسفر كتاباً. خلف قصيدة حجازية أبياتها عدد أيام العام، بدأ فيها بغزل رقيق، ثم الرحلة عن وارجلان، والتنبيه عمّن صحبهم في ذلك الركب، وذكر الطريق منزلةً منزلةً، وذكر المناسك، ثم فعل كذلك حتى خرج.... يُنظر: أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، ط01، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م، ص491 وما بعدها.

¹ - موقع: <http://ibadiya-ahlalhaqe.blogspot.com>، بتاريخ: 2017/07/02م، 10:30.

** محمد بن محمد المقرّي التلمساني من أكابر علماء المذهب المالكي في القرن 14/هـ/08م، ولد ونشأ بتلمسان، وتعلم بها وبتونس والمغرب، رحل إلى المشرق وحج، فأخذ عن علماء مصر والحرمين ودمشق والقدس، تولّى القضاء في زمن المرينيين. خلف كتباً كثيرة، كما تتلمذ عليه كلُّ من لسان الدين ابن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون. يُنظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ط02، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م، ص312.

² - سميرة أنساع: الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين، ط01، الوكالة الأفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، 2011م، ص16.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج02، ص390.

والجزائريون - رغم ذلك - متهمون بنقص التأليف في أخبار ركب الحج الجزائري وتفصيله¹. يقول المرحوم سعد الله متحسراً على تفريط أحد شيوخ الركب في الكتابة عن الحج رغم كثرة تأليفه: "وإذا كنا نأسف لشيء بهذا الصدد، فهو عدم تسجيل الفكون مذكراتٍ عن رحلاته إلى المشرق، كما كان يفعل المغاربة على العموم"².

ويلاحظ كذلك أن أغلبية أصحاب الرحلات الحجازية هم من أهل القرن 12هـ/18م، وذلك بفضل الحركة العلمية الناشئة فيه، والاستفادة من كتب الرحلات المغربية السابقة، ولأجل استدراك ذلك التقصير. لكن يُعاب على أولئك الرحالين تركيزهم على تقييد الأخبار الشخصية، مثل تبيان علاقاتهم بالأعلام والعلماء المشاركة، وسيادة نوع من الذاتية من قبيل: "وخرجنا من دار صاحبنا وأخينا" أو "وودّعنا مُحبُّونا" أو "ومُنَّ اجتمعتُ معهم من الفضلاء والعلماء"... كل ذلك على حساب أخبار الركب الجزائري والحجاج قاطبة، والتفصيل في ذلك ما أمكن عند نقل أخبار يوميات الرحلة إلى الحج.

ويبدو الرحّالون الجزائريون المشهورون مُطلّعين على ما دوّنه الحجاج المرتحلون قبلهم، سواء في الأزمنة قريبة العهد بهم أو حتى في القرون البعيدة نسبياً. بل قد أُلّف بعضهم رحلته أسوة بأولئك الرحالين المشهورين، فهذا الرحالة أبو راس الناصري المعسكري يقول بخصوص ذلك أواخر القرن 12هـ/18م: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير والأسانيد الجماهير: كرحلة الإمام ابن رشيد السبتي، والخطيب ابن مرزوق، ورحلة الشيخ أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي، وكذا رحلة الشيخ أحمد بن الناصر وغيرهم"³. وعن الغاية التي ينشدّها هؤلاء الرحّالون الحجاج من وراء تدوين

¹ - من المفارقات بشأن ذلك أن بعض الرحالين المشهورين استلهموا فكرة تدوين رحلاتهم نحو الحجاز بعد مرورهم بتراب الجزائر، ومنهم الرحالة الشهير "العبدري البلسي" سنة 688هـ/1289م، حيث قال: "وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان، ولم يُمكنني إظهارها هنالك، وأظهرتها بعد خروجنا منها". يُنظر: محمد العبدري البلسي: الرحلة المغربية، ط01، تقدم: سعد بوفلاقة، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2007م، ص21. وللتعرّف كذلك على أشهر الرحلات الحجازية الجزائرية خلال العهد العثماني يُنظر مقدمة هذا البحث.

² - أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص85.

³ - محمد أبو راس الجزائري (الناصر المعسكري): فتح الإله ومثته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته، د ط، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص91.

يوميات رحلاتهم الحجازية يقول الرحالة المصعبي: "... بعثني صدق الهمة إلى نظم بعض ما لقيته في سفري، ليكون تذكرة لي، ولمن يريد سلوك هذه الطريق من بعدي...." ¹.

على أن الحسين الورثلاني يبقى النموذج الأمثل للرحالة الجزائري المطلع والناقل عمّن سبقه، فرحلته المحفوظة المكتوبة تتحدث بتفصيل وإسهاب عن أحوال الركب الجزائري²، وقد كرّر ذكر اسمه (أي ركب الجزائر) فيها مرّات عدّة. وتكثر في رحلة الورثلاني النقول والإحالات إلى ما ذكره السابقون من أمثال العياشي في ق11/هـ17م، وابن ناصر في بداية ق12/هـ18م. لكن لا تخفى استفادة الورثلاني - بل الحجاج جميعاً - من تلك الرحلات المطلع عليها، من ذلك مثلاً النص التالي الذي أورده الورثلاني في رحلته، والذي يخصّ منبع ماء لم يهتد إليه الحجاج الجزائريون في صحراء ليبيا الموحشة إلا بفضل علم بعضهم بوجوده إثر قراءة خبره في رحلة مغربية سابقة، يقول الورثلاني عن هذا المثال: "وقال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر: إنّ سانية موجودة قربها ماؤها عذب"³. وتبقى تلكم الرحلات الحجازية أهمّ مصدر للتعرف على تاريخ ركب الحج الجزائري، من حيث تنظيمه وتشكيله، أو في أخبار أمرائه وأعلامه، أو في سيره وعلاقاته بمحيطه.

المبحث الثاني: أخبار الركب الجزائري قبل العهد العثماني

01. بدايات ركب الحج الجزائري:

إنّ الحديث عن بدايات الركب الجزائري لا يعني أن الحجّ كان معطّلاً قبل ذلك لدى الجزائريين، أو أنّهم كانوا يحجّون فرادى، فهذا أمرٌ نادر ومُستبعد، لأن الظروف المحيطة بالطريق لم تكن تسمح بذلك. وإنّما حديثنا عن الركب يعني بداية تنظيم شؤون الحجاج، وتشجيع الناس على الحج جماعةً لدرء المشقة والمخاطر، وجمعهم في قافلة واحدة كبيرة منظمّة مخصّصة للحج، بدلاً عن تلك الجماعات أو المواكب الصغيرة، أو المراكب البحرية، أو حتى القوافل التجارية المتّجهة إلى المشرق، والتي كانوا يستعينون بها لأداء الحج. وتُشير بعض الدراسات إلى أنّ أول ركب منظمّ للحج ظهر ببلاد المغرب قاطبةً هو "الركب الصالحي"، نسبةً لمؤسّسه الإمام أبي محمد صالح

¹ - إبراهيم بن بجمان اليَسْجَنِي المصعبي: رحلة المصعبي، ط01، تح: يحيى بن بهون حاج محمد، العالمية لخدمات النشر، غرداية، 2006م، ص43.

² - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط خ، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ج01، ص187.

³ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص232.

الماجري (ت 631هـ/1234م)*، المنطلق من مدينة آسفي المغربية، حيث كانت له رباطات ووكلاء في محطات الطريق الرئيسية¹. فمهد بذلك لظهور أركاب لائحة في بلاد المغرب.

أما في بلاد المغرب الأوسط بالذات (الجزائر حالياً) فإننا نجد إشارات بخصوص ذهاب الجزائريين إلى الحج في إطار جماعي منظم نسبياً منذ القرن 12هـ/12م، أي قبل اشتهاار الركب الصالح المغربي المذكور آنفاً؟ ويتضح ذلك في رحلة أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني للحج، إذ يقول في أول نظمها²: (الطويل)

خَرَجْنَا نَوْماً الشُّوقِ مِنْ حَيْرِ وَارْجَلَانَ بَفْتِيَانِ صِدْقٍ مِنْ وُجُوهِ الْعَشَائِرِ

ويتضح أيضاً في وجود رحلات أركاب إلى الحجاز انطلاقاً من مدينة تلمسان في القرن 8هـ/14م، أو توقفاً بها، على غرار رحلات: العبدري الحاحي المغربي أو التوجيبي التلمساني أو ابن مرزوق التلمساني. بل نجد أن السلطان المريني أبا الحسن (ت 752هـ/1351م) كان يعين كل سنة ركباً من تلمسان إلى الحجاز، بقائده وشيخه، وذلك بعد سيطرة المرينيين على المدينة. يقول ابن مرزوق التلمساني الجد (ت 781هـ/1379م) بشأن ذلك في مسنده: "... ولما فُتِحَتْ تلمسان صارَ (السلطان أبو الحسن) يعين في كل سنة ركباً متوجّهاً، وسيأتي ذكر المصاحف التي خطها بيده ووجهها إلى المساجد الثلاثة"³. وعلى ذكر تلمسان فقد تميّزت في العهد الزياني بأوقافها المخصصة لخدمة ركب الحج ومساعدة الحجاج، من ذلك وقف هائم كان بزواية العباد الشهيرة بها، جاء فيه: "... برسم إطعام الطعام بزواية العباد - عمره الله - للفقراء والحجاج والمقيمين والواردين عليها...."⁴، مما يدل على الاهتمام الرسمي والشعبي آنذاك بركب الحج.

* أبو محمد صالح الماجري (ت 631هـ/1234م) من تلامذة الشيخ أبي مدين شعيب التلمساني، مهد طريق الحج وسيله ببذل ماله ومجهوده، وجعل أصحابه في جميع المراكز التي على طريق بيت الله الحرام، يأخذون بيد كل سالك إلى الحجاز، ويمدونه بكل ما لهم من معونة، ولا يتكون له مجالاً للجلوس بأي بلد حتى يحج ويزور، وذلك بعدما تحامى المغاربة الحج لوعورة الطريق ووجود الموانع. يُنظر: محمد بن أحمد الكانوني العبدري: البدر اللائح والمتجر الرابع في مآثر آل أبي محمد صالح، ط 01، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، الرباط، 2011م، ص 12 وما بعدها.

¹ - محمد المنوني: من حديث الركب المغربي، ط 01، مطبعة المخزن، تطوان، 1953م، ص 07.

² - موقع: <http://ibadiya-ahlalhaqe.blogspot.com>، بتاريخ: 2017/07/02م، 10:30.

³ - محمد ابن مرزوق التلمساني (الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، د ط، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقدم: محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 385.

⁴ - المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص 30.

أمّا التصريح بالسفر إلى الحج في إطار ركبٍ منظمٍ انطلاقةً من مدينة تلمسان فقد جاء على لسان الشيخ أحمد الغماري (ت874هـ/1470م) نزيل تلمسان (أحد المترجم لهم في روضة النسرين) جلياً في العبارات التالية: ".... ثمّ توجهنا للحرمين الشريفين في ركبٍ عظيمٍ". و "... ولما قضينا فريضة الحج قفلنا مع الركب، إلى أن وصلنا بونة وهي بلد العناب". و "... كان معنا في ركب الحجاز امرأة فقيرة، لا تعلم شيئاً"¹، وكلُّها عبارات دالة على شيوع تنظيم ركب الحج في المغرب الأوسط. وعندما نقل ابن مرزوق التلمساني الجد (الملقب بالخطيب) صورة الركب المتكوّن من حجاج تلمسان والمدن المجاورة لها، ذكر أنّه ضمّ ثلاثمائة مسكن ما بين خباء وقيطون (أي خيمة)، بمجموع ألف حاج، رافقتهم فرقة عسكرية ضمّت مائتين وثمانين فارساً².

رغم أنّ تحديد الأقاليم والجهات كان أمراً نسبياً في تلك الفترة، متغيّراً باستمرار في مغرب "ما بعد الموحدين"، المضطرب بمزاحمة المرينيين والحفصيين للدولة الزيانية، إلّا أنّنا وجدنا لركب الحج مكانةً في مدن الشرق، كقسطنطينة التي اشتهرت بعائلاتها العريقة الحريضة على تنظيم ركب الحج وقيادته، مثل عائلة "عبد المؤمن"، وكذلك بجاية التي كان ركبٌ حجاجها متداخلاً مع ركب أهل تونس، بحكم نفوذ الحفصيين في المنطقة³. لذلك فقد كان من الصعب تمييز الركب الجزائري عن بقية الأركاب المغاربية، فالركب الواحد منها قد يضم حجاج بلاد المغرب الإسلامي جميعاً.

02. استمرار دورية الركب مع مجيء العثمانيين:

لم يضطرب تنظيم ركب الحج الجزائري بانضمام الجزائر الطوعي إلى الدولة العثمانية سنة 924هـ/1518م، بل قد تحسّنت ظروفه في السنوات الأولى للتبعية، حيث عاد النشاط البحري لمدينة الجزائر، التي عانت في السابق من التحرّشات الأوروبية، وأصبحت المراكب جاهزةً لتقلّ الحجاج نحو ميناء الإسكندرية المصري⁴. وظلّت قيادة ركب الحج في عائلة ابن مرزوق التلمساني

¹ - محمد بن سعد الأنصاري التلمساني: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، ط خ، تحقيق: يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص194.

² - نصر الدين بن داود: بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 07 إلى القرن 10هـ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف: أ د/ محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010/2009م، ص277.

³ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج04، ص213.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص23.

من الجهات الغربية، وكذا في عائلة عبد المؤمن القسنطينية من الجهات الشرقية إلى ما بعد حوالي قرن من وجود العثمانيين¹، ثم انتقلت القيادة بعد ذلك إلى عائلاتٍ بزغ فجرها، على غرار عائلة الفكون القسنطينية وغيرها.

وقد باشر العثمانيون إشرافهم على شؤون تنظيم الحج، وكذا إجراء بعض التغييرات على مستوى قيادة ركب الحج. مع ملاحظة أن ذلك كان في الأقاليم التي خضعت لهم، أمّا في الأقاليم البعيدة عن سلطتهم فقد بقيت أمور تنظيم ركب الحج على ما كانت عليه. فنجد - على سبيل المثال فقط - ركب حجّ جزائريّ قائماً بذاته، مُحافظاً على دوريته في كلِّ موسم، بشيخه (أميره) وأعوانه ومُستلزماته في منطقة "قورارة" من بلاد توات، جنوب غرب الجزائر، خلال القرن 10هـ/16م²، أي في السنوات الأولى لانضمام الجزائر للدولة العثمانية.

¹ - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص 49.

² - مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص 387.

الفصل الأول:

ركب الحج الجزائري تنظيمه وإمارته

- تمهيد

- المبحث الأول: الركب الجزائري استقلاليته وخصائصه

- المبحث الثاني: أصناف الركب الجزائري وجهاته

- المبحث الثالث: علاقة السلطات العثمانية بالركب الجزائري

- المبحث الرابع: إمارة ركب الحج الجزائري ومقوماتها

- خلاصة الفصل الأول

الفصل الأول: ركب الحج الجزائري تنظيمه وإمارته

أشرنا سابقاً في فصل تمهيدي إلى مدلولات مصطلح "الركب"، وإلى أخبار الركب الجزائري قبل وأثناء مجيء العثمانيين. وفي هذا الفصل الأول سنركز الحديث على المظاهر الدالة على استقلالية وخصوصية الركب الجزائري، والمناطق أو الحواضر الجزائرية الرئيسية التي كان الركب ينطلق منها متجهاً نحو بلاد الحجاز، على غرار: الجزائر، قسنطينة، بجاية، تلمسان، معسكر، مليانة، الزاب، توات، وارجلان.... دون إغفال الحديث عن الركب الجزائري المسافر عبر البحر، والذي شاع في تلك الفترة واعتبر بمثابة الركب الرسمي لحكام الجزائر من الأتراك.

كما يهتم هذا الفصل بتوضيح علاقة الركب الجزائري بالعثمانيين، وتبيان حدود الوصاية التنظيمية على شؤون الحج من الجزائر، ومدى إضفاء الطابع الرسمي من لدن الحكام الأتراك على تنظيم مسير الركب؟ ثم ماذا عن حالات الاضطراب في توجه الركب الجزائري نحو الحجاز؟ وأخيراً نستعرض أهم الشخصيات والأسر الجزائرية التي نالت شرف إمارة أو قيادة ركب الحج الجزائري نحو الحجاز، وما هي شروط الاختيار ومقومات تلك الإمارة؟ ومن له السلطة في التنصيب؟ وكذا حدود الصلاحيات التي كانت متاحة لشيخ الركب أو أميره!

المبحث الأول: الركب الجزائري استقلاليته وخصوصياته

01. دلائل تميز الركب الجزائري وخصوصيته:

لقد تكرّر استخدام لفظ "الركب الجزائري" أو "ركب الجزائر" في متون الرحلات الحجازية الجزائرية في الكثير من المواضع، ونقل الحجاج الرحّالون أخباره باستمرار، طيلة فترة الحكم العثماني للجزائر. من ذلك خبر مفاده أنّ ركب الجزائر في موسم حجّ 1063هـ/1653م قد أمّن في رحلته في القفار ولم يتعرّض لقطع الطرق، على خلاف ما حدث له في المدن التي مرّ بها¹، ومنها كذلك خبر مؤداه أنّ الركب الجزائري التقى في موسم حجّ 1179هـ/1766م بمدينة طرابلس الغرب بالركبين المغربيين الفاسي والفيلاي (السجلماسي) معرّبين² (أي عائدّين من الحجاز). ومن

¹ - عبد الرحمن بن محمد بن خروب المجاحي: رحلة منظومة حول الحج إلى مكة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، رقم: 1565، و03.

² - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج01، ص412.

الأخبار المتعلقة بطريق الحج كذلك أن أهل صحراء طرابلس الغرب خرجوا من قراهم يتسوقون الركب الجزائري في حجة 1188هـ/1774م رجالاً ونساءً وصبياناً بالتمر والزرع والخبز والدجاج¹. وغيرها من الأخبار التي كانت تقصد "ركب الجزائر" في حد ذاته، وتسميه باسمه.

والأمر لم يكن مقصوداً على الجزائريين فقط في نقل أخبار الركب الجزائري والتأكيد على كيانه ودورته في العهد العثماني، بل تعداه إلى الرحالين من الحجاج المغاربة، فهذا الرحالة العياشي يُشيرُ إلى موسم حج 1072هـ/1661م قائلاً: "... وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز...."²، وفي موضعٍ آخر، وفي محطةٍ أخرى من محطات العودة، يُسمي العياشي الركب الجزائري قائلاً: "وجدنا ركب الجزائر مُقيمين فيه، وكرهنا الورود عليهم لأجل ما بين الركبين من الشنآن.... فلما أصبحنا ارتحل أهل الجزائر وأقام أصحابنا"³. وهذا الرحالة الشرقي الفاسي يذكر أحد أقرباء أمير طرابلس بأنه "كان توجه للحج مع الركب الجزائري، وتأخر عنهم في مصر لمقتضيات وأعراض عُرضت له"⁴، كان ذلك في موسم حج 1139هـ/1727م.

تمكّن الركب الجزائري من أن يحافظ على شخصيته واستقلالته طيلة الرحلة إلى الحج، وحتى في المقطع الأخير من طريق الحج (أي بين مصر والحجاز)، حيث كانت العادة في ذلك الزمان أن يتقدّم الركب المصري ويسود أركاب بلاد المغرب كلها. لكنّ الأمور انقلبت تدريجياً، وأصبح الركب المصري الضخم يحسب للركب الجزائري ألف حساب - كما يروي الرحالة الورتلاني في رحلته - إذ كان من عاداته احتقار الأركاب المغاربية حين تخرج معه من مصر، إن شاء قدمها وإن شاء أخرها، وإن شاء زاد في الكراء، إلا أن الوضع تغير مع "تعصّب" الركب الجزائري لحقوق حجاجه، ورفضه حكم الركب المصري رفضاً مطلقاً⁵!

قد يظهر في ذلك "التعصّب" بعض الغلظة والجفاء، خاصة إذا نقلنا شهادة الرحالة المغربي أبي سالم العياشي من أنّ ركب مراكش كان غالباً ما يجِدُّ في السير أثناء السفر، خشيةً من أن

¹ - عبد الرحمن بن عمر التتلافي التواي: الرحلة الحجية، مخطوط بخزانة بن الوليد، قصر با عبد الله، تيمي، أدرار، و09.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص133.

³ - المصدر نفسه، ج02، ص490.

⁴ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و126.

⁵ - الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج02، ص174.

يلحق ركب الجزائر به فتكون فتنة¹! وكان - كما ذكرنا آنفاً - إذا سبقه الركب الجزائري إلى موضع ما فإنه يتعمد التأخر في ورود ذلك الموضع حتى يرتحل عنه الجزائريون. بل لقد ذكر الرحالة الجزائري الورثلاني أن بعض الحجاج الجزائريين - في إحدى المرات - رغبوا بعد خروجهم من مصر متجهين صوب الحجاز في الانفلات عن ركب الجزائر، ومواصلة ما تبقى من السفر مع الركب المصري المنظم أكثر من الجزائري، والسبب الذي دعاهم إلى ذلك - في تقديرهم - هو "ظلم الركب الجزائري للناس وكثرة الهرج فيه.... حتى أن الإنسان يتمنى لو لم يقدم معه إلى الحج"²!

يبدو أن ذلك حكم قاسٍ من طرف فئة قليلة من الحجاج، وكل ما في الأمر أن الركب الجزائري كان حريصاً على إبراز مدى هيئته وقوته، حمايةً للحجاج الجزائريين، وترهيباً للمعتدين، ونكائيةً في أركاب الحج الأخرى المزاحمة له. أمّا طلبه من ركب مراكش المغربي عدم مزاحمته في المسير، فقد بين العياشي السبب، وهو أن الجزائريين اعتبروهم مجرد "حجاج صعاليك"³! أي غير ملتزمين بالنظام والانضباط المطلوبين أكثر من أي أمرٍ آخر في رحلة الحج الطويلة.

رغم وجود شيخ أو وكيل للحجاج المغاربة أجمعين في الحجاز خلال العهد العثماني، إلا أن الجزائريين كان لهم ممثل خاص هو "رئيس طائفة الجزائريين"⁴. وصحيح أن الركب الجزائري كان يتخلف عن الركب المصري قليلاً بعد خروجه من مصر ودخوله في آخر مقطع من مقاطع السفر المسمى "درب الحجاز"، حيث جرت العادة أن ينطلق الركب المصري ثم تنضم إليه أركاب المغرب الأقصى وتونس والجزائر وطرابلس الغرب، فتتضاعف أعدادهم، ويؤلفون ركباً مغارياً كبيراً⁵. لكن كان بالإمكان دائماً تمييز بعضها عن بعض، سواء في الانطلاق أو أثناء السير. يوضح الرحالة الورثلاني ذلك الأمر قائلاً: "... وعدد الأيام على الاحتياط إلى مصر بحسب مَشِينَا (الركب)

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 496.

² - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 02، ص 82.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 02، ص 496.

⁴ - عائشة غطاس: أوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر إبان العهد العثماني من مظاهر التواصل بين الجزائر وبلاد الحجاز، أعمال المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول حول "العلاقات بين دول الخليج والمغرب العربيين الواقع والمستقبل"، تقدم: عبد الجليل التميمي وفهد بن عبد الله السماوي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2005م، ص 224.

⁵ - عواطف بنت محمد يوسف نواب: كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2008م، ص 256.

الجزائري لا الفاسي، فإن الفاسي أسرع في المشي لتأخره (في الانطلاق)¹. إن تلکم الشواهد والإشارات المذكورة سابقاً تؤكد بأن ركب الحج الجزائري لم يكن أبداً تابعاً أو مُلحقاً بركبٍ آخر، بل كان ركباً مستقلاً، وأضحى هو مَنْ يفرضُ خطة سيره على بقية أركاب الحج الأخرى!

02. تمايز أركاب الحج المغاربية في العهد العثماني:

أ. التقاطع بين الأركاب المغاربية والمصري:

من السمات الغالبة على الفترة العثمانية (وما قبلها) عدم الاهتمام بتمييز المغاربة عن بعضهم البعض، فمُسلمو أفريقيا الشمالية (سكان بلاد المغرب) كانوا يُسمَّون في المشرق "مغاربة" بلا تمييز². والعثمانيون ما فتئوا يُطلقون لفظ مغربي (أي مغربي) على جميع السكان القاطنين غرب مصر، بمن فيهم سكان المغرب الأقصى أو "مملكة مراكش" التي لم تخضع لهم³. وقد انعكس ذلك الإطلاق في التسمية على الحجاج الجزائريين وركبهم، فهذا حاج جزائري سأله حاج تركي في الحرم المكي عن بلده؟ فأجاب مباشرة: من المغرب! فأعاد التركي طرح السؤال: من أيّ بلاد المغرب؟ فقال حينها: من الجزائر⁴. وحتى الشيخ الورثلاني نجدده يُشير إلى عالم ليبي من طرابلس اجتمع به في حجته الأولى بالحرمين، محلياً إياه باسم "سيدي محمد المغربي الطرابلسي"⁵!

والظاهر أن إشكالية التسمية تلك قد انتشرت بالجزائر في العهد العثماني⁶، إذ كان بعض علماء قسنطينة يستخدمون لفظ "المغاربة" للدلالة حتى على أهل وسط إقليم الجزائر وما جاور ذلك غرباً، أي على مدينة الجزائر وما والاها غرباً، ثم نجدهم أحياناً أخرى يقصدون بذلك اللفظ

¹ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص20.

² - لوسيت فالنسي: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م، ط01، ترجمة: إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1980م، ص110.

³ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج01، ص323.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص63.

⁵ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص89.

⁶ - من التسميات المستخدمة كذلك في تلك الفترة مصطلح "أهل الواسطة"، ويُطلق على سكان القطر الجزائري، لتوسطهم بين تونس والمغرب الأقصى. ذلك ما بيّنه الشريف الزهار في مذكراته قائلاً: "عندما كان الفرنسيين بمصر، قام ابن الأعرش هذا، وجمع إليه أناساً من المغاربة وأهل الواسطة....". يُنظر: الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، د ط، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص85.

أهل المغرب الأقصى فقط¹! ولما ذكر الرحالة الورتلاني بعض الأركاب المغاربية التي نزلت بجوار الركب المصري الكبير في إحدى المحطات ميّزها بأسمائها قائلاً: "... ووجدنا الركب المصري نازلاً هناك، فنزلنا حذاءه: الفيلاي والجزائري والفرّاني"². ثمّ نجد - مرة أخرى - إطلاق صفة "المغربي" على جميع أركاب المغرب العربي، فهذا الرحالة نفسه (الورتلاني) يتحدّث عن ركب الجزائر وموقعه في المسير، فيستخدم تارة الجزائري وتارة المغربي: "... والركب المصري نازلٌ هناك، إذ سبقنا من المدينة، ونحن ركب الجزائر وراءه، وإن كانت عادة الركب المغربي السابق في الإياب!"³.

إنّ تميّز الركب الجزائري لا يعني أبداً أنه لا يحمل سوى الجزائريين، أو أنه يرفض المسير جنباً إلى جنب مع الأركاب المغاربية، إذا ما استثنينا ركب المغرب الأقصى، بسبب التنافر السياسي بينهما، والرغبة في المحافظة على الاستقلالية. فقد انضمّ بعض الحجاج من إقليم برقة الليبي وثلاثة حجاج مغربيين إلى الركب الجزائري في أحد المواسم⁴، في حين التقى بعض الحجاج الجزائريين بركب بركب فزان الليبي في مصر، وتعرّفوا على حاكم فزان فرحب بهم، وآثروا مواصلة السفر معاً إلى الحجاز⁵. ثمّ نجد ركب أهل طرابلس الغرب يلحق بالركب الجزائري الخارج من مصر - كما ذكر التتلاي - "ووافقنا ركب طرابلس ونعم الركب هم"⁶. وهذا العياشي الذي طالما اشتكى من حدة وشدة الركب الجزائري يُشيرُ إلى عالم حجّ مع ركب المغرب، ثم فضّل العودة مع ركب الجزائر قائلاً: "... ولقيتُ صاحبنا سيدي سحراوي، وكان حجّ معنا، ثمّ قدّم قبلنا مع ركب أهل الجزائر"⁷.

كما أن التقاء أركاب المغرب العربي في طريق الحج أمرٌ واردٌ، إذ حدث وأن التقت خمسة أو ستة أركاب مغاربية دفعةً واحدةً في مدينة طرابلس الليبية، ما بين ذاهبين وآيين⁸. والتقى كذلك

¹ - عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ط01، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص93.

² - الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج02، ص241.

³ - المصدر نفسه، ج03، ص117.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص403.

⁵ - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ج02، ص83.

⁶ - عبد الرحمن التتلاي، الرحلة الحجية، مصدر سابق، و18.

⁷ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص535.

⁸ - أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، ط01، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويد للشر والتوزيع، أبو ظبي، 2011م، ص172.

الركب الجزائري بالركب التونسي في بعض المحطات، فمثلاً كان التونسي يسبقُ الجزائري ويخرج من مصر قبله، ثم يلحق به الجزائري حتى يُخَلِّفَهُ وراء ظهره وهكذا¹. وعلى ذكر الركب التونسي فقد خرج معه مرّةً من المدينة المنورة حجاج مغاربة، لأنهم تخلّفوا فيها عن أركابهم، وخوفاً من غوائل الطريق اختاروا المسير مع هذا الركب الكبير². والرحالة العياشي كان ممن شهدوا بضخامة وحسن تنظيم ركب تونس فقال: "ودخل علينا في طرابلس ركب أهل تونس في شارة حسنة وفخامة هيئة، في بشرٍ كثيرٍ وسوادٍ عظيمٍ كسواد الليل، يفعمُ الطرقات كإفعام السيل"³! فتقاطع الأركاب المغاربية وارد جدا، لأنّ بعض مقاطع الطريق مشتركة، والخصوصيات "القطرية" لم تكن طاغية وقتئذٍ.

أما المحطة التي لطالما تكتلت فيها أركابُ الحج المغاربية: الطرابلسي والتونسي والجزائري والفاصي، وانضمت لبعضها البعض، كي تقصد الحجاز مجتمعة بصحبة الركب المصري، فهي إثر الخروج من مصر نحو درب الحجاز، وإن كان التلاحم التام لا يحدث فيما بينها هناك⁴. والشاهد في ذلك تشوُّق الحاج المغاربي - فيما يأتي - وطلبه من الركب المصري التأيُّن كي يلحق به "المغاربي" ويصحبه كما جرت العادة⁵: (البيسط)

يا ركب مصرَ رويداً يَلْتَحِقْ بِكُمْ قَوْمٌ مَغَارِبَةٌ لَحْمٌ عَلَى وَصْمٍ
فِيهِمْ عُبَيْدٌ تَشُقُّ الْعَيْنَ زَفْرَتُهُ لَمْ يَلْقَ مَوْلَاهُ قَدْ نَادَاهُ فِي الْقَسَمِ

إنّ انضمام الأركاب المغاربية إلى الركب المصري مؤقَّت - إن صحَّ التعبير - تفرضه ظروف الطريق بين مصر والحجاز، والرغبة في مساورة الركب المصري الكبير الذي يتقدم بقية الأركاب على جري العادة في الذهاب، إذ أنه يفضل المشي ليلاً، على خلاف المغاربة الذين يُفضّلون المشي نهاراً⁶. وهذه البقعة - أي بين مصر والحجاز - يظهر فيها التواء والتشاور وبعض الاتفاق بين أركاب أركاب بلاد المغرب أكثر مما يظهر سواها من مقاطع الطريق ما بين البلاد المغاربية وبلاد الحجاز.

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص159.

² - القيسي السراج، المصدر السابق، ص125.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص503.

⁴ - محمد بن الخوجة: صفحات من تاريخ تونس، ط01، تحقيق: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص264.

⁵ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص46.

⁶ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج02، ص165.

ب - عوامل شهرة ركب المغرب الأقصى:

ذكرنا في الفصل التمهيدي أن أول ركب منظم للحج تأسس ببلاد المغرب الإسلامي كان ينطلق من المغرب الأقصى زمنَ الموحدين، ولا شك أن استمرارية ذلك الركب المغربي وقدرته على المحافظة على دوريته السنوية لقرونٍ من الزمن ساهمتا في شهرته التي أطبقت الآفاق، وجعلتا بعض الحجاج من أقاليم المغرب العربي الأخرى يحرصون على الانخراط في رحلته نحو الحجاز. ذلك لأن قوافل الحج المغربية البرية تمرّ حتماً على الجزائر وطرابلس الغرب، وعلى تونس كذلك غالباً، بل نجد أكثر من ركبٍ مغربي واحد يعبرُ الأراضي الجزائرية في كلِّ موسم حجٍّ، بحكم تعدد أركاب المغرب الأقصى وتنوعها، ولكلِّ ركب منها أميره أو قائده¹. لذلك يرى كثيرون بأن قافلة الحج المغربية الكبيرة إنما هي "مضخمة" بحجاج إيلات: الجزائر وتونس وطرابلس².

كان الركب المغربي متكوّنًا من مجموعة أركابٍ إقليمية شبه مستقلة عن بعضها البعض، أشهرها: الركب الفاسي، الركب السجلماسي (أو الفيلاي)، الركب المراكشي. ويأتي على رأسها الركب الفاسي الذي يتمييز عنها جميعاً، لكونه هو الذي حلَّ محلَّ الركب الصالحي العتيق، وكان الفاسي هو ركب المغرب الأقصى الرسمي في عهد المرينيين والعلويين، بينما حافظ على مركزه ومقامه وشعبيته في عهد السعديين، الذين مالوا إلى تغليب ركب مراكش³.

يلاحظ كذلك بالنسبة للركب الفاسي انفصّاله عن بقية الأركاب المغاربية بعد الخروج من مصر، فهو الركب الوحيد الذي ينضمُّ إلى داخل الركب المصري ويصاحبه في درب الحجاز في الذهاب والإياب، ويسيرُ معه بالليل خلافاً لبقية الأركاب المغاربية الأخرى التي تفضّل المشي نهاراً⁴. وقد ظلَّ الركبُ الفاسي ركبَ المغرب الأقصى الرئيس إلى غاية مطلع ق13هـ/19م، حيث كان يخرج من حاضرة فاس، مصحوباً بأعيانها وتجارها وعلمائها على أحسن هيئة⁵.

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص501.

² - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72.

³ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص10.

⁴ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج02، ص174.

⁵ - أبو عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي: الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، د ط، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د س، ج01، ص293.

لقد امتلك ركب الحج المغربي إمكانيات تنظيمية ضخمة، لم تتوفر لغيره من أركاب بلاد المغرب، ولكي يتم تمييزه في المشرق عن بقية الأركاب المغاربية غلب عليه وصف "الركب الفاسي"، لأن صيغة "المغربي" قد يُشاركه فيها الجزائري والتونسي¹. كما أن الركب المغربي كبيرٌ أهلٌ بالحجاج والرواحل والأحبية، فَمَا بَيْنَ نزول أوله وآخره في محطة من المحطات لأجل الراحة ساعات من الزمن²! ولا أدلّ على قوته وكثرته من قول العياشي في رحلته: "... وفي الركب نحو من عشر مؤذنين، فإذا كان الثلث الأخير من الليل ارتجّ الركبُ بأصوات المؤذنين وقراءة القرآن"³!

يرى صاحبُ "الاستقصا" بأن الركب المغربي أضحى يُضاهي الركبين المصري والشامي في عهد الدولة العلوية قوةً وتنظيمًا⁴. غيرَ أن في ذلك مبالغة، فالمصري لا يُضاهيه ركب من أركاب الحج، بحكم الهالة الرسمية والشعبية التي تُرافقه في حجّه، وقد شهد على ذلك الورثلاني واصفاً إيّاه بأنه: "حاضرٌ في سفر، ونزهةٌ في كدرٍ وعبرةٌ في ضرر... حتى يكاد يجزم الإنسان أن مصر خرجت برؤيتها وما فيها"⁵! وكذلك الأمر بالنسبة للركب الشامي⁶ الذي لا يقلُّ عنه شأنًا.

ومن العوامل الأخرى المساهمة في ذبوع صيت الركب المغربي مداومة حكام المغرب الأقصى السعديين ثم العلويين على التواصل بالمشرق، وخاصة بأشراف الحجاز أبناء عمومتهم المتولين حُكمه، وذلك عبْرَ جسر ركب الحج المغربي المحمّل بالهدايا والأوقاف والعطايا النقدية والعينية لكلِّ

¹ - يوانا لبيب رزق ومحمد مزين: العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912، ط01، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، ص34.

² - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص127.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص160.

⁴ - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، د ط، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج08، ص120.

⁵ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص146.

⁶ - الركب الشامي: من أعظم أركاب الحج وأكثرها تنظيمًا، بلغ في بعض السنين زهاء خمسة آلاف حاج، يقوده الوالي أو أميرٌ معين من قبيل السلطان العثماني. كان الركب يبرح عادة مدينة دمشق في منتصف شوال من كل سنة، ويسلك طريقاً قصيرة، من مراحلها: دمشق، الرمثاء، الزرقاء، البلقاء، العقبة، تبوك، مدائن صالح، آبار نضيف، المدينة المنورة، آبار علي، ظهر العقبة، رابغ (الإحرام)، عسفان، مكة المكرمة. ويتمُّ نصب الخيام وتزويدها بما يلزمها في كلِّ مرحلة من طرف العكّامين (الخُدّام)، ويضمُّ الركبُ المحمّل الشهير والسُنّجق (لواء الرسول صلى الله عليه وسلّم). يُنظر: عبد العزيز العظمة: مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، ط01، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن: 1987م، ص110.

من له علاقة بتيسير حج المغاربة من قريب أو بعيد. من ذلك هدية السلطان السعودي الوليد بن زيدان بن المنصور الذهبي للروضة الشريفة سنة 1041هـ/1632م، وهي عشرة آلاف من الذهب المطبوع، وشمعدان من عسجد على يواقيت من زبرجد¹. ومنها وقف السلطان العلوي المولى إسماعيل (ت1139هـ/1727م) مائة ألف شجرة زيتون، يوجّه ثمن غلتها كل سنة للحرمين الشريفين². وقد تضاعفت الهدايا الموجهة من المغرب الأقصى إلى الحرمين ومصر في العهد العلوي، وتوّجت سنة 1182هـ/1769م بزواج حاكم مكة المكرمة (الشريف سرور) من ابنة السلطان محمد بن عبد الله، وكان سفر العروس والأمراء والوجهاء والهدايا النفيسة رفقة ركب الحج³.

رغم كل ما ذُكر عن ركب المغرب الأقصى وشهرته إلا أن ركب الجزائر ظلّ أكبر ركب مغربي شبيه به، والحجاج المغاربة أنفسهم يعترفون بأن ركب الجزائر كان يُضاهي ركبهم، ولا يفتأ يزاخمه ويُنافسه طيلة الطريق إلى الحجاز⁴. ولطالما حافظ الركب الجزائري على استقلالته وتمييزه طوال رحلة الحج، وإن كان يبدو - أحياناً - بعض التداخل مع الركب المغربي أو الركب التونسي أو حتى مع الركب المصري، فإن ذلك يتم لفترة محدّدة بسبب ظروف مُلجئة، ثم لا يلبث أن ينفصل عنها. وهذا الرحالة الورتلاني يتحدث عن قوة الركب الجزائري المتضمّن في المغربي - مجازاً - وصدى ذلك بالبلاد المشرقية فيقول: "... فلا تجد سارقاً يدور بنا، ولا قاطع طريق، خوفاً من الركب المغربي لكثرت وكثرة سلاحه، لا سيما الركب الجزائري"⁵.

المبحث الثاني: أصناف الركب الجزائري وجهاته

01. أجزاء الركب الجزائري البري إقليمياً:

رغم أن الركب الجزائري في مفهومه يشكّل وحدة مترابطة قائمة بذاتها، إلا أنه في أصله نتاج تجمّع وتكتل مجموعة من قوافل الحجاج الجزائريين، من مختلف جهات الإيالة الجزائرية، بما فيها الجهات التي لم تخضع للسيطرة العثمانية. ويمكن اعتبار تلك القوافل بمثابة أركاب جزئية (أو

¹ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص103.

² - محمد الكنسوسي، المصدر السابق، ج01، ص156.

³ - أحمد الناصري، المصدر السابق، ج08، ص34.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص475.

⁵ - الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج03، ص125.

إقليمية إن صحَّ التعبير) على غرار أركاب المغرب الأقصى أو أركاب طرابلس الإقليمية. غير أن أسماءها تبقى متداولة على المستوى المحلي فقط، لا تُسَقَط على هوية الركب في الخارج، حيث كان يُعرف باسم "الجزائري" غالباً¹.

كانت تلك الأركاب الجزئية أو "الجهوية" تنطلق في رحلتها للحج من كبريات الحواضر الجزائرية المشهورة خلال العهد العثماني وقبله، على غرار: بجاية، قسنطينة، الزّاب، الجزائر، مجّاجة (الشلف)، مازونة، ونشريس، تلمسان، أمّ عسكر (معسكر)، توات، وارجلان.... وذلك لتسهيل تجميع حجاج الركب، وتحفيز الجزائريين على الذهاب إلى الحج حيثما كانوا.

أقام الجزائريون على فتراتٍ مجموعة من الزوايا والمحطات، يجتمع فيها الحجاج بالتدرّج، إلى أن يجين وقت مرور الركب المعتاد فيلتحقون به من كل الجهات المجاورة. يقول الرحالة الورثلاني عن إحدى تلك المحطات ".... وبتنا فيها ثلاث ليال، ليَلْحَق بنا من بقي من التّالي"². فمثلاً قد اجتمع في ركب جزائري واحد في أحد المواسم حجاج من المناطق والقبائل التالية: قسنطينة، سطيف، بجاية، زواوة، قصر الطير، أهل عامر، أولاد عبد النور، أولاد سعيد بن سلامة، أهل بسكرة، أهل المسيلة، أهل أمدوكال، أهل الزّاب، أهل الصحراء، توات....³. وفي ما يلي عرضٌ لأهمّ الأقاليم التي كان يتشكّل فيها ركب الحج الجزائري:

أ - الركب من مدينة الجزائر: رغم أن قوافل الحج الجزائرية والمغربية عموماً برية في الأساس، إلا أن مدينة الجزائر دار الجهاد وعاصمة الإيالة لم تول أهمية كبرى لذلك، بل كانت محطة اختيارية للركب البري العابر نواحيها. وإنما اشتهرت بالركب البحري أكثر، حيث كانت مراكب الحجاج تنطلق من ميناء مدينة الجزائر المحروسة نحو ميناء الإسكندرية المصري⁴، وعندما يقترب موعد الحج يأمر الداوي بمناداة أهل الجزائر بالقول: "من أراد الحج فليتهيأ لذلك"⁵!

¹ - يمكن الحديث عن حالات نادرة من أخبار ركب الجزائر، استُخدم فيها مصطلح "ركب قسنطينة" أو "ركب توات"، وذلك لأهمية مدينة قسنطينة وتركز إمارة الركب فيها في العهد العثماني، ولِإِعْدِ منطقة توات جغرافياً، حيث كان ركبها يحمل معه ركب بلاد التكرور. يُنظر: عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص 255.

² - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 01، ص 189.

³ - المصدر نفسه، ج 02، ص 84.

⁴ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 170.

⁵ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 21.

ب - الركب من قسنطينة (قسنطينة¹): مدينة قسنطينة محطة مهمة في طريق الحج، والركب الذي كان يتجمّع فيها من أقدم الأركاب وأشهرها، وأكثرها تنظيماً ودوريةً. سبق في ذلك مجيء العثمانيين إلى قسنطينة ذاتها، حيث كانت ولاية ركب الحج وقيادة الحجاج الجزائريين تُعقد بالمدينة في أسرة "عبد المؤمن" من طرف الحفصيين². ثم أصبحت قسنطينة قاعدة بايلك الشرق الأكثر غنى والأكبر مساحة، فعُهد إليها بتنظيم الركب الجزائري، وأضحى الشيخ عبد الكريم الفكون* أميراً على الركب كلّه منذ سنة 1048هـ/1638م³.

ويتعرّز الركب المتشكّل هناك بقوافل الحجاج المنضمّة إليه من إمارة آل ابن القاضي (القبائل الكبرى) ومن وادي بجاية (القبائل الصغرى) وغيرهما، وحتى بانضمام بعض الحجاج المغاربة الذين يخلّون بقسنطينة، ويرغبون في مرافقة حجّها إلى تونس⁴.

ج - الركب من الجهات الغربية: يُشير الشاعر الرحالة محمد بن مسايب إلى استمرار خروج الركب الجزائري من مدينة تلمسان، على غرار ما كان يحدث في العهد الزياني، فقد ذكر ذلك في رحلته المنظومة منتصف القرن 12هـ/18م قائلاً⁵: (المديد)

نُرْسَلُكَ مِنْ بَابِ تَلْمَسَانَ سِرٌّ فِي حِفْظِ اللَّهِ مَأْمَانٌ
بَعْدَمَا تُزَوَّرُ بِلَا تَمْنَانٍ كُلُّ مَا مِنْ صَاحِحٍ فِيهَا

لم يقتصر خروج ركب الحج من هذه الجهات الغربية على مدينة تلمسان فقط، بل كان يتم أيضاً من حواضر: أمّ عسكر (أو معسكر) ومازونة وبجاجة ومليانة... ففي موسم حجّ

¹ - قسنطينة هكذا كان يردّ ذكرها في العديد من المصادر والوثائق التاريخية خلال تلك الفترة، وقد استمرت هذه التسمية حتى أواخر العهد العثماني بالجزائر، مثلما جاء في رحلة أبي راس الناصري المعسكري (ت1238هـ/1823م) وغيره.
² - أحمد بن المبارك بن العطار: تاريخ بلد قسنطينة، ط خ، تحقيق: عبد الله حمادي، دار الفائز للنشر والطباعة والتوزيع، قسنطينة، 2011م، ص125.

* عبد الكريم الفكون (ت1073هـ/1662م) بن محمد بن عبد الكريم، أديبٌ نحوي محدث، جمع بين علمي الظاهر والباطن، شيخ الإسلام وعالم المغرب الأوسط في عصره، كان يلي إمارة ركب الجزائر في الحج، له تأليف هامة أشهرها "منشور الهداية" و"محدّد السنان". ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص254.

³ - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص182.

⁴ - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص158.

⁵ - Ben Messaib: Itinéraire de Tlemcen a la Mekke, par: Mohamed Ben Cheneb, Revue Africaine, volume 44, 1900, Alger, p275.

1063هـ/1653م - مثلاً - حطَّ الركب الجزائري رحالَه في مدينة مجَّاحة قرب واد الشلف، وذلك بعد إتمام رحلة عودته من الحجاز إلى الجزائر¹.

لقد غابت مدينة وهران عن تنظيم الركب حتى تحريرها الأول ثم الثاني من احتلال الأسيبان في القرن 12هـ/18م. فكان حجاج الغرب الجزائري يجتمعون عادةً عند واد سيق (بين وهران ومعسكر) أولاً في قافلة متوسطة، ثم يتجمعون بعد أسبوعٍ بالآلاف على بساط سهل الشلف، في منظرٍ مهيب، وكأهم "بجر من الخيام"²! ويسلكون الطريق المحاذية لجبال الأطلس التلي. وإذا ما تخلَّف بعضُ الرَّاغبين في الحج عن الركب فإنهم يضطرون إلى التوجه جنوباً نحو منطقة الغاسول (قرب البيض)، لمرافقة الركب السجلماسي المغربي، مثلما وقع لعائلةٍ من منطقة غريس³.

د - الركب من منطقة توات: كان لمنطقة توات الضاربة في أعماق الصحراء الجزائرية عهدٌ بتنظيم الحج منذ بدايات العهد العثماني وقبله بقليل، ففي نواحي عام 923هـ/1517م كان فُضاة توات يتردّدون على الحج، كما تأسّست كذلك زاوية "تيلان" التي دأبت لاحقاً على تنظيم أمور الحج⁴، ثم تفرّعت عنها زاوية "المهدية"، التي خرج منها الركب في أحد المواسم، وفيهم الرحّالة التلاني: ".... وكنا خارجين يوم الاثنين بعد أن قضينا جميع الوطر، وما وهنت قوة عزائم أهل الركب.... من زاويتنا المهدية"⁵. وهو ركب صغير، يتضاعف عدد أفرادَه في محطة أقبلي من بلاد تيدكلت.

تُعتبر محطة أقبلي (نواحي أولف) من أهمّ محطات ركب الحج بالجنوب الجزائري، ففيها يلتقي الحجاج الجزائريون بحجاج بلاد التكرور⁶، ويشكّلون ركباً كبيراً، يشرع في المسير نحو الحجاز مروراً

¹ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و11.

² - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ط01، ترجمة وتقديم: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م، ص43.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص129.

⁴ - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص152.

⁵ - عبد القادر بن عומר التلاني التواتي: الرحلة إلى الحج، مخطوط بخزانة الشيخ أحمد بن حسان، قصر عريان الراس، تسابيت، أدرار، و04.

⁶ - التكرور إقليم واسع جنوب الصحراء الكبرى، يمتد من نهر السنغال غرباً إلى منطقة أدغاغ شرقاً (شمال مالي)، من أهم مدنه تمبكتو وأروان. ينظر: أبو عبد الله الطالب محمد البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ط01، تحقيق: إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص26.

بمدينة عين صالح قاعدة منطقة تيدكلت. فأضحّت أقبلي بذلك نقطة تجمّع لحجاج الصقعين ذهاباً، وعلامة افتراق ووداع بعد أداء المناسك إياباً. ويرجع الفضل في عادة التلاقي تلك إلى جهود الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الكنتي المعروف بأبي نعامه*، مؤسس زاوية "شيخ الركب النبوي" بأقبلي¹، فهو الذي عمل على تجميع القوافل والوفود من توات وتيدكلت والتكرور ابتداءً من سنة 1138هـ/1726م، بعد أن اختفت تلك العادة الحسنة لعقودٍ من الزمن. فأعاد تنظيم دورية ركب الحج من أقبلي، وأصبح الحجاج بفضل ذلك يمكنون فيها أياماً للراحة والتهيؤ لمواصلة الرحلة². ولم يكن المحيي إليها يقتصر على حجاج التكرور العاديين فقط، بل شمل ملوكهم وأمرائهم، فقد حلّ بها ركب باشا تمبكتو سنة 1040هـ/1631م³، في طريقه إلى الحج، كما شهدت من قبلُ رحلة ملك مالي "منسا موسى" الشهيرة في القرن 14هـ/14م.

وكان يحدث أحياناً أن يتقدّم حجاج توات الوسطى، بينما ينتظر أهل تيدكلت ركب التكرور، وتجتمع قوافل الركب لاحقاً بالأراضي الليبية⁴. أمّا أهل منطقة قورارة (تيميمون) شمالي توات فيتجمعون عادةً في ركب خاص بهم، وقد تنعطف قافلتهم جنوباً بعد أيامٍ من خروجها، وتقصّد مدينة عين صالح بتيدكلت، لتنضمّ إلى الركب الكبير المذكور سابقاً. وقد أشار الرحالة عبد القادر التلاني إلى ذلك التلاقي الحادث بعين صالح قائلاً: "... وأقمنا هناك تسعة أيام، عطّلنا فيها ركب قورارة، كتّا مفترقين وصالحونا...."⁵.

وفي حالات استثنائية كان حجاج توات يصحبون الركب المغربي السجلماسي (الفيلاي) الذي يمرّ بشمالي توات عبر قصر عريان الراس بتسايت، ومنه إلى أوكروت ثم تيميمون. يقول

* أبو نعامه سيدي محمد بن عبد الرحمن الكنتي (ت1163هـ/1750م) من أعلام آل كنته بالصحراء الجزائرية، أسس زاويةً بأقبلي في منطقة أولف، وكان شيخ الركب إلى البقاع المقدسة، جامعاً حجاج توات مع حجاج التكرور. ينظر: مبارك جعفري وعبد الله مقلاتي: معجم أعلام توات، ط01، منشورات الرياحين، الجزائر، 2013م، ص338.

¹ - عقباوي عزيز بن بوبكر الهاملي الكنتي: النفحات البهية في أفنان الشجرة الكنتية، د ط، مطبعة عزي، غرداية، دس، ص138.

² - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و03.

³ - Bernard Saffroy: chronique du Touat, Ghardaia: Centre de Documentation Saharienne, p06.

⁴ - عبد الرحمن التلاني، المصدر نفسه، و11.

⁵ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و12.

العياشي عن ذلك: "ثم ارتحلنا من توات بعدما لحق بنا جملة ممن يريد الحج من أهلها"¹. وقد يُرافقون الركب المراكشي الذي يتوغل في توات نحو الركان (رقان حالياً)، ومنها إلى قصر الدغامشة، وصولاً إلى إقسطن أقصى تيدكلت. يقول القيسي في ذلك: "ثم انتقلنا لبلاد كسطن، وهو مدشر منحرف عن الطريق الجادة، قصدناهم لرغبتهم في التوجه معنا إلى الحج"².

وسبب حرص بعض حجاج توات على السفر مع المغاربة إنما ليزيد حجم الركب، ويتقوى كل طرف بالآخر، وخاصة منهم الحجاج المتأخرون عن الإقلاع مع الركب المحلي. وبخصوص الحج من أقاصي الصحراء الجزائرية فهناك إشارة نادرة إلى ما سُمي "ركب التوارك" أي الطوارق، والذي ذُكر من أخباره بأنه تأخر في الوصول إلى المحطة المصرية في إحدى السفريات، وكاد يفوته الموسم، ثم التحق بالأركاب المغاربية بعد خروجها من مصر متجهة نحو الحجاز³.

هـ - الركب من بلاد الزاب: مدينة بسكرة هي قاعدة إقليم الزاب (من بلاد الجريد في تونس شرقاً إلى تخوم المسيلة غرباً)، ومنطقة الزاب عموماً من أكثر المناطق في الجزائر استقبالاً لأركاب الحج الوافدة من المغرب الأقصى، كما أن معظم أمراء الركب الجزائري في الفترة العثمانية كانوا ينتمون لتلك النواحي، من أمثال آل المسعود وآل ناجي، وكلهم مُداومون على الحج، ولهم اهتمام بالغ بشؤون الركب والحجاج⁴، بل إن أحد الشيوخ منهم وُصِفَ بأنه "صاحبُ بسكرة، الذي يُنفق على الصالحين والفقراء في الركب من ماله"⁵. وقد أضحى ركب الجزائر ذا شأنٍ كبير بفضل اهتمام اهتمام أعيان بسكرة ونواحيها بتنظيمه ودوريته، وحرصهم على أن تكون انطلاقته في رحلته إلى الحجاز من مدينة الجزائر ذاتها⁶، لما لها من رمزية دينية وسياسية في آنٍ واحد.

و - الركب من وادي الساورة: كان بعض سكان واد الساورة والعيونة (القنادسة حالياً) يُفضلون الذهاب إلى الحج مع الركب المغربي السجلماسي الذي يمرُّ ببلادهم، لأن قُرى بشار - كما سمّاها

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 80.

² - القيسي السراج، المصدر السابق، ص: 28-30.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 304.

⁴ - المصدر نفسه، ص 711.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 01، ص 185.

⁶ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج 01، ص 40.

العياشي - قريبة من "فجيج" المغربية، فينضمون للركب السجلماسي الذي يحمل أهل فجيج معه¹. لكن اجتماع الركب الجزائري من تلك النواحي كان يتم كذلك في منطقة القنادسة، حيث يجتمع الحجاج عند منزل شيخ الزاوية الزيانية القندوسية (نسبةً إلى القنادسة)، ويقدمون من يتوسمون فيه القدرة والعزيمة على أمور الركب وضرورياته، وما يحتاجون إليه من الجمع والفرق².

كما أن منطقة بني عباس في واد الساورة اشتهرت كمركز علمي هام في تلك الفترة، وخاصة بعدما حلّ بها الفقيه الأديب والصوفي الثائر أبو العباس أحمد ابن أبي محلي السجلماسي (ت1022هـ/1613م)*، فقد استقرّ بها لسنوات، وتزوج من أهلها، وكان الركب الذي حجّ معه ابنُ أبي محلي السجلماسي نفسه في موسمين غير متتاليين ينطلق من هناك، أي من مدينة بني عباس، ثمّ يقطع إقليم الجزائر عرضياً في مسارين متباينين³.

ز - الركب من وادي مزاب: اعتاد ركب الحج في قُرى مزاب أن يتجمّع من نواحي الوادي في غرداية، بالقرب من مقام (ضريح) الشيخ "حمّو والحاج" أحد علماء وأعلام الأباضية⁴. وأهل مزاب مزاب لهم تجربة عريقة في تنظيم القوافل وتجهيزها، ومن تمّ تسييرها نحو الحجاز لأداء مناسك الحج. وأحياناً ينضم إلى ذلك الركب من حجاج مزاب حجاج من جزيرة جربة التونسية، يلتقون بهم في محطة طرابلس الليبية⁵، وفي حالةٍ أخرى كانوا يحجّون مع الركب المغربي، الذي ينتظرونه قرب قرب الأغواط. فقد حدث في أحد المواسم أن رحل ستون حاجاً من وادي مزاب إلى تلك المحطة لملاقاة ركب المغاربة، وفرح المغاربة بمقدّمهم، لحدوث الزيادة العددية في الركب⁶.

¹ - أبو سالم العياشي: تعداد المنازل الحجازية (الرحلة الصغرى)، ط01، تحقيق: عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013م، ص49.

² - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص124.

* أحمد ابن أبي محلي السجلماسي (ت1022هـ/1613م) ادّعى أنه المهدي المنتظر، بعدما حج وكتب رؤساء القبائل في الصحراء لنصرتة، استولى على سجلماسة، ثمّ زحف إلى مراكش ودخلها، لكنّ السلطان السعدي زيدان تمكّن منه بدعم من الفقيه الحاحي. يُنظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج01، ص161.

³ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص100.

⁴ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص44.

⁵ - المصدر نفسه، ص70.

⁶ - أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، د ط، تحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة، 2012م، ص184.

ح - الركب من تكرت (تقرت) ووركلا¹ (ورقلة): واضب سكان هذا الإقليم على تنظيم رحلة الحج منذ أمدٍ بعيد، ويبدو أن الركب المتكوّن هناك كان ذا إمكانيات كبيرة، فقد ذكر الدرعي الرحالة المغربي أنّ ركبهم التقى حجّاجاً من أهل "تكرت" راجعين من الحجاز، بعد أن تمكنوا من اجتياز السبخة الكبيرة الهائلة التي لم يُسمَع مثلها في الأرض، في الطول والعرض، وقد كانت الأركاب تَحيّرُ فيها، وربما تهلك فيها الرواحل². كما كان بعض الحجّاج من ورقلة وتقرت يمرّون على تونس، فيحصلون هناك على هدايا من الباي³، إكراماً لهم وتوطيداً لعلاقات الجوار.

يُشارُ في آخر حديثنا عن تلكم الأركاب الجزئية إلى أن نسبة الركب إلى جهة معينة لا يعني أن الحجّاج المكوّنين له ينتمون بالضرورة إلى موطن تلك النسبة انتماءً كلياً، بل قد يتجمّع فيه حجّاج من جهات متعددة، من المدن والأرياف، ولاسيما إذا كانت الجهات متجاورة. فيتكاثر عددهم، ويتعارفون فيما بينهم، وينخرطون في رحلة الركب إلى الحجاز ذهاباً وإياباً. وحين ولوج الجزائر بعد الحج تُؤيّى كلُّ مجموعة من الحجّاج وجهها شطرَ موطنها أو إقليمها. فمثلاً يقول الرحالة المجاجي عن مآل الركب بعد العودة من حجّة 1063هـ/1653م⁴: (الطويل)

هناك افترقَ الركبُ عندَ صباحنا وارقلي وربيغي ثمّ عنّابي نسبة
وعيرهم من النواحي ذكرته فسنطيني ثمّ تونسي في صحيفة
وبعض من أهل الزاب فارقَ عندما أتى معنا أياماً من قفصة

وبالتالي فإنّ تجرئة الركب الجزائري إقليمياً إنّ بدت فإنما تكون في الانطلاق لأجل التشكّل، ثمّ يتوحّد الركب في محطات الطريق الخارجية، ثمّ تظهر التجزئة مرة أخرى على مشارف الوصول إلى الجزائر في العودة، لضرورة الفراق. فمثلاً في موسم حجّ 1179هـ/1766م ضمّ الركب عدة أقاليم وقبائل، لكنه رحل موحّداً ثمّ عاد موحّداً، وفي الإيالة التونسية انقسم إلى ركبين: ركب التل الذي رغّب في المرور على مدينة تونس، ودخول الجزائر من شرقها، وركب الهضاب والصحراء الذي

¹ - وركلاً ومن قبلُ اشتهرت باسم "وارجلان"، من الأسماء التاريخية القديمة الشائعة في المصادر التاريخية، والتي تسمّت بها مدينة ورقلة الحالية، الواقعة جنوب شرق الجزائر.

² - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص161.

³ - خليفة حمّاش: كشاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي، ط02، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2016م، ج01، ص407.

⁴ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و06.

رغبَ في المرور على مدينة توزر (قاعدة بلاد الجريد) ودخول الجزائر من جنوبها الشرقي، وقد تَوَجَّح ذلك الفراقَ شديداً التأسُّف والحزن من طرف الحجاج، بعدما جمعهم الركب ووحَّد كلمتهم لشهور¹. والمهم في الأمر أنَّ رحلة الحجاج الجزائريين من حيثما تمَّت في ذلك العهد، فإنَّها كانت توسمُ في الأخير باسم "الركب الجزائري".

02. الركب الجزائري البحري أو الحجُّ بحراً:

لم يقتصر ركب الحج من الجزائر على البرِّ فقط، بل أخذ حظَّهُ من البحر والسفن كذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ((وَلْتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ))². ويُقصد بالركب البحري جماعات الحجاج التي تسافر عبرَ البحر، ممتطيةً السفنَ الشراعية ذاتعة الصيت وقتئذٍ. على أن الركب البحري لا يمكن قطع صلته بالركب البرِّي، فرحلة الحج من الجزائر قد تبدأ براً ثمَّ تؤولُ إلى البحر، والعكس صحيح³. من أمثلة ذلك أن حجاجاً جزائريين واصلوا رحلتهم من ميناء طرابلس إلى ميناء الإسكندرية بحراً، بعدما انطلقوا فيها براً من الجزائر، وذلك بتدخُّلٍ وتوصيةٍ من حاكم طرابلس، ثمَّ واصلوا ما تبقى من الطريق في ما وراء الإسكندرية براً⁴. فركبُ الحج الجزائري قد يضطرُّ إلى سلوك المسارين في رحلة حجٍّ واحدة.

لقد تمكن الجزائريون بفضل انضمامهم للدولة العثمانية من ضمان ممرٍّ إضافي لرحلاتهم نحو الحجاز، على خلاف الركب المغربي الذي ظلَّ برياً في الأساس⁵. إنه ممرٌّ مهمٌ قد يُضطرُّ إلى اجتيازه بصفةٍ جماعيةٍ أثناء الطوارئ والنكبات، مثلما حدث في أحد المواسم، حيث تعدَّر السفر إلى الحج براً، بسبب وباء شديد فَشَا في الجزائر جُلَّها، فلجأ الناس - على غير عادة معظمهم - إلى

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج03، ص305.

² - سورة غافر، من الآية 80.

³ - لم تكن هناك رحلات بحرية مباشرة إلى الحجاز في ذلك العهد (قناة السويس لم تُحَفَّر سوى في عام 1869م/1286هـ)، وإنما رحلات عبور إلى الإسكندرية غالباً، ومنها إلى مصبِّ نهر النيل في مدينة رشيد شرقاً، ثمَّ عبَّر نهر النيل جنوباً نحو مدينة بولاق القريبة من القاهرة، ومن القاهرة براً إلى ميناء السويس، ومن السويس إلى ميناء ينبوع القريب من المدينة المنورة، أو إلى ميناء جُدَّة القريب من مكة المكرمة. يُنظر: جوزيف بتس، المصدر السابق، ص ص 24-44.

⁴ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج01، ص335.

⁵ - بيير سيمون جيران: وصف مصر موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، ط03، ترجمة: زهير الشايب، دار الكتب، القاهرة، 1978م، ج04، ص258.

الذهاب للحج بجزاً¹. وعندما تكون السفن جاهزة للإبحار نحو ميناء الإسكندرية، يُنادي المنادي في مدينة الجزائر مُعلنًا ميعاد إقلاعها، فينتهز كلُّ من نوى الحج في ذلك العام الفرصة بسعادةٍ للسفر بجزاً². لكنَّ تلك السعادة مشوبةٌ بحذر، فالمسافر بجزاً قد يستذكرُ - مثلما استذكر الرحالة المقرّي التلمساني - رأيَ الشاعر الجزائري "ابن رشيق المسيلي" في ركوب البحر³: (الوافر)

الْبَحْرُ صَعْبُ الْمَرَامِ جِدًّا لَا جُعِلْتُ حَاجَتِي إِلَيْهِ
أَلَيْسَ مَاءً وَنَحْنُ طَيْرٌ فَمَا عَسَى صَبْرُنَا عَلَيْهِ

ورغم أن الأسطول الجزائري كان أعظم قوة بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال تلك الفترة، إلا أن وحداته لم تُستغل كثيراً في نقل الحجاج الجزائريين، وذلك لعُلبَةِ الجانب العسكري الجهادي عليها. فكانت الجزائر تلجأ إلى كراء السفن الأوروبية ذات الأحجام الكبيرة التي تصلح لنقل الحجاج الجزائريين، سفنٍ فرنسية وإنجليزية وسويدية وهولندية ويونانية... فمثلاً في موسم حج 1091هـ/1680م امتطى الحجاج سفينة فرنسية لنقلهم من الجزائر إلى الإسكندرية، وكانت ترفع بين الفينة والأخرى أعلاماً تحمل الألوان الفرنسية (French Couleurs)⁴، وفي عام 1096هـ/1685م تمَّ استئجار سفينة هولندية لحمل الحجاج من العامّة والمسؤولين الأتراك، وفي عام 1127هـ/1715م كان سفر بعض الأتراك ومعهم مجموعة من الجزائريين على متن سفينة إنجليزية، وفي عامي 1131هـ/1719م و1140هـ/1727م تمَّ الاتفاق مع سفينتين فرنسيتين⁵. على أن دايات الجزائر في آخر العهد كانوا يُفضّلون كراء المراكب الإنجليزية على غيرها⁶، وذلك

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص101.

² - المصدر نفسه، ص23.

³ - أبو العباس أحمد المقرّي التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، د ط، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ج01، ص33.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص24.

⁵ - عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص221.

⁶ - مدح الرّحّالون إلى الحجاز عبر البحر المراكب الإنجليزية لوفائها، ودُمّوا المراكب الفرنسية لغدرها، فنظّم السوسى: (الرجز)

وَإِنَّ دَا الْمَرْكَبِ إِنكَلِيزِي وَإِنَّهُ فِي الطَّبَعِ دُو التَّمْيِيزِ
وَهُوَ يُدَارِي لَيْسَ يَكَلْحُ وَلَا يَغْدِرُ فِي وُعودِهِ كُلَّ المَلَا
وَأَعْدُرُ النَّاسِ الفَرَنْسِيسُ فَمَا يُوجَدُ مِنْهُ مَنْ يَفِي إِنْ كَلَّمَا

يُنظر: محمد المختار السوسى: أصفي الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، د ن، الرباط، 1959م، ص54.

بحكم العلاقات الدبلوماسية الحسنة في الغالب مع الإنجليز¹. كما كانت المراكب السويدية أيضاً دائمة التردد على الموانئ الجزائرية، حيث يتمّ كراؤها كذلك في نقل العساكر².

لئن كان الناقلون البحريون للحجاج أوروبيين في الغالب، فإن ميناء "حلق الوادي" بمدينة تونس قد تفوّق على بقية الموانئ في استقبال ونقل الحجاج الجزائريين والمغاربة، وأضحى هذا الميناء في أواخر القرن 12هـ/18م يُضاهي موانئ أزميز واسطنبول والإسكندرية، فيستقبل سنوياً اثني عشر سفينة مخصّصة لنقل الحجاج والتجار منه إلى ميناء الإسكندرية، في حين لا يستقبل ميناء مدينة الجزائر سوى أربع سفن فقط لذلك الغرض³، وذلك بسبب موقع ميناء الجزائر وبُعده النسبي، وكذا تحرّش بعض البلدان الأوروبية به باستمرار.

تمّ في إحدى الرحلات البحرية كراء مركبين كبيرين أحدهما إيطالي والآخر إنجليزي لنقل الحجاج الجزائريين المسافرين عبر ميناء تونس، وجميعهم حجاج من الجهات الغربية⁴. وذلك رغم أنّ حجاج الجهات الشرقية كانوا أكثر الجزائريين توافداً على ميناء تونس، نظراً للقرب الجغرافي، وللعلاقات المتميّزة بين باي تونس وباي قسنطينة. وقد شارك الرحالة الوريثاني في توديع ركب كبير من حجاج الجزائر المنطلقين من "جبل زاوة"، والمتجمّعين لاحقاً بقسنطينة، القاصدين تونس لركوب البحر⁵. وأحياناً كان حجاج الشرق ومن انضمّ إليهم يمتدّون بمدينة قسنطينة حتى يتعيّن سفر المراكب من تونس فيتمّ إخبارهم، فيقصدونها في يومي الاثنين والخميس⁶.

لقد اشتهرت الجزائر العثمانية بأسطولها الحربي ذائع الصيت، وكان من ضمنه عشرات السفن الخاصة بالنقل والشحن، كانت توجه في الغالب للأغراض الدبلوماسية أو العسكرية. ومن بواكير نشاط البحرية الجزائرية في العهد العثماني أن سفينة جزائرية هي من حملت مبعوثي السلطان المغربي السعدي أحمد المنصور الذهبي وهديته ورسالته إلى السلطان العثماني مراد الثالث في سنة

¹ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 119.

² - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص 349.

³ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص 89.

⁴ - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص 22.

⁵ - الحسين الوريثاني، المصدر السابق، ج 01، ص 87.

⁶ - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص 158.

997هـ/1589م، انطلاقاً من ميناء تطوان باتجاه ميناء اسطنبول¹. كما يسوق الرحالة الزباني مثلاً عن النشاط العسكري قائلاً: "فنزلتُ من مصر للإسكندرية، إذ أخبروني أن مراكباً وردت من الجزائر، موسوقة بالزرع لأزمير، ومنه تحمل العسكر للجزائر"². لكن ذلك لا يعني انتفاء السفن الجزائرية المخصصة لنقل الحجاج، بل دليل وجود ناقلين جزائريين "خواص"³! مثل الرايس "الحاج أحمد بن سماية" الذي امتلك مركباً سعته 230 فرداً، والرايس "الحاج أحمد بن غانم" الذي سخر سفينته لحمل الحجاج وصدقات فقراء الحرمين الشريفين سنة 1105هـ/1693م⁴.

وقصد تسهيل عملية سفر الحجاج الجزائريين بحراً وضمان تنقلهم من ميناء لآخر بكل يسرٍ امتلكت الجزائر مجموعة من الوكلاء في المحطات (الموانئ) التي كانت ترسو فيها السفن بانتظام، وهي - على التوالي - موانئ: تونس، جربة، طرابلس، الإسكندرية، ورشيد. واشترك معظم أولئك الوكلاء في حمل لقب "الجزيري" (أي الجزائري) لتمييزهم.

اشتهر من بين أولئك الوكلاء الوكيل مصطفى الجزيري بإشرافه على نشاطات النقل من وإلى ميناء حلق الوادي⁵، والوكيل الحاج علي الجزيري الذي اهتمّ بأمر نقل الحجاج الجزائريين من ميناء تونس، وقد كان خليفة باشا الجزائر فيها، يقصده كل من نوى السفر بحراً⁶، ومنهم كذلك الوكيل الحاج أحمد بوجيدة الذي كانت له علاقات طيبة مع حكام تونس⁷. وللجزائر في الإسكندرية ورشيد وكالتان تعنتيان بالحجاج، وقد كان وكيل الجزائر بالإسكندرية يستغل سفن الحجاج لإرسال بعض الشباب الطموحين للعمل بالجزائر في النشاط البحري، طمعاً في الثروة والمجد⁸؟

¹ - علي بن محمد التمكروقي: النفحة المسكية في السفارة التركية، د ط، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002م، ص 07.

² - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص 265.

³ - حول ظاهرة ملكية السفن والمراكب من قبل الجزائريين - رجالاً ونساءً - في العهد العثماني يُنظر: خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص ص: 762-766.

⁴ - عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص 221.

⁵ - خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص 359.

⁶ - أبو القاسم الزباني، المصدر نفسه، ص 165.

⁷ - خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع نفسه، ص 377.

⁸ - جميلة معاشي: الإنكشارية في الجزائر بين الهجرة والتهجير، ملتقى سوسيوولوجية الهجرة، مرجع سابق، ص 79.

وعليه فإنّ الركب البحري لم يشتهر مثلما اشتهر الركب البري، رغم أنه أقلُّ إرهاباً ومدّة سيرٍ منه! وذلك بسبب العزوف الشعبي عنه في معظم المواسم، خوفاً من هجوم القراصنة طوارق البحر الفُجائيين¹، ومن تداعيات تقطُّع الرحلة البحرية في المحطات المصرية، ومن خطرِ الإبحار في البحر الأحمر بسبب كثرة الصخور². ومن عدم ضمان توفُّر السفن اللازمة للنقل في الأوان المناسب، في ظلّ فرض ضرائب باهضة على إرساء السفن في الموانئ والخلجان الجزائرية³.

ومن أسباب العزوف الشعبي عن البحر كذلك الخوفُ من غدرِ الرياح وتلاطم الأمواج وسوء المآل. ففي موسم حجّ 1239هـ/1824م - مثلاً - صحبَ ألفاً حاج الأمير عبد القادر ووالده محي الدين، انطلاقاً من ميناء تونس، لكنّ السفينة التي أقلت الحجاج الجزائريين في هذه الرحلة رجعت إلى الميناء بعد إبحار ستة أيام كاملة، وذلك بسبب هبوب الرياح الشرقية الهوجاء⁴، التي عطّلت عمل الأشرعة وحالت دون تقدُّم السفينة، فما كان على قائدها سوى الانتظار حتى تهبّ الرياح الغربية الموائمة، وألاً يُغامرَ فتتقاذفهم الأمواج، وتغرق السفينة بمن فيها، فيصدّق فيهم قول الشاعر الحاج⁵: (الرجز)

وَكَمْ وَكَمْ مِنْ سَفْنِ الْحِجَّاجِ أَتَى عَلَيْهَا الْبَحْرُ بِالْأَمْوَاجِ

والملاحظُ - رغم ذلك - أن رحلات الحجّ بجزراً شاعت بصفة ملحوظة أواخر العهد العثماني لأسباب سياسية وأمنية، فقد تمّ الحج بقوة سنة 1217هـ/1803م، بعد انحسار الحملة الفرنسية عن مصر، وحضر الكثير من الحجاج إليها من طريق البحر⁶. لكنّ العودة إلى الجزائر بعد انقضاء الحج ظلّت برية في معظمها! ربما مردُّ ذلك كثرة السلع والأحمال التي يجلبها معهم الحجاج، أو

¹ - لم تسلّم سفنُ الحجاج الجزائريين من اعتداءات القراصنة الأوروبيين في رحلتها الحمية المقدسة. يُنظر: الفصل الثالث، المبحث الثاني (إشكالية تأمين مسالك الحجاج ومعابريهم).

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص42.

³ - وليم سينسر: الجزائر في عهد رياس البحر، ط خ، ترجمة وتقديم: عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م، ص148.

⁴ - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص45.

⁵ - محمد المختار السوسي، المصدر السابق، ص69.

⁶ - عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ط02، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998م، ج03، ص369.

بسبب عدم العجلة للوصول في وقت مضبوط، مثلما هو الأمر بالنسبة لرحلة الذهاب. وجدير بالذكر في الأخير أنّ السفر إلى الحج بجزراً قد سادَ في الجزائر أواخر القرن 13هـ/19م، أي بعد تعرّض كلِّ من الجزائر وتونس للاحتلال الفرنسي، وبعد شقِّ قناة السويس، وكان ركوب حجاج شمال أفريقيا يتّم من مينائي عنابة وتونس¹.

المبحث الثالث: علاقة السلطات العثمانية بالركب الجزائري

01. اهتمامُ سلاطين آل عثمان بأموال الحج:

الأتراك العثمانيون مكوّن مهم من مكوّنات الأمة الإسلامية في العصر الحديث، والركب التركي مثله مثل بقية الأركاب الإسلامية واطبَّ على أداء الحج بصفة دورية، فكان يخرج عادة في شهر رجب من كل سنة، ويمرُّ ببلاد بالشام، بعد أن يُعيّن له السلطان الخيام والأنعام لحمل الأثاث والحامل والأثقال². وعندما ضمَّ السلطان العثماني سليم الأول مصر إلى دولته في عام 923هـ/1517م خُطب له على المنابر بأنّه "مالكُ البحرين، وكاسرُ الجيشين، وخادمُ الحرمين الشريفين"³، ثمَّ وجّه أنظاره صوب الحجاز، وعني بضمّه للخلافة الإسلامية العثمانية الناشئة، فتّم له ذلك بعد أن أقرَّ حاكم مكة المكرمة على إمارته مقابل الدعاء للسلطان العثماني المنصَّب خليفةً، والذي أصبح يوسم من يومها بـ "أمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين"⁴.

اهتمَّت السلطات العثمانية بتنظيم الحج بشكل يسهّل على المسلمين القيام به، من خلال تحسين شبكة الحصون التي تحمي طريق القوافل، المنطلقة من القاهرة ومن دمشق بشكل خاص، وهيئة نقاط التزود بالمياه، وتقديم إعانات مالية للبدو قصد توفير الجمال في المحطات، وإنفاق أموال طائلة لتمويل القافلة ورواتب الجنود للحراسة. لقد كان الحجُّ في كل عام مناسبة تنتهزها

¹ - هواري قبائلي: مسألة الحج في السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر 1894-1962م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، إشراف: بوعلام بلقاسمي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013/2014م، ص509.

² - محمد بن عبد الوهاب المكناسي: إحرار المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، ط01، تحقيق: محمد بوكبوط، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2003م، ص136.

³ - أحمد الرشيد: حسن الصفا والابتهاج بذكر من وليّ إمارة الحاج، د ط، تحقيق: ليلي عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م، ص13.

⁴ - أحمد السباعي: تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط05، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1999م، ج02، ص394.

الدولة العثمانية لتأكيد سلطتها الدينية والدينية باعتبارها القوة الإسلامية الرئيسية¹. كما عمّم العثمانيون عادةً "الصُّرَّة العثمانية"² المرسله سنوياً إلى فقراء الحرمين الشريفين على جميع الأقاليم الخاضعة لهم، وأمروا مندوبيهم وحكام الأقاليم بمساعدة الحجاج الفقراء الذين يسرون مع الركب دون مالٍ أو مئونة³. وكان للعثمانيين كذلك اعتناء عظيم بحرمي مكة والمدينة، يُعيدون بناء ما سقط، ويجددون ما تلاشى منه. فمثلاً أرسل السلطان العثماني في إحدى السنوات مائة ألف دينار ذهباً لتجديد ما يحتاج إلى التجديد في معالم الحرمين، بعد عرضها لسيول جارفة⁴.

رغم كلِّ ما ذكر من جهود السلاطين العثمانيين لخدمة الحجاج والحرمين الشريفين، إلا أن المفارقة الغربية هي أنهم لم يحجُّوا منذ فتح القسطنطينية عام 1453م/857هـ! ولم يُغادروا اسطنبول سوى للقيام بالغزوات والفتوحات⁵. ثم إن السلطات العثمانية لم تُولِّ لإمارة الحج وتنظيم قوافله في البلاد المغاربية نفس الأهمية التي نالتها القوافل الشرقية؟ حيث كان التركيز مُنصباً على القافلتين الكبيرتين في موسم الحج: الشامية والمصرية، فقد حظي الركب المصري بصفة خاصة باهتمام بالغ ومعاملة تفضيلية من طرف السلطات العثمانية⁶. وربما كان الإنفاق العثماني السخي السخي على ركب الحج المصري - مثلاً - يرجع إلى احتوائه المفترض على أركاب الحج المغاربية، منذ خروجها من مصر ودخولها في آخر مقطع من طريق الحجاز.

02. ارتباط أترك الجزائر بالحج ومستلزماته:

نجد في الجزائر العثمانية أنَّ الكثيرين من الدايات والبايات والوزراء والقادة الأتراك والمنتسبين إلى الدواوين قد حُلِّيت أسماءهم بِوَسْم "الحاج"، من أمثال: الداوي الشهير الحاج حسين ميزومورتو،

¹ - روبر مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ط01، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، 1993م، ج01، ص561.

² - الصُّرَّة: مصطلح مشرقي في الأصل، وهي المقدار من المال الذهب من حصيلة الأوقاف، الذي يُرسل كلَّ عام مع ركب الحج، ليوزَّع على فقراء الحرمين الشريفين وفق نظام محدَّد. يُنظر: الشريف الزهار، المصدر السابق، ص183.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص70.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص141.

⁵ - عزيز سامح التز: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ط01، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989م، ص444.

⁶ - إسماعيل حقي جارشلي: أشرف مكة المكرمة وأمرؤها في العهد العثماني، ط01، ترجمة: خليل علي مراد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003م، ص107.

الذي تلقب بالداي حجي¹، والداي الحاج علي باشا. وعلى منوالهما نجد: الحاج حسن باشا، الحاج أحمد باي، الحاج محمد بن محمود، الحاج أحمد بلكباشي بن ولي التركي، الحاج حسن آغا بن محمد التركي، الحاج محمد التريكي، الحاج خليل معزول آغا، الحاج علي أرناؤوط، الحاج عمر باش كاتب، الحاج يوسف وكيل الحرج، الحاج مصطفى كاهية، الحاج عبد الله صاري عسكري، الحاج محمد الشريف الزهار....².

والملاحظ كذلك هو إصرار قادة الأسطول البحري الجزائري - من الأتراك والجزائريين - على أداء ركن الحج، من أمثال: الحاج علي ريس، الحاج عثمان ريس، الحاج مصطفى ريس ولد عيسى، الحاج أحمد الحداد ريس، الحاج محمد ريس، الحاج سليمان ريس وغيرهم³، وذلك رغم التزامات الجهاد البحري المضنية في حوض المتوسط. وقد يساعدهم على ذلك امتلاك السفن، وتواجدهم أحياناً كثيرة بالمشرق، وقربهم من الشام ومصر مدخلي بلاد الحجاز.

أحياناً كان حاكم الجزائر يُرسل من يُمثله في رحلة الحج، فقد أرسل الداي حسين - مثلاً - شخصاً يسمى "أحمد أفندي" نيابةً عنه إلى الحج، وكلفه بتوزيع صدقاته على فقراء الحرمين الشريفين، وكانت رحلته مع مرافقيه بجزراً عبر ميناء الإسكندرية ذهاباً وإياباً⁴. كما يتبين حرص بعض من حج من البايات الأتراك على تخليد أسمائهم مقرونةً بلفظ "الحاج". نقرأ ذلك - مثلاً - في النص التالي المنقوش على حجارة الجامع الأعظم بمعسكر، المبني عام 1160هـ/1747م من طرف باي بايلك الغرب، فقد جاء فيه: "الحمد لله حمداً لا نهايةً لطوله، وصلى الله على سيدنا محمد نبينا عبده ورسوله، أما بعد: فقد أمر ببناء هذا المسجد المبارك الحمدُ المعظمُ الأرفعُ القامعُ للعِدا.... حاجُ الحرمين.... مولانا الحاج عثمان باي...."⁵.

¹ - سامح التر، المرجع السابق، ص 426.

² - يمكن عدُّ المئات من أسماء شبيهة بتلك، بالاطِّلاع على سجلات المحاكم الشرعية وغيرها من المصادر الجزائرية في الفترة العثمانية، وعلى رأسها مذكرات "الشريف الزهار" نقيب أشرف الجزائر أواخر العهد العثماني، فقد حرص على إظهار صفة "الحاج" في أسماء الكثيرين ممن ترجم لهم.

³ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 29-129.

⁴ - رسالة من أحد الحجاج إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/256.

⁵ - محمد بن يوسف الزباني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ط خ، تحقيق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 256.

وعلى ذكر الصدقات فقد دأب الحكام العثمانيون المحليون على إرسال الصّرة الجزائرية (أي محصّلة أموال أوقاف الجزائريين على الحرمين الشريفين) إلى مستحقيها بالحرمين الشريفين سنوياً، والوقوف شخصياً على إعداد قوائم الفقراء المستفيدين منها، أما العون المكلف رسمياً بإيصالها إلى الحجاز فهو في الغالب "أمين بيت المال"¹. ويتم إرسال الصرة الجزائرية وأمينها على متن سفينة الحج المتجهة إلى ميناء الإسكندرية، وتُرافقها مجموعة من المراكب القتالية لحمايتها وضمان وصولها². وكان منصب وكيل مؤسسة الحرمين الشريفين بالجزائر ذا أهمية وقدسية، يتولاه مجموعة من الأُمماء، ويُشترط في ما يُشترط في ذلك أداء ركن الحج³.

كان الركب البحري الحامل للصّرة بمثابة الركب الرسمي لرحلة الحج من الجزائر، لذلك اهتمت السلطات العثمانية بكراء أجود السفن لنقل المحظوظين من الحجاج على متنها إلى الحرمين الشريفين⁴. وكان للموظف المتولّي إدارة أموال الأوقاف الحق في الرحلة مجاناً رفقة أفراد عائلته⁵.

أمّا الأتراك المنحرفون في الوظائف الإدارية والعسكرية فلا يجروون على السفر للحج دون إذن الداي، وإن سُمح لهم بالحج وجاوز غيابهم سنة كاملة تمّ تغريمهم بعد عودتهم للجزائر راتب سنة، وخرموا راتبهم بقية تلك السنة⁶. لذلك كان بعض ضباط الفرق العسكرية (الأوجاق) يقومون بجمع الأموال من عناصر الأوجاق أثناء ذهابهم إلى الحج، بداعي الصلة التي تربطهم مع بعضهم البعض، والرغبة في المضاربة بتلك الأموال، ويأخذون معهم بعض المصنوعات والتحف الثمينة لبيعها في بلدانهم الأصلية عند زيارتها، لاعتقادهم أنها مُعفاة من الرسوم الجمركية⁷. وبالتالي ضمان مورد مالي مُهم يعوّض تبعات فترة الغياب الطويلة عن الجزائر.

¹ - عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص 220.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 170.

³ - خليفة حمّاش: دكان الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدارة، العدد 01، السنة 2009م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ص 141.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والحماية الفترة الحديثة، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001م، ص 177.

⁵ - هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 129.

⁶ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 23.

⁷ - سامح التمر، المرجع السابق، ص 517.

لظالما فضل أترأك الجزائر الراغبون في أداء الحج التكتل في قافلة خاصة بهم، بحكم طبيعة وجودهم، وخصوصية مناصبهم. ومن نماذج مواكبهم الحجية: موكب "الحاج إسماعيل" آغا صبايحية الترك سنة 1185هـ/1771م، مروراً بمدينة عنابة وميناء تونس¹. وموكب "محمد خوجة" حفيد باي قسنطينة سنة 1193هـ/1779م، المنطلق براً من قسنطينة، العابر نحو ميناء تونس، وقد ضمّ الكاتب والخزنجي والباش سراج، الذين استفادوا من الزاد والإكراميات مع حريمهم وأتباعهم، طيلة إقامتهم بتونس في ذهابهم للحج ثم في عودتهم². كما حجّ القاضي والمفتي الحنفي "ابن العنابي" سنة 1236هـ/1821م ضمن وفد رسمي من مدينة الجزائر، رفقة شقيق الداوي حسين داوي الجزائر³. والأمر ذاته بالنسبة لأهل مخزن وهران من الأتراك، الذين سافر معهم الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر سنة 1240هـ/1825م، فقد انتقلوا بحراً من وهران إلى تونس، ومن تونس استقلوا مركباً إنجليزياً مخصّصاً لنقلهم إلى مدينة الإسكندرية⁴.

ما يمكن استنتاجه من النماذج السابقة هو أن كبار القادة والموظفين العثمانيين بالجزائر كانوا يفضّلون السفر إلى الحج بحراً عبر تونس، إذ يحظون فيها بعد وصولها بمعاملة تمييزية، فيتلقون فيها الهدايا والمثونة اللازمة للإقامة أولاً، ثمّ للسفر في الذهاب وكذا في الإياب. أمّا عن بقية سفرهم ما بعد ميناء الإسكندرية فقد يكون أولاً عبر البر من القاهرة إلى السويس، ثمّ عبر البحر الأحمر من ميناء السويس وصولاً إلى ميناء جدة، وذلك أمر يُطبقون تكاليفه. أو يكون ما تبقى من سفرهم اندماجاً في الركب الجزائري البري، الذي يُرافق بدوره المصري في ذلك المقطع.

تلك الخصوصية لا تعني أن أترأك الجزائر كانوا يستنكفون عن مرافقة الحجاج الجزائريين ومخالطتهم، بل كانوا يحجّون مع العوام من الحجاج الجزائريين في رحلة البرّ الشاقّة. فممنّ ضمّهم الركب الجزائري الذي حجّ ضمنه الرحالة الورثلاني نجد شخصيات تركية، على منوال: الحاج خليل بن قاصد علي التركي، والحاج محمد بن معمر اللمداني الكورغلي صهر داوي الجزائر⁵. وإن كان

¹ - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص363.

² - المرجع نفسه، ص370.

³ - أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص08.

⁴ - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص21.

⁵ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص258.

الأترك في سفرهم إلى الحج يأنفون من مزاحمة الحجاج المغاربة لهم في الطريق! ذلك ما عايشه الرحالة المغربي العياشي وأكدّه قائلاً: "... وكان أهل الجزائر قد طلبوا من أصحابنا أن يتأخروا عنهم يوماً يُقيمونه بالجابية، مُعتلّين بأنّ معهم من أكابر ترك الجزائر طائفة لا يرضون أن يتقدّم عليهم صعاليك المغاربة"¹!

03. حدود الوصاية العثمانية على شؤون الحج بالجزائر:

إنّ الحديث عن وصاية العثمانيين على حجّ الجزائريين يندرج أصلاً ضمن إشكالية تحديد الهوية الجزائرية في ظل الوجود العثماني، وحدود التقاطع بين "البلاد الجزائرية" و"الإيالة العثمانية"؟ حيث يرى بعض المؤرخين أنّ مجال السلطة العثمانية لم يتعدّد سدس البلاد الجزائرية². وهذا الرحالة الورثلايني - وهو شاهد من القرن 12هـ/18م - يصف موطنه غير البعيد جغرافياً عن مراكز السلطة العثمانية بالشمال بأنّه "سائبٌ وحالٍ من السلطان وأحكامه"³! إنّ ذلك نتاج طبيعة العلاقة القائمة بين أهل الجزائر والحكام الأتراك المنصبين، إذ لم يكن للجزائريين دخلٌ في الأمر، فالذي يويّ ويعزل الحكام هم العسكر، سواء كانوا من طائفة الرياس، أو من الانكشارية⁴.

وعملية تنظيم ركب الحج هي "جزءٌ من كلّ"، لا يمكن الحديث عنها خارج سياقها التاريخي والسياسي. فإنّ كان حكم "السلطان" غير نافذ في أهل جبل زواوة (أي منطقة القبائل) بمناسبة استعداد ركبهم للذهاب إلى الحج - كما شهد الورثلايني⁵ -، فما بالك بمناطق الهضاب والأرياف أو الصحراء الشاسعة البعيدة؟ والتي اضطرّ بعض سكانها أحياناً إلى مرافقة الركب المغربي العابر أرضهم للحج. لذلك اجتهد الجزائريون في سبيل إيجاد بدائل تنظيمية خاصة بأمر الحج، اعتماداً على "نظام الجماعة" القائم في الأرياف، وعلى تأثير الزوايا والطرق الصوفية السائد وقتها. إنّها نماذج عن التنظيم "الذاتي" أو "الشعبي" لرحلة الحج، في ظلّ التقاعس الرسمي العثماني.

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج2، ص496.

² - رشيدة شدرمي معمر: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671-1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف: د. فلة موساوي القشاعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م، ص30.

³ - الحسين الورثلايني، المصدر السابق، ج01، ص87.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج02، ص330.

⁵ - الحسين الورثلايني، المصدر نفسه، ج01، ص45.

رغم ما ذكر من تقاعسٍ ومن تركيز العثمانيين على الركب البحري الرسمي، إلا أنه لا يمكن نفي اهتمامهم بشؤون حجّ الجزائريين على الإطلاق، فمنذ حلّوا بالجزائر أدركوا أهمية عملية تنظيم الحج عند الجزائريين، فكانت مكافأة جَدَّ "آل الفكون" الذي انتصر لهم على الحفصيين هي تعيينه في منصب أمير ركب الحج¹. كما أنهم ما فتئوا يُهيّئون أماكن خاصة لنزول الركب الجزائري البري في المناطق التالية الخاضعة لسيطرتهم، ويُدأَمون على استقبال ركب الحج من جهة الغرب الجزائري، ويُكرمون وفادته ويجهّزونه بما يحتاج². وقد اشتهر بعض البايات - على غرار صالح باي ومحمد بن عثمان الكبير - بإجلال العلماء ووصلهم بما يُعينهم على الذهاب إلى الحج.

كان الداوي حسين إذا اقترب موسم الحج يعقد اجتماعاً مع أعضاء الديوان المعنيين، ثم يأمر بتسريح المراكب للذهاب إلى الحج³. كما استجاب الباب العالي لطلبه المتعلّق بحماية الحجاج الجزائريين، فأصدر أمره إلى مختلف الإيالات العثمانية باحترام الحجاج الجزائريين، وتسهيل مرورهم، وعدم مطالبتهم بأداء الرسوم الجمركية في الموانئ⁴. وقد اتخذ العثمانيون من مدينة الإسكندرية مقراً رسمياً لوكيل الجزائر في مصر، هذا الوكيل الذي يساعده في مهامه ناظر بيت مال الحجاج الجزائريين، المكلف الأول برعاية شؤونهم في مصر، سواء كانوا قادمين إليها عبر البحر أو عبر البر. ومن الشخصيات التي تميّزت هذا الدور المدعو "الحاج عثمان جنبلات"، حيث أصبح لاحقاً وكيلاً للجزائر في مصر أواخر العهد العثماني⁵.

لقد استغلّ العثمانيون تحضيرات الجزائريين للسفر إلى الحج من أجل تلميع صورتهم في مخيِّلة "الأهالي" سكان البلد، لأنهم أدركوا مدى قدسية تلك الشعيرة في نظر الجزائريين. واستغلّوا موسم الحج كذلك لفرض ما يُمكن اعتباره وصاية أمنية "مخابراتية"، وذلك من خلال مراقبة تحركات بعض الشخصيات الجزائرية "الشعبية" المقبلة على أداء مناسك الحج، وإبداء التحقُّظ على ظروف تحضيرها لذلك، وصولاً إلى قرار منعها من الحج في آخر المطاف.

¹ - المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص 110.

² - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و 11.

³ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 144.

⁴ - رسالة من وكيل الجزائر لدى الباب العالي إلى الداوي حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/137.

⁵ - رسالة من "الحاج عثمان جنبلات" وكيل الجزائر في مصر إلى الداوي حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم

3190/01/249.

من الجزائريين الذين كانوا ضحايا لتلك الوصاية الأمنية في أواخر العهد العثماني بالجزائر الشيخ محمد التيجيني نجل مؤسس الطريقة التيجانية، فقد حاولت السلطات العثمانية منعه من الذهاب إلى الحج خشيةً من كثرة أتباعه، وأوعزت إلى باي قسنطينة باعتقاله إذا حلَّ بالمدينة مع الركب، لكن تلك المحاولة باءت بالفشل¹. ونفس الموقف تعرّض له الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، فقد احتجزه باي الغرب ومنعه من الذهاب إلى الحج، بعد أن كان هياً له أسبابه وودّع أحبائه، وأسكنه بوهران ولم يُخلِّ سبيله إلا بعد مدة طويلة². والسبب وراء ذلك الإجراء هو توجُّس الأتراك من حجم الركب المتنامي حوالي كلِّ واحد منهما، والذي تجاوز آلاف الأتباع، ومخاوفهم من احتمال انبعاث حركة تمردٍ أو عصيان ضدهم.

لئن كان محمد التيجيني تمكّن من الذهاب إلى الحج، ثم الرجوع إلى الجزائر وإعلان الثورة التي انتهت بمقتله، فإنَّ الشيخ محي الدين رضخ للأمر الواقع، وظلَّ رفقةً ابنه الأمير عبد القادر حبيسي وهران لمدة سنتين³، ثم ارتأت السلطات العثمانية السماح لهما بمواصلة الرحلة إلى الحج منفصلين، رفقةً الوفد الرسمي انطلاقاً من وهران بحراً بالنسبة للشيخ محي الدين، ومع ركب الحج البري الذي انطلق من منطقة سيق بالنسبة لابنه الأمير عبد القادر⁴.

04. حالات الاضطراب في توجُّه الركب الجزائري للحج:

لا نستطيع الجزم بتخلُّف الركب الجزائري عن الحج في سنواتٍ بعينها، بحكم تنوع جهاته وتعدُّد أمرائه، لكن يمكن القول أن عدد الحجاج المنتسبين إليه كان يقلُّ عن المعتاد بشكل واضح أحياناً، لأسباب منها: الثورات الداخلية، وحركات التمرد والعصيان المتجدِّدة باستمرار ضد حكم

¹ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 159.

² - ابن يوسف الزباني، المصدر السابق، ص 320.

³ - ضاقت على الشيخ محي الدين الأرض بما رحبت بعد منعه من أداء الحج تلك السنة، فراسله الشاعر الشيخ السنوسي بن عبد القادر الحسني الراشدي بقصيدة رائعة يُسليها بها، جاء في مطلعها: (البيسط)

عَوَّلَ عَلَى الصَّبْرِ لَا تَفْرَعَكَ أَشْجَانُ وَلَا تَرْغَمَكَ بِمَا فَاجَتْكَ وَهْرَانُ
أَمَا هِيَ الدَّارُ لَا تُؤَمِّنُ عَوَائِلُهَا بَلَى هِيَ الدَّارُ أَعْيَارُ وَأَخْزَانُ

يُنظر: محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ط 01، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903م، ج 02، ص 302.

⁴ - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص 21.

العثمانيين في الجزائر من فترة إلى أخرى¹، فينجم عن تلك الثورات فقدان الأمن فقداناً بيّناً، أو بسبب انتشار الطاعون والأوبئة في عموم الجزائر من مدنها إلى بواديها. فتقطع الطريق على ركب الحجاج ويتعطل الكثيرون عن الذهاب إلى الحج. أو بسبب حدوث مستجدات سياسية وأمنية خطيرة على مستوى الحكم بالجزائر، أو على مستوى محطّي مصر والحجاز المفصليتين.

من الأحداث السياسية التي أثّرت تأثيراً سلبياً على تنظيم الحج صدور فرمان عثماني (أمر سلطاني) سنة 1070هـ/1659م موجّه إلى البحارة في جميع السواحل العثمانية، وإلى والي مصر وحاكم مكة المكرمة، يطلب منهم منع الجزائريين من الذهاب إلى الحج؟ والسبب وراء ذلك القرار هو غضب الصدر الأعظم العثماني من تمرد وطغيان إنكشاريي الجزائر، ورفضهم أمر تعيين الباشا الذي أرسله السلطان العثماني حاكماً على الجزائر، بعدما ألقوا القبض عليه وأهانوه مع أتباعه². غير أن ذلك "الفرمان" لم يؤدّ إلى تعطيل حجّ عامة الجزائريين، لأنه ركّز على أترك الجزائر فقط، وعلى المنافذ البحرية التي يمكن أن يمرّ بها الركب الجزائري دون سواها.

أمّا الحدث الذي أدى إلى شبه انقطاع لركب الحج لسنوات متتالية فهو الحملة الفرنسية على مصر ما بين 1212-1216هـ/1798-1801م، إذ أثّرت على خروج الركب المصري من القاهرة، وبالتالي على خروج الأركاب المغاربية التي اعتادت على السير بسيره من هناك³. لكنّ الحجاج المغاربة عامّة توافدوا على مصر بشكلٍ مذهبٍ مباشرةً بعد جلاء الحملة، ثمّ ارتحلوا منها بالآلاف قاصدين الحجاز براً وبحراً، بين أواخر شوال وبداية ذي القعدة 1217هـ/1803م⁴. ومن تصاريق الأقدار أن بعض الحجاج الجزائريين والمغاربية الذين تزامن حجّهم مع الحملة الفرنسية شاركوا في الجهاد ضد الفرنسيين، ومنهم محمد عبد الله بن الأحرش* الذي عاد بعد سنة من تحرير

¹ - مثل ثورات: ابن الصخري، القبائل، الكراغلة، ابن الشريف الدرقاوي، ابن الأحرش.... التي طبعت فترة الوجود العثماني.

² - سامح التري، المرجع السابق، ص 387.

³ - يونان لبيب رزق ومحمد مزين، المرجع السابق، ص 56.

⁴ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج 03، ص 370.

* ابن الأحرش محمد عبد الله داعيةً وثائرٌ من أصلٍ مغربي، اشتهر بعد سفره إلى الحج ومكوثه في مصر مجاهداً الحملة الفرنسية، ثم انتقل إلى الجزائر وخرج على باي قسنطينة بدعمٍ من باي تونس سنة 1218هـ/1803م، وتمكّن من تحقيق انتصارات كبرى، ثم انهزم جيشه ففرّ إلى الجهة الغربية. يُنظر: محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ج 01، ص 77.

مصر إلى الجزائر عبر سفينة إنجليزية، ليقود ثورةً عنيفةً في الشرق الجزائري ضد أتراك الجزائر استمرت أربع سنوات، وساهمت في قطع الطرق على المسافرين والحجاج¹!

ثمَّ كان اضطراب سفر الحج مرةً أخرى في بداية القرن 13هـ/19م، مع اشتداد أمر الحركة الوهابية التي تبنت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت1206هـ/1791م)*، وتحولها من الجانب الدعوي إلى المواجهة العسكرية الحربية مع حكام مكة المكرمة، وذلك ابتداءً من موسم حج 1217هـ/1803م، بعدما استبشر فيه الحجاج خيراً بنسيان خطر الفرنسيين.

وكانت مكة المكرمة قد ازدحمت في ذلك الموسم بالحجاج ازدحاماً شديداً، فبات الناس فيها خائفين أن يدهمهم المتحاربون في داخل مكة أو في عرفة، إلا أن المهاجمين من أتباع تلك الحركة ظلوا ماكثين في معسكراتهم لا يتقدمون حتى قُضي الحج². ولأنَّ الحرب استمرت إلى سنة 1233هـ/1818م سجلاً بين سعود ثمَّ ابنه عبد الله والقبائل الموالية للوهابيين من جهة، وبين حكام مكة وحلفائهم المصريين من جهة أخرى، فقد انقطع المصريون والشاميون عن الحج، وامتنعت معظم البلاد الإسلامية عنه، وأصبح الحج يكاد يكون مقصوراً على أقطار الجزيرة العربية الخاضعة للسعوديين، وبعض المغاربة الجريئين في بعض السنين³.

ورغم كلِّ ما سبق ذكره من فتن وموانع، إلا أن الحجاج الجزائريين خصوصاً والمغاربة عموماً ظلُّوا أكثر الحجاج المسلمين مداومةً على الوصول إلى الحجاز وأداء شعيرة الحج. ويُمكن أن نستدلَّ على ذلك برأي أحد الكُتَّاب المصريين وإعجابهم بهم قائلاً: "... كان الحجاج المغاربة من أنشط المسلمين في المداومة على رحلة الحج إلى الحرمين سنوياً. وحتى في السنوات التي كانت الأحداث

¹ - سامح التر، المرجع السابق، ص586.

* محمد بن عبد الوهاب (ت1206هـ/1791م) بن سليمان التميمي النجدي، زعيم الحركة الدينية الحادثة في جزيرة العرب، وُلد في العيينة بنجد، زار الشام والبصرة فأوذي فيها. قامت حركته على الدعوة إلى التوحيد الخالص، وإتباع منهج السلف الصالح ونبد البدع، وتخطيم ما علق بالإسلام من أوهام. عُرف من والاه وشدَّ أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد، ومنهم آل سعود الذين تبَّوُّوا دعوته وعملوا على نشرها، فجهَّز بها سنة 1143هـ/1730م، وكثُر أتباعه فأطلق عليهم خصومهم اسم الوهابيين نسبة إليه، وشاعت تلك التسمية وانتشرت لاحقاً. يُنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج06، ص257.

² - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص561.

³ - المرجع نفسه، ج02، ص570.

فيها تحول دون ذهاب الحجاج المصريين، مثل الفتنة التي حدثت في مكة سنة 1040هـ/1631م وكذلك الأمر أيام ظهور الوهابيين، فقد خرج الحجاج المغاربة فقط"¹!

وأيضاً عشية الحملة العسكرية الفرنسية للزحف على الجزائر أواخر سنة 1245هـ/بداية صيف 1830م، لم يُثن ذلك الجزائريين عن تلبية نداء الحج إلى بيت الله الحرام حين آن أوانه، فاختار المئات من الحجاج ركوب البحر من ميناء الجزائر، رغم حصار وترئص الأسطول الفرنسي بالسواحل الجزائرية. وأمر الداوي حسين القبطان مصطفى رايس قائد السفينة بأن يوصل الحجاج إلى ميناء الإسكندرية ثم يرجع. ذلك ما عاينته نقيب الأشراف قائلاً "فلما ذهبوا (أي الحجاج) وقعت الحرب من ورائهم، فبقوا في الإسكندرية إلى أن نفذ الله قضاءه في الجزائر"²!

وباحتلال الجزائر انقطع ركبها عن الحج، بل كادت تنقطع رحلة الركب المغربي كذلك، فقد كان آخر عهد للمغاربة بالحج براً عبر تراب الجزائر في سنة سقوطها! وآثر الركب المغربي بعدها بأمر من السلطان العلوي ركوب البحر من ميناء العرائش للذهاب إلى الحج، متجنبين الأراضي الجزائرية. يقول الرحالة أحمد ابن طوير الجنة الشنقيطي - وقد عايش ذلك الحدث في سفره -: "... فلما قدمنا فاساً وجدنا الجزائر أخذتها النصارى إفرانسييس، كتبنا إلى مولاي عبد الرحمن وهو بمكناسة الزيتون أن البر لا يمكن السير فيه، لأنه صار أرضاً سائبة، وأنا نُحِبُّ الركوب في البحر، فبقينا في حيرة.... فكتب هو - نصره الله - إلى قائده بالعرائش مكتوباً"³.

نستنتج مما سبق أن توالي الاضطرابات والمستجدات السياسية والأمنية، وعدم الاستقرار الإداري في سدة الحكم العثماني بالجزائر في صفوف الولاة العثمانيين، رغم أنهم أضحوا يتمتعون بصلاحيات واسعة تمكنهم من تنظيم شؤون الحج باستقلالٍ شبه تام عن الباب العالي منذ سنة 1129هـ/1717م، بعد أن ألغي المنصب الشريفى للباشا الممثل الشخصي للسلطان لفائدة الداوي، كل ذلك أثار سلباً على محاولات إيجاد تصوّر ثابت لمسألة تنظيم الحج. ولا أدلّ على ذلك من عدم إعطاء منصب "أمير الركب" العناية التي يستأهلها مقارنةً مع الأقاليم الأخرى. فقد كان

¹ - أحمد الرشيدى، المصدر السابق، ص52.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص170.

³ - Et-talib Ahmed Ben Towair Al-ganna: Rihlat elmona wel minna (Pèlerinage à La Mekke), Revue Africaine, volume 55, 1911, Alger, p219.

أمير الحاج المصري - مثلاً - يذهب لمقابلة الباشا بعد عودته من رحلة الحج، ويجدّته عمّا لاقاه الحاج في رحلتهم من راحةٍ أو تعب، وكلما كان دور أمير الركب عظيماً في العناية بالحجاج، كلما كانت الخلعة التي يخلعها عليه الباشا في ذلك الموسم ثمينة وقيّمة¹. فأميرُ الركب في نظرهم هو رأسُ الأمرِ كلّهُ في ضمان نجاح عملية تنظيم الحج.

المبحث الرابع: إمارة ركب الحج الجزائري ومقوماتها

01. أشهر بيوتات إمارة الركب الجزائري:

بما أن السفرَ إلى الحج في ذلك الزمان طويلاً وشاق، وعدد الحاج كبير وأصولهم شتى، كان لا بدّ لركبهم من قائدٍ أو شيخٍ أو أمير. ففي حديثٍ مرفوعٍ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِذَا كَانَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ"². وأميرُ الركب - في نظر المرحوم سعد الله - يعني رئيس الحاج المسؤول عن قافلتهم³. وأمير الركب الجزائري هو قائد رحلة الحاج الجزائريين منذ بدء التحضير لها إلى غاية عودتهم إلى مُنطلق رحلتهم، ولا تنتهي مهمته بمجرد وصوله هو إلى موطنه أو مسقط رأسه⁴. وفي الجزائر غلب مُسمّى "شيخ الركب" في الفترات المتأخّرة من العهد العثماني. وفي تونس شاع كذلك لقب "شيخ الركب" أولاً، ثمّ "رئيس الركب" لاحقاً، أما في مصر فعُرف بأمر الحج أو أمير الحاج⁵.

والغالبُ على منصب إمارة الركب في الجزائر توريثه بين أفراد العائلة الواحدة المتنفّذة، نقرأ ذلك في نصوص بعض السندات والشهادات، ومنها النص التالي: ".... ومن الأعيان الحاضرين المذكورين شيخُ الركب بنُ شيخِ الركب الأكرم سيدي الحاج أحمد بن البركة...."⁶. فهذا المنصب أضحى نعتاً معرّفاً بصاحبه، يسبقُ اسمه وقد يُغني عن ذكره حتّى، إلا من باب التعريف التّام به. ومن أشهر بيوتات إمارة الركب في الجزائر:

¹ - أحمد الرشيدى، المصدر السابق، ص18.

² - أبو داود الأزدي: سنن أبي داود، ط خ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة، دمشق، 2009م، ج04، ص249.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج04، ص402.

⁴ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و06.

⁵ - محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص263.

⁶ - مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص260.

أ - آل الفُكُون (الفقون): بيثُ الفكون أو الفقون من أشهر بيوتات إمارة الركب الجزائري، وقد بدأت شهرته مع سيطرة العثمانيين على مدينة قسنطينة، وتقريبهم لهذا البيت، واعترافهم بفضله وأيادي آل الفُكُون عليهم. حيث كان لهم دور كبير في تقديم بيعة سكان قسنطينة لباشا الجزائر والقضاء النهائي على النفوذ الحفصي بالمنطقة منتصف القرن 10هـ/16م، فكافأهم العثمانيون بإسناد الوظائف السامية إليهم ومنها إمارة ركب الحج¹. إلا أن المؤرخ المرحوم سعد الله يرى بأن إمارة ركب الحج ظلّت في عائلة بن عبد المؤمن المتنفذة من قبل، ولم تبدأ في عائلة الفكون سوى مع الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد (ابن محمد بن عبد الكريم) صاحب كتاب منشور الهداية، بأمرٍ تعيينٍ رسمي صادر عن السلطات العثمانية عام 1048هـ/1638م².

انتقلت إمارة الركب من شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون بعد وفاته إلى ابنه الشيخ محمد الفكون (ت1114هـ/1702م) لأزيد من أربعين سنة، وقد التقى به أبو سالم العياشي في رحلته الثانية بطرابلس، وأشار إليه بأنه "قدمها حاجاً، وهو أمير ركب الجزائر وقسمطينة وتلك النواحي على نهج أبيه وعادته في ذلك"³. ثمّ حلّ محلّه أخوه بدر الدين بن عبد الكريم الفكون، الذي وسّمه الرحالة الورثلاني بهذه الصفة "أمير الركب الحجازي"، وكان قد نزل مع مجموعة من الحجاج العائدين من الحجاز في داره بقسنطينة في ضيافة ابنه دون أن يُسمّيه، مكتفياً بالإشارة إليه بـ "ولد سيدي بدر الدين"⁴. والظاهر - قياساً - أنه عبد الكريم بن بدر الدين، بحكم أن آخر من تولّى إمارة الحج من أسرة الفكون هو محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين (ت1256هـ/1840م)، وقد أدركه الاحتلال الفرنسي لقسنطينة وهو في سنّ الثمانين⁵.

ب - آل المسعود: على غرار آل الفكون اعتاد هذا البيت أيضاً إمارة الركب الجزائري في الفترة العثمانية، وآل المسعود أصلهم من قرية أمدوكال (تتبع ولاية باتنة حالياً) نواحي إقليم الزاب، حسبما ورد في رحلة العياشي سنة 1072هـ/1662م، الذي أشاد باثنين من أمراء الحج من

¹ المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص42.

² أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص47. يُنظر أيضاً: نصّ وثيقة رسمية صادرة عن السلطات العثمانية بشأن تعيين الشيخ عبد الكريم الفكون أميراً لركب الحج الجزائري في الملاحق المرفقة.

³ أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص514.

⁴ الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص364.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج04، ص402.

ذلك البيت قائلاً: "وأمر ذلك الركب سيدي محمد ابن الولي الصالح سيدي محمد بن المسعود من بلاد مدوكال، وله رباع ببسكرة، وربما استوطنها، وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح، وممن كان يتردد بالركب إلى الحج الشريف"¹. أمّا أمير الركب من ذلك البيت في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م فهو محمد المسعود نجل أمير الركب الشيخ سيدي الموهوب نجل الشيخ "سيدي محمد الحاج"، ولعلّ سيدي محمد الحاج هذا هو نفسه "سيدي محمد" أمير الركب الذي أشار إليه العياشي سابقاً، لأنّ نسله يُعرفون باسم "أولاد الشيخ سيدي محمد الحاج"².

ج - بيت ابن ناجي: نُسبت لهذا البيت منطقة الخنقة البسكرية فُعرفت باسم "خنقة سيدي ناجي"، وأقدمهم في الإمارة عبد الله ناجي، فقد زار الرحالة الشرقي ضريحه في رحلته، ووصفه بأنه كان أمير ركب الحاج، وكان صالحاً³. ثم توارثت العائلة إمارة الحج في حفيديه الشيخين سيدي مبارك وسيدي التواتي. ومنهم كذلك أبو الحسن علي بن ناجي أمير الركب في القرن 11هـ/17م، الذي كان يتلقّى وثائق الإمارة بالطابع الرسمي من حاكم الجزائر على عادة أسلافه⁴. ومنهم سيدي عبد الحفيظ بن الطيب وكذا أولاده المشهورين بحرصهم على أمور الحج والحجاج⁵. ومن بسكرة كذلك أمير الحج "سيدي بركات نجل سيدي عبد المؤمن شيخ الركب فيما مضى"⁶؟

د - بيت الملياني: أبناء الولي الصالح "أحمد بن يوسف الراشدي الملياني" الذي انتسبت إليه إحدى الطوائف وغالّت في تقديسه، وقد عاصر مجيء العثمانيين مطلع القرن 10هـ/16م، وآزرهم على الزيانين. وتحقّق بذلك وعدّ عُرُوج بربروس له لاحقاً؛ لن نساك؟ بتعاقب نسله على إمارة الركب الجزائري في العهد العثماني، بدءاً بابنه محمد بن مرزوقة الذي نصّبّه خير الدين بربروس أميراً على ركب الحجاج⁷، ثمّ حفيده أبي زيان شيخ الركب في حجة 1072هـ/1662م⁸. وفي

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص133.

² - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج03، ص225.

³ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و129.

⁴ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و11.

⁵ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص711.

⁶ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج03، ص225.

⁷ - رشيدة شدري معمر، المرجع السابق، ص17.

⁸ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص403.

غضون القرن 12هـ/18م اشتهر من أحفاد الملياني في إمارة الركب كلٌّ من: الحاج محمد بن السيد الخلاّدي¹، ثمّ أمير الركب الجزائري لسنوات متتالية أحمد بن الطيب (المدعو بوطيبة)². وقد حافظ حافظ بيثُ ابن يوسف الملياني على مكانته وحظوته لدى العثمانيين في مدينة الجزائر بصفة خاصة، إلى غاية زوال حكمهم ومجيء الاحتلال الفرنسي.

هـ - **بيت المرازقة:** المرازقة هم سلالة الشيخ ابن مرزوق التلمساني، اعتادوا الإشراف على إمارة الركب الجزائري، ومداومة السفر إلى بيت الله الحرام لأداء الحج، على عهد أسلافهم المشهورين بتلمسان منذ العهد الزياني، فأصبحوا يُعرفون فيها باسم "أولاد الحاج"³.

و - **بيت الجوزي:** سكن آل الجوزي قصر أولاد سعيد بقورارة شمالي منطقة توات، واشتهروا فيها باسم "أولاد القاضي"، وفضلاً عن احترام القضاء تولّوا مشيخة ركب الحج. ومن أشهرهم في هذا المجال الشيخ سيد الحاج بلقاسم القوراري التواتي (ت 997هـ/1589م)، الذي قاد الركب الجزائري من منطقة قورارة، وورث إمارة الركب في أبنائه وأحفاده إلى غاية القرن 13هـ/19م. وقد أشار إلى ذلك القاضي محمد عبد الله بن الجوزي القوراري (الحفيد) قائلاً⁴: (الطويل)

وأولادُهُ مِنْهُمْ شُيُوخٌ أَكْبَرُ فَمِنْهُمْ مُرَبٌّ فِي الطَّرِيقَةِ نَحِيرُ
وَمِنْهُمْ أَمِيرٌ بَلَّ تَسَلَّسَلَتْ فِيهِمْ وَأَعْلَامُهُمْ لِلآنَ بِاللَّهِ مَنْصُورُ

ز - **بيت أبي نعامة:** ينتسب هذا البيت إلى الشيخ أحمد أبي نعامة بن عبد الرحمن الكنتي شيخ ركب الحج، الذي أحيا سنّة تجمّع وإقامة قوافل الصحراء من الحجاج في محطة "أقبلي" بأولف جنوب منطقة توات، قبل سيرها في ركبٍ واحد كبير نحو البقاع المقدسة، وذلك ابتداءً من سنة 1138هـ/1726م، بعدما رأى أن تلك العادة الحميدة قد اندرست منذ قرون⁵. فقد أصبحت وفودُ بلاد التكرور وتوات وتيدكلت تجتمع لديه، ليقودها جميعاً نحو الحجاز. يقول صاحب "فتح

¹ - خليفة حمّاش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص 76.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 01، ص 237.

³ - نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص 276.

⁴ - مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص 127 و 387.

⁵ - محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، د ط، دار هومة، الجزائر، 2005م، ج 02، ص 570.

الشكور" متحدثاً عن تنازل الحاج أحمد التواتي الغلاوي أمير ركب التكرور عن القيادة لأبي نعامه القبلاوي: "... وهو شيخ الركب من أرضنا حتى يصل إلى توات فيكون الأمر لأبي نعامه"¹.

اعتلى الشيخ أبو نعامه إمارة الركب في سبع حجّات، إلى أن أخذ منه الكبر وعجز عن السفر، فعهد بذلك إلى أبنائه: سيد أحمد لحبيب وسيد أحمد البكاي وسيد محمد الأمين، وكلهم ساروا على خطى والدهم، بل على خطى جدّهم عبد الرحمن السائح بن سيد محمد أبي نعامه (الجد)²، الذي سبقت له قيادة ركب الحجاج قبل ولده أبي نعامه، لكنّه لم يشتهر مثله. ومنهم كذلك سيد الحاج جدّ الشاعر المعروف باسم "ولد سيد الحاج القبلاوي"، الشاعر الشعبي ذائع الصيت في تيدكلت، صاحب القصائد المدحية في الشوق إلى حج بيت الله الحرام، وما تتطلّبُه الرحلة من زاد، ومراحل السفر ومحطّاته.

ومن الأسماء الأخرى التي نالت شرف إمارة ركب الحج الجزائري نجد: العالم الجزائري يحيى الشاوي الملياني (ت 1096هـ/1685م)، فقد ذاع صيته بالمشرك بعد أن تخلّف عن ركب الجزائر في إحدى الحجّات، و"ترقّت به الحال إلى أن تولّى إقامة الحاج المغربي، وحجّ بالركب مرتين"³. ومنهم سيدي عبد القادر بن عومر (ت 1121هـ/1709م) أحد علماء توات، الذي أسّس زاوية حملت اسمه، وأوقف جميع ما يملك لابن السبيل، وتولّى مشيخة ركب الحجيج⁴. ومنهم الشيخ عمر بن عبد الرحمن (ت 1221هـ/1806م) صاحب الزاوية المهدية في توات، حيث "... لا زال مواظباً على زيارة حرم الله وحرّم رسوله عليه أكمل الصلاة والتحيات، بمشيخة ركب الحجيج من توات، سبع حجّ متواليات"⁵. ومنهم الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، الذي كان مقدّماً على ركب كبير، أقلق باي الغرب - كما رأينا سابقاً - في أواخر العهد العثماني.

والسؤال الجدير بالطرح هو: هل يجب على أمير الركب أن يقود ركب الحج بنفسه ويتردد على الحجاز سنوياً؟ يبدو الأمر صعب التحقيق، نظراً لمشقّته الظاهرة من جهة، ولاستحالته فيما

¹ - محمد البرتلي: المصدر السابق، ص 48.

² - عقباوي عزيز الهاملي، المرجع السابق، ص 144.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 487.

⁴ - مبارك جعفري وعبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص 208.

⁵ - محمد عبد العزيز سيد عمر، المرجع السابق، ص 89.

لو تعطلَّ الركب في العودة عن مواعده لسببٍ من الأسباب من جهة أخرى. وفي مناسبات كثيرة لم يكن ركب الحج العائد يصلُّ إلى الجزائر إلا بعد أن يكون ركب الموسم الجديد قد غادرها! لذلك كان يتمُّ اللجوء إلى ما يمكن اعتباره "تداولاً" بين الأسر المذكورة سابقاً على إمارة الركب الجزائري الواحد¹. ومن الصدفة النادرة أنَّ أخوين قادا ركبين للحج، أحدهما قاد الركب الطالع، والآخرُ قاد الركب الهابط، نعم فقد التقى الركبُ القادم من الحجاز بإمارة سيد أحمد البكَّاي بن الشيخ أبي نعامة بالركب الذاهب إليه بإمارة أخيه سيدي محمد في سنة 1188هـ/1774م، تمَّ ذلك في إحدى قرى منطقة فزان الليبية²!

02. مقوماتُ الإمارة وصلاحياتُ أمير الركب:

إمارةُ ركب الحج أو مشيختهُ أمانة عظيمة، لا توسدُ إلا لمن هو أهلٌ لها، يقوم بمقامها ويفيها حقَّها، لذلك ارتبط لقب "شيخ الإسلام" في الجزائر بمنصب أمير ركب الحج، فهو رمز التَّجَلَّة والاحترام. ولا تجلَّة أو إذعاناً إلا لمن شاع علمه وفضله بين الناس من أمراء الركب، على غرار بيت ابن الفكون، فهو من البيوتات التي ضربت الرقم القياسي في محافظتها على توارث العلم والجاه، واشتهر المنتسبون إليه داخل إقليم الجزائر وخارجه.

لقد كان المرشَّح لإمارة الركب الجزائري ينشغلُ بأمور الحج انشغالاً، حتى لا يجد وقتاً للإقراء أو التأليف، بل ويعتذر عن معظم المسؤوليات العلمية والاجتماعية الموكلة إليه، لانشغاله بالحج الذي يقتضي منه التغيُّب عن بلاده شهوراً طويلة³.

ويجب أن يكون شيخُ الركب قدوةً في أخلاقه وصفاته لحجاج الركب، متحلياً بالصلاح والتُّودة والحلم والوقار، تُجِبُّه القلوب وتميل إليه النفوس، عطوفاً على الحجاج، وملتزمًا بـ "... الرفق بالرفيق والسائق المزمل للبيت العتيق، يسيرُ على قدرٍ سعيهم، ولا يؤثر البعض على بعضهم"⁴،

¹ - من أمثلة ذلك التناوب في إمارة ركب الحج أنَّ الركب الجزائري العائد من الحجاز في أحد المواسم بإمارة محمد المسعود التقى في مدينة قسنطينة بيدر الدين بن الفكون، وهو كذلك من أمراء ركب الحج الجزائري؟ يُنظر: الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص364.

² - عبد الرحمن التناوبي، المصدر السابق، و 10-11.

³ - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص182.

⁴ - المرجع نفسه، ص226.

يأخذ بخواطر الحجاج ويواسي جميعهم على قدر حالهم، إماماً للحجاج قبل أن يكون أميراً عليهم¹. وقد لخص أحد الحجاج الرحالين شمائل ومآثر أمير الركب قائلاً²: (الطويل)

وشَيْخُ الْحَجِيجِ بَحْلُ عَبْدِ قَادِرٍ أَبُو الْقَاسِمِ الْأَصِيلُ بَدْرُ مُنَوَّرٍ
إِمَامٌ حَطِيبٌ لِلْقُرْآنِ مُرْتَلٌ سَخِيٌّ نَزِيهُ النَّفْسِ لَا مَتَكَبِّرُ
وَعَدْلٌ أَدِيبٌ خَيْرٌ مُتَهَجِّدٌ وَجِيهٌ طَلِيْقُ الْوَجْهِ مُسْتَبَشِّرُ

تلك الصفات الحسنة لا تعني أن تكون شخصية أمير الركب ضعيفة أثناء قيادته للركب، وليس له طاقة على الحماية والمدافعة، فيلجأ في غالب مراحل السفر إلى تطيب خاطر الحجاج، وغض الطرف عن بعض التجاوزات الصادرة من بعضهم، أو إلى مُدارة اللصوص قطاع الطرق بالعطايا والهدايا، مما يجعلهم أكثر طمعاً وجراً على الركب في طريق عودته من الحجاز³. فينتج عن ذلك اضطراب في أحوال الركب، يؤثر سلباً على أمن وراحة الحجاج. وهذا نموذج عن الأثر السلبي الناتج عن ضعف شخصية أمير ركب الجزائر، ساقه العياشي قائلاً: "... بيد أنه ليس في الركب في هذه السنة من يدفع، بل ولا من ينفع، وكان شيخ الركب سيدي أبو زيان حفيد سيدي أحمد ابن يوسف الملياني، وهو رجلٌ لئِن وليست له عُصبةٌ قوية"⁴!

فالأمر يتطلب أن تكون لأمير الركب الجزائري شخصية قوية وعُصبة وهيبة، فلا يتعدى أحد على حرمة، ولا يُقاسُ بما يُقاسُ به غيره، ويُدعِنُ جميع الحجاج لطاعته، منذ خروج الركب إلى عودته، خاصةً إذا عاينوا ما عرفوه وما خبروه من أخلاقه وسيرته وشُمعته⁵. على غرار أمير الركب الشيخ أبي الحسن بن ناجي، فقد كان له صيتٌ ومُحفلٌ كبيران في منطقة الزاب خاصة، وبلاد الجزائر عامة، وكانت القبائل تهأبه وتحترم جنابه⁶.

والمكانة الاجتماعية والجاه العريض والغنى المشتهر من الأمور التي تسهل على أمير الركب أداء الواجب المنوط به بثقة عالية، فلا يطمع في أحد من الحجاج لأن الله أغناه عمّا في أيديهم،

¹ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و10.

² - مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص126.

³ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج01، ص88.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص403.

⁵ - أحمد بن المبارك، المصدر السابق، ص125.

⁶ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر نفسه، و07.

بل يؤازرهم ويُنفق على بعضهم من ماله الخاص. مثلما تضمّنته الشهادة التالية لأحد الحجاج الصالحين في أمير الركب الجزائري سيدي محمد الحاج - على لسان الرحالة العياشي - ".... وقد حجّ هذا السيد مراراً عديدة مع سيدي محمد الحاج صاحب بسكرة، وكان يُثني عليه كثيراً. وقال لي: لو عاش ما تخلّفت عن الحج، فقلت له ألا تحجّ معنا؟ فقال لي: إنّه لا مال لي، وأنتم لا تشاركوني في دُنياكم، وكان هو يُشاركني في دُنياه"¹! إنّه أخلاق وممارسات ترفع قدر أمير الركب في عيون الخاصّة والعامة من الحجاج، وكذلك في عيون قبائل البدو المتربّصة بالركب الموزّعة على طول طريق الحج، فيُذعنُ الجميع لسلطته التنظيمية.

ومن الأمور الفعّالة التي تميّز بها أمراء ركب الحج الجزائري تنويع علاقاتهم واتصالاتهم بالأسر المشهورة في المدن التي يمر بها الركب، مثلما فعل الأمراء من آل المسعود، فقد تأكّدت بنهم وبين عائلة "سيدي محمد الصيد" الطرابلسية الليبية الصلبة والمحبة، وورثوها لأبنائهم وأحفادهم، مما سهّل قضاء حوائج الركب في تلك المحطة². تلك العلاقة استمرّت في أبناء عائليّ الصيد الطرابلسية وآل المسعود من الزاب، حيث لم يكن الركب الجزائري ينزل في طرابلس إلا بالقرب من منازل آل الصيد، وقد اشتهر ذلك لدى الخاصة والعامة من الحجاج³.

ومن المهام الموكّلة إلى أمير الركب حمل "صبرة" ما وفّرت أوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر إلى الفقراء هناك⁴، خاصة في الحالات التي يتعدّر فيها إرسالها عبر البحر من ميناء الجزائر إلى ميناء الإسكندرية، حيث كان يتسلمها أمير الركب من وكيل الجزائر في مصر. وهي الحالات التي كان كبار الموظفين الأتراك يُقبلون فيها على أداء الحج رفقة الركب المنطلق من الجزائر براً.

وأمير الركب هو الوحيد المخوّل له توجيه الأوامر المتعلقة بارتحال الركب أو نزوله في منازل الطريق المتعدّدة، كأن يأمر - مثلاً - بالتوقف عن المسير من أجل الصلاة المكتوبة، أو لأجل الراحة، أو إعداد الغذاء، أو التزوّد بالماء....⁵ ويستغلُّ أمير الركب ذلك التوقف فينعزل أحياناً عن

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص185.

² - المصدر نفسه، ص133.

³ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج03، ص260.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج04، ص402.

⁵ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص38.

الحجاج بمعية مستشاريه، للتشاور في غرضٍ خاص، أو في غرضٍ عام يعود نفعه على الركب بأكمله¹. ومن مهام الأمير كذلك أن يُسهّل على الحجاج عملية كراء الدور أو الغرف في الخانات، حين نزولهم الطويل في بعض المدن².

بما أنّ ضمان وصول الحجاج إلى الحرمين الشريفين سالمين هي الغاية الأولى، كان أمير الركب يتخلّف الحجاج مع بعض الفرسان من أصحابه بين الفينة والأخرى بمقدار كبير، حتى يطمئن على سلامتهم، وعدم بقاء أحد منهم في الطريق، ثم يلحق بهم عند النزول³. بل قد يتدخل أمراء الحج في الشؤون الداخلية للحجاز، تحقيقاً لمصلحة الحجاج والمسلمين عامة، من ذلك محاولتهم إقامة الصلح بين المتنافسين على إمارة مكة المكرمة في موسم حجّ 1094هـ/1683م⁴.

وأمراء الركب الجزائريون لا يعدمون في غالبهم مقدرة أو كفاءة على قيادة الركب، لكنّ ظروف السفر الصعبة والشاقة على مختلف الأصعدة هي من يحدّد في واقع الأمر التوجه العام لسيره وتطوراته. وقد يُعرّض أمير الركب حياته للخطر من أجل حماية الحجاج والدّود عنهم، في مواجهة اعتداءات اللصوص وردّ الطغاة، كما أشار إلى ذلك الرحالة المصعبي⁵: (الطويل)

وَقَدْ كَانَ ذَا صَبْرٍ وَحِلْمٍ وَرَحْمَةٍ عَلَيْنَا وَمِنْهَا رُدُّهُ لِلطَّوَاغِيَا

وقد وقع ذلك فعلاً في أحد المواسم، حيث كان أمير الركب يتفقد مؤخّرة الركب، وهو راكب على فرسه، فأصابته رصاصة غادرة من أحد اللصوص، وجرحته جرحاً غائراً، مات على إثره⁶.

رغم ذلك فقد ظلّت إمارة ركب الحج في الجزائر العثمانية دون مستوى ما كانت عليه في بقية البلاد الإسلامية، بسبب تقاعس الحكام العثمانيين في إيفائها حقّها من الاهتمام والإنفاق المالي من جهة، وبسبب ضعف بعض شخصيات أمراء الحج وعدم تحكّمهم في زمام الركب من جهة أخرى. ولا شكّ أنّ ذلك التقصير انعكس انعكاساً سلبياً مباشراً على الركب والحجاج

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج01، ص405.

² - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و04.

³ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج02، ص08.

⁴ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص441.

⁵ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص68.

⁶ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج03، ص134.

الجزائريين. أمّا في بلاد المشرق فلإمارة شأنٌ عظيم لدى العامة والخاصة. وخاصة في مصر، حيث كان منصبها هو المنصب الأعلى في الواقع، حسب رأي القائل¹: (الطويل)

إِمَارَةُ حَجِّ الْبَيْتِ فِي سَالِفِ الْعَصْرِ هِيَ الْمَنْصِبُ الْأَعْلَى وَحَقُّكَ فِي مِصْرٍ
وِخْدَمَةٌ وَقَدْ لَلَّهِ جَلًّا جَلَالُهُ هِيَ النِّعْمَةُ الْعُظْمَى لِمَعْتَمِرِ الْأَجْرِ

إنّ نظرة المصريين لمنصب إمارة الحج هي ما يفسّر نزولهم - مرؤوسيههم ورئيسهم - لاستقبال الشيخ عبد الكريم الفكون أمير الركب الجزائري، وتعظيمه ومهاداته والتبرّك به، عندما دخل الركب مصر في أحد المواسم. يقول في ذلك أحد تلاميذه: "... ولقد سيّقت إليه بمصر أموالاً ضخاماً وهدايا نفيسة حين قفوله من الحج، وأقبل عليه أهلها على اختلاف طبقاتهم، ونزل إليه الباشا فمَن دونه، فما استنزّه شيء من ذلك ولا أكثرث به، ولم يقبل منه ديناراً ولا درهماً².

وعلى كلّ حال فقد ربط الشيخ سيد الحاج بلقاسم القوراري التواتي (ت 997هـ/1589م) مهام أمير الركب - وكان ورثها لأبنائه وأحفاده من بعده - بهداية الحجاج وتعليم الطريق لهم روحاً ومعنى، وليس فقط شكلاً ومبنى. فقال في كلمات معبرّات: "... الناس يُعلّمون طريق الحجّ بالحجارة، وأنا علّمها بأحفادي، ذهاباً وإياباً لقبر المصطفى - صلى الله عليه وسلّم -"³.

خلاصة الفصل الأول:

من خلال ما تمّ استعراضه في مباحث هذا الفصل المتعلّق بتنظيم ركب الحج في الجزائر وإمارته خلال الفترة العثمانية نستنتج أن ركب الحج الجزائري كان كياناً وظيفياً قائماً بذاته، ينطلق من الجزائر في رحلته لأداء الحج، ثمّ يكون مُنتهاه إليها بعد أداء الحج والعودة من الحجاز. ولا أدلّ على ذلك من كثرة ورود أخباره في المصادر الحديثة عامة، وفي كتب الرحلات الحجازية بصفة خاصة، ومنها على سبيل الذكر لا الحصر رحلتا العياشي والورثلاني، حيث تکرّر الحديث عن "ركب الجزائر" فيها عشرات المرات. وقد حافظ الركب الجزائري على هويته واستقلاليتها رغم مزاحمة الأركاب المغاربية له في نقل بعض الحجاج الجزائريين، أو انضمام بعض الحجاج المغاربة إليه في

¹ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج 02، ص 399.

² - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص 85.

³ - مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص 387.

بعض الأحيان عبر محطات الطريق، أو شهرة الركب "المغربي"، رغم أن تلك التسمية كانت تشمل الحجاج الجزائريين أيضاً.

ونظراً لشساعة مساحة الجزائر، وعدم تمكّن العثمانيين من فرض سيطرتهم على كامل أرجائها، فإن ركب الجزائر كان يبدو مجزئاً في انطلاقته إلى مجموعة من الأركاب الجهوية أو الإقليمية الكبرى، لكن تلك التجزئة ظرفية، تزول بمجرد مغادرة الركب إقليم الجزائر شرقاً، حيث تتوحد قوافل الحجاج في ركب كبير. وقد شاع في الجزائر خلال العهد العثماني الركب عبر البحر، كما هو الشأن بالنسبة للركب البري الأكثر شهرة، فكانت السفن تُقل الحجاج الجزائريين من ميناء الجزائر أو من ميناء تونس، باتجاه ميناء الإسكندرية المصري، ومنه نحو الحجاز براً في غالب الأحيان، رفقة الركب الجزائري البري المرافق للركب المصري من هناك.

لم يكن السفر إلى الحج يقتصر على الجزائريين فقط، بل شمل كذلك الأتراك العثمانيين الذين كانوا يُفضّلون ركوب البحر، أو التكتل في جماعات ضمن الركب البري. ورغم ملاحظة عدم الاهتمام اللازم من لدن السلطات العثمانية بركب الحج ومتطلباته، كما هو الشأن بالنسبة لسلطات المغرب الأقصى - مثلاً - إلا أنها حرصت على إرسال الصدقات إلى فقراء الحرمين الشريفين مع الركب سنوياً، والإشراف على منصب "إمارة الركب" المتداول بين بعض الأسر.

من الأسر الجزائرية التي نالت شرف إمارة ركب الحج: آل الفكون وآل المسعود وآل بن ناجي وآل المرازقة وآل الجوزي وغيرهم، فقد كان هذا المنصب يورث في البيت الواحد لعقود من الزمن، ويتصف من يتولاه بمجموعة من الخصال المطلوبة، بعد تزكيته من طرف السلطات العثمانية غالباً. وأمير الركب هو قائد الرحلة نحو الحرمين الشريفين، يسهر على توفير الظروف المواتمة لذلك، ويعود إليه الأمر في سير الركب ورعاية الحجاج.

الفصل الثاني:

الإعدادُ لرحلةِ الحجِّ وتشكيلُ الرّكب

- تمهيد

- المبحث الأول: الحجُّ عند الجزائريين ومظاهرُ التعبير عنه

- المبحث الثاني: تجهيزُ الرّكب وعاداتُ التحضير للسّفر

- المبحث الثالث: الرواحلُ المستعملة للحج ومصادرُ غذائها

- المبحث الرابع: التشكيلُ البشري للركبِ الجزائري

- المبحث الخامس: حجمُ الركب الجزائري ومراحلُ سيره

- خلاصةُ الفصل الثاني

الفصل الثاني: الإعدادُ لرحلة الحجّ وتشكيل الركب

بعدما تعرّفنا على الإطار التنظيمي لركب الحج الجزائري، فإن هذا الفصل يُسلطُ الضوء على مظاهر فرح الجزائريين بالحج، ومن ثمّ إعدادهم العدة اللازمة للسفر إلى الحجاز، وما شاع في العهد العثماني من كثرة أوقافهم وصدقاتهم على الحرمين الشريفين، المعبرّ على تعلقهم بهذه الشعيرة وبكلّ ما يرمز إليها زماناً ومكاناً. ويُعرّج على آليات التحضير للحج بدءاً بالنداء إليه، ثم العادات المتبّعة في إطار تجهيز الركب واختيار موعد سفره، بعد استكمال جمع المال والمؤونة والعتاد.

كما يُركّز هذا الفصل على عنصرٍ مهمّ من عناصر الإعداد لسفر الحج الشاق، وهو الرواحل أو الرّكاب المسخّرة لأجله، وبصفة خاصة الإبل، المطايا الرئيسية في نقل الحجاج آنذاك. كيف يتمّ توفيرها واستبدالها إن ضعفت وتأمين غذائها؟ إضافة إلى الدواب الأخرى التي لا تقلّ عنها أهمية، مثل الخيول والبغال الواجب توفيرها داخل الركب، لاستخدامها لأغراض معينة.

ويبحث الفصل الثاني كذلك في التشكيل البشري لركب الحج، من خلال استعراض أهمّ المكوّنات البشرية الوظيفية الموجودة فيه، على غرار: الأمير، الدليل، الجمّال، العلام، صاحب الراية... فضلاً عن عامّة الحجاج الذين هم قوامه وأساسه. وما هي المهام الموكلة إلى كلّ عونٍ من أعوانه؟ مع تخصيص جانبٍ منه للحديث عن المرأة الجزائرية وظروف أدائها للحج حينئذ، وإحصاء نماذج عن حاجّات جزائريات تحدّين الصّعاب لأجل أداء واجب الحج كما الرجال!

وأخيراً نتساءل عن التباين الحاصل في حجم الركب الجزائري من فترة إلى أخرى؟ ما هي عوامله؟ ولماذا يصعب إعطاء أرقام بذاتها عن عدد الحجاج الجزائريين في ذلك العهد؟ على خلاف المراحل الزمنية والمسافات التي أليف الركب قطعها، والتي تكاد تكون متقاربة. وبالمراحل التي كان الركب يقطعها يُختتم هذا الفصل لربطه بالموالي، عند الحديث على طريق الركب ومحطّاته.

المبحث الأول: الحجّ عند الجزائريين ومظاهر التعبير عنه

01. تعلق الجزائريين بفريضة الحجّ:

تعلق الجزائريون بالحج مُدّ هداهم الله لدينه الحنيف، فبعد فتح بلاد المغرب غداً المشرق الإسلامي قبلة أنظار أهل المغرب الإسلامي قاطبةً، ومطمح أفئدتهم وآمالهم، ففيه بيت الله الحرام، وقبر النبي محمد - صلى الله عليه وسلّم - وفيه مواطن الحنين إلى ذكريات الرسالة الإسلامية في

مطالع انتشارها. فوجّه الجزائريون المطايا نحو الديار المقدسة وشدّوا الرّحال إليها، رغم أن بينهم وبين بلاد الحجاز مسافات كبيرة ومهامه موحشة ومفاوز خطيرة، متحدّين كل العوائق التي من شأنها أن تُثبّط عزائمهم، كأخطار الطريق وبُعد المسافة وضُعب ذات اليد وغيرها. فصدقت فيهم المقولة السائدة - السائرة في بلاد المغرب عامة - "مكة في الشرق ورجالها في الغرب"¹!

ومن دُررِ كلام الجزائريين القدامى بشأن الحج وفضله ما نقله الرّحالة العبدري البنسي (ت720هـ/1320م) عن الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني* أواخر القرن 07هـ/13م. يقول العبدري - بلسان ابن بلقاسم القسنطيني - "سمعتُ الشيخ الصالح المسنّ حسن الحلفاوي يقول: عمّرتُ خمساً وثمانين سنةً ما تمّ لي بها سرورٌ قطُّ إلا ثلاثة أيام، يوم دخولي مكة، ويوم وقوفي بعرفة، ويوم دخولي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم"². ومن حُسن التصريف أن تلك الأيام الثلاثة لا تحصل إلا بالرحلة إلى الحجاز.

وما أجمَلَ وصفَ المرحوم أبي القاسم سعد الله لصورة الجزيرة العربية وما حوته لدى الجزائريين، حين قال: "إنّ ترابَ الجزيرة العربية في نظر الجزائريين ترابٌ طاهر مقدّس، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد مشى عليه، وماءها عذبٌ زلال ولو كان ملحاً أجاجاً، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد شرب منه أو تغسّل فيه، وهواءها نقيٌّ منعش ولو كان حاراً كلهب النار، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد استنشقه وتنفّسه. وكل بئر أو صخرة أو جبل فيها يحمل في نظرهم ذكرى عطرة وصوتاً واعظاً ومشهداً حياً لن يموت"³.

فالجزائريون غالباً ما يلهجون بالحرمين الشريفين، ويتزئمون بذكرهما، ويؤمّلون السعيَ إليهما، على غرار الشاعر الشعبي الرحالة ابن مسايب⁴: (المديد)

قَلْبِي بَاغِي اِرْكَابِ بَيْتِ اللّهِ زَايِرَةٌ وَمَشْرَقَةٌ لِلنَّبِيِّ الْمُخْتَارِ

¹ - عبد الهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس (ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاق)، د ط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 2006م، ص11.

* - حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني من أهل العلم بقسنطينة أواخر القرن 07هـ/13م، قرأ الموطأ على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن موسى الغماري حين خطرَ على قسنطينة راجعاً من المشرق. يُنظر: العبدري، المصدر السابق، ص59.

² - المصدر نفسه، ص59.

³ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج01، ص179.

⁴ - Ben Messaib, Op.cit, p288.

قد نجدُ في العهد العثماني عائلاتٍ بأكملها تُقبلُ على أداء الحج، كما في حالة الحاج عمر بن محمد وأولاده الحاج محمد والحاج أحمد، وفي حالة عائلة الحاج محمد كذلك في حجة 1097هـ/1686م¹. بل نجد حتى العقود المبرمة على اختلافها كانت تميلُ إلى تمييز "الحاج" الجزائري بهذه الحظوة أو التحلية دون سواها، بغض النظر عن مكانته أو وظيفته. فمثلاً نقرأ في عقد إرث ما نصُّه: "... وتوفي السيد الحاج محمد بن الطالب المالك المذكور عن زوجته شاشة المغربية.... وأولاده منها، وهم الحاج عبد الكريم والحاج أحمد وعبد الرحمن"².

ومن دلائل تعلق الجزائريين بالحج كثرة تردُّد الواحد منهم على بلاد الحجاز، رغم صعوبات الحج ومعيقاته ومخاطره في ذلك الزمان، نقرأ ذلك - على سبيل المثال فقط - في تقديم الرحالة الورثلاني لبعض الشخصيات التي ضمَّها ركب الحج المسافر على النحو التالي: "... من الفضلاء: سيدي عبد الكريم، وسيدي عيسى الشريف، والحاج محمد بن علي، والحاج عمر بن يوسف، والحاج عبد الله بن عمر...."³.

ويظهر التعلق والشوق للحرمين الشريفين أيضاً في مآثر بعض الأعلام الجزائريين من العهد العثماني، فمنهم الحاج مصطفى المختاري الغريسي مؤسس الزاوية القادرية بالقيطنة قرب مدينة معسكر، فقد كان يتردُّد على الحرمين الشريفين حتى بلغت حجَّاته أربع حجَّات⁴. ومنهم الحاج احمد أبو نعامة القبلاوي الكنتي الذي بلغ عدد حجَّاته ورحلاته إلى الحرمين الشريفين سبع حجَّات، وما أقعدَه عن الزيادة إلا المرض والعجز⁵. ومنهم الحاج أبو حفص بن بوسماحة من أبناء سيدي الشيخ، الذي أعجب الرحالة العياشي من نشاطه وهمته العالية في أداء الحج، ووصفه بأنَّه "... مُثابِرٌ على فعل الخيرات من جهادٍ وحجٍّ، فقد أفنى عُمره في التردُّد على الحرمين الشريفين، وربما رجَعَ من الطريق قبل أن يصل"⁶!

¹ - خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص76.

² - عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي بالحميسي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2000-2001م، ص 425.

³ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص234.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص514.

⁵ - عقباوي عزيز الهاملي، المرجع السابق، ص140.

⁶ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص111.

وكم كان يحدث للمتخلف عن السير مع ركب الحج الجزائري لسبب قاهرٍ أو عذرٍ شرعي - في ذلك الزمان - من حُرقة واشتياق، إذ يغدو قلبه وعقله متعلقين بالركب، بينما هو ثاوٍ حبيسٌ بأرض الجزائر. تلك المشاعر المعبرة أبدع الرحالة ابن عمّار في نقلها على لسان حاجٍ من مدينة تلمسان قائلاً¹: (البسيط)

وَقُلْ غَرِيبٌ بِأَقْصَى الْعَرَبِ أَقْعَدَهُ سَهْمُ الْبِعَادِ فَهَلْ لِلْقُرْبِ مِنْ أَنْ
نَائِي الْمَحَلِّ بَعِيدُ الدَّارِ شَاسِعُهَا هَامِي الْجَفُونِ مَشُوقٌ رَهْنُ أَشْجَانِ
فُوَادُهُ صُحْبَةَ الرُّكْبَانِ مُرْتَجِلٌ لِطَيْبَةٍ وَهُوَ ثَاوٍ فِي تِلْمَسَانَ

لكنّ عزاء من لم يستطع الحج أن يطلب من الحجاج الرّاحلين ألا ينسوه من خالص الدعاء، خاصة في المشاعر والمواقيت التي تواترت بشأن الاستجابة فيها الآيات والأحاديث، وكذا تبليغ السلام للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. ومن مظاهر التعلّق بالحج لدى الجزائريين وبمناسكه الزمانية والمكانية كذلك، إطلاق تسمية "الحاج" على كل مولود يولد في موسم الحج، وخاصة يوم الحج الأكبر عرفة، وكمثال على ذلك والد الشاعر "ولد سيد الحاج"، شاعر المديح النبوي من صحراء الجزائر، سُمّي "سيد الحاج" لأنه وُلد بمكة أيام الحج في بداية القرن 12هـ/18م².

02. شيوع الوقف على الحرمين الشريفين بالجزائر العثمانية:

تعود أصول مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين في البلاد الإسلامية إلى فترة متقدمة نسبياً، حيث ارتبطت نشأتها بتنظيم الوقف لصالح الحرم النبوي الشريف ولصالح آل البيت الأشراف في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبتشجيع وتيسير المذهب الحنفي المذهب الرسمي للدولة العثمانية ولأقاليمها للوقف عموماً.

وفي الجزائر ازدهرت مصلحة إدارة وتسيير أوقاف الحرمين الشريفين ازدهاراً كبيراً مع مطلع القرن 11هـ/17م³، بهدف توصيل ما يُجنى من عائدات إلى فقراء الحرمين. وأضحّت أوقاف الحرمين الشريفين هي الغالبة على مشهد الوقف بالجزائر العثمانية، حيث مثّلت ثلاثة أرباع (75%) الوقف الإجمالي، توزعت على 1500 ملكية عقارية، من منازل ودكاكين ومخازن

¹ - أحمد بن عمّار، المصدر السابق، ص 147.

² - عبد الحميد قدي، المرجع السابق، ص 133.

³ - عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص 209.

ومطاحن وأفران خبز وفنادق ومقاهي وبساتين وضيع وأفران جبر... وغيرها، بمداحيل تجاوزت قيمتها أربعة ملايين (4.000.000) فرنك فرنسي قديم¹.

اندرجت عائدات أوقاف سكان الجزائر على الحرمين الشريفين سلفة الذكر ضمن مجموع الهدايا والأموال التي كانت الجزائر (الإيالة العثمانية) ترسلها سنوياً إلى الحرمين الشريفين بمناسبة سفر ركب الحج، والتي تخصص هناك للإنفاق على دعم المجال العلمي، أو على الأعيان والأشراف، وعلى الفقراء والمساكين والمجاورين بالحرمين.

ولإنجاح عملية الوقف (أو التحسيس) كان يتم تعيين موظف لهذا الغرض يُطلق عليه اسم "وكيل الحرمين"، أو "شاوش مكة والمدينة"، على غرار المدعو "العربي القزاز" صهر أحد نقباء الأشراف بمدينة الجزائر². هذا الوكيل المعين كانت تقع على عاتقه مهمة تأمين وصول هذه الهدايا والأموال بنظام ودقة، لذلك كان يضع قائمة مفصلة للمعنيين بها، ثم يرسلها مع ركب الحج. وحدث لأكثر من مرة أن بعض ساكني المدينة المنورة قاموا بمراسلة الباشا داي الجزائر، طالبين إدراج أسمائهم في قائمة المستفيدين من أوقاف الحرمين الشريفين، فتمت تلبية طلبهم من طرف الوكلاء، الذين تعهدوا بإيصال الصدقات للمسجلين الجدد³.

وقد شاع في الجزائر العثمانية وغيرها من بلاد المغرب لفظ "الصُّرَّة" المحدث، للتعبير عن المال الموجه للحجاز في كل موسم حج، لأن هذا الاسم في الأصل مما اعتاده أهل المشرق وتداولوه فيما بينهم، وكانوا يُعبِّرون عنه تارةً بالصُّرَّة وتارةً بالأمانة⁴. أمّا قيمة مبلغ الصُّرَّة أو الصدقة فإنها بدت متباينة من موسم حج لآخر، ففي موسم 1678/1089م بلغت قيمتها مائتين وألف دينار سلطاني، وفي موسم 1693/1104م بلغت ستة وستين وستمائة وألف دينار سلطاني، وفي موسم 1779/1193م بلغت خمسمائة وألف دينار⁵. وتذكر المصادر أسماء بعض أمناء الصُّرَّة المبعوثين من الجزائر إلى الحرمين الشريفين، ومنهم "الحاج محمد أفندي" الذي حمل "الصُّرَّة الجزائرية"

¹ - ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية...، مرجع سابق، ص 235.

² - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون، مرجع سابق، ص 433.

³ - رسالة إلى باشا الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/48.

⁴ - محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص 259.

⁵ - عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص 222.

في موسم حج 1240هـ/1825م، وأشرفَ على عملية توزيع الصدقات على الفقراء، وأيضاً على الأشخاص الموصى بهم في القائمة¹.

ولولا جهودُ المحسنين من أهل الجزائر الدالة على تعظيمهم لشعائر الله لما قامت لأوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر قائمة، فلطالما وردت في آخر كلِّ عقد من عقود الوقف (التحيس) المدونة بالمحكمة الشرعية العبارة الشهيرة ".... وجعل المرجع لفقراء الحرمين الشريفين". بل إنَّ العامة من الحجاج كانوا يوقفون على الروضة النبوية الشريفة نُسخاً من المصحف الشريف ومصنّفات فقهية وصوفية شائعة في ذلك العهد مثل: الشفا للقاضي عياض والشمائل للترمذي ودلائل الخيرات للجزولي....².

وعلى الروضة النبوية الشريفة كذلك أوقفَ أحدُ علماء الصحراء الجزائرية وهو محمد بن إسماعيل المسناوي القوراري التواتي (ت1064هـ/1654م)* مائةً وسبعين سِفرًا (كتاباً كبيراً) من مكتبته العامرة بمئات المصنّفات، بعثَ بها من صحراء الجزائر إلى المدينة المنورة، وهي كتب نفيسة جداً استفاد منها طلبة العلم هناك كثيراً³!

لقد غداً دكان الحرمين الشريفين بالجزائر يسمّى "الدكان الشريف" لشرفٍ مهمته، وهي جمع أموال أوقاف الجزائريين الموجهة للحرمين الشريفين، فلا يجزؤ أحد من اللصوص أو المعتدين على الاقتراب منه، لأنه كما وصفه قنصلٌ فرنسي "مكانٌ مقدّسٌ UN LIEU SACRÉ"⁴. تلك القدسية المرادفة للحرمين الشريفين وما يرتبط بهما جعلت بعض العساكر الأتراك المعزولين من

¹ - رسالة من شريف عبد الله قرمانلي إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/151.

² - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و02.

* محمد بن إسماعيل المسناوي القوراري التواتي (ت1064هـ/1654م) نسبةً إلى منطقة قورارة (شمالي توات)، أعجوبة زمانه ونادرته وقته وأوانه، حصّل العديد من العلوم الشرعية وجمال البلاد شرقاً وغرباً، من المغرب الأقصى إلى إفريقية وبلاد السودان، وأقام بمصر والحجاز واليمن والعراق وتركيا، حيث التقى العديد من المشايخ، وجاور مدة هامة بالحرمين الشريفين. ثم انتسب إلى الطريقة القادرية ودخل في جملة أتباعها، اشتهر بالسخاء والدهاء وعلوّ الهمة، لولا ما ابتلي به من وسوسة الإمارة وادّعاء المهودية. امتلك بفضل رحلاته مكتبةً عامرة بلغت حوالي ألفٍ وخمسمائة (1500) مخطوط في مختلف فروع المعرفة. يُنظر: محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج02، ص567.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص108.

⁴ - خليفة حمّاش، دكان الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص99.

مناصبهم ينتقمون من قرارات عزلهم بغضبٍ دور أوقاف الحرمين، فيهاجمونها ويُخرجون فقراء البلد منها¹، لإدراكهم بأن هتك ما نُسب إلى الحرمين الشريفين أمرٌ عظيم في نظر الجزائريين، لا يتراعى لأحد به الحال أن يفعله، إلا في مثل حالهم من شدّة الغضب والطيش!

إن شيوع الوقف على الحرمين الشريفين في الجزائر العثمانية بهذا الحجم لم يكن خوفاً من السلطات الحاكمة، ولا تهرباً من سطوة القاضي الحنفي المسلّطة على أثرياء الجزائر، كما زعم القنصل الأمريكي وليام شالر WILLIAM SHALER في مذكراته². ولكنّه الإقبال الروحي للجزائريين على كلّ ما له صلة بالحرمين، مما جعل القنصل الفرنسي فالير VALLIER يذكر في تقرير له حول الجزائر عام 1195هـ/1781م: "إنّ أوقاف مكة والمدينة في مدينة الجزائر ذات قيمة كبيرة، وليس بعيداً أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه كلّ أملاك أهل الجزائر موقوفةً على فقراء الحرمين الشريفين!"³. ليس غريباً على الجزائريين الذين كانوا يُقدّون الحرمين الشريفين بأرواحهم، رجاء الوصول إليهما في رحلة الحج الشاقّة، أن يفدّوهما - حينئذٍ - بأموالهم وأملاكهم.

المبحث الثاني: تجهيز الركب وعادات التحضير للسفر

01. الأذان في الجزائريين بالحج ومصادر التمويل:

بما أنّ أمير الركب الجزائري هو قائد الرحلة إلى الحج، فإنه المسؤول الأول عن إعلام الجزائريين باقترابه، ومن ثمّ تأكيد موعده السنوي المعتاد، وإعلان النفي في عموم البلاد، والأذان في الناس بالحج. مثلما جاء في معرض تكليف الشيخ عبد الكريم الفكون بإمارة الركب: "وأذننا له بحسب التنفير حيث أراد المسير، لزيارة قبر المصطفى البشير النذير، يؤدّن في النَّاس بالحجّ بضرب الطبل سعياً لمن أراد أن يؤدي الفريضة إلى الأماكن العلية الشريفة"⁴.

وقد تجلّت تلك المسؤولية بجلاء في إحدى السنوات التي عمّ فيها الوباء بلاد الجزائر، وانقطعت سبل البرّ بسبب ذلك، فتدخل أمير الركب وحسّم في أمر الذهاب إلى الحج، بعد تردّد

¹ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 103.

² - وليام شالر: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، د ط، ترجمة وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 49.

³ - خليفة حمّاش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص 906.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص 229.

الناس وانزعاجهم، وميلهم إلى تغليب عدم الحج. ذلك الحسُّم في الأمر من طرف أمير الركب أدى أخيراً إلى فرح الجميع فرحاً لا يوصف¹.

كان يتمُّ النداء في الناس بالحج قبل موعد السفر بأسابيع، حتى يتهيأ من ينوي الذهاب إليه خلال تلك السنة ويُعدُّ العُدَّة. ويُذاع خبره في المدن الكبرى، وأماكن التجمعات كالأسواق اليومية والأسبوعية، وفي الأرياف والقرى المجاورة للمدن، فينادي المنادي: "من أراد الحج فليتهيأ لذلك"². وفي التجمعات المتباعدة مثل قصور توات بالصحراء يتم إعلام الناس مكاتبه، من خلال مراسلة شيوخ الركب لأعيان القصور وزعماء القبائل وأهل البلد، مخاطبين إياهم: "من يُريد الحج فليعوّل عليه"³. وما أحسنَ تعبير النداء الذي حفظته المصادر بخصوص دعوة قبائل الغرب الجزائري إلى الحج، والتجُّع حول أمير الركب الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، وقد تناقلت الأفواه عبارة: "... إلى مكة... إلى مكة... في كل الجهات"⁴.

والحاجُّ الجزائري هو الخلية الأساسية في تكوين الركب، وجهوده الفردية هي مصدر تمويل رحلته إلى الحج، فيُحضّر كلُّ حاج ماله ودابته ومؤنّه وفراشه وماءه. وعادةً ما يتجمّع كلُّ ثلاثة أو أربعة حجاج قبل السفر قصد التحضير الجماعي لذلك⁵. ويظل توفير المال اللازم للسفر إلى الحج هو الشغل الشاغل للحجاج، لكن إذا ما عقد أحدهم العزم على الحج ضحّى لأجله بالطارف والتالد من أملاكه وأرزاقه. وقد يفضّل لديه بعض المال عن القدر المطلوب، فيحفظه أمانةً في دكان الحرمين الشريفين إلى حين الرجوع من الحجاز⁶.

ومن الجزائريين من يعوّل على الحج في آخر المطاف، رجاءً زيارة تلك البقاع، وطمعاً في مصاحبة الأخيار من الأصدقاء والشيوخ، فيجد كل الدعم والتمهين من حيث لا يدري. مثلما حدث للرحالة التنلاني، الذي شجّعهُ على الإقدام دعوةً شيخين من أصدقائه له لمرافقتهم، معبراً عن ذلك في رحلته بالقول: "... فطلبنا مني المرافقة، فاعتذرتُ لهما بقلة ذات اليد، فقالا لي كم

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص101.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص170.

³ - أبو عبد الله الفلاني القبلاوي: رحلة الفلاني القبلاوي، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيل، أدرار، و02.

⁴ - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص43.

⁵ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص70.

⁶ - خليفة حمّاش، دكان الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص124.

تحتاج لذلك؟ فقلْتُ لهما إنَّ وجدتُ سلف مائة مثقال، فالتزما لي ذلك... وخيَّرني (أحدهما) بين ما طلبته وبين أن يُعيِنني بنصفها تبرعاً وطلباً للثواب، فاخترت الإعانة¹. فركبُ الحج لا يعدم وجود الموسرين، لذلك كان بعض المحسنين منهم يُعيِنون الشيوخ والفقهاء الراغبين في الحج.

والأتراك الراغبون في أداء الحج من الجزائر مثلهم مثل بقية السكان الجزائريين، يبحثون هم كذلك عن مصادر للمال من أجل تمويل رغبتهم تلك. فمثلاً قام المدعو "أحمد خوجة التركي" وهو كاتب الداوي ببيع بستانه الواسع الزاهر لقائد العرب في سهل متيجة المدعو "ابن سحنون"، فعَلَ ذلك بنية الذهاب إلى الحج².

لكن الملاحظ هو تعود الحجاج الأتراك الذين يقصدون تونس للسفر منها إلى الحج بحراً على الاستفادة من الدعم والتمويل في تونس، وكمثالٍ عن ذلك استلم وفدٌ منهم ينتمي لبابلك الشرق كمياتٍ كبيرةً من: طعام وخضار ودجاج وبيض وعسل ونشا وعدس ولوبيا وجلجلان وسمن وزبيب وشمع وزيت وليمون وقهوة وشاي وفاكهة، فضلاً عن العلف المخصَّص للكباش التي حملوها معهم إلى السفينة. كلُّ ذلك أثناء إقامتهم في تونس، في ذهابهم للحج ثم بعد عودتهم³؟ كما كانوا يعتمدون على الإيالة في كراء السفن لنقلهم بمعية بعض الحجاج الجزائريين إلى الإسكندرية، وذلك لتميزُ القادة الأتراك عن غيرهم، بكثرة متطلباتهم في سفرهم - إنَّ تمَّ عن طريق البر - من مستلزمات خاصة مثل: الطبول والرايات والفساطيط والأخبية...⁴.

لقد كان التحضير للحج ومتطلباته عملية صعبة في ذلك الزمان، تقتضي التفرغ التام والسرعة في إعداد عُدَّتته، وإلاَّ داهَمَ الوقتُ من ينوي الذهاب إليه، بسبب صعوبة الاتصال ما بين الناس، ومفاجأة التطورات المعيقة عن الخروج إليه. فنجد - مثلاً - أحد القضاة المشهورين في منطقة توات يعتزل القضاء مبكراً، لكي يتفرغ لشؤون الحج وتنظيمه⁵، والاعتزال نفسه كان يقوم به - كما رأينا - الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني أمير الركب الجزائري.

¹ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و02.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص89.

³ - خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص370.

⁴ - ابن يوسف الزياتي، المصدر السابق، ص250.

⁵ - Bernard Saffroy, Op.cit, p05.

إن امتلاك المال والراحلة فقط ليس كافياً في العزم على الحج، ويبقى أهمُّ شيء في ذلك هو ضمان الرفقة المأمونة، التي يقول عنها الورثلاني: "وليعلم الإنسان أنَّ الزاد وإن كان ركناً في الذهاب إلى الحجِّ وشرطاً فيه، فالركنُ القويُّ هو الرفقة المأمونة من وطنك وغيرهم، ومن وجدَ مالاً ولم يجدْ رفقةً من وطنه فلا يُعزَّ بنفسه"¹. وهي نصيحة صادقة، أكَّد عليها جميع الرحالين.

02. الزَّاد والمؤونة في الرحلة إلى الحج²:

يقول الله عزَّ وجلَّ: ((الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ))³. فالتقوى خيرُ زادٍ للحجاج المسافرين، يُجسِّدها في نية عظيمة، وصدق قوي، وهمة عالية، وإخلاص كبير. والحجاج مهاجرون تكلُّوهم عنايةُ الحافظِ الرحمن من الجزائر إلى الحجاز، وعلى رأي أحد شيوخ الصوفية: "سرُّ الله مع وفدِ الله"⁴. ولا يفترُّ الحاج الجزائري عن مداومة التلاوة والذكر والدعاء طيلة سفره، بل يُدكِّرُ نُظراءه من الحجاج إذا نسوا. وكذلك أثناء خروجهم من البلد، مثلما فعل إمام المسجد العتيق بقسنطينة، حيث نصح الحجاج المسافرين عبر البحر قائلاً: "إن أردتم ركوبَ البحر فعندما تضعون أرجلكم في المركبِ فاذكروا التعوذ بالله وبالسملة والفاحة، واذكروا الفاتحة خصوصاً سبعاً، فإنها أمانٌ من الغرق والحرق والأسر"⁵.

ويتحرى النَّاوي على الحج من الجزائريين أحلاً ما يملك من مالٍ ليُغطي به نفقات حجِّه، ويجتهد في ذلك خصوصاً من يوم إحرامه، وإن قدرَ على ذلك في جميع سفره كان أفضل له، جاعلاً الأولوية من مصاريف نفقته للقوت، وما يليه للباس، وما يليه للدواب والعلف⁶. ممتثالاً أمرٍ وتحذير الشاعر "الحاج" الذي قال⁷: (الطويل)

¹ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص230.

² - فضَّل العامري التلمساني بدقَّة في الأشياء التي يحتاجها المسافر إلى الحج. يُنظر: محمد المنوني، المرجع السابق، ص89.

³ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةُ 197.

⁴ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص414.

⁵ - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص153.

⁶ - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص95.

⁷ - محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادى: القصيدة الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية، ط03، تحقيق: محمد بن إسماعيل

المقدم، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص90.

وَحُجَّ بِمَالٍ مِنْ حَلَالٍ عَرَفْتَهُ وَإِيَّاكَ وَالْمَالَ الْحَرَامَ وَإِيَّاهُ
فَمَنْ كَانَ بِالْمَالِ الْحَرَمِ حَاجُهُ فَعَنْ حَاجِهِ وَاللَّهِ مَا كَانَ أَعْنَاهُ

كان بعض الحجاج المغاربة عموماً يأخذون معهم كميات من التبر¹ في رحلتهم للحج، لصرْفها في مقتنياتهم، أو استبدالها متى احتاجوا المال، لإمكانية ذلك في جميع المحطات. وكذلك الشأن بالنسبة للنقود من صنف "الريال"، العملة الشائعة في إيلات الدولة العثمانية من الجزائر إلى الحجاز، فالريال - في رأي الرحالة العياشي ناصحاً الحاج - "نافق في كل بلدة"².

ويتمُّ وضع النقود في حزام جلدي، أو في صُرَّة مصنوعة من جلد السعدان³. والتبر والنقود يُغنيان عن حمل بعض البضائع للمتاجرة فيها، لأنَّ في حمل السلع الظاهرة خطراً على الركب من اللصوص، مثلما أشار إلى ذلك الرحالة العامري التلمساني⁴: (الخفيف)

لَا تُكَلِّفُ بِسِلْعَةٍ إِنَّ فِيهَا خَطَرًا وَهِيَ مِحْنَةٌ وَبَلَاءٌ
بَلْ دَنَانِيرٌ جَيِّدٌ مِنْ نُضَارٍ فِي حِرَامِكَ حَبْدًا الرُّفَقَاءُ

وبخصوص مواد التغذية التي كان الحجاج الجزائريون يحملونها معهم عادةً غداة رحيلهم فأهمُّها: البشماط⁵، الكسكس (الطعام)، الخليج (اللحم المملح المحقَّف)، السويق (مدقوق الحنطة والشعير)، الإدام (السمن أو الزيت أو الشحم)، زيت الزيتون، الأرز، العسل، التمر، الزبيب، التين، الخل، البصل، الملح، العطرية (التوابل)...⁶. ومن المعدات: الصابون، الشمع، الفانوس، القدر، الصحن، السفرة، الطنجرة⁷. إضافةً إلى الحطب والتبن وأعلاف الدواب.

¹ - التبر: الذهب كله. وقيل: هو من الذهب والفضة وجميع جواهر الأرض من النحاس والصفير... مما استخرج من المعدن قبل أن يُصاغ ويُستعمل. وقيل: الفتات من الذهب والفضة قبل أن يُصاغ. يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص416.

² - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص60.

³ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص119.

⁴ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص91.

⁵ - البشماط (أو البقسماط): هو الخبز أو الكعك (البسكويت) المحقَّف. شاع بكثرة في الجزائر العثمانية، وكان يُقدَّم على رأس المؤونة التي تُعطى للعساكر الأتراك في إقامتهم أو سفرهم، على غرار "البرغل" المستخلص من حبوب الحنطة المسلوقة المحروشة. يُنظر: الشريف الزهار، المصدر السابق، ص163.

⁶ - أبو القاسم الزياتي، المصدر السابق، ص159.

⁷ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص90.

أمّا الماء فكان يُحْمَلُ في القِرْبِ الجلدية ذات الأحجام المختلفة، تبعاً لجلود الأغنام. وذلك بعد أن يتمّ إتقان دباغتها، حتى لا يضيع ماؤها النّفيسُ جداً في السفر، ولتحمّل طول المسافة وتقلّب الأجواء. وتُملأ القِرْب بالماء من العيون والآبار والعُدْران التي يُصادفها الركب، وتُشدُّ أوكيتها بإحكام، وتُثبّت على جوانب الإبل¹.

وهذا الرحالة العياشي الذي اعتاد السفر إلى الحجاز ينصح الحاج باتخاذ أكثر من قميصين، ثلاثة أو أربعة عند خروجه من بلده، لأن قميصين غير كافيين، فرما يتنجّس أحدهما، أو يتوسّخ، ولا يتيسّر غسله². فالاحتياط واجب في الملابس، لأنها تبلى ويُضنيها السفر الطويل. والبدلة التي درج الحاجّ الجزائري على ارتدائها عادية جداً، تتكوّن أساساً من القطع التالية، بأسمائها المتداولة آنذاك: قميص، سروال، قلنسوة، حائك (برنس)، وبشماق (نعل بلاستيكي متين)³.

بما أن الركب يُداوم الانتقال من مكان لآخر في سفره، وقد يستغرق نزوله في بعض المنازل (المحطات) ساعات طويلة، فإن الحاجّ يحملون معهم الخيام الصغيرة والأخبية (الخيام الكبيرة) ذات الأشكال المتنوعة، للسكن والوقاية من الحرّ والقرّ، ومنها: القوراء والمستطيلة والقياطين المثلثة⁴. فهم لا يلتحفون السماء أو يتوسّدون الغبراء. ولا يغفل الحاج عن أخذ أبسط الأدوات معهم في سفرهم، مثل: الحناء، الدواة، الأقلام... بل ذكر العامري التلمساني⁵! (الخفيف)

مِرْضٌ وَمِشْطٌ وَمَوْسَى وَمِرَاةٌ وَيَحْفَظُ كُلُّهُمْ غِشَاءً
وَحِيْوُطٌ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَإِبْرًا تٌ وَمِنْ بَعْدِ مِحْيِطٍ إِشْفَاءُ
ثُمَّ مَكْحَلَةٌ بِكُحْلِ وَمِيلٌ ثُمَّ لَقَاطُ شَوْكٍ بَيْسَ الدَّاءِ

إن التزود بالمؤونة أو "الميرة" - كما كانت تُسمى وقتها - لم يكن يقتصر على مدن الجزائر مُنطلق الركب فقط، وإنما يتم كذلك من المدن والقرى والبوادي التي يتوقف بها ركب الحج، فطريق الحج كانت عامرة نسبياً، وكانت البلدات (القرى) والمدن الواقعة في مسار رحلة الحج تتجهّز بالمواد

¹ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص70.

² - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص91.

³ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص265.

⁴ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص15.

⁵ - نفسه، ص90.

والسلع التي يحتاجها الحجاج في سفرهم، لبيعها لهم أو مقايضتها بسلع أخرى، وبالتعبير المعاصر فإن بعض البلدات الأساسية كانت بمثابة محطات عبور (transits) في الطريق إلى الحج¹.

من أمثلة التزود بالمؤونة في المحطات حملُ الحجاج للدقيق المرّحي في أرحية مدينة طرابلس، بمقدار زاد ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الفصل شتاءً، أو زاد شهرين إن كان الفصل صيفاً²، وذلك لمواجهة الصحاري القاحلة التي يندرُ فيها التموين. وقيامُ بعضهم كذلك بشراء ثياب الإحرام والنعلين من مصر أو من قُرى الحجاز، كما جرت به العادة³. والتزودُ في محطة مصر العامرة بمؤنٍ تكفي مدة أربعة أشهر، لتُغطي رحلتي الذهاب والعودة منها وإليها، مع استغلال القلاع والحصون المحمية بين مصر والحجاز في عملية تخزين بعض المؤن لحين العودة، نظراً لقلّة الزاد في تلك النواحي وغلاء أسعاره⁴.

أما أثناء فترات مكوث الركب الطويلة بالمدن الكبرى، فالتموين بالأكل ليس بالأمر الصعب، وقد يستغلُّ بعض الحجاج علاقاتهم الشخصية في ذلك. فهناك - مثلاً - مجموعة من الحجاج الجزائريين مكثت بالقاهرة اثني عشر يوماً، يأتيها غداؤها وعشاؤها من دار مُضيفها⁵.

ولا يغفل بعض الحجاج الجزائريين عن "التسلُّح" ببعض الأسلحة الخفيفة قبلَ خروج الركب من الجزائر، من قبيل الخناجر والبنادق والبارود⁶. فهي مطلوبة في سفر الحج لأسبابٍ، منها ما ذكره الرحالة العامري التلمساني ناصحاً الحاج⁷: (الخفيف)

وَأَخِذْ يَا لَيْبِبُ آلَةَ حَرْبٍ رُبَّمَا عَرَضَتْ لَكَ الْأَعْدَاءُ

¹ - عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص 07.

² - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 172.

³ - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص 95.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 41.

⁵ - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص 23.

⁶ - شرح الرحالة الحاج ابن الدين الأغواطي طريقة صنع البارود في رحلته قائلاً: "يُجمع التراب المالح من الأرض أو من الملاط، ويوضع في ماعون ويُصبُّ عليه الماء، بنفس الطريقة التي يُعالجُ بها الرماد عند صناعة الصابون، ثم يغلي الماء إلى أن يصبح خاثراً، ثم يؤخذ رطلٌ منه ويُخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى، هذه العناصر المختلفة تُخلط جميعاً في غضون أربع ساعات، فتصير باروداً!" يُنظر: الحاج ابن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي، ط خ، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص 90.

⁷ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص 91.

ويذكر أنه في أحد مواسم الحج امتلكت مجموعة مسلحة من الحجاج الجزائريين ثلاث بنادق كيار طوال وبنديقة صغيرة ويطغاناً (خنجرًا طويلًا)، وقد اضطرت تلك المجموعة لاستخدام الأسلحة المذكورة التي أثبتت جدوى حملها وفعاليتها، بعدما أحاط اللصوص ببعض الحجاج في موقع صعب، بسبب تخلفهم وبعدهم عن الركب¹.

03. العادات غداة إزماع السفر إلى الحج:

من ميزات الوجود العثماني في الجزائر اهتمام الحكام والمحكومين بإحياء المناسبات الدينية الكبرى، على غرار مناسبتَي المولد النبوي الشريف وموسم سفر الجزائريين إلى الحج غير المتباعدين زماناً. يقول الرحالة ابن عمّار في ذلك: "هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر، حرسها الله من الفتن وحاطها من الدوائر، أنه إذا دخل شهر ربيع الأول، انبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعول، إلى نظم القصائد المديحيات، والموشحات النبويات"².

في واقع الأمر تُعتبر تلك الاحتفالات الضخمة بالمولد النبوي الشريف في الجزائر بمثابة استعداد روحي لموسم الحج غير البعيد، حيث يتغنى فيها المداحون بالشوق لزيارة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع ركب الحج المغادر للجزائر قريباً. وإذا اقترب موعد سفره شرع خطباء المساجد في الدعوة للحج والحض عليه، فتشتاق مَهْجُ العينين إلى مشاهدة الحرمين الشريفين، وتبرز الآهات والأنين، ويتضاعفُ الوجدُ والحنين.

كان بعض الراغبين في الحج من الجزائريين في ذلك العهد يُكثر من مشاورة الشيوخ والأفاضل بشأن ذهابه إلى الحج، ومن تكرار الاستخارة في ذلك. ليس تردداً أو زهداً فيه، ولكن إخلاصاً ورجاءً نجاح رحلته إليه. يقول الورثلافي معبراً عن دلالات الاستخارة لمن ينوي الحج: "وهذه الاستخارة لا تعود إلى نفس الحج، لأن الاستخارة في الواجب والمكروه والحرام لا محل لها، وإنما تكون الاستخارة هنا: هل يشتري أو يكتري؟ وهل يُرافق فلاناً أم لا؟ وهل يسير في البرّ أو البحر؟"³. وعلامة الإذن للحج بعد الاستشارة والاستخارة - كما يقول التتلافي - التيسير⁴.

¹ - الحسين الورثلافي، المصدر السابق، ج03، ص145.

² - أحمد بن عمّار، المصدر السابق، ص15.

³ - الحسين الورثلافي، المصدر نفسه، ج01، ص96.

⁴ - عبد الرحمن التتلافي، المصدر السابق، و01.

والجزائريُّ الرَّاعِبُ في الحج آنذاك كان غالباً ما يتحلَّى بآداب السفر إليه، بأنَّ يجِدِّدَ التوبة والاستغفار، ويردِّ المظالم والودائع إلى أصحابها، ويقضي الديون المترتبة عليه، ويُخَلِّفَ وراءه النفقة لكلِّ من تَلَزَمَهُ نفقته إلى وقت رجوعه من الحجاز، ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه ذهاباً وإياباً، ويكثر من الأذكار والدعاء¹.

وأثناء انضمام الحجاج من مختلف الجهات المتقاربة إلى ركب الحج المتشكّل بالتدرج، فإنَّ أهاليهم وأحبائهم لا يكتفون بتوديعهم من أحيائهم ومضاربهم، بل يتبعون الركب إلى فُرى بعيدة جداً عنها، ويضطرون إلى المبيت هناك في ضيافة سكاّنها، الذين يُحسِنون استقبالهم ويكرمونهم مثلما فعلوا مع الحجاج². أمّا النسوة فإنَّهن يتراحمن فوق أسطح المنازل التي يمرُّ الركب بجنبها ويؤزغرن، وهنَّ في غاية السرور برؤية ذلك المنظر البهيج³.

كانت تُخصَّصُ ساحات كبيرة في معظم المناطق التي اعتاد الركب الجزائري الخروج منها، تكون على مشارف القرية أو المدينة جهة القبلة، يلتقي فيها الحجاج بمن جاء يُشيعهم ويودّعهم. فعادةً تخصيص الساحات الكبرى لتوديع الحجاج عادةً متأصلة في صحراء الجزائر خاصة، ولا زال بعضها يُعرف بـ "رحبة الحجاج"، رغم اندراس معالمها الأصلية. ولعلَّ ذلك الرَّحْم الاجتماعي المحيط بتوديع الحجاج هو الذي ساهم في تنامي مشاعر الحنين، يقول المصعبي⁴: (الطويل)

فَفَارَقْتُ فِي حَقِّ الرَّحِيمِ قَرَابَتِي وَشَيْخِي وَوَلَدَانَا عَزِيزاً وَمَالِيَا
فَأَبْكَى فِرَاقِي إِحْوَةً لِي أَعَزَّةً وَمَنْ كَانَ دَانِيَا وَمَنْ كَانَ قَاصِيَا

ومن العادات المتوارثة غداة سفر الركب زيارة الأولياء والصالحين المشهورين، وبصفة خاصة أضرحة الشيوخ: أبي مدين شعيب (ت594هـ/1197م) بتلمسان، ومحمد بن عمر الهواري (ت843هـ/1439م) بوهران، وعبد الرحمن الثعالبي (ت875هـ/1471م) بالجزائر، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1503م) بتوات، وابن يوسف الملياني (ت931هـ/1524م) بمليانة، وعبد الرحمن الأخضرى (ت953هـ/1546م) بيسكرة.... وغيرهم.

¹ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و06.

² - الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج01، ص188.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص21.

⁴ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص67.

كان الحجاج يجعلون آخر عهدهم بالبلد زيارة المسجد الجامع، وصلاة ركعتين به والدعاء فيه. محبّذين أن يكون الخروج من البلد يوم الاثنين أو يوم الخميس. كما صوّر ذلك الورثلائي عن الركب الذي حجّ ضمنه: "... وذكّرنا بعض ما وردَ ذِكْرُه، وختَمنا بالصلاة في المسجد، وخرَجنا يومَ الخميس لِمَا فيه من التيمُّن والبركة، في كلِّ سكونٍ وحركة"¹.

ويتمُّ تجميعُ الأمتعة والرواحل (الدواب) خارج البلد، ونصبُ الخيام في مشارفه وساحاته، ليتمكن ركب الحج من التبكير للسفر في اليوم المحدد سلفاً، كما يُزيّنُ الموكب بالرايات والأعلام، وتُضرب الطبول إيداناً بِقُربِ الرحيل². ذلك الرحيل الذي كان يؤثّر في حجاج الركب، فلا يسعُهُم سوى الافتخار بوطنهم والدعاء له، مثلما فعل الرحالة المُقري التلمساني، وهو يُغادر وطنه الجزائر متوجّهاً إلى الحجاز³: (البسيط)

جَزَائِرَ الْعَرَبِ لَا تَطْرُقُكَ أَحْزَانُ يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ طَابَتْ مِنْكَ أَرْمَانُ
وَزَادَكَ اللَّهُ يَا أَرْضَ الْجِهَادِ عُلى فَكَمْ عَلَا فِيكَ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ

المبحث الثالث: الرواحلُ المستعملة للحج ومصادرُ غذائها

يقول الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز: ((اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْإِنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ))⁴. ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - "مَنْ مَلَكَ زَاداً وَرَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحْجَّ فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا"⁵. لذلك يُقال في الأمثال "الحجُّ زادٌ ومركبٌ".

01. الإبلُ المطيئةُ المُثلى لرحلة الحج:

الجمالُ أصلُ رِكابِ الحج، سفينةُ الصحراء أو "سفينة الأسفار في القفار"، رمزُ التحمُّل في مواجهة مشاقِّ الطريق القاسية، والتعوُّد على قناطر الأثقال والأحمال، والصبر على العطش لأسابيع وشهور. وبخصوص هذه الميزة الأخيرة فإن الإبل إذا وجدت الكأ الرطب لا تشرب ولو

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج01، ص188.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص21.

³ - أحمد المُقري، رحلة المُقري، مصدر سابق، ص74.

⁴ - سُورَةُ غَافِرٍ، الْآيَاتَانِ 79-80.

⁵ - رواه الترمذي والطبري والبخاري والبيهقي، وقيل بإسنادٍ ضعيف.

أقامت ما عسى، حيث نقل أبو سالم العياشي في رحلته أن إبل الركب لم تشرب ماءً بفضل ذلك مدةً تسعين يوماً (ثلاثة شهور)، في أرض صحراء ما بين مصر وليبيا¹!

والخاصية الثانية المميّزة التي جعلت الحجاج يعتمدون على الإبل بالأساس في سفرهم هي قدرتها المذهلة على حملهم وحمل متاعهم وبضائعهم براحة وأمان. ويتمُّ أحياناً تخصيص بعض النوق دون الجمال لحمل الأمتعة فقط، فتوضع في مقدمة الركب، لتكون أمام أعين الحجاج².

لا يمكنُ تحديد مقدار ما يحمله الجمل من أمتعةٍ بدقّةٍ متناهية، غير أن معدّل حمولة الجمل الواحد بالمعيار أو المكّيال السائد في طريق الحج آنذاك هو "أردبان" من القمح، وإذا علمنا أن كل 09 أرداد تعادل طناً واحداً (أي 10 قناطير أو 1000 كغ)³، فإن الأردبين من القمح الذين يحملهما الجمل الواحد يساويان تقريباً 222 كغ، على أنّ حمل البعير قد ينقص عن ذلك المقدار أو يزيد بقليل. وتُرتّب أمتعة الحجاج في أكياس خاصة متقنة الصناعة تُسمّى "غرائر"، ثم توضع على الأقتاب (أي الرّحال الصغيرة) المشدودة على سنام الجمل⁴.

يسيرُ الجمل في اليوم الواحد من 10 إلى 16 ساعة، وتتعدّى المسافة التي يمكن أن يقطعها في اليوم 40 كلم⁵، حسب تأثير أثقال الأحمال وجغرافية الطريق. هذه الأرقام التقريبية المتعلقة بالمسافة والزمن جعلت الارتياح واضحاً في السرعة المعتادة عند الجمل، لكن يبقى معدّل السرعة المحتملة للجمل - المحمّل بتلك الأثقال التي تصحب الحجاج طيلة السفر - في حدود أربعة آلاف متر في الساعة الواحدة⁶ (أي 04 كلم/سا). وقد تنهادى قوافل الجمال عبر الصحراء بمعدل المليون والنصف في الساعة الواحدة⁷ (أي 04,6 كلم/سا). وهو معدّل ضعيف، يفرضه سيرُ الركب الكبير، وتكرارُ نزوله ثمّ ارتحاله في المحطات المتعاقبة.

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 208.

² - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و 15.

³ - بيير سيمون جيزار، المصدر السابق، ج 04، ص 285.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 01، ص 270.

⁵ - عقباوي عزيز الهاملي، المرجع السابق، ص 54.

⁶ - سميرة فهمي علي عمر: إمارة الحج في مصر العثمانية 1517-1798م، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

2001م، ص 249.

⁷ - وليم سبنسر، المرجع السابق، ص 143.

تتميّز المهاري أو النجائب من الإبل بمشيئها المريحة لراكبيها من الحجاج، فهي أقلُّ إجهاداً للركبان، مقارنة مع مشية الجمال العادية¹. وقد تفنن الحجاج في صنع ما يُريح أجسامهم ويطيهم الصدمات والاهتزازات الناجمة عن تمايل الإبل في بعض المسالك الصعبة، من ذلك ما عُرف في بعض البلاد باسم "الشقدف"، وهو "محملٌ خشبي كبير ذو شقّتين، توضع كل واحدة منهما على جنب البعير، ويُقرن بينهما بجبال وثيقة على ظهره، ولا بدّ للراكب فيه من شخصٍ معادلٍ له في الجهة الأخرى، مقارباً له في الرزانة، ثم يوصل بين الشقّتين من أعلى بجبال، يُظللّ عليها بغطاء يقي الحرّ والبرد، وهو من أشهى المراكب وأهناها"².

لكنّ ذلك "الشقدف" لم يكن يتوفّر سوى للموسرين من الحجاج، لأنّ سعره غالٍ، كما أنّه يتطلّب جمالاً مهياًة لوضعه. وفي ما عداه كان بعض الحجاج الجزائريين يتعرّضون للسقوط من على ظهور رواحلهم أحياناً، إمّا بسبب شدّة الاهتزاز، أو بسبب الغفلة والنعاس، ذلك ما وقع للرحالة التلاني التواتي الذي نقل صورةً معبّرة عن بعض ما يُعانيه الحاج: "... فسقطتُ من الراحلة وأنا ناعسٌ على جنبي الأيمن في أرض صلبة.... فقمّتُ وركبتُ راحلتي، ولما نزلتُ لصلاة الظهرين ثقّلتُ عليّ عظامي، ولما وصلتُ منزل المبيت تعدّرتُ عليّ المشي"³!

وتمايز الإبل وتتفاضل فيما بينها بالنظر إلى قوتها ومقدرتها على تحمّل أطوار رحلة الحج المتعبة، فهذا حاجٌّ من منطقة توات الجزائرية نوى الحج مطلع القرن 13هـ/19م، فأرسل إلى أحد أصدقائه طالباً منه جمالاً يفي بذلك الغرض قصد معاينته قائلاً: "... سمعتُ بأنّ عندك جمالاً أو جملين، أرسلتُهُما إلى الخنافسة* للرعي، فإن أردت أن تبيعه فابعثه لي عزماً يوم الاثنين الآتي، أنظرُ

¹ - ليون روش: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، ط01، ترجمة: محمد خير محمود البقاعي، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011م، ص53.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص136.

³ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و09.

* **الخَنَافِسَةُ** (أو الخنافيس) اسم قبيلة عربية، وهي بطنٌ من بني راشد، من الحميديين، من هلباء سُويد، من جذام، من عرب القحطانية. كانت مساكنهم في بلاد الخوف الشرقية (ضواحي مدينة بلبس) من الديار المصرية. انتشروا في الصحراء الجزائرية الشرقية إثر هجرة بني هلال إليها، وفي شمالي قصور منطقة توات، مثل زاوية الدباغ وأوكروت، منذ القرن 6هـ/12م. ينظر: عمر رضا كخالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط08، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م، ج01، ص363. وأيضاً: محمد حوتية: توات والأزواد خلال القرنين 12 و13هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ط01، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ج01، ص71.

فيه إن كان يَلِيقُ بي فأخذه، وإن لم يَلِيقُ بي فنردُّه لك، وأعلمني بقيمته، فأنا أريدُ ذلك لزيارة قبر النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام¹.

وللدلالة على أن الإبل القوية هي وسيلة النقل الأولى للحجاج، فقد تمَّتْ أحد الراغبين في الحج من الشعراء السفرَ إلى الحجاز في ذلك العهد على ظهرٍ بعيرٍ قويٍّ، طويلِ القوائم، واسعِ الصدر، عريضِ المناكب، يتساقطُ وبُرُّهُ على حوافره، يَمْرُقُ كالطَّير، ويجري في سيره نحو الحجاز جرياً! يقول الشاعر الحاج عن أمنيته تلك بلُغةٍ شعبيةٍ دارجة ومعبرة²: (المديد)

مَمَّيْ مَدْرَبْ دُرُوْفُو نَعْتِ الْقَبَّهْ غَايَسِنْ فِي لُوبَرْ لَلضَفَرْ
يَمَشِي مَا هُوَ أَقْلِيلٌ فِي ذِرَاعُو شَلْبَهْ بَالْتَشْبَارِ وَاسِعِ الصَّدَرْ
وَمَرَافِقُ بَيْنَ الْاِكْتَاْفِ أَوْسَاعِ اللَّبَّهْ يَمْرُقُ طَيْرٌ مِّنْ لُّوكَرْ

امتلكت الجزائر في العهد العثماني عدداً لا بأس به من رؤوس الإبل، في التلّ فضلاً عن الهضاب والصحراء الشاسعة. فمثلاً تميّزت سوق مدينة قسنطينة باحتوائها على جناحٍ مخصّصٍ للإبل سُميت "رحبة الجمال"³، للبيع أو الكراء على السواء⁴، فكان الحجاج يرتادونها كلّ موسمٍ للترؤد بالإبل. أمّا الذين يرغبون في ركوب البحر من تونس فإنهم يبيعون ما اشتروه من جمال وغيرها بمجرد وصولهم إليها. وبحكم وجود ما يمكن اعتباره فائضاً من الإبل بالجزائر، كان يتمُّ نقل أعداد منها إلى الخارج، مثلما حدث سنة 1192هـ/1778م، حيث نُقل 1473 بعيراً من قسنطينة إلى تونس، دُفعت فيما بعد لمربيّ الإبل من طرابلس⁵.

¹ - مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص 355.

² - عبد الله كروم: الرحلات بإقليم توات دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بجزائر توات، ط خ، دار دحلب، الجزائر، 2007م، ص 130.

³ - الجمل سفينة الصحراء، لكنّ استخدامه في المناطق الشمالية التلية كان شائعاً في العهد العثماني لغرض الحج، ولغيره من الأغراض. منها استخدامه - مثلاً - في ثورة ابن الصخري ضد الحكام الأتراك في الشرق الجزائري سنة 1048هـ/1638م، إذ هبَّ ابنُ الصخري ومن معه عدداً من الإبل، وجعل على ظهورها أكياساً من الرمل كمتاريس، وبعد تهيئتها صوّب وجهتها إلى مقدمة جيش البايك، فاضطرب جنود البايك ودخلهم الرعب والفرع! فأنهال عليهم النائرون وأثخنوهم قتلاً وتشريداً. يُنظر: المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 50.

⁴ - كمال فيلاي، المرجع السابق، ص 15.

⁵ - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص 375.

والغالبُ في ركب الحج أن يكون عدد الإبل يفوقُ عدد الحجاج! لأنَّ الركب الجزائري يأخذ معه المئات من الإبل لبيعها أو استبدالها في محطتي طرابلس ومصر، إضافةً إلى المئات الأخرى الموظفة في حمل الأمتعة والسلع. فمثلاً ضُمَّت إحدى قوافل الركب الجزئية فقط ما لا يقلُّ عن أربعمئة حاج وألف جمل!¹ ويتمُّ في السفر الطويل بيع أو تبادل ما ضعُفَ من الرواحل في المحطات المتوالية، فإذا أحسَّ الحاج أن إبله لم تُعدَّ تقوى على مواصلة المسير، قامَ بتبديلها أو بشراء إبل أخرى، لأنها متوقِّرة في المدن والبادي، حيث تسوّقها القبائل المنتشرة على طول الطريق.²

لكنَّ أجودَ الإبل وأصلبها وأكثرها نفعاً للحجاج الجزائريين والمغاربة في سفرهم هي إبل طرابلس الليبية. فإبلها تشتهر بكثرة الخدمة وقوة التحمُّل، لأنها تمرَّنت على المشاق العظيمة، لذلك قيل في الأمثال بخصوص ما يتميَّ الحاجُّ أن يكسبه: "جملٌ طرابلسي وقربةٌ مصرية"³. وكانت تُقام بمدينة طرابلس سوقٌ أسبوعية في كلِّ يوم جمعة، تسمى "سوق العمروس"، وهي من أعظم أسواق الإبل بتلك النواحي، تُجلب إليها الإبل من كلِّ مكان، ويقصدها الحجاج المغاربة في ذهابهم للحج بصفة خاصة.⁴ أمَّا الحجاج المارئون بمنطقة فزان الليبية (صحراء ليبيا) فإنهم ينتظرون قدوم قافلة كبيرة محمَّلة بالإبل من مدينة طرابلس من أجل الشراء.⁵

وعلى غرار طرابلس الليبية فإن الحجاج الجزائريين كانوا يُقدِّمون على استئجار الإبل المصرية في خط مصر-الحجاز ذهاباً وإياباً، لأن إبلهم لا تُطيق ما تؤدِّيه إبل مصر، فتجد الرعاة المصريين (أو الجمَّالين) يُحضرون معهم عديداً كبيراً من الإبل الاحتياطية، لوعودة السير الذي يتمُّ هناك ليلاً، فينتج عنه نفوقٌ عدد كبير منها أثناء الطريق.⁶ وهكذا تُباعُ إبل الركب مرة أخرى في مصر، بينما يُفضِّل بعض الحجاج إيداعها عند الفلاحين المصريين إلى حين الرجوع، وإذا احتاج الحجاج المغاربة إلى الإبل في الحجاز فإنهم يكترونها من عند الجمَّالين، أو آغا المغاربة (وكيل المغاربة).⁷

¹ - ليون روش، المصدر السابق، ص45.

² - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج01، ص412.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص172.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص502.

⁵ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص33.

⁶ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص66.

⁷ - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص192.

وتُنظَّم الإبل الموجودة بكثرة في الركب بربط ذيول كلِّ أربعة جمال بعضها ببعض، ووضعها في المقدمة كقاطرة للقافلة، وتعليق أجراس كبيرة حول أعناقها أو أرجلها، فتُحدث صوتاً موسيقياً مع تعاقب خطوها، كي تحثَّ الإبل الأخرى في السير. فموسيقى الأجراس المعلقة أو المحمولة ورنين صوتها تجعل الجمال نشطة، فتسير الأمور بانتظام حتى الوصول إلى المحطة الموالية¹.

وخير دليل على أهمية الجمال ومكانتها في ركب الحج مقولة الحاج "شيخه جمل"! أي أنه إذا غاب الاتفاق في الركب بسبب ضعف شخصية شيخ الركب، فإنَّ رُغَاءَ الجمل يُعدُّ إيداناً بارتحال الركب أحياناً من غير إذن شيخه، فأول من يسمع رغاء بعير يظنُّ أن الناس يرتحلون فيقوم إلى بعيره، فإذا رآه الذي بجنبه قام، وهكذا حتى يرتحل الركب كلُّه برُغَاءِ جمل!²

ومن أجل ضمان السير الحسن للركب كان الحاج الذين يمتطون الدواب الأخرى يمشون الهوينى من غير سرعة، قصد مواكبة ومساعدة الإبل المثقلة بالأحمال في سيرها. ومن آداب معاملة الحاج لدابته أن يُريحها بالنزول عنها غدوةً وعشيةً، وعند كلِّ عقبة، ويتجنب التوم على ظهرها، وينبغي ألا يمكث على ظهرها زمناً طويلاً وهي واقفة³. وغيرها من شروط السقي والعلف، وإلا ماتت الرواحل، لبعد وصعوبة المراحل. وما أجمل نصيحة الشاعر الجزائري ابن الوثان التواتي (ت1187هـ/1773م) المتضمنة في شتمقميته* : (الرجز)

مَهْلًا عَلَى رَسْلِكَ حَادِي الأَيْنِقِ وَلَا تُكَلِّفَهَا بِمَا لَمْ تُطِيقِ
فَطَالَمَا كَلَّفْتَهَا وَسُقَّتَهَا سَوَقَ فَتَى مِنْ حَالِهَا لَمْ يُشْفِقِ

ويكفي للتأكيد على أهمية الجمل القصوى لركب الحج في ذلك الزمان أن بعض سكان الجزائر نسبوه للحج، فأطلقوا عليه اسم: بابا الحاج Baba Hadjji أي "أبو الحجيج"⁴.... كأنه هو!

¹ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 67.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 277.

³ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص 11.

* ابن الوثان التواتي أبو العباس أحمد بن محمد (ت1187هـ/1773م)، التواتي الأصل، الفاسي الدار، كان والده صاحب نوادر وملح، من نداء السلطان العلوي محمد بن عبد الله، فكناه بأبي الشمقمق، تشبيهاً له بالشاعر الكوفي الماجن. وتخطت هذه الكنية إلى ابنه أحمد، وإلى أرحوزته القافية الشهيرة "الشمقمقية"، التي تعددت أغراضها الشعرية بين الغزل والفخر والحكم. يُنظر: عبد الله كنون الحسني: شرح الشمقمقية، ط 05، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م، ص 05.

⁴ - وليم سبنسر، المرجع السابق، ص 142.

02- رواحلُ أخرى مستخدمة في الذهاب للحج:

بالإضافة إلى الإبل استُخدمت البغال والخيول والحمير على نطاق واسع في الجزائر العثمانية، فكانت من وسائل النقل الرئيسية في المسارات الداخلية والخارجية، ولا أدلّ على ذلك من وجود منصب "كبير الحمارين" أو "الحمار" ¹ في عواصم البياليك (المقاطعات الإدارية الأربع)، للقيام بتجهيز الدواب أو تسليمها أو كرائها.

تميّز بايلك الشرق بامتلاك ثروة حيوانية معتبرة، وبكثرة أسواق البغال، خاصة في مدينة قسنطينة التي وصفها الرحالة المكناسي سنة 1199هـ/1785م قائلاً: "ما رأيتُ بلدة أكثرَ واداً منها.... وهي منبعُ البغال فمنها تُفرّق في البلاد، ولو تَرى ما يدخلُ منها إلى السوق في كلِّ يوم لتقضيت العجب. يأتي العربُ بها أي بالبغال، يسوقونها كأثمن القطيع من البقر!" ².

وقد زاحمت البغالُ الصوفَ والجلود والعسل والقمح على رأس الصادرات الجزائرية في القرن 12هـ/18م ³. أمّا الخيول فلم تكن بتلك الوفرة مثل البغال والحمير، وكاد امتلاكها يقتصر على البايات والجند والأثرياء من أصحاب الضياع، رغم تزويد داي الجزائر لباي تونس بأعداد كبيرة منها في إحدى السنوات، نُقلت من الجزائر إلى تونس في مركب أجنبي رفقة خدّامها ⁴!

تأتي البغال في مقدمة الدواب الموظفة في السفر للحج بعد الإبل، نظراً لوفرتها وخصائصها. وكان تجميع البغال وإحضار الخيام بمثابة إيدان بسفر الركب. وامتلك عددٌ لا بأس به من الحجاج هذه المطايا، بل إن أحد الحجاج الجزائريين - وهو من وجهاء الركب - أخذ معه في سفره إلى الحج خمسَ بغال ⁵؟ وذلك لكونه من الموسرين، لأن هذا العدد لا يتأتى لجميع الحجاج. ويُطلق أحياناً

¹ - الحمار: أو أميئ الحمارين، من الوظائف الإدارية في الجزائر العثمانية، ويسمى أيضاً "باش الحمار"، وهو المسؤول عن الدواب (الحمير بصفة خاصة)، فيتولّى ضبط أعدادها، وتجهيزها عند القيام بحملة ما. وتذكر بعض المصادر أنّ داي الجزائر بابا علي بوضبع (ت1179هـ/1766م) شغل تلك الوظيفة قبل وصوله إلى سدة الحكم. يُنظر: أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص159. وأيضاً: أندريه زيمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ط01، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م، ص124.

² - محمد المكناسي، المصدر السابق، ص329.

³ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج02، ص317.

⁴ - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص361.

⁵ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج01، ص432.

لفظ "البَعَالَة" على من يمتطون البغال، فقد سُمِّي الرحالة الورثلائي رِفَقْتَهُ من راكبي البغال المتقدمين عن الركب قائلاً: "... نحن البَعَالَةُ تَقَدَّمنا إلى القرية"¹.

وتقوم البغال في السفر إلى الحج بمهام محدّدة لا تقدر عليها الإبل، إذ تنفع في الإسراع في سقي الماء، أو للبحث عن عيون المياه والمواجن (البرك)، أو تفقّد ظلّ، أو معاينة مكان مناسب لنزول الركب.... وغيرها. وكذلك يحتاج ركب الحج إلى من يمتطون البغال أثناء السفر في مواقف أخرى، من بينها مثلاً: استخدامها في مناورة وإخافة اللصوص المعتدين أو المتربصين بالركب في رحلته، أو أثناء نسيان بعض الحجاج لبعض متاعهم في منزلٍ معيّن، يكون الركب قد غادره وابتعد عنه، أو للتخلّف عن مسير الركب لزمّن يسيرٍ بسبب أمر طارئ.... فتؤدي هذه المطايا في مناوراتها وحركاتها السريعة دور السيارات الصغيرة في عصرنا!².

والملاحظ هو قلّة أسواق البغال في محطات الطريق، على خلاف الإبل، المتوفرة في أسواق طرابلس الليبية ومصر وغيرها. لذا اعتاد حجاج المناطق التلية الجزائرية على استبدال أو بيع أعداد من البغال والحمير في أسواق طرابلس بالإبل، التي يحتاجونها بصورة أكبر³. كما أنّ بعض الحجاج الجزائريين كانوا يُرحلون خيولهم وبغالهم بين الفينة والأخرى، فينزلون من على ظهورها، ويركبون الإبل المتوفرة بكثرة في الركب⁴.

ويستغلّ الحجاج الجزائريون امتلاك البغال أيضاً للتجول بالمدن الكبرى التي يحلّ فيها الركب، مثل مدينة القاهرة المصرية، من أجل قضاء مصالحهم وشراء بعض المستلزمات. أمّا الذين لا يجوزونها أو الذين قدموا إلى مصر عن طريق البحر فيضطرون إلى كراء حميرٍ مميّزة بالمدينة، خطواتها أوسع وأسرع من خطوات الخيول! يركبونها ويتجولون بها في أطراف القاهرة الشاسعة، وذلك بسعر 01 بارة (عملة مصرية) للميل الواحد⁵. وقد احتوت القاهرة آنذاك على آلاف المكاريين (سائقي الحمير)، الذين يؤجّرون الحمير لنقل الأشخاص والبضائع، فكان يمكن استئجار هذه الدواب من

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج01، ص234.

² - عبد الوهاب التازي، المصدر السابق، ص115.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص173.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص403.

⁵ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص35.

محطات (مواقف) محدّدة قريبة من مداخل المدينة، وفي الشوارع الرئيسية والأسواق، وقد تصلُ تسعيرة الكراء إلى 30 بارة، إذا ما احتفظ الراكب بالدّابة التي يمتطيها طوال اليوم¹.

ونظراً لكثرة أعداد الحجاج المتوافدين على بلاد الحجاز، فإنّ معظم ما يتوقّر من البغال والحمير في الأقاليم المجاورة لها يتمّ توجيهه إليها، كلّما اقترب موسم الحج، لاستخدامه في التنقل بين أرجائها كراءً. وهذا الرحالة العياشي يصف الحمير الموجودة هناك بإعجابٍ قائلاً: "ولم أرَ أسرعَ مشياً من حمير الحجاز ولا أوطأً مركباً، ولا أقلّ تعباً مع السرعة المفرطة في المشي، فلقد كنتُ أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرّك منها شيء مع الإسراع في المشي، فلا تكاد تتبيّن لي حركةٌ شيء منها"²! وذلك رغم أنّ ركوب الحمير أمرٌ لم يألفه معظم الحجاج المغاربة عموماً.

03. صعوبات تأمين العلف والكلأ للدواب:

كان التزوّد بأكثر كمية من العلف وتأمين الوصول إلى الكلأ الشغل الشاغل للحجاج، فالعلف والكلأ للرواحل بمثابة الوقود للسيارات في زمننا. لذلك كان الحجاج الجزائريون يتجهّزون بعلف الدواب منذ خروج الركب، ويشتررون كميات كبيرة منه في محطات الطريق المشهورة به. فالأصل في تغذية الدواب هو التزوّد وأخذ الاحتياط، بينما الرعي في الطريق فهو توسعة وإضافة. ويتمّ علف الدواب بعد ارتوائها تبناً أو تمرّاً أو شعيراً مرتين في اليوم على الأكثر. يقول الرحالة العامري التلمساني ناصحاً للحاج³: (الخفيف)

وَاسْتَقِهَا مُرَوِيًّا هَا إِتْمَا تُعْ لَفُ بَعْدَ أَنْ يَحْصُلَ الْإِرْوَاءُ
وَاعْلِفْنَهَا عَشِيَّةً بَلْ وَزِدْهَا عَلْفًا قَبْلَ أَنْ يَلُوحَ الضِّيَاءُ
وَإِذَا عَلِفْتَ وَأَمَكْنَ تَبْنٌ فَنِعْمَ ثُمَّ شَيْخٌ أَوْ حَلْفَاءُ

كما اعتاد الحجاج إرسال الإبل إلى المراعي خارج البلد الذي يحطّ فيه الركب، لكي تستريح وتقوى، وذلك إذا انتفى التّهب والسرقعة. وأثناء السفر كان الحجاج يفرحون ويسعدون حين يردون مرتعاً مليئاً بالحشائش، وعُشب "الحاد"، الذي تُقبل عليه الإبل إقبالاً⁴. وفي مناسبات قليلة كان

¹ - أندريه ريمون، المرجع السابق، ص 115.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 153.

³ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص 93.

⁴ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و 05.

أهل القرى أو المدن يقومون بإمداد الحجاج بالشعير لدوابهم، بعد أداء الضيافة¹، إلا أن ذلك لا يكفي غالباً، فعددُ الدواب التي يضمُّها الركب بالمئات أو حتى بالآلاف!

بالإضافة إلى كلاً الإبل من عشب "الحاد"، انتشرت في طريق الحج عشرات الشجيرات من النباتات الرعوية، منها شجيرة "الضمران"، وهي ذات رائحة زكية، تأكلها الإبل كثيراً ويصلح حالها بها². كما توجد بعض النباتات السامة التي قد تُسبب موت الدواب، إن أُهملت ولم تتم مراقبتها، مثل الدفلى والدرياس. لذلك كان الركب يتجنب المرور بالأودية التي تنمو فيها هذه النباتات الضارة بالإبل، وإذا تعذر ذلك قام الحجاج بتكميم أفواه الإبل ريثما تبتعد عنها³.

وبحكم طبيعة التربة ما بين مصر والحجاز فإن الكلاً نادر فيها، لذلك تنشط هناك حركة كراء أعلاف الدواب للحجاج، إذ يقوم الموالون من القبائل العربية بإيصال أحمال دقيق الفول كراءً من مصر إلى بندرٍ أو محطةٍ متفق عليها في منتصف الطريق، فيأخذ منها الحجاج ما يكفي الدواب ويخزنون الباقي للعودة. ولتأمين منطلق خط العودة، كان الحجاج يقومون بشراء العلف المتمثل في طحين الفول غالباً بالمدينة المنورة، ووضعه على الجمال المملوكة لسمايرة الكراء، فتوصله إلى نفس المحطات التي تم فيها تخزين الفول سابقاً⁴، وذلك من باب الاحتياط في تغذية الرواحل.

المبحث الرابع: التشكيلُ البشري للركب الجزائري

01. مكونات الركب الرئيسية واختصاصاتها

أضحى ركبُ الحج بمثابة قرية نشيطة، تُصبحُ وُثمسي، لكنّها متنقلة، مُرتحلة نازلة، مساكنها الأخبية والخيام، وساكنتها مجتمع الحجاج المؤقت، المتكوّن من فئات متباينة، مرتبة ضمن محالّ الركب بانتظام، على حسب المكانة والوظيفة والاختصاص. ومن أهمّ تلك المكونات:

أ - أميرُ الركب ونخبةُ العلماء والأعيان: أميرُ الركب أو شيخُ الركب هو ببساطة شيخ القافلة أو رئيس الحجاج، فهو قائد الرحلة أو المهمة، له من الحقوق ما له، وعليه من الواجبات ما عليه، كما رأينا ذلك سابقاً. أما العلماء والأعيان فهم ذوو الحل والإبرام، لا يُقطع أمرٌ من أمور الركب

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج01، ص194.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص78.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص720.

⁴ - يونان لبيب ومحمد مزين، المرجع السابق، ص49.

وشؤون الرحلة دون استشارتهم والرجوع إليهم. ووجودهم في الركب مدعاةً لإقبال العامة وتشجّعهم على الذهاب إلى الحج. يقول الرحالة الورثلافي عن دور العلماء التحفيزي لبقية السكان: "... فلما سمع الناس من عمالة الجزائر بحج هؤلاء الفضلاء، ونخبة العلماء، حرّكهم ذلك إلى شدّ الرّحال إلى بيت الله الحرام من كلّ بلد¹، وذلك بعد أن عدّ الورثلافي أسماء العشرات من العلماء وأعيان المداشر ورؤوس الجماعات، الذين جمعهم ركب الحج.

ولتبيان أهمية احتواء ركب الحج الجزائري على العلماء والفقهاء في ذلك العهد، يكفي أن نذكر أنّ بعض العلماء الجزائريين كانوا يُرافقون قوافل الحجاج عند مرورها على المداشر والقرى النائية، أو على الأقاليم شبه المستقلة عن سلطة العثمانيين، وذلك لحمايتها من أي اعتداء قد يقوم به بعض اللصوص، بفضل الحرمة والهيبة التي تشكّلت عن العلماء والأولياء الصالحين في مخيطة زعماء البدو من القبائل المتمردة آنذاك²!

وهناك من الشيوخ من كان يأخذ معه طلبته أو تلامذته إلى الحج، فيما يشبه الترتبص الميداني، وحين يزور عالماً أو شيخاً صالحاً في الطريق يكونون برفقته. وكذلك يُساعدونه في تعليم الحجاج أحكام مناسك الحج. واحتواء الركب على العلماء والشيوخ والطلبة يُساهم كذلك في تكريس معاني الإيمان والتقوى طيلة السفر، وعدم التهاون في أداء الصلوات المكتوبة في جماعة. وقد عبّر عن ذلك أحد الحجاج قائلاً: "وما فاتتني ركعة في جماعة منذُ خرجنا من بلادنا إلى أن رجعنا إلى بيوتنا، وذلك مع الفضلاء في أكثر الأوقات، والحمد لله³". وهذا الرحالة المجاجي يفتخر بوجود العلماء العاملين في الركب الجزائري قائلاً⁴: (الطويل)

وَفِي رَكْبِنَا مِنَ الْأَفْضَالِ جُمْلَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الْأَجَلَّةِ
أَطَالَ الْإِلَهَ لِلْأَنَامِ بَقَاءَهُمْ وَأَلْبَسَهُمْ مِنْ عَزِّهِ خَيْرَ حُلَّةِ

والقضاة - كما العلماء - لهم شأن واحترام، فهم من نخبة الركب، يُقدّمون ويُستشارون، وغالباً ما يُعرفون أثناء رحلة الحج بتلك الوظيفة، على منوال قاضي قورارة المدعو "عبد الحكيم بن عبد

¹ - الحسين الورثلافي، المصدر السابق، ج01، ص44.

² - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص144.

³ - الحسين الورثلافي، المصدر نفسه، ج03، ص122.

⁴ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و08.

الكريم القوراري" الذي ضمَّه ركب الحج سنة 1000هـ/1592م¹، وقاضي مدينة المدية المدعو "سيدي ابن نوّة"، الذي صاحب الركب في حجة 1179هـ/1766م². وغيرهم من القضاة الجزائريين على المذهبين المالكي والحنفي المعتمدين بالجزائر وقتئذٍ.

وقد اشتهر الركب الجزائري بوفرة علمائه وشيوع ذكرهم في الطريق إلى الحج، وغداً الحجاج المغاربة يطلبون مرافقة الركب لأجلهم. حيث ذكر الشيخ الرحالة العياشي أنه عزم - هو شخصياً - على الذهاب مع ركب أهل الجزائر، رغبةً في مرافقة فقهاءه ونجباء طلبته، ورجاء المذاكرة في بعض العلوم، لولا أن أصحابه من أهل مراكش جاءوه بأكابرة الركب المغربي مستشفعين³!

والإقبال نفسه أبداه عددٌ كبير من علماء إقليم فزان الليبي، حيث انضموا إلى الركب الجزائري في أحد المواسم، لأنَّ شيخاً جليلاً من شيوخ منطقة توات كان ضمنه⁴. وهذا فضلاً عن حجاج الركب الجزائري في حد ذاته، الذين يُجلبون العلماء، ويطلبون تدخُّلهم في حالات الخلاف، أو لحلِّ بعض الإشكالات، ويقصدونهم لحفظ أموالهم وأماناتهم ووصاياهم.

ويلاحظ في رحلات الحج أن العلماء لم يكونوا مُلزمين بالتقيد بضوابط الركب الإجرائية، من صعودٍ وهبوطٍ وملازمةٍ له... فنجدهم أحياناً يتقدّمون الركب، وأحياناً أخرى يتخلفون عنه، وذلك بسبب علاقاتهم الشخصية بنظرائهم في بعض البلدان، وارتباطاتهم العلمية، التي مثَّل الحج رافداً من روافدها. فقد كان الذهاب للحج بالنسبة للعلماء مناسبة دينية ومنقبة علمية في آنٍ واحد، يحرص المؤرِّخون والمترجمون على ذكرها لمترجمهم منهم⁵.

ب - عامَّةُ الحجاج: وهم الحجاج المتممون إلى الركب منذ انطلاقه من الجزائر، أو الذين انضموا إليه في مسارات الطريق، سواء الداخلية منها أو الخارجية. وما يمكن ملاحظته هو تنوع أصول الحجاج، وذلك تبعاً لحجم الركب وشهرة أميره. وكذلك قيام عائلات بل قبائل بأكملها بالسفر إلى الحج مجتمعة. من أمثلة ذلك ما تضمَّنه النص التالي: "... ومعنا سيدي أحمد الطيب، ونجلاه

¹ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص 188.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 01، ص 264.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 475.

⁴ - الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و 02.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص 48.

سيدي محمد الكبير وسيدي محمد السعيد، وأخوه سيدي بلقاسم، وابنُ عمِّه سيد الصديق، وابنُ خاله سيدي محمد السعيد... وسيدي أحمد عياض، وأخوه وابنُ أخيه وولده... " 1 .

ج - الحُرَّاس: وجود العساكر الحُرَّاس في ركب الحج أمر وارد، لكنه ليس ثابتاً في جميع المواسم، ويتأكد حضورهم إذا حجَّ مع الركب بعض القادة أو كبار الموظفين الأتراك، وتتوفَّر الحماية للركب بصفة خاصة في الطريق بين مصر والحجاز². ويمكن أن تتبع الركب قوة عسكرية لحماية التجار وبضائعهم، إذا كان عددهم فيه كبيراً. والمتعارفُ عليه في مواسم الركب الجزائري أن يعتمدَ الحجاج على أنفسهم في ضمان الحراسة ليلاً، وحماية أمتعتهم ورواحلهم.

د - التجَّار³: لا يخلو الركب من التجار الحجاج، الذين يستغلُّون رحلة الحج لممارسة نشاطهم التجاري، طمعاً في تعويض الإنفاق وحنى الأرباح. ويساعدهم في ذلك وجود وكالات وأسواق للجزائريين والمغاربة عموماً في مصر، تُسهِّل عليهم عملية المبادلات التجارية⁴.

هـ - "صعاليكُ" الركب!: صعاليك الركب ليسوا شعراءً متمرِّدين على قبائلهم وأعرافها، من قبيل: السليلك أو الشنفرى أو تأبَّط شراً وغيرهم، ولا يُقصد بهم قطاع الطرق من اللصوص. وإنما هم في أعراف رحلة الحج المغاربية - في ذلك الزمان - الحجاج الفقراء غير النظاميين، الذين لا يملكون تكاليف السفر، ويعتمدون على إحسان الآخرين إليهم⁵.

فالصعاليك حجاج كغيرهم، يرغبون في الوصول إلى الحجاز، لكنَّهم عالةٌ على الركب، ينزلون وسطه احتماً بظهور من معهم، ليأتمنوا على أنفسهم! لا ينفعون الركب بسلاح ولا حراسةً بالليل، ولا يحضرون الجماعة، بل منهم شردمةٌ غريبة الأطوار، تحجُّ للتسؤل واكتساب الفلس والدينار، ولا تميِّز الحلال عن الحرام⁶! وقد حجَّ هذا الصنف بأعداد هائلة ضمن الركب الجزائري في

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص221.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص68.

³ - لمعرفة تفاصيل النشاط التجاري المصاحب لرحلة الحج، والسلع المحمولة، والأسواق الموسمية، يُنظر: الفصل الرابع، المبحث الثاني (ركب الحج والنشاط التجاري).

⁴ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-1798م، د ط، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1982م، ص52.

⁵ - جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص70.

⁶ - الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص196.

أحد المواسم، لكنَّ أمير الركب استطاع التخلُّص من بعضهم في محطة طرابلس، حيث اقترح عليهم السفر إلى مصر بحراً، بعدما تعهَّد والي طرابلس العثماني بالتكفُّل بنقلهم إليها¹.

و - "ضيوفُ" الركب؟: إنَّهم ضيوف بالمعنى المجازي، وهم الحجاج أو غيرهم من الأفراد الذين ينضمُّون إلى ركب الحج أثناء سفره، لمرافقته للحج أو لغرضٍ آخر من الأغراض. ففي إحدى الحالات - مثلاً - حطَّ عشراتُ الحجاج من مدينة طرابلس رحالهم في الركب الجزائري، ورافقوه في صُعوده، مستغلِّين صداقاتهم مع بعض علمائه وأعيانه². وفي حالة أخرى أقدمَ عشرات الأتراك الفارَّين من حاكم الجزائر على اللجوء إلى الركب خفيةً، واندسُّوا وسط الحجاج، انطلاقاً من منطقة "الخنقة" شرقي مدينة بسكرة³. ولم يُعدَّ الأمر يقتصر على تلك الحالات فقط، بل أصبح كلُّ من اشتدَّ عليه المغرَم من الرعية في بلدٍ وعزَمَ على الخروج والفرار منها يتوارى بين حجاج الركب⁴! لتيقُّنه بسعةِ صدور الحجاج، واحترام الحكام والعساكر لقافتهم.

غير أنَّ بعض هؤلاء "الضيوف" النازلين على ركب الحج الجزائري كان وجودهم يتسبَّب أحياناً في حدوث اضطرابات في الركب، ومشاكل للحجاج الجزائريين، هم في غنى عنها. فقد حدث أن انضمت طائفة من الفلاحين المصريين الفقراء العازمين على الحج إلى الركب الجزائري، هروباً من احتقار وجور عساكر الركب المصري لهم، لكنَّ وجودهم أدَّى إلى كثرة الضجيج والخصومات في الركب، لأنهم لا يعرفون نظاماً ولا انضباطاً⁵!

والأسوأ من ذلك حادثةٌ تعرَّض الأركاب المغاربية كلَّها للتفتيش والتعطيل في صعيد مصر، من طرف الجنود الأتراك، بحثاً عن أحد القادة الكبار، الذي كان عُزل من منصبه ولجأ إلى الجزائر، فخاف المصريون من أن يعود ذلك القائد إلى مصر بنية الانتقام، متخفياً بين الحجاج المغاربية، وتعرَّضوا أولاً لركب الجزائر، وفتَّشوا ما استطاعوا، فلم يقفوا له على خبر⁶!

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج01، ص337.

² - المصدر نفسه، ج02، ص13.

³ - نفسه، ج01، ص236.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص178.

⁵ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج02، ص165.

⁶ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و54.

ز - دليل الركب أهميته وأجرته: الدليل في ركب الحج بمثابة أميرٍ ثانٍ له، فهو المسؤول المباشر عن سلامة خطِّ سير الركب، واستصحائه ضروري للغاية. يقول الرحالة الهلالي عن أهمية الدليل: "... على الحجاج استصحاب دليلٍ خريّتٍ ماهرٍ، وإنّ لا يفعلوا فقد جعلوا أعناقهم في ريق الضلال المبين والعناء الباهر"¹! والحجاج يثقون في الدليل الماهر، باعتباره سائق الركب وهم الركاب المسافرون، ويتغنّون به في أشعارهم²: (الطويل)

سُررنا وطبنا حين سرنّا لطيبيةٍ ولم نخش من طول المسير التّماديا
وقلنا اجتهد يا سائق الركب إنّما تهون المنايا إنّ بلعنا الأمانيا

ولأنّ اختصاص الدليل هو أخطر اختصاصٍ في ركب الحج، كان لزاماً على الحجاج اختياره من أهل المناطق صعبة الاجتياز التي يمرُّ بها الركب، فأهل مكّة أدرى بشعابها. ولم يكن ركب الحج يكتفي باستئجار دليل واحد طول السفر، فرمما وظّف العشرات منهم في أقاليم مختلفة، لمعرفة الطريق أو للبحث عن الماء ومواطن الكلاء.

مثلاً أثناء العودة من الحجاز وحين خرج الركب من صعيد مصر متجهاً غرباً استأجر خبيراً لكي يوصله إلى حدود برقة الليبية³. وحين توغل الركب بين الجبال الليبية المتماثلة اکتري دليلاً من تلك الناحية، لكي يُخرج الحجاج من متاهاتها ويُدّهم على عيون الماء⁴، لأنّ في تلك النواحي سبخات كثيرة الوحل ومقاطع صعبة الاجتياز، ولا يعرف ذلك إلا الخبراء بمسالكها.

وهناك مسارات لا يُحتاج فيها إلى الدليل، مثل الدرب المصري أو الحجازي (المقطع ما بين مصر والحجاز)، بفضل مرافقة الحراس والجَمّالين الرعاة للركب من جهة، ووجود عدد لا بأس به من الأعمدة المبنية من جهة أخرى، ذلك ما وضّحه التتلافي في رحلته قائلاً: "... وسلكننا طريق الصانع، وهي أعمدة مبنية علامةً على الطريق، بين كلّ عمودين نحو فرسخ أو أقل أو أكثر، وإنما فعلوا ذلك لأنّ تلك الطريق كلّها سبخة ورمل، لا يظهر فيها أثر سالكها غالباً"⁵. وعليه فإنّ

¹ - الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص 166.

² - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 02، ص 81.

³ - المصدر نفسه، ج 03، ص 230.

⁴ - عبد الرحمن التتلافي، المصدر السابق، و 12.

⁵ - المصدر نفسه، و 18.

الركب يمكن أن يستغني عن الدليل في بعض المقاطع المعلمة، أو في بعض المحطات والمسارات التي ألفت الحجاج عبورها من تلقاء أنفسهم، خاصةً وأنَّ عدداً معتبراً منهم قد كانت لهم حجّات سابقة، استفادوا منها في هكذا أمور.

ومُنَّ اشتهر بوظيفة الدليل في صحراء الجزائر الشاسعة بعضُ عرب "الخنافسة"، الظاعنين بين القليعة (المنيعة) وواركلا (ورقلة)، الخبيرين بدروب الصحراء ومناهاها. فكان ركب الحج المغربي - وبين صفوفه حجاج جزائريون - يقوم بكرائهم في تلك النواحي، يقول الرحالة العياشي: "... قاصدين إلى واركلا، وخرج معنا جملة من أهلها قاصدين الحج، وأخذنا على طريق وادي امكيدن، ومعنا رجلٌ من عرب الخنافسة، اكتراه أمير الركب، يدُهم على الطريق"¹.

ويُساعد بعضُ الحجاج الدليلَ أحياناً في البحث عن الماء، إن كانوا من أهل الخيرة والحنيكة في ذلك، فيذهبون معه لتحريّ مناهل الماء، المحتمل وجودها بالقرب من المكان الذي يكون الركب قد نزل فيه. وقد يكون الدليل حاجاً من حجاج الركب في حدّ ذاته، صالٌ وجالٌ في البلدان من قبل، فيتأثر بالفراق، ويحسُّ للوصول إلى الحرمين الشريفين مثل بقية الحجاج، كما جاء في توصيف الرحالة الشاعر الشعبي ابن مسايب التلمساني²: (المديد)

تَبَّعَ طَرِيقَ الرِّكْبِ وَرُوحَ دَمَعَتِكَ فَوْقَ الحَدِّ تَلُوحُ
وَالدَّلِيلَ مَلِيَّعَ مَفْرُوحَ لِيَعْتَهُ وَاشْ يَبْرِيهَا

ويشترك الحجاج في جمع بعض المال لدفع أجرة الدليل والمنادي والعلّام، وغيرهم من أعوان الركب، ثمَّ يُسَلِّمونه لأمير الركب. وأحياناً كان يقع الاختلاف على مبلغ المساهمة، هل يكون على الشخص الواحد، أو على عدد إبله، أو على أحماله من السلع؟ ومهما كان من أمرٍ فإنَّ أجرة الدليل الواحد لا تُعدُّ مكلفة، ويمكن أن لا تتعدى الريال الواحد لدلالة خمسة أيام³! وسواءً بَحُسَّ ثمنها أو غلّا فإن الحجاج لا يظنون بها عليه، بل هم يعتبرونها بشارَةً للسلامة، ودليل بلوغ المرام بالوصول إلى البيت الحرام. كما صوّر أحمد المقرّي في رحلته⁴: (البسيط)

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 107.

² - Ben Messaib, Op.cit, p279.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 159.

⁴ - أحمد المقرّي، نفع الطيب، مصدر سابق، ج 01، ص 40.

قَالَ الدَّلِيلُ: أَلَا هَاتُوا بِشَارْتِكُمْ فَمَنْ نَوَى كَعْبَةَ الرَّحْمَنِ قَدْ بَلَعَا

لكن قد يتبادر إلى الذهن التساؤل: هل يمكن أن يتية الركب بوجود الدليل؟! فعلاً هناك حالة أثبتت ذلك، وهي أن الحجاج الجزائريين مرّوا بموضعٍ في صحراء ليبيا، بدا لهم غريباً، وكأنهم ما رأوه قطّ، فاختلّفوا فيما بينهم، هل دليلهم حصل له تية أم لا؟ ولم يقطعوا أمرهم ويتأكدوا من أنّهم قد تاهوا فعلاً إلا بعد مسيرة أربعة أيام من الميلان جنوباً نحو الصحراء! ولحسن حظهم فقد رجعوا إلى الطريق بعد بحثٍ وتحرّر، اهتداءً بآثار البغال التي تركتها أركابٌ سبقتهم¹.

ح - حاملُ الراية (العلام): العلام هو الشخص الذي يتكفل بحمل العلم أو الراية طيلة سفر الركب، ومهمته رفع الراية عالياً أو نشرها في أوقات معينة معتادة، أو في أوقات استثنائية. ومن ثمّ يمثّل الحجاج لإشارته بعد رؤيتهم للراية، ويقصدون موضعها. ويُعتبر توقُّفُ العلم عن المشي أو نزوله عن مركوبه - وهو يرفع الراية الكبيرة - إيعازاً للركب بالتوقُّف والنزول، ومن رأى الراية من الحجاج مرفوعةً فما عليه سوى الامتثال². وكان اللون الأخضر هو لون العلم المحمول من طرف الركب الجزائري في أغلب الأحيان. مثلما نُصّب في ركب حجّ، هذا شاهدُه³: (المديد)

مَنْ أَفْصُورُ أَقْبَلِي نُرُوحُ يَا حَاوِي سِرْبَةَ بَطْبَلْنَا وَعَلَامَنَا اخْضُرْ

ط - المُنَادِي (البرّاح): يُعرف المُنَادِي في العُرف الشعبي المغاربي بالبرّاح، وهو من أعوان الركب الموظّفين في مجال الإعلام آنذاك. يُنادي البرّاح بأعلى صوته بين الفينة والأخرى لإخبار أكبر عدد ممكن من الحجاج بما يقع في الطريق من مستجدّات، منها هذه النماذج التي وقعت في بعض المواسم: دعوة الحجاج قبل رحيل الركب من أحد المنازل إلى حمل الماء ليومين متتاليين⁴. ومنها - في حادثٍ طارئٍ - حصول المُنَادِي و"التباريح" على أنّ الركب قد ضلّ الطريق ووقع في التّيه⁵! كي ينتبه الحجاج لذلك الأمر الخطير. ومنها - في حالة أخرى - تذكير الحجاج بالوصول إلى الميقات المعلوم من أجل الإحرام، ذلك ما عبّر عنه الرحالة الشاعر في قوله⁶: (الطويل)

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج01، ص433.

² - المصدر نفسه، ج03، ص231.

³ - عبد الله كروم، المرجع السابق، ص131.

⁴ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و07.

⁵ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج01، ص433.

⁶ - ابن رشيد البغدادي، المصدر السابق، ص30.

وَنَادَى مُنَادٍ لِلْحَجَّاجِ لِيُحْرِمُوا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ أَحَابَ وَكَبَّاهُ
وَصِرْنَا كَأَمْوَاتٍ لَفَفْنَا جُسُومَنَا بِأَكْفَانِنَا كُلُّ ذَلِيلٍ لِمَوْلَاهُ

بالإضافة إلى "البراح" لم يخلُ ركب الحج الجزائري من المؤذنين، الذين يصدحون بصوت الحق لتنبية الحجاج إلى مواقيت الصلاة، ودعوتهم لحضور الجماعة ليلاً ونهاراً. وكان منهم - مثلاً - مؤذّن من منطقة القرارة بوادي مزاب، يُدعى "سعيد بن قاسم"¹. وأصبح بمقدور الحاج أن يؤدّي الصلوات كلّها في جماعة، رغم ضخامة الركب ومشاقّ السفر ومخاطره! وخاصة إذا علمنا أنّ عدد المؤذنين في الركب يزداد بازدياد عدد الحجاج، حيث يذكر العياشي أنّ ركبهم المراكشي الكبير ضمّ عشرة مؤذنين، يرتجّ بأصواتهم الركب في الثلث الأخير من الليل²! ولعلّ عددهم في الركب الجزائري أكثر، قياساً على عددهم في المغربي، ونظراً لما كان بين الركبين من تنافس وعناد.

ي - صاحبُ الطبل: الطبل وسيلة من وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزمان، وهو ضروري في ركب الحج، بل هو يرمز في دلالته المعنوية إلى سلطة أمير الركب، الذي واظب - بادئ ذي بدء - على ضرب طبله في المدينة المحروسة "الجزائر" وفي غيرها من المدن، لإعلام الناس بثرب موعد سفر ركب الحج، على عادة أمراء الأركاب في ذلك الشأن.

ويُستخدم في سفر الركب طبلٌ كبير من نحاس، يضره صاحبه وقت قيام الركب ووقت نزوله، ضربة الإعلام بالتهيؤ. ويوضع بعد العودة من الحج في خباءٍ مخصّص له، حيث أنه يُعتبر من الأوقاف العامة³. وقد يتناوب مجموعة من الأعوان على دقّ الطبول الضخمة، بعد انقضاء فترة الراحة، إيداناً بجمع الخيام وتحميل الجمال لمواصلة رحلة الحج⁴.

ك - الجمّالون والرعاة: الجمّالون هم سائقو الجمال، الذين يقومون بكرائها للحجاج لنقل البضائع أو لنقل الأشخاص. وهم طائفة خدمانية انتشرت وازدهر نشاطها في معظم المدن العربية في العصر العثماني⁵. أمّا الشخص الذي يقود البغال ويتولّى ربطها في مربط الدواب فيُدعى

¹ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص 83.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 160.

³ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص 14.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 69.

⁵ - أندريه ريمون، المرجع السابق، ص 115.

"السَّائِس" ، وكبيرُ تلك الطائفة يُدعى "رئيس السَّائِس"¹ . والرُّعاة هم مَنْ كانوا يقومون بإخراج إبل الركب إلى ضواحي المدن الكبرى ومراعيها، بحكم أن الحجاج قد يمكثون فيها لأيام أو أسابيع، على غرار مدينتي طرابلس والقاهرة.

لكن يبقى الجمَّالون أشهر الأعوان في طريق الحج من الرُّعاة، رغم أنهم لا ينضمُّون إلى الركب - في معظم الحالات - إلا بعد وصوله إلى المحطة المصرية، فيسوقون الجمال أثناء إنزال حمولتها للراحة وتقديم العلف لها سَوَقاً قاسياً. ويبدو أن عددهم كان كبيراً في الركب، حيث ذكر الورتلاني في رحلته أن بعض الحجاج الجزائريين ضلُّوا الطريق في أحد المقاطع، ولم يهتدوا إلى مكان الركب إلا بعد سماعهم صوت سائقة الإبل، وذلك من وراء أحد الجبال²!

لطالما اشتكى الحجاج المغاربة عموماً من هؤلاء الجمَّالين الذين يضطرون لمرافقتهم اضطراراً، نظراً لاحتكارهم بيع وكراء الإبل وأعلافها في تلك الجهات، إذ يصعب على الحجاج ضمان ذلك، لضيق الوقت وندرة التموين. وأصبح الحجاج يُعدُّون الجمَّالين من مصائب الطريق المسلطة على الإبل، ومن ثمَّ على مستخدميها من الحجاج، كما نقلَ الشاعر³! : (الرجز)

كَمْ جَمَلٍ مُنْتَصِبٍ لِلشَّقَا مَا جَزَّةُ الْجَمَّالِ إِلَّا انْكَسَرَ
وَكَانَ فِي الرَّكْبِ يُرَى مُبْتَدَأً فَمَا لَهُ مِنْ بَعْدِ هَذَا خَبَرُ

وفي مواسم حج كثيرة كان الحجاج الجزائريون يقعون ضحية تحايل وطمع الجمالين، حيث يتفقون معهم على كراء الإبل من مصر إلى بلاد الحجاز، أو العكس، ثمَّ إذا ما وجدوا فرصة للهروب في إحدى محطات الطريق التي خَبَرُوا مسالكها، هربوا بالإبل وما تحمله، تاركين الحجاج وراءهم في حيرة كبيرة من أمرهم. بل إنَّ من الجمَّالين من كان يرفض الاستمرار في نقل الحجاج ومتاعهم، إذا وجد العلف في الطريق غالي الثمن⁴. وذلك رغم اتفاقهم المسبق مع الحجاج، والوعود المقطوعة من طرفهم بعدم التحايل أو الخديعة!

¹ - محمد بن عمر التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، د ط، تحقيق: خليل محمود عساكر ومصطفى

محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م، ص20.

² - الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج03، ص134.

³ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و65.

⁴ - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ج03، ص136.

ل - أعوانٌ آخرون¹: بالإضافة إلى مَنْ تَمَّ ذكرهم، ضمَّ ركب الحج أعواناً آخرين أقلَّ شهرة، مثل الشخص المكلف بإيقاد النيران في المشاعل للإضاءة، وتزويدها بالحطب كلما أوشكت على الانطفاء²، والمعروف في المشرق باسم "المشاعلي". وأيضاً العون الخبير المتخصِّص في معاينة مياه الآبار المنتشرة على طول الطريق، فيرسله الحجاج لتلك المهمة، كلما وقفوا على عَيْنٍ من عيون الماء³. وهناك من الحجاج مَنْ وطَّنوا أنفسهم على تقديم خدمات عامَّة لزملائهم طيلة السفر، تطوُّعاً منهم، وتجسيداً لمعاني المودة والتآلف بين أفراد الركب.

02. المرأة الجزائرية وأحوالها مع رحلة الحج

أ - المرأة والحج... تحدّيات وخصوصيات:

لم تعدم الجزائر في الفترة العثمانية وجود نساء رائدات فاضلات، ارتبطت أسماؤهن بالنبوغ في مجالات شتى، ويكفيهن فخراً أنهنَّ كنَّ يعتنين بتربية أبنائهن تربية دينية، وبمُهدن لهم طريق العلم والريادة. ذلك ما قامت به - كمثال فقط - والدة الشيخ سعيد المقرئ شيخ الرحالة أحمد المقرئ، وكذا عمَّة الشيخ المصلح الإمام محمد بن علي السنوسي⁴، وغيرهما.

أمَّا المرأة المحسنة "ستي مريم" فقد أنفقت من مالها الخاص على بناء مسجد حمل اسمها، في أواخر القرن 11هـ/17م⁵. وكذلك السيدة "الدايخة بنت بن قانة" التي كانت كثيرة الفضل والخيرات، وتركت وراءها وقفاً طائلاً لسبُل العلم والخير⁶. وكانت السيدة "خديجة بنت عبد السلام" قد أوقفت بستاناً بمدينة الجزائر، وجعلت مرجعه الأخير لفقراء الحرمين منذ عام

¹ - يتباين عدد الأعوان أو الخُدَّام من ركبٍ لآخر، حسب حجمه ومدى تنظيمه وشخصية أميره. كما نجد موظفين يحملون أسماء غريبة في أركاب بلاد المشرق، ولا نجد لها في أركاب بلاد المغرب. مثل: الدوادار، العكَّام، السيروان، المشاعلي، الزدركاش، الفزاش، القبائي، الجرائحي، السياف، كاتب الأمير، الشعارة، مبشَّر الحاج، أمير آخور، قافلة باشي، المخيزي.... يُنظر: سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص 207.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 68.

³ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و 05.

⁴ - المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص 101.

⁵ - حسين بن رجب شاوش بن المفتي: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، ط 01، تحقيق: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، 2009م، ص 93.

⁶ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 92.

994هـ/1586م. وعلى خُطّائها - في تعظيم الحرمين الشريفين - سارت السيدة "مريم بنت حبيب" التي حبّست عام 1058هـ/1648م بستاناً على الروضة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة¹.

لقد تميّزت بعض النساء الجزائريات بامتلاك البساتين والعقارات والأموال آنذاك، لكنّ الأهمّ من ذلك - فيما يتعلّق بالسفر للحج - وجود نساء امتلكن عدداً من الحصص في المراكب والسفن بالشراكة مع الرجال، عُرفت باسم "الخروبوات"². على منوال كلٍّ من: فاطمة بنت الحاج محمد بن الحاج حميد، وأمنة بنت الحاج مصطفى جرادو³. بل إن إحداهنّ وهي السيدة "زهرة باي" امتلكت بمفردها سفينتين من نوع "الغليوطة"، ساهمت بهما في عمليات نقل الغنائم والعساكر⁴. ولا يخفى أن السفينة هي الوسيلة الأيسر في النقل، والمركوب المناسب لسفر المرأة إلى الحج.

رغم ظروف الحج الصعبة في ذلك الزمان إلا أن النساء كنّ حريصات على مرافقة الرجال ضمن الركب، فنساءً شيوخ الركب كنّ يُرافقن أزواجهن، بل ويذهبن إلى الحج بأولادهن الصغار⁵. وهذا الرحالة العياشي يصف أحد الشيوخ الجزائريين الذين لقيهم في طريق الحج بأنه "كان يسير غالباً للحجاز بنسائه وأولاده"⁶. ومن أدلة إقبال النساء على الحج أن الشيخ الورثلاني ذهب إلى الحجاز بعياله وهنّ ثلاث نسوة: زوجته: بنت سيدي عبد الله بن رحاب وبنت سيدي السعد، وزوجة ابنه البكر محمد⁷. وكان معهم في الركب المدعو "سيدي محمد بن قسوم"، وهو من أصحاب المخزن (أي السلطة)، وقد حجّ هو كذلك بعياله وأولاده جميعاً⁸.

تستخدم المرأة لسفرها إلى الحج الهودج أو المحمل المهيأ لها، الموضوع على الأقتاب المخصّصة، المشدودة على سنام البعير، وقد يحمل الهودج الواحد امرأتين اثنتين في آن واحد. ويقوم الحجاج طيلة السفر بمراقبة الجمال الحاملة للنساء وحراستها، واستبدال ما بدأ عليه الضعف منها،

¹ - عائشة غطاس، أوقاف الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص213.

² - الخروبوات: (مفردها الخروبة) تعني الحصص أو الأنصبة، وتقابلها "الأسهم" في عصرنا الحالي.

³ - خليفة حمّاش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص763.

⁴ - ابن المفتي، المصدر السابق، ص13.

⁵ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و06.

⁶ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص112.

⁷ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص198.

⁸ - المصدر نفسه، ج01، ص407.

ويلجؤون إلى تخصيص بعض مجاري عيون الماء المعزولة والمستورة لاغتسال النساء ليلاً، بعد مراقبتها وإعدادها لذلك¹. وتنزل النساء في الحرمين الشريفين وغيرهما من المدن مع محارمهن في بيوت يتّم كراؤها خصيصاً. ويثمن بأداء مناسك الحج المعهودة، لكن مع تفضيلهن القيام بطواف القدوم ليلاً²، لتجنّب الازدحام المحتمل في النهار، وتلافي أوقات الحرّ الشديد.

غير أنّ محارم النساء من الحجاج الجزائريين ينشغلون دائماً بمتطلبات نسائهم في السفر، ويسعون جُهدهم لصون حُرمتهم، نظراً لفضاعة وهول ما قد يلحقُ بهم من قطاع الطرق، في رحلة الحج المخوفة - أصلاً - بالمخاطر، والتي تُصيب النساء كما الرجال.

لكنّ هول الحادث المروع التالي الذي تعرّضت له نساءٌ حاجّات من مصر وبلاد المغرب في رحلة العودة قد يُغني عن التعليق: "... وفي يوم الأحد نزل الحجاج ودخلوا مصر على حين غفلة، وهم في أسوأ حال من العري والجوع، ونُهب جميع أحمال أمير الحاج، وأحمال التجار وجمالمهم وأثقالهم وأمتعتهم، وأسّر العرب جميع النساء بالأحمال، وكان أمراً شنيعاً جداً... وخرجت الناس (من مصر) أفواجاً، كلٌّ من وجدَ امرأته أو أخته أو أمّه أو بنته وعرفها اشتراها ممن هي في أسره"³؟! وقد تكرّرت تلك الأحداث المسيئة الشنيعة في درب الحجاز بصفة خاصة.

لا شك أنّ ذلك الحادث الفظيع وأمثاله قد ساهم في امتناع الكثيرات من النساء عن السفر إلى الحج في ذلك الزمان العصيب، وتناقص أعدادهن في الركب. ولعلّ تلك الأعمال المشينة هي التي جعلت أحد الحجاج يكتب على حجارة ضخمة في طريق الحجاز العبارة التالية: "إنّ أقبح الناس من أتى إلى الحجّ بامرأة!" وقد شاهدتها حجاج جزائريون وحاولوا تأويلها⁴.

ب - نماذج لنساء جزائريات حاجّات:

دأبت النساء الجزائريات على زيارة الحرمين الشريفين في كلّ موسم حج، وخاصة عندما يسود الأمن في الطريق لسنوات متتاليات، فإنّ العزم على الحج يقع - كما ذكر الورثلاي - من عامة الجزائريين ومن خاصتهم، من أهل الحاضرة وأهل البادية، لدرجة أنّ معظمهم يذهبون إليه بنسائهم

¹ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج01، ص268.

² - المصدر نفسه، ج02، ص265.

³ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص202.

⁴ - الحسين الورثلاي، المصدر نفسه، ج02، ص377.

وأولادهم¹. ويصبح اسم المرأة بعده متحلياً بِوسمِ "الحاجَّة"، على منوال: الحاجة عائشة بنت سيدي السعيد، والحاجة شريفة والدة الحاج أحمد باي، والحاجة فاطمة بنت أحمد السلاوي، والحاجة عويذة بنت محمد، والحاجة فاطمة بنت عبد الله، وأختها الحاجة عويشة...².

بالإمكان تمييزُ صنفين من النساء الجزائريات من اللائي كنَّ يُداومن على الذهاب إلى الحج، ويُسجّلن حضورهن في الركب بجلاء. نساء قريبات للولادة والموظفين الأتراك، محظوظات بما يتلقَّينَه من دعم وعناية في السفر من لدن ولاة الأقاليم والإيالات. فمثلاً استفادت إحدى قريبات باي قسنطينة من هدايا معتبرة في تونس، وذلك بمناسبة عبورها وذهابها إلى الحج، وجُوزي التركي الذي أحضر الهدايا لتلك المرأة بمبلغ مالي³.

والصنف الثاني يشمل نساءً وقريبات الشيوخ وأماء الركب، حيث كنَّ ينتهزن الفرصة لمرافقتهم في أسفارهم المتوالية، مثل "عويذة بنت محمد بن علي أجهلول" عمّة أمير الركب الشيخ أبي الحسن بن ناجي البسكري، والتي اشتهر وجودها في الركب ذلك الموسم، وأثنى عليها مُرافقوها من الحجاج، ووُصفت بأنها امرأة صوّامة قوّامة صالحة، موسرة تُنفق من مالها الخاص⁴!

ومن نماذج النساء الرائدات كذلك في ركب الحج حاجّة جزائرية اسمها "عويشة" بنت الشيخ سيدي عبد الله بن رحاب، وأصلها من عرش أولاد درّاج (نواحي الحضنة)، حيث أضحت محلّ إعجابٍ وتقديرِ الحجاج بمعية أختها، لكونها "... غاية في الأدب والفهم والفظانة، تقرأ نحو الربع من القرآن، وتحفظ العقيدة الصغرى للشيخ السنوسي، وبعض الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وكذا وظيفة الشيخ زروق البرنسي من الأذكار، وكذا أختها فاطمة لا تقلُّ عنها قدراً"⁵.

ومما يُؤثر عن النساء الجزائريات المقبلات على الحج وقتئذٍ أنهن كنَّ يسافرن وهنَّ حوامل، ويضعن أولادهن في ظروفٍ صعبة للغاية. فيذكر أنّ زوجة أحد الشيوخ المسّمى عبد الرحمن الذويبي العمري من نواحي بجاية وضعت مولودها في أشدّ المناطق قساوةً على الحجاج، وهي صحراء برقة

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج01، ص44.

² - يمكن إحصاء عشرات الأسماء لنساء جزائريات حاجّات من كتب الرحلات وغيرها، لكن دون ذكر تفاصيل وافية عنهنّ.

³ - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص343.

⁴ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و01.

⁵ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج03، ص112.

الليبية¹. بينما أنجبت زوجة أحد الشيوخ من صحراء الجزائر ولدها في مكة المكرمة أثناء الموسم². وهي حالات تدلُّ على إقدام النساء الجزائريات، وتحديهن الصعاب والمخاطر المتوالية.

يُذكر أن عدداً من النساء الجزائريات الحاجات قد مكثن مع عوائلهن بالحرمين الشريفين، وساهمن في تشكُّل جالية جزائرية معتبرة بالمدينة المنورة خاصةً. لكنَّ صلتهنَّ بالجزائر لم تنقطع بسبب ذلك، فأصبحن يتلقين حصصاً من الأموال الموقوفة على الحرمين الشريفين، وقد تراوحت قيمة الحصّة الواحدة بين دينارٍ وثلاثةِ دنانيرٍ ذهبية. وفيما يلي نماذج عنهن: الحاجة مستورة بنت موسى التواتي، والحاجة مباركة بنت الحلاب الجزائرية، وعائشة بنت محمد الخياط الجزائرية، وفاطمة بنت محمد الجزائرية، وآمنة بنت الجيلالي الشريف الجزائرية...³.

المبحث الخامس: حجمُ الركب الجزائري ومراحلُ سيره

01. حجمُ الركب وأسباب التباين في عدد الحجاج:

إنَّ إقبال الناس على الحج أو عزوفهم عن السفر إليه تبعاً لعدّة عوامل داخلية وخارجية هو الأساس في تحديد حجم الركب، فالشخص الذي يعزم على الحج ويرافق الحجاج يكون قد انتظم في سلك الركب، وعُدَّ من مكُوناته. لأنّه بعد انضمامه إلى الركب يصطحبُ معه رواحله ولوازمه ومؤنّته وخيمته، وأحياناً بضائعه. ووجود التجار مع جمّالهم بأحمالها ضمن القافلة يزيد في ضخامة ركب الحج⁴. وكذلك عزمُ الحكام وكبار الموظفين الأتراك على الانضمام إلى الركب البري يزيد في حجمه، فهم غالباً ما يُسافرون في أبهة كبيرة، فيضاعفون عدد الرواحل والمعدّات.

كان حجم الركب الجزائري قبيل مجيء العثمانيين الأتراك معتبراً، حيث يُذكر أنّه ضمَّ في أحد المواسم ثلاثمائة مسكن، ما بين خباء وقيطون (أي خيمة)، وكلُّ خيمة ضمّت جماعة من الحجاج⁵! ومنه نستنتج أنّ هذا الركب عامرٌ بألاف الحجاج وآلاف الإبل وغيرها من الدواب. ثمَّ

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج01، ص434.

² - عبد المجيد قدي، المرجع السابق، ص133.

³ - عائشة غطاس، أوقاف الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص223.

⁴ - حسام محمد عبد المعطي: البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

2008م، ص221.

⁵ - نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص277.

تناقصَ حجم الركب في القرن 10هـ/16م، أي في مرحلة تثبيت الوجود العثماني بالجزائر وتونس وطرابلس، بسبب فقدان الأمن في الطرق البرية والبحرية، واستمرار عملية بسط النفوذ العثماني على الحجاز مقصد الحجاج، بعد التمكن من ضمّ مصر سنة 923هـ/1517م. لذا فإن أعداد الحجاج في العقود الأولى للوجود العثماني بالمنطقة كانت قليلة، والذين حجّوا في تلك الظروف لقوا مشقة كبيرة، بسبب الغلاء وندرة الجمال وهجوم البدو في الحجاز¹.

أخذ حجم الركب الجزائري يتزايد بشكل ملحوظ مُطَرِّدٍ في بعض مواسم القرن 11هـ/17م، وبدأت ملامح تضخّمه تظهر للعيان، من خلال اتّساع الأبعاد والمسافات بين مقدّمة الركب ومؤخّرته، ومن خلال احتياجه لمساحات إضافية أكبر لنزوله أو عبوره. ذلك ما أقرّ به الرحالة المغربي العياشي عن ركب الجزائر، وصوّره في المشهد التالي: "... وقصدنا الجابية، والركب الجزائري أمامنا، يتراءى لأولنا آخرهم، وفي اليوم الثالث نزلنا الجابية عصرًا، ومررنا بهم وهم نزول، فبعثوا إلينا أن تأخروا عنّا حتى نرتحل أمامكم"²!

لكنّ مواسم القرن الموالي 12هـ/18م مثّلت مرحلة التنامي والتزايد في أعداد الحجاج، بحكم الانتعاش الأمني والاقتصادي والثقافي الذي عرفته الجزائر عامّة، حين جمعت لها الأقدار ثلاث شخصيات قوية حاکمة هي: الداوي محمد بن عثمان باشا (ت1205هـ/1791م) وصالح باي قسنطينة (ت1206هـ/1792م) ومحمد الكبير باي وهران (ت1206هـ/1792م). ولا أدلّ على ذلك من كثرة مذكّرات الرحلات الحجازية الجزائرية المدوّنة في ذلك القرن، وورود أسماء العديد من العلماء والموظفين والطلبة والنساء، الذين أدّوا مناسك الحج في مواسمه.

لقد قدّر الرحالة الورثلايني عدد الحجاج الوافدين على الركب مع قافلة منطقة زاوّة - مثلاً - قائلاً "وجاءنا الركب من جبل زاوّة، نحو الثلاثمائة رجل"³! لكن هل خلا ذلك الركب من النساء؟ أم أنّ الورثلايني قد غفل عن ذكرهم، ومن ثمّ عن عدّهم؟ وكم يكون عدد حجاج ذلك الركب الإجمالي، إذا علمنا أنّ العدد المذكور (300) هو حصّة منطقة زاوّة فقط، وسوف تنضمّ إليهم قوافل أخرى من جهاتٍ مختلفة، برواحلها وعتادها ومستلزماتها؟

¹ - أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص16.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص496.

³ - الحسين الورثلايني، المصدر السابق، ج01، ص87.

بناءً على ما ذكر يمكن تقدير أعداد الحجاج المكوّنين للركب الجزائري بالآلاف أو يزيدون. وهناك وقائع تُشير إلى ذلك، من بينها الواقعة التالية: في أحد المواسم وقع انفصال عددٍ من فقراء الحجاج فقط عن الركب في محطة طرابلس، وأنجّهموا لمواصلة رحلة الحجّ بحراً، وبلغ عدد هؤلاء المنفصلين حوالي الثلاثمائة، ورغم ذلك فقد وُصفوا بأنهم جزءٌ يسير¹. فإن كان اعتبار الثلاثمائة من الحجاج جزءاً يسيراً في الركب، فما بالك بالعدد الإجمالي للحجاج؟

إنّ ما يُعزّد تلك التقديرات لعدد الحجاج الكبير هو تواتر الأخبار والشهادات عند معظم الرحالين بشأن طول المدة الزمنية التي أضحى ركبُ الحج يستكمل فيها عمليتي النزول ثمّ الارتحال المتراذفتين عند كلّ محطة أو منزل، وكثيراً ما تُصادفنا في المصادر العبارات التالية: "ونزل أول الركب مع الغروب، ولم ينزل آخره إلا بعد العشاء!" أو "وانتظرنا الركب، فلمّا تلاحق سيرنا!" أو "ولحقنا وأخّر ركب الجزائر!"². وكلّها عبارات دالة على حجم الركب وكثرة الحجاج.

وهذا الرحالة الورثلاني يصف ركب الجزائر الذي حجّ ضمنه بأنّه لم يكن أعظم منه، وما طلع ركبٌ من بلاد المغرب مثله في الكثرة. بل إنّ أهل طرابلس وأهل مصر اندهشوا من حجم الركب في موسم 1179هـ/1766م، وخاطبوا الحجاج الجزائريين: "منذ حصل لنا التمييز ما طلع ولا جاء ركبٌ من المغرب مثل هذا الركب، إذ فيه ألوفٌ مؤلّفة"³؟! إنّ هذه الشهادة بمثابة اعتراف صريح بضخامة عدد وعُدّة ركب الجزائر، وبلوغه ذروة سنام التنامي في ذلك الموسم.

وشبيهةً بذلك ما حدث في موسم حجّ 1193هـ/1779م، فبعد وصول الأركاب المغاربية في أزمانٍ متقاربة إلى مصر.... "ماجت مصر وهاجت في أيام خروج الحج، بسبب الأطلاب، وجمع الأموال، وطلب الجمال والبغال والحمير.... ولم يُعهد حجٌ مثل هذه السنة في كلّ شيء، وسافر فيه خلائق كثيرة من سائر الأجناس"⁴!

وفي أواخر سنين الحكم العثماني للجزائر أقبل الناس على الحج إقبالاً، مثلما كان في السابق، وذلك بفضل استتباب الأوضاع الأمنية في المشرق، وتمكّن والي مصر "محمد علي باشا" من بسط

¹ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص377.

² - يُنظر هذه النماذج وأمثالها في كتب الرحلات المغاربية، خاصة رحلات: الورثلاني والعياشي والدرعي....

³ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص07.

⁴ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص74.

سيطرته على الحجاز وطريقه، إثر قضائه على السعوديين. فتوافد الحجاج بأعداد كبيرة على مصر في موسم 1233هـ/1818م، بعدما انتقلوا للحج أفواجا من الجزائر في هذه السنة¹. وقبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر تضاعف عدد الحجاج، فقد أصبحوا يتجمعون في مراكز الانطلاق من الغرب الجزائري بالآلاف، ويُقيمون "بحراً" من الخيام حول خيمة أمير الركب²!

تبدو الإحصاءات بخصوص حجم الركب الجزائري تقديرية، نظراً لتعدد منافذ الحجاج، ولصعوبة ضبط الأعداد قبل الوصول إلى الحجاز، فبعض الراغبين في الحج من خارج الجزائر كانوا ينضمون إلى الركب أثناء مسيره. حيث كان يتوقف في كل محطة، ليتيح الفرصة لمن يرغب في الحج للالتحاق به³. أمّا الأعداد الإجمالية للحجاج المسلمين، الواقفين في صعيد عرفات سنوياً في ذلك العصر، فقد كانت تتراوح ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف حاج⁴. ولو افترضنا أنّ معدل أعداد الحجاج الجزائريين في حدود سبعة آلاف فقط، بناءً على ما نُقل من شهاداتٍ صَنَفْتَهُم بِالْأَلُوفِ، فَإِنَّا نَجِدُ حَجَّاجَنَا قَدْ حَقَّقُوا نِسْبَةً مُذْهَلَةً: 10% مَمَّنْ وَقَفُوا بِعَرَفَةَ! أَيُّ عَشْرِ الْحَجَّاجِ الْمُسْلِمِينَ قَاطِبَةً! فعلاً أصاب المؤرخ المغربي "المنوني" في مقارنته لأعداد الحجاج بين عصرين متباينين: "لقد تضخم عددهم في دولة الإبل والشراع.... بقدر ما قلوا في عصر البخار والطيران!"⁵.

02. تباينُ مواقيت خروج الركب الجزائري⁶:

إنّ الحديث عن مواعيد خروج ركب الحج في ذلك الزمان أمرٌ نسبي، يخضع لعدة عوامل، منها: جهة تجمع الركب، إتمام التحضيرات، حجم الركب، شخصية أمير الركب، طريق السفر في المقاطع الأولى (براً أو بحراً).... لكنّ الخروج المألوف في معظم المواسم كان عقب انقضاء شهر ربيع الأول، أي بعد حضور احتفالات المولد النبوي الشريف بالجزائر تيمناً وتبرّكاً. يُشير الرحالة

¹ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص144.

² - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص43.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص21.

⁴ - روبر مانتران، المرجع السابق، ج01، ص ص: 562-563.

⁵ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص09.

⁶ - يُنظر التضارب الواضح الحاصل في مواعيد ذهاب الركب الجزائري ومواعيد إيايه - تبعاً لعوامل عديدة - في الجدول المعدّ ضمن الملاحق المرفقة بالبحث.

الفلاحي القبلاوي إلى خروج الركب في الشهر الموالي لربيع الأول قائلاً: "وخرجنا من عين صالح ضُحَى يوم الاثنين الموافق أحدَ عشرَ ربيع الثاني...."¹.

وكان الخروج من منطقة القبائل الصغرى في أحدِ مواسم الحج في ركبٍ كبيرٍ مع بداية شهر جمادى الثاني²، وأيضاً شبيهةً بذلك الخروج في موسم حجٍّ آخر، عندما غادر الركب منطقة توات أقصى الجنوب الجزائري يوم الاثنين الأخيرة من شهر جمادى الثاني السابق لشهر رجب³. بينما تأخَّر خروج الركب من منطقة وادي ميزاب في موسمٍ آخر إلى منتصف شهر رجب، حسبما وردَ في رحلة المصعبي⁴: (الطويل)

وَقَدْ كَانَ فِي يَوْمِ الْحَمِيسِ خُرُوجَنَا لَدَى نِصْفِ رَجَبٍ مِنْ شَهْرِ الْإِلَهِيَا

يُعتَبَرُ خروج الركب من الجزائر في شهر رجب توقيتاً متأخراً لمن ينوي الحج عبر الطرق البرية، فالأنسبُ غالباً لهؤلاء التبكير، ومغادرة الجزائر قبل انتهاء شهر جمادى الأول كأقصى حدٍّ. فتكون معهم فُسحةٌ من الزمن، ويسيروا سيراً معتدلاً لا يُرهقهم. أمّا من يؤخِّرون الخروج إلى شهر رجب فلا يسعهم إلا إزماع السير إزماعاً، وإلا عوّقوا فيفوتهم الحج⁵.

كان الحجاج الجزائريون الذين يرغبون في الانتقال إلى مصر عبر البحر مُطالبين بمغادرة المدن والمناطق الداخلية باتجاه الموانئ، مع تقدير فترة تجهيز المركب ومن ثمّ موعد إقلاعه، والذي كان يتمُّ في الغالب في شهر رجب. فمثلاً أمرَ الداوي حسين في موسم حج 1233هـ/1818م بتسريح المراكب للذهاب إلى الحج في مستهلِّ شهر رجب⁶. ووصلت قافلة رسمية إلى تونس تضمُّ حجاجاً من قسنطينة يوم 15 رجب 1193هـ/1779م، لكي تُسافر من مينائها لاحقاً⁷. إذن الخروج

¹ - الفلاحي القبلاوي، المصدر السابق، و02.

² - توقيت تقريبي، استنتاجاً من كون الركب الذي انطلق من نواحي بجاية وسطيف - والذي سافر معه الرحالة الورثلاحي - عرَّج جنوباً، فوصل مدينة بسكرة في شهر رجب، بعد أيام قضاها في ضيافة أهل الثرى والمدن الواقعة في طريقه. يُنظر: الحسين الورثلاحي، المصدر السابق، ج01، ص213.

³ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و04.

⁴ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص67.

⁵ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص172.

⁶ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص144.

⁷ - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص370.

من الجزائر في شهر رجب يُوائم الركب البحري، الذي يصل إلى مصر في وقت كافٍ لِمَا تَبَقَى من الطريق، ولا يُوائم الركب البري الذي يحتاج إلى شهور من السير كي يصلها.

نستنتج ممّا سبق أنّ موعد خروج ركب الحج الجزائري لم يكن مضبوطاً بدقّة، وإنما شمل مجال ثلاثة أشهر تقريباً (من منتصف ربيع الثاني إلى منتصف رجب)، ويكون ذلك بالنظر لجهة صدوره، أي الإقليم الذي يتجمّع فيه. مع محاولة التحكم في مدة السفر قدر المستطاع، حتى يتمكن الركب من الوصول إلى مصر مع اقتراب شهر شوال لأجل الراحة، ففي أواخره يُغادرها الحجاج الجزائريون والمغاربة والمصريون جميعاً نحو الحجاز، في احتفالات موسمية مهيبة.

03. المراحلُ المألوف قطعها في سير الركب:

شاعَ في العصور الماضية استخدام وحدات خاصة لقياس الأبعاد والمسافات مثل: "البريد"¹، و"الفرسخ"²، عوضَ الأميال أو الكيلومترات. لكنّ الوحدة الرئيسية المستخدمة بكثرة في حساب أبعاد الطريق إلى الحج هي "المرحلة"، فيقال غالباً عن محطة من محطات الطريق، وصلها الركب بعدَ زمنٍ من السير: "... ووصلناها بعد كذا مرحلة".

تُعادل المرحلة المسافة التي كان يقطعها المسافر في يومٍ مشياً على الأقدام، أو على الدواب سيراً معتدلاً معتاداً، أمّا حسابياً فتقدّر بعشرة (10) من الفراسخ³. وبما أن الفرسخ ثلاثة أميال، والميل تقريباً 1,6 كلم (أو 1,8 كلم) فإنّ المرحلة بضرب الأبعاد $1,6 \times 03 \times 10 = 48$ كلم. وهي مسافة تقريبية، بسبب وجود بعض الارتياب في المعطيات المعتمد عليها.

كان ركب الحج يسيّر من مُنطلقه إلى نقطة وصوله بحساب المراحل، ويجعل بين كلّ مرحلتين فترة نزول للاستراحة، من ليلٍ أو نهار. وكان الحجاج العارفون بالطريق يعتبرون المسير بإدماج

¹ - البريد: كان العرب يقدرّون به المسافات قديماً، والبريد عبارة عن أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال. قال النّاطم: (الرجز)

إِنَّ الْبَرِيدَ مِنَ الْفَرَسَخِ أَرْبَعٌ وَلِالْفَرَسَخِ ثَلَاثُ أَمْيَالٍ ضَعُوا

يُنظر: محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص157.

² - الفرسخ: معناه في اللغة السكون. واحدٌ من الفراسخ، وهو لفظ فارسيّ مُعَرَّب، يُعادل ثلاثة أميال وقيل ستة. وسمي بذلك لأن صاحبه إذا مشى قعدَ واستراح من ذلك، كأنما سَكَنَ. يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص3381.

³ - عبد الرحمن بن خلدون: رحلة ابن خلدون، ط01، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص189.

مرحلتين في مرحلة واحدة دون فاصلٍ بينهما - بقصد الإسراع - أمراً غير مقبول، لأنَّ فيه ضرراً كبيراً ومشقّةً شديدة على النفوس والأبدان والجمال¹. كما أنَّ قطع نصف مرحلة فقط في اليوم كلّه يُعدُّ سيراً ضئيلاً، لا يتناسب مع طول طريق الحج². وعليه فقد أُلّفَ الركب الجزائري أن يسير في اليوم الواحد مقدار مرحلتين، يأخذ قسطاً من الراحة في ما بينهما³، بشرط أن تكون ظروف المسير مهيأة، والعوامل الطبيعية مواتمة لذلك.

اعتاد ركب الحج أن يبدأ مسيره اليومي بعد طلوع الفجر وأداء صلاة الصبح، ولا ينزل حتى اقتراب موعد العصر، وذلك لأداء صلاتي الظهر والعصر جمعاً وقصراً، وبعد الاستراحة وتناول الطعام يظعنُ الحجاج مرة أخرى، ويواصلون السير - غالباً - حتى موعد تناول العشاء ثمّ المبيت، عقب جمع صلاتي المغرب والعشاء⁴.

ويمتنع الحجاج عن النزول من على متون رواحلهم إذا طُلب منهم ذلك في محطة من المحطات أوّل النهار. وكلُّ من أخذ منهم موضعاً في الركب يظلُّ ذلك موقعه طيلة الرحلة⁵. ويشرعون عند نزولهم في الأشغال المعتادة من: بناء الخيام، وحطّ الرّحال، ورعي الإبل، وجلب الماء، وإعداد الطعام، وتأمين الحراسة....

وعلى العموم فإن الركب الجزائري لا يمكن ضبطُ مدة رحلته للحج بزمنٍ دقيق، بل تبقى الأمور تقديرية. بسبب مجموعة من العوامل والمؤثّرات التي يتباينُ حجم تأثيرها على الحجاج من ركبٍ لآخر. نذكر من تلك العوامل: مدة الركون إلى الراحة قبل وبعد قطع المراحل المشهورة بصعوبتها. وكثرة محطات طريق الحج التي يُعرّسُ فيها الركب، من أجل قضاء حوائج الحجاج واستبدال رواحلهم، سواء منها المدن الكبرى المشهورة، أو المعابر والمنازل التي تزدهر بمناسبة موسم الحج فقط. فجميعها لها نصيب من مسيرة ركب الحج. كلُّ ذلك يؤدّي في مُحصّلتها إلى إطالة سفر الركب وغيبة الحجاج عن وطنهم وأهاليهم أزمناً مديدة.

¹ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و19.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص112.

³ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج02، ص12.

⁴ - عبد الرحمن التتلائي، المصدر السابق، و: 05-13.

⁵ - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص174.

خلاصة الفصل الثاني:

رأينا في هذا الفصل الثاني مدى تعلق الجزائريين بأداء فريضة الحج، وكيف كانوا يعبرون عن ذلك الشوق للحرمين الشريفين باقتحام المخاطر والصعوبات من أجل الوصول إليهما، رغم بُعد الديار وصعوبات السفر التي لا تخفى في ذلك الزمان، ومرّت عليهم مواسم حجّ ذهبوا فيها إليه أفواجاً بنسائهم وأولادهم. وقد ترجم الجزائريون - عامتهم وخاصتهم - ذلك الحنين لتلك الديار بأن جعلوا مرجع ما يملكونه من عقارات وبساتين وقفاً على فقراء الحرمين الشريفين، إيثارةً منهم لساكنيهما على أنفسهم، حتى قيل في الأمثال: "مكة في الشرق ورجالها في الغرب".

وكان النداء للحج يتم في التجمعات الكبرى داخل المدن، وفي الأرياف التي يقطنها أغلب السكان، فيشرع من قد عزم عليه في إعداد عدته وجمع مؤنثته، من أخبيةٍ وطعام وملابس وأدوات مختلفة. ويحرص الحجاج قبل السفر على توديع أقاربهم ومحبيهم، وزيارة المرضى والعلماء والصالحين، والتحلّي بأداب السفر وسلوكياتها، وعلى أن يكون المسجد آخر مزارٍ لهم بالبلد.

وبما أنّ "الحج زاد وراحلة" فإن اختيار الراحلة المناسبة للسفر اعتُبر من أولى الضرورات، وكانت الإبل هي الوسيلة المفضّلة لجلّ الحجاج، نظراً لوفرّتها وإمكانية استبدالها في طريق الحج، مع توظيف البغال ثمّ الخيول على نطاقٍ ضيق. ويقوم الحجاج بحمل أعلاف الدواب على ظهورها من باب أخذ الاحتياط اللازم، بينما يُطلقونها على عواهنها لترعى وتأكّل ما توفّر من عشب وكلاء، أثناء نزول الركب للراحة.

وضمّ ركب الحج الجزائري تشكيلة بشرية متنوعة، على رأسها أمير الركب قائد الرحلة، الذي درج على استشارة العلماء والقضاة والأعيان المصاحبين له في القضايا المتعلقة بالسفر. وفيه الحجاج المتمردون على الانضباط المطلوب ونظام الجماعة، الذين عُرفوا باسم "صعاليك الركب". وفيه شخصيات وضيوف ينضمون إليه في المحطات التي يتوقّف بها. وما يُميز الركب هو وجود مجموعة من الأعوان الموظفين لأغراض مختلفة، مثل دليل الركب الواجب اصطحابه، ورافع رايات الركب وأعلامه، وصاحب الطبل الكبير المستخدم للتواصل بين الأمير وعامة الحجاج. أمّا المرأة الجزائرية فكانت على خطى الرجل، انخرطت في ركب الحج، وسجّلت حضورها في رحلته بقوة.

تؤكد معظم كتب الرحلات أن ركب الجزائر كان ذا شأن من حيث القوة والكثرة والنجدة، وضّم بين جانبيه ألوفاً من الحجاج والرواحل والعتاد. لاسيما في مواسم حج القرن 12هـ/18م بفضل استقرار الأوضاع في الجزائر، وتوفر الأمن في بلاد الحجاز وسبيلها. أمّا مواعيد خروج الركب فكانت تتراوح بين شهري ربيع وجمادى في الغالب، وذلك بتقدير الوصول إلى مصر في الوقت المناسب. وتُحسب المسافات التي يقطعها الركب بوحدة قياس خاصة هي "المرحلة"، ويستفيد الحجاج من أوقاتٍ للراحة واسترجاع القوى بين المرحلة والتي تليها. وهكذا يواصلون رحلتهم التي يرجون أن يكون مُنتهاها تكحيل العينين برؤية الحرمين الشريفين.

الفصل الثالث:

طرق الحج محطّاتها وإكراهات مجالها

- تمهيد

- المبحث الأول: مسارات الركب ومحطات العبور الرئيسية

- المبحث الثاني: إشكالية تأمين مسالك ركب الحج ومعايره

- المبحث الثالث: المعوقات الطبيعية وسبل مواجهتها

- المبحث الرابع: أثر المستجدات على سير الركب للحرمين

- خلاصة الفصل الثالث

الفصل الثالث: طُرُق الْحَجِّ مَحَطَّاتُهَا وَإِكْرَاهَاتُ مَجَالِهَا

يأتي هذا الفصل الثالث ليستكمل ما ذكرناه سابقاً عن المعطيات المتعلقة بسير ركب الحج الجزائري وظروف خروجه من الجزائر ومراحله المقطوعة نظرياً، بدءاً بإحصاء الطرق والمسارات الداخلية والخارجية التي كان الركب يسير فيها، واستعراض أهم المحطات التي كان يتوقف بها من أجل الراحة واستجماع القوى لتجديد العهد بالطريق، مع محاولة تبيان أهمية كل محطة على حدة، ومكمن خصوصيتها بالنسبة للركب الجزائري.

كما خصصنا المبحث الثاني منه لإشكالية غياب الأمن في تلك الأزمنة وتأثيره على ركب الحج، وفي ماهية قطاع الطرق المعتدين على الركب ومسوغات ترهيبهم للحجاج ضيوف الرحمن؟ وكيف تحطت الاعتداءات طرق البر لتصل إلى مسلك البحر، من خلال قرصنة السفن المقلّة للحجاج الجزائريين. وما هو ردُّ فعل الحجاج على ذلك وجهودهم الذاتية في حماية الركب؟ فضلاً عن الجهود العامة التي كانت تبذلها الدولة العثمانية وحكام الإيالات من أجل ذلك.

وحاولنا من خلال المبحث الثالث استقصاء مجمل الصعوبات الطبيعية التي كانت تواجه الركب الجزائري منذ مغادرته الجزائر إلى غاية وصوله للحجاز، سواء منها المظاهر التضاريسية صعبة الاجتياز، أو التقلبات المناخية التي تواجه الركب بسبب توالي الشهور والفصول. والأخطر فيها مواجهة العطش، الذي لا يقلُّ خطره عن خطر الاعتداءات ذاتها. وكيف كان الحجاج يتقون تلك الصعوبات ويتعاملون مع مخاطرها؟

أمّا المبحث الأخير فخصصناه للحديث عن نوع آخر من الإكراهات المحيطة بسفر الركب، وهو جانب علاقاته بالسلطات القائمة في الأقاليم العثمانية التي يسلكها ركب الحج، بحكم أن مواقف الجزائريين من الأتراك لم تكن كلها إيجابية. وبيّنا أثر تلك العلاقات في ما كان يواجه الحجاج في محطة مصر من تحديات وصعوبات. وما هي سبل الوقاية من ارتدادات الأحداث الطارئة على الركب هناك؟ وكذلك ظروف وصول الركب الجزائري إلى بلاد الحجاز، وموقع الركب الجزائري ضمن منظومة الأركاب الأخرى. خاصة وأن الأركاب المغاربية كانت تصحب الركب المصري في آخر الطريق إلى الحجاز. وحاولنا فيه كذلك تصوير مشاعر الحجاج الجزائريين إثر معاينة الحرمين الشريفين وظروف أدائهم لمناسك الحج؟

المبحث الأول: مسارات الركب ومحطات العبور الرئيسية¹

01. الطرق الداخلية الرئيسية لركب الحج:

لا يمكن الحديث عن وجود منظومة مواصلات مهيأة قائمة في الجزائر العثمانية، مثلما كان عليه الأمر في بعض الدول الأوروبية، أو حتى بعض الأقاليم العثمانية، لأن التركيز الرسمي كان مُنصباً على الطرق التجارية الكبرى الرابطة بين عواصم البياليك، مروراً بالمدن والحواضر الجزائرية المشهورة آنذاك، والتي عُرفت باسم "الطرق السلطانية"². بينما تباينت مسارات ركب الحج نظراً لتباين الجهات التي كان ينطلق منها، والنقاط التي كان يمرُّ بها. وعليه يمكن إحصاء ثلاث طرق رئيسية للركب، تصبُّ جميعها في مداخل إيالة تونس أو إيالة طرابلس الغرب، وهي:

أ - **الطريق التلية "العرضانية"**: وهي الطريق الشمالية لركب الحج، بدءاً بتلمسان غرباً، مروراً بمدينة الجزائر دار السلطان، وصولاً إلى قسنطينة شرقاً، ومنها يَلجُ الركب البلاد التونسية لاحقاً. وقد نظم ابن مسايب التلمساني معظم محطات هذه الطريق الأفقية (أو العرضانية كما كانت تسمّى) في رحلته الحجازية، وذكر أن الركب كان يستريح فيها ويزور معالمها وأعلامها. وهي مرتبة كما يلي:.... تسالة، تليلات، يلل، جديوية، مجّاجة، واد الفضة، العطاف، مليانة، متيجة، البليدة، بوفاريك، الجزائر، أربعاء بني سليمان، برج حمزة، بني منصور، البيبان، مجّانة، قصر الطير، سطيف، ميله، قسنطينة، واد الشارف.... وصولاً إلى مشارف مدينة الكاف التونسية³.

وبسبب صعوبة تضاريس هذه الطريق وكثرة شعابها ووديانها فإن ركب الحج كان يسير فيها سيراً بطيئاً نوعاً ما، لا يكاد يتجاوز مقدار المرحلة الواحدة في اليوم الواحد. والدليل على ذلك هو أنّ معدل المسير من مدينة تلمسان إلى مدينة الجزائر كان يصلُ قرابة اثني عشر يوماً⁴، رغم بعض التباين في ذلك من فصلٍ لآخر. وكان ركب الحج يبلغ مدينة قسنطينة قادماً إليها من مدينة الجزائر

¹ - للتعرف على طرق ركب الحج الجزائري ومحطات عبوره، يُنظر الخريطة التوضيحية في الملاحق المرفقة بالبحث.

² - محمد العربي الزيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د س، ص 67.

³ - Ben Messaib, Op.cit, p p 276-278.

⁴ - **مسافة يوم**: هي مسافة زمنية نسبية غير دقيقة، تتأثر بطبيعة الفصل السائد (صيفاً أو شتاءً)، وكذا بما تحمّله الدواب على ظهورها من أثقال. وهذا مثال توضيحي لذلك أورده الورثلاني في رحلته قائلاً: ".... والمدّة بينهما نحو من مسافة يوم بالأعمال المثقّلة، في الأيام القصار، أو نصف يوم في غير ذلك!" يُنظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 01، ص 169. وأيضاً: محمد المكناسي، المصدر السابق، ص 331.

على اثنتي عشرَ مرحلة¹، بمعدّل مسيرٍ يُقارب أحدَ عشرَ يوماً²، أي بقطعِ مرحلة واحدة في كلِّ يوم تقريباً. وإذا أضفنا إلى تلك المسافات مسير بضع مراحل ما بين مدينة قسنطينة وحدود الإيالة التونسية، فإننا نستنتج أن المجموع العام أو معدّل المسير الكلّي من أقصى غرب الجزائر إلى أقصى شرقها في تلك الطريق كان يُلامسُ زمنَ الشهر بقليل.

وجدتُ بالذکر أن حجاج هذه الطريق - في معظمهم - هم أصحاب بغال وحمير، يضطرون لبيع دوابهم في قسنطينة وشراء الإبل من أسواقها، أو مواصلة السفر بها ثمّ استبدالها في طرابلس اللبية بالإبل ذات النوعية الجيدة³. كما أن الركب قد ينعطف أحياناً بعد قطع نصف هذه الطريق باتجاه الجنوب الشرقي، وذلك من محطة برج حمزة (البويرة)، مروراً بمنطقة الحضنة (المسيلة)، وصولاً إلى مدينة بسكرة⁴، متحوّلاً إلى "الطريق العرضانية" الوسطى، أو طريق السهوب.

ب - طريق السهوب الجزائرية (الوسطى): طريقُ الهضاب أو السهوب الداخلية، الممتدة أفقياً بين الأطلسين التلي والصحراوي، ذات المراعي والكأ الوفير. وهي أشهر طرق الحج من داخل الجزائر، وأكثرها مسلكاً من طرف الحجاج، خاصة في مقطعها الشرقي ببلاد الزّاب.

تجمع هذه الطريق العرضية المحطات التالية على الترتيب ذهاباً (نحو الشرق): العوينة (القنادسة)، بوسمغون، الغاسول، عين ماضي، تجموت، الأغواط، العسافية، سيدي خالد، أولاد جلال، طولقة، بسكرة (قاعدة الزاب)، سيدي عقبة، الزرايب (زريبة حامد وزريبة الوادي)، خنقة سيدي ناجي، واد غِسران... وصولاً إلى الشبيكة مدخل البلاد التونسية، ومنها إلى مدينة توزر أولى المحطات الخارجية المهمة في رحلة الأركاب المغاربية كلّها⁵.

ومعظم أركاب الحج وقوافله الجزئية المتجمّعة تجتاز هذه الطريق سنوياً، حتى وإن لم تكن انطلاقتها من أحد مقاطعها. وذلك لشهرتها بين الحجاج، واستوائها تضاريسياً، وكثرة عُدراتها وكأها، ووقوعها في مستوى واحد تقريباً مع طريق الحج الخارجية الرئيسية. وهي كذلك طريق

¹ - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص152.

² - محمد المكناسي، المصدر السابق، ص329.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص136.

⁴ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و10.

⁵ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص: 127-160.

أركاب المغرب الأقصى: السجلماسي والمراكشي، والفاسي في معظمها. حيث تسلكها تجنّباً للتصادم مع حكام الجزائر الأتراك، المتمكّنين بصفة أخصّ في الشمال وطريقه التلية.

لقد دأب بعض الرحالين على تسميتها باسم "طريق الصعاليك"؟ بسبب مرافقة فئة "الصعاليك الحجاج" المتمرّدين على نظام الركب والمستنكفين عن أداء مهامهم لأركاب الحج من خلالها. ومنهم الرحالة ابن أبي محليّ الذي سلكها سنة 1000هـ/1592م، منطلقاً من بني عباس بوادي الساورة، قائلاً: "... فكانت الحجّة مع طريق الصعاليك، لفقد الركب يومئذ مع هجوم الحال...."¹. في حين سمّاها الشريف الزهار "طريق الصحراء" مجازاً، لكونها تقع دون طريق التل، وذلك في معرض حديثه عن ثورة محمد التيجيني على الأتراك، إثر عودته من رحلة الحج. وكان انطلاق ركب التيجيني من مدينة عين ماضي، إحدى المحطات الأساسية في تلك الطريق. يقول الزهار في مذكراته: "... فذهب السيد محمد للحج، على طريق الصحراء"².

ج - الطريق الصحراوية انطلاقاً من توات: طريق ذات طبيعة جافّة قاسية جداً، لا يقدر الضعفاء من الحجاج على سلوكها. لكنها آمنة نسبياً، وهي فرعان علوية وسفلية:

تتميز الطريق العلوية منها بكثرة الحمادات، وبوجود أرقام (أحجار) مبنية على مقاطع معينة من الطريق، تُغني عن كراء الدليل³. ومبدأ هذه الطريق بلدة "تسايت" شمالي منطقة توات، وبعدها تتوالى المحطات: أوكرت، قورارة (تيميمون)، القليعة (المنيعة)، واركلا، تماسين، تقرت (قاعدة وادي ريغ)، سُوف، الرياح، وادي العلندة.... وهي محطات خاضعة لجماعات محلية مستقلة عن العثمانيين، بيد أنّ تقرت خضعت لهم آخر المطاف سنة 1203هـ/1788م⁴. وتنتهي هذه الطريق بالوصول إلى منطقة نفاوّة (قبليّ حالياً)، في المدخل الجنوبي الغربي التونسي.

أمّا الطريق السفلية فهي طريق تيدكلت أسفل بلاد توات. وهي طريق جنوبية مُوغلة في الصحراء، واقعة على خطّ مستقيم يوصل الحجاج إلى إقليم فزان جنوب ليبيا. ينطلق فيها ركب الحج من بلدة "تيمي" عاصمة توات، لينزل بمدينة تمنطيط العريقة، ثمّ يزور الزوايا الموزعة على طول

¹ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص94.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص159.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص113.

⁴ - الشريف الزهار، المصدر نفسه، ص52.

الطريق بمثابة محطات. وهي توالياً: زاوية سيدي عبد القادر، زاوية الجديد، زاوية سيدي علي بن حنيني، زاوية الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي. ومن هذا المنزل الأخير يُشَرِّقُ الركب قاصداً بلاد تيدكلت، في فضاءٍ واسعٍ يقطعه في يومين ونصف، ليصل إلى زاوية أبي الأنوار التلاني (زاوية مولاي هيبية) للراحة، ثم يقصدُ زاوية حينون بأولف، وبعد مسيرة يومٍ يصل إلى بلدة أقبلي.

ومحطة أقبلي هي مُلتقى حجاج الجنوب الجزائري بحجاج بلاد التكرور، فهي محطة مفصلية، يلتئم فيها ركب الجزائر بركب أهل "السودان". ومنها ينتقل إلى بلاد اينغر، وصولاً إلى مدينة عين صالح، التي يتلقَّى أهلها الركب رجالاً ونساءً، ويفرحون به غاية الفرح والسرور¹.

وهذه الطريق البعيدة عن معظم حجاج الجزائر يسمِّيها الحجاج الوافدون من بلاد التكرور بالطريق الوسطانية²؟ ربما لأنها تتوسط طريق حجّ الأفارقة وطريق الهضاب المشهورة. ومن مدينة عين صالح قاعدة تيدكلت إلى غاية مدخل إقليم قزان جنوبي ليبيا تنقطع الأخبار، ويواجه الركب صحراء قاحلة وهضاباً صخرية.... "لا تنفع فيها التفاتتُ إلى الوراء، ولا يهتمُّ المرءُ فيها إلا بنفسه وراحلته وعصاه"³! ورغم ذلك فقد اشتهرت هذه الطريق الصعبة بعبور أركاب الحج في كلِّ موسم، كما اشتهرت من قبلُ بقوافلها التجارية العابرة للصحراء.

02. محطات عبور الركب الجزائري الخارجية:

أشرنا في ما سبق إلى أهمِّ الطرق والمحطات داخل الأراضي الجزائرية، التي يسلكها ركب الحج أو يتجمّع فيها الحجاج في انتظار انضمامهم للركب. وهي متباعدة ومتباينة، على خلاف ما يمكن ملاحظته بالنسبة للمحطات والمنازل الخارجية، التي ينزل فيها الركب من أجل الاستراحة، واسترجاع النفس والقوى. حيث يكاد يكون عبور هذه الأخيرة ثابتاً موسمياً في مسير معظم الأركاب المغاربية، بما فيها الركب الجزائري.

إذا استثنينا معدّل الشهر الذي يصلُ خلاله الركب الجزائري إلى المنافذ الشرقية للإيالة، فإنَّ الوصول إلى الحجاز يمكن أن يتمَّ - نظرياً فقط - خلال ثلاثِ أربعينات من الأيام، سيراً بلا إقامة:

¹ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و: 10-12.

² - الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و: 02.

³ - عبد القادر التلاني، المصدر نفسه، و: 12.

الأربعين يوماً الأولى من تونس إلى طرابلس، والثانية من طرابلس إلى مصر، والثالثة من مصر إلى الحجاز¹. لكن ذلك يُعدُّ صعباً، لأن الركب يضطر إلى المكوث في بعض المحطات لأسابيع. وفيما يلي رصدٌ لمحطات الركب الموزعة على الأقاليم التي يسلكها، مرتبةً حسب زمن حلوله بها²:

أ - **عبور الركب البلاد التونسية:** تميزت البلاد التونسية في ذلك العصر بسيادة النظام، وتوفر أمن الأشخاص وأملاكهم، مقارنةً بما سواها من البلدان³. وكانت لها علاقات تجارية قوية مع الإيالة الجزائرية. يكفي أن نشير - مثلاً - إلى القافلة الشهرية المتكوّنة من 300 بغل، التي كانت تغادر قسنطينة نحو تونس، محمّلة إليها بالثياب المطرزة والأقمشة، حاملة في عودتها السجاد والبُن⁴. ممّا كان له دورٌ في تيسير سير قافلة الحج السنوية. أمّا محطات الركب في تونس فهي:

01. توزر: مدخلُ الركب القادم من طريق السهوب، يتزوّد فيها الحجاج بالعلف، مقدار ما يُوصلهم إلى مدينة قابس على سبع مراحل⁵. وجنوبيّتها "نفزاوة" مدخلُ ركب طريق وادي ريغ.

02. الكاف: وهي المدينة المخاذية لبابك الشرق من إيالة الجزائر. كانت زيارتها واردة في حالات قليلة للقادم من الجزائر عبر طريق التّل.

03. تونس: عاصمة الإيالة التونسية، وصَفَّها أحد الحجاج المغاربة بأنّها: "مدينة كبيرة مقصودة للمراكب البحرية، مؤسّسة في بسيطٍ من الأرض، على ساحل بحيرة صغيرة، أُدخِلت إليها من البحر"⁶. لذلك فهي مقصد حجاج الركب الجزائري البحري، لأنهم يُسافرون من مينائها، أو تحطُّ مراكبهم القادمة من ميناء الجزائر بها في كلّ موسم حج، مستغلّين علاقاتهم الجيدة بحكامها الأتراك، حيث يُسهّلون عليهم إجراءات السفر، ويزودونهم بالأموال والهدايا⁷.

¹ - حمّاه الله ولد السالم: رحلات الحج من شنقيط وإسهامها في التواصل المشرقي المغربي، أعمال المؤتمر الدولي الأول لندوة الرحالة العرب والمسلمين، الدوحة، 2010م، ص11.

² - مدنّ، فُرى، بنادر، منازل، معابر.... ذكرناها في إطار علاقة الركب بها. أمّا تعاريفها فقد حوَّثها كتب المسالك والبلدان.

³ - هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ-1732م، د ط، ترجمة وتقديم: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007م، ص107.

⁴ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72.

⁵ - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص68.

⁶ - محمد المكناسي، المصدر السابق، ص325.

⁷ - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص402.

ومدينة تونس مقصد الركب الجزائري المشتغل على حجاج المناطق التلية في رحلة العودة، أمّا في الذهاب إلى الحج فقد كانت زيارتها غير ثابتة. وذلك بسبب موقعها الجانبي المجانب لطريق الشرق البرية، وبسبب عجلة الركب في الطلوع. ورغم ذلك هذا الرحالة ابن مسايب يحضُّ الحاج الجزائري على زيارة تلك المدينة، لأسبابٍ ذكرها قائلاً¹: (المديد)

قُمْ يَا طَيْرٌ ادْخُلْ تُونِسَ زُرْ الْبَاجِي وَبِنِ يُونِسَ
تُبَاتْ طُولَ اللَّيْلِ مَوْتَسَ بِهِمُ النَّفْسَ تَرْهِيهَا

04. صفاقس: مدينة صفاقس الواقعة على خليج قابس من أهمّ مدن تونس في العهد العثماني، غير أن ركب الحج الجزائري كان يرتادها في حالات نادرة، في شقّ الهبوط (الرجوع). والدافع لذلك هو مزاراتها الدينية والعلمية الكثيرة، فهي - في وصف حاجّ - "مدينة عظيمة، يستحلّونها الناظرون ويستحسنونها المسافرون، جمعت بين البر والبحر، تجتمع فيها الخيرات وتعمّمها البركات"².

05. قابس: هي محطة مهمّة جدا لركب الحج الجزائري وغيره، لا يُستغنى عنها. فقد كانت الأركاب الوافدة من المغرب الأقصى، والمغرب الأوسط، الداخلة من منافذ الكاف أو توزر أو نفاوة تلتقي في قابس، ثمّ ينضمُّ إليها الركب التونسي لمرافقتها في الطريق³. وكان بعض الحجاج يستغلّون وجودهم في مدينة قابس للانتقال إلى جزيرة جربة الواقعة في خليجها، فيشترون من الجزيرة الزيت والزبيب والثياب⁴. ومن قابس ينتقل الركب إلى قرية "عوام" الصغيرة الواقعة شرقها، قاصداً طرابلس الغرب على طريق الساحل، قاطعاً المسافة في ستة أيام⁵.

ب - إيالة طرابلس لاستجماع القوى: كان ركب الحج يمكث أياماً كثيرة في إيالة طرابلس الغرب. لكي يجدّد الحجاج قواهم، ويستعدون لقطع مراحل قادمة شاقة، أصعب من تلك التي قطعوها من الجزائر. وقبل الوصول إلى مدينة طرابلس عاصمة الإيالة قد يتوقف الركب في بعض البلدات الواقعة غربيها مثل: الزوارات (زوّارة) أو صبراتة، أو الزاوية الغربية القريبة منها.

¹ - Ben Messaib, Op.cit, p278.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص308.

³ - محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص265.

⁴ - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص72.

⁵ - ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص266.

06. الزاوية الغربية: يفصلها عن طرابلس الغرب مسيرٌ مرحلة واحدة، وهي بلدة ذات فواكه وأشجار ومزارع وعمارة كبيرة، كان أهلها يفرحون بمقدم ركب الجزائر، ويتكرمون عليه بالشعير والطعام واللحم ورؤوس الضأن¹.

07. طرابلس: مدينة طرابلس أهمُّ محطة خارجية للأركاب المغاربية كلَّها، يصلُ إليها الركب الجزائري ما بين رجب ومستهلَّ شعبان كزمنٍ أقصى من كلِّ سنة على الغالب²، بعد قطع شهرين أو ثلاثة أشهر من السفر. ويمكث الركب في طرابلس مدة سبعة أيام على الأقل، أو شهراً على الأكثر، من أجل الراحة والتزوُّد لما هو آتٍ، لذلك فإن إقامته بها في الذهاب تطول عن نظيرتها في الإياب³. وفي طرابلس يشتري الحجاج الوافدون من غير طريق الصحراء الإبل القوية بالزيادة احتياطاً، إن كانت نيتهم عدم الكراء في مصر. وجرت العادة أن تُغادر جميع الأركاب المغاربية المشرِّقة والمغرِّبة مدينة طرابلس في نهاية شهر رجب من كلِّ سنة⁴.

08. تاجوراء: نظراً لأهميتها وقربها من طرابلس فقد اعتُبرت بمثابة بوابتها الشرقية، لذلك اعتادت الأركاب المغاربية السائرة جنباً إلى جنب على المبيت بها، بعد الخروج من طرابلس⁵. ومنها يحطُّ الركب - أحياناً فقط - في بلدة "مسلاتة" الواقعة على طريقه إلى مدينة مصراتة.

09. مصراتة (مسرّاة): يتوقف بها الركب الجزائري في كثيرٍ من المواسم، بحكم العلاقات الوطيدة التي تجمع أهلها بأعلام الركب، وبسبب رغبة معظم الحجاج في زيارة قبر الشيخ أحمد زروق الفاسي (ت 899هـ/1493م)*. ومن ضواحي مسرّاة الشرقية ينقطع العمران، ويستعد الحجاج لاستقبال مسافة برقة الشاسعة، فلا يُصادفون لاحقاً سوى بعض البدو، وآبار مياه راكدة.

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج 03، ص 288.

² - المصدر نفسه، ج 01، ص 274.

³ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص 71.

⁴ - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص 75.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 178.

* أبو العباس أحمد زروق البرنسي الفاسي (ت 899هـ/1493م): فقيهٌ مالكي رائدٌ في علم التصوف. ولد بالمغرب الأقصى، وطاف المغرب والمشرق، أخذ عن أشهر علماء الجزائر في عصره مثل: المشدالي والسنوسي والثعالبي، وأخذ عنه العالم الصوفي أحمد بن يوسف الملياني. أحدث ثورةً تصحيحية لضبط علم التصوف وممارساته، وألّف لذلك الغرض كتباً كثيرة، منها "قواعد التصوف" و"أصول الطريقة". يُنظر: المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 263.

10. فزان: وهي محطة خاصة بالحجاج الوافدين على الأراضي الليبية من طريق الحج الجنوبية الصحراوية. تحوي عدة قُرى أشهرها: مرزق وزويلة وغات، يصل إليها الركب الآتي من أقبلي وعين صالح بعد قرابة شهرين من المسير¹. أما مدينة **غدامس** الواقعة قرب مثلث تلاقي الإيالات الثلاث: طرابلس الغرب والجزائر وتونس، فقد كانت ملتقى القوافل التجارية في العصور السابقة. وهي محطة استثنائية نادرة للركب القادم من الصحراء الجزائرية.

11. مفازة برقة: كان إقليم برقة يشمل المقطع الشرقي من الأراضي الليبية في الفترة العثمانية، ممتداً من الساحل إلى أقصى الصحراء، وهو الحدُّ الفاصل بين مصر وإفريقيّة. لا يُواجهُ الحجاج فيه إلا السَّبَخَات والمَفَاوِزَ والفَلَوَات². وبذلك اشتهر إقليم برقة لدى الحجاج، رغم وجود مدن أهلة في شماله مثل: أجدايبا وبني غازي (بنغازي) ودرنة وطبرق.

وإقليم برقة الليبي هو أخطر مسالك ركب الحج من الناحية الطبيعية بالدرجة الأولى: سبخات وصحارى وحمادات، وقيظ في الصيف، وبرد شديد في الشتاء، ومن ناحية أخرى: انعدام العمران، واعتداءات البدو قطاع الطرق. ويُضرب بصعوبة عبور برقة المثلُّ عند الحجاج المغاربة، فيقولون بالدَّارِجِ الشعبي عن الحاج الذي يجتاز برقة سالماً: "حَجَّ وَجَارَ عَلَى بَرْقَةٍ!" ويقولون في مثلٍ أغرب "عَرْقَةٌ وَحَرْقَةٌ وَلَا بَرْقَةٌ!" وهذا الرحالة ابن مسايب التلمساني يؤكِّد المشقَّة العظيمة التي يجدها الحجاج في اجتياز إقليم برقة، إلى درجة استحالة ذلك أحياناً³: (المديد)

فُم يَا طَيْرٌ ادْخُلْ بَرْقَةَ حَزَمَ حَزَامَ بَلَا شَفَقَةَ
لَوْطَنٌ فِيهِ تَعَبٌ وَشَقَا حَدَّ مَا يَقْدَرُ يَلِيهَا

ج - تجمُّع الحجاج في البلاد المصرية: يبلغُ الركب الجزائري حدود مصر الغربية بعد سفرٍ أزيد من خمسين يوماً داخل الأراضي الليبية. والمحطَّة المصرية هي ملتقى جميع قوافل حجاج بلاد المغرب الإسلامي، الآتية براً والآتية بحراً، يتجمَّعون فيها للمسيرِ لاحقاً بمعية الركب المصري الضخم، في اتجاه بلاد الحجاز، وذلك في العشرِ الأواخر لشهر شوال من كلِّ سنة. وينتابُ الحجاجَ الجزائريين فرحٌ كبيرٌ إثر رؤيتها، ذلك ما عبَّر عنه الرحالة المقرئ التلمساني بعد وصول ركبه البحري إلى مصر،

¹ - الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و02.

² - محمد الحُضَيْكِي: الرحلة الحجازية، ط01، تحقيق: عبد العالي المدبر، الرابطة الحمديدية للعلماء، الرباط، 2011م، ص89.

³ - Ben Messaib, Op.cit, p279.

بلسانه ولسانٍ مَنْ قَدِمَهَا بَرّاً كَذَلِكَ: "... ثُمَّ وَصَلْنَا بَعْدَ خَوْضِ بَحَارٍ، يَدَهَشُ فِيهَا الْفِكْرَ وَيَحَارُ، وَجَوِبَ فَيَافٍ بِجَاهِلٍ، يَضِلُّ فِيهَا الْقَطَا عَنْ الْمَنَاهِلِ، إِلَى مَصْرَ الْخَرُوسَةِ، فَشَفِينَا بِرُؤْيَيْتِهَا مِنَ الْأَوْجَاعِ"¹. مما يدلُّ على أهمية الوصول إلى هذه المحطة، ومفصليتها بالنسبة للحجاج.

12. الإسكندرية: مدينة الإسكندرية الساحلية محطة اختيارية للركب الجزائري في ذهابه إلى الحج، وكثيراً ما كان الراكب يتنكّبها عندما يصل إلى مشارف مصر، مائلاً نحو اليمين جهة الريف، قاصداً القاهرة مباشرة. وبخصوص الراكب البحري المسافر من ميناء الجزائر فإنه يصل إلى ميناء الإسكندرية بعد حوالي خمسة وثلاثين يوماً²، أمّا الراكب الجزائري المنطلق من ميناء تونس فإنّ مراكبه ترسو بميناء الإسكندرية بعد حوالي خمسة عشر يوماً أو يزيد³.

لم يكن الحجاج الجزائريون يفدون على ميناء الإسكندرية قادمين إليه من ميناء مدينة طرابلس إلا في حالات قليلة، وذلك بسبب موقع هذا الميناء غير المناسب وتبعده عن الجزائر. فتذكر المصادر - مثلاً - أنّ حجاجاً جزائريين امتطوا مركباً من هذا الميناء في إحدى الحالات الاستثنائية، وبتوصية من والي طرابلس الغرب⁴.

لميناء الإسكندرية مرسيان: مرسى خاص بمراكب المسلمين ومرسى خاص بمراكب النصارى، وقد تعرّض هذا الميناء إلى هبوب ريح غربية نكباء سنة 1174هـ/1760م، أدّت إلى غرق ثلاثة وثلاثين مركباً في مرسى المسلمين، وثلاثة مراكب فقط في مرسى النصارى⁵. ولعلّ ذلك راجع إلى كثرة مراكب المسلمين، أو بسبب إهمال حكام الإيالة المصرية لذلك الجانب من الميناء؟ خاصة إذا علمنا أنّ اليهود كانوا يسيطرون على الجمارك بميناء الإسكندرية في ذلك العصر، ويقدمون الامتيازات والتسهيلات للمراكب الأوروبية⁶.

¹ - أحمد المقرئ، نفع الطيب، مصدر سابق، ج 01، ص 35.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 24.

³ - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 45.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 01، ص 337.

⁵ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج 01، ص 409.

⁶ - كارستن نيور: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ط 01، ترجمة: عبير المنذر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2007م، ج 01، ص 46.

وبالإضافة إلى تعيين وكيلٍ دائمٍ للجزائر بمدينة الإسكندرية، ليسهر على تقديم الدعم اللازم للحجاج، اشتهرت هذه المدينة بوجود جالية مغاربية نشطة تجارياً، سكنت خمس حارات (أحياء) من أصل تسع حارات كبيرة بالمدينة¹. ذلك ما شجّع بعض الحجاج الجزائريين على المكوث فيها زهاء عشرين يوماً في أحد المواسم، قبل الانتقال منها متجهين شرقاً إلى مصبّ رشيد، أقرب فرعيّ مصبّ نهر النيل، لأجل امتطاء قوارب صغيرة تمخّض بهم نهر النيل إلى جهة الجنوب، قاصدين مرسى بولاق، القريب جداً من مدينة القاهرة².

13. واحة سيوى (سيوة): هذه الواحة هي مدخل مصر من جهة صحرائها الغربية، المحاذية لإيالة طرابلس الغرب، يتوافد عليها الحجاج الجزائريون الذين يسلكون الطريق الجنوبية القاطعة للصحراء الليبية، مروراً بإقليم فزان أولاً، ثمّ بجنوب برقة ثانياً. ويعتبر الحجاج وصولهم إلى هذه الواحة قبل انقسام شهر شوال فآل خير في رحلتهم، خاصةً بعد المشقة الكبيرة التي تكبّدوها في إقليم برقة. وكان الركب الجزائري يمكث في واحة سيوى لمدة يومين، متمتعاً بعيون مائها العذب، وبثمرها الكبير ذي النوعية الرفيعة والمميّزة³.

14. المنصورة: قرية من قرى الريف المصري، تقع شمال غرب القاهرة، وهي مختلفة عن مدينة "المنصورة" الواقعة في طريق "دمياط" المصبّ الشرقي لنهر النيل. كان الحجاج يبيتون فيها استعداداً لركوب نهر النيل، الذي يمكّنهم من دخول مدينة القاهرة من منفذ مرسى بولاق، بحكم صعوبة دخول القاهرة عن طريق البر، للحجاج القادمين من الجهة الغربية. فالقاهرة توجد وراء نهر النيل إلى جهة الحجاز، بالنسبة للركب الطالع (أي في ذهابه)⁴.

15. كرداسة: من قرى ريف مصر، تقع أسفل قرية المنصورة المذكورة سابقاً، ينزل بها الحجاج الجزائريون بعد المرور بوادي الرهبان، المنسوب إلى دير الرهبان النصارى المتعبدين فيه. وفي كرداسة كان بعض الحجاج يتركون إبلهم ويغالهم ودائع عند الفلاحين المصريين، على عادتهم في تلقّي الحجاج المغاربة، وذلك إلى غاية الرجوع من الحج. رغم تحذير الحجاج ذوي الخبرة من ذلك،

¹ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص 34.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 27.

³ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و 14.

⁴ - محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص 91.

وتفضيلهم بيع ما فَضَّلَ من الإبل على الإيداع لدى هؤلاء الفلاحين غير المؤتمنين¹. ومن قرية كرداسة يعبر الحجاج الجزائريون نهر النيل لأجل دخول القاهرة.

16. القاهرة: مفتاح المشرق للمغاربة، ومقصد المسلمين من جميع الأقطار والأجناس². نُسِبَتْ إلى "مصر" وحملت اسمها في "عُرف" الحجاج. كَانَ يدخلها ثلاثون ألف حاج مغربي مع حلول شهر رمضان من كلِّ سنة³. ويكتري الحجاج الجزائريون لنزولهم في خانات (فنادق) قريبة من جامع الأزهر الشريف، بسعرٍ غالٍ: خمسين بارة للغرفة عند دخولها أول مرة، بالإضافة إلى بارة واحدة أخرى متجددة أسبوعياً، في عُرفٍ عادية، خالية من الأثاث، دون المستوى اللائق⁴.

بينما يفضل الحجاج الفرادي أو الذين لا يقدر على غلاء الكراء ساحة جامع ابن طولون، أو فناء جامع الأزهر لهذا النزول الذي قد يطول، فينصبون فيهما الخيام، ويصومون رمضان، وقيمون هناك أياماً معدودات⁵. في حين يُقيم بعض الحجاج علاقات ودية أو تجارية مع عائلات جزائرية متنفذة بمصر، مثل عائلتي: الحاج عثمان القسنطيني وابن منديل التلمساني⁶، وغيرهما من العائلات الجزائرية والمغربية.

وأثناء إقامة الحجاج الجزائريين الطويلة نسبياً في مصر، والتي تتعدى الشهر أحياناً، يُعيدون ترتيب الأمور وتقدير الأوضاع، وتدير أمر الذهاب إلى الحجاز ثم العودة منه. وسبب تلك الإقامة الطويلة هو انتظار مرافقة الراكب المصري في هذا المقطع الأخير الصعب للغاية، المسمى "درب الحجاز"، بناءً على ما جرت به العادة، لأنَّ القافلة المصرية مدعاةً للسرور، في انتظام سيرها وإحكام أمرها وجودة رواحلها، فتلتحق بها الأركاب المغربية في الذهاب كونها أكثر أماناً⁷. كما أنَّ

¹ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص255.

² - سأل ابنُ خلدون عاملين جزائريين عن مدينة القاهرة: صاحبه أبا عبد الله المقرئ كبير العلماء بالمغرب، وشيخه أبا العباس بن إدريس البجائي كبير العلماء ببجاية، وذلك قبل رحيله إليها أواخر القرن 08/هـ14م، فكان جوابهما على التوالي: "من لم يرها لم يعرف عزَّ الإسلام" و"كأنما انطلق أهلها من الحساب"! يُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص200.

³ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص352.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص34.

⁵ - الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و04.

⁶ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع نفسه، ص72.

⁷ - جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص22.

أنَّ الركب المصري هو الركب الوحيد القادر على استمالة شيوخ القبائل العربية المتمكِّنة في ذلك المقطع الخطير من طريق الحج، خاصة عندما يُعَدِّقُ عليهم أُمْرَاؤُهُ العوائد والعطايا والهدايا¹.

عندما يحلُّ منتصف شهر شوال من كل سنة تكون الترتيبات والتحضيرات قد انتهت لخروج الركب المصري، ومعه الحمل المزيَّن المنتقى الذي يحمل كسوة الكعبة المشرفة داخل الحمل². فتبدأ الاحتفالات السنوية الرسمية والشعبية البهيجة لحضور مراسيم تسليم الحمل لأُمير الحج المصري من طرف الباشا الحاكم العثماني، وتبلغ الاحتفالات ذروتها في الواحد والعشرين من شوال، فيكون خروج الحمل الكبير أتمَّ احتفالاً وأكثرَ جمعاً.

ويُمرُّ الحمل وسائر العسكر والإبل ووسط القاهرة، والناس ينظرون إلى ذلك المشهد من شرفات الديار والمساجد، ويتعطلُّ غالبُ الأسواق في ذلك اليوم³. ثمَّ يتحول الحمل إلى فضاء واسع خارج القاهرة يُسمى "بركة الحاج"، تُعسكرُ فيه أركاب الحج - بما فيها ركب الجزائر - لكي تغادر ذلك الموقع على عادتها السنوية، في السابع والعشرين من شهر شوال⁴.

إنَّ خروج الحمل إلى موضع "بركة الحاج" هو بمثابة آخر تحذير للحجاج كي يُهيئُوا أنفسهم للسفر، بأنَّخاذ الزاد، وشراء الإبل أو كرائها. والشراء أو الكراء من مصر كلاهما أمران محيَّران للحجاج الجزائريين، وذلك بسبب طمع الباعة المصريين وجهل الحجاج لميزات ما تبقى من الطريق من جهة، وجشع سماسرة الكراء وابتزازهم للحجاج من جهة أخرى.

أمَّا حمل الفول المطحون (علف الدواب) من مصر إلى بندر "المويلح" فيتمُّ من طرف عرب درب الحجاز كراءً بمبالغ يُتَّفَقُ عليها في مصر، وأحياناً كان الركب الجزائري يُفضل عدم الكراء، بل

¹ - عبد الغني بن إسماعيل النابلسي: الحقيقة والحجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، د ط، تقديم: أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م، ص156.

² - المَحْمَلُ: هو في الأصل الهودج الذي تركبه نساء العرب أيام الأفراح والحروب، وقد استعملته شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين الأيوبي عند ارتقائها أريكة الملك سنة 648هـ/1250م وزخرفته، ثم أخذها ملوك مصر والشام واسطةً لترغيب الناس على أداء فريضة الحج، وأقرّه العثمانيون وأبقوه على ما كان عليه، يروح ويغدو على جملي مخصَّصٍ مع ركب الحج في كل عام. يحملُ بداخله كسوة الكعبة المشرفة، وهي عبارة عن محمَّة كبيرة مجلَّة بالدياج، منقوش عليها بعض الآيات القرآنية والطغراء السلطانية، ولها رصافات موهَّمة بالذهب. يُنظر: عبد العزيز العظمة، المصدر السابق، ص115.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج1، ص264.

⁴ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص38.

شراء ما يحتاج إليه من العلف في المحطات المقبلة. رغم ما في ذلك من مخاطرة، إذ يمكن أن ينفد منها إذا كثُر عليه الطلب من بقية الأركاب، أو يتوقَّر فيها لكن بأسعارٍ خيالية¹؟

إذا تعطلَّ بعضُ الحجاج الجزائريين في مصر عن تاريخ الخروج، لسببٍ من الأسباب، ولم يُرافقوا بقية الأركاب، فإنهم لا يسافرون برا لخطورته عليهم منعزلين، بل يضطرون إلى التوجه إلى مدينة السويس عند طرف بحر القلزم (البحر الأحمر)، ومن مينائها يستقلُّون المراكب التي تنقلهم إلى موانئ الحجاز كينبوع وجدة، في رحلة بحرية شاقَّة أيضاً، محفوفة بالمخاطر الطبيعية².

د - المسير الصَّعب في دربِ الحجاز وظروفُه³: بعد انتهاء فترة الاستراحة والاستعداد التي يكون الراكب الجزائري قد قضاها في مصر، يشرع الحجاج في دخول المقطع الأخير في سفرهم إلى الحجاز، وهو المقطع المعروف بالدرب الحجازي (أو الدرب المصري)، وذلك على خطى الراكب المصري الضخم، الذي يحمل معه كسوة الكعبة المشرفة في الحمل كلَّ موسم حجٍّ منذ قرون. ويُفضِّل الحجاج هذا الدرب على البحر رغم أرضه المجدبة والمتعبة، لكونه أقصر الطرق، ولاحتوائه على عدد كبير من البنادر أو المنازل للراحة والتزوُّد بالمؤن والماء⁴. وهي مرتبة كما يلي:

17. بركة الحاج: وهي المحطة التمهيديَّة لدرب الحجاز من الجهة المصرية، وأول منزل للحجاج إذا خرج من مصر، وآخر منزل له إذا قفل. يُقيم فيها الحجاج المصريون والمغاربة جميعاً قرابة خمسة أيام، لإتمام استعدادات الرحلة نحو الدرب الحجازي. فتُنصَّب فيها الأسواق الحافلة والفساطيط والمقصورات، ويخرج إليها غالبُ أهل مصر (القاهرة) للتنزُّه ووداع الحجاج، وسميت "بركة الحاج" لأنها على شاطئ بركة من برك نهر النيل، وفيها محلُّ اجتماع أركاب الحج⁵.

والملاحظ أنَّ الراكب الجزائري كان من عادته تأخير الخروج إلى بركة الحاج إلى اليوم السابع والعشرين من شهر شوال، أي في موعد الرحيل الجماعي لأركاب الحج المغاربية رفقة الراكب

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص76.

² - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص214.

³ - لمزيد التفاصيل عن درب الحجاز (أو الرصيف الحجازي) والتغيرات الطارئة على محطاته، والتباين الحاصل في عبورها بين بدايات العهد العثماني ونهاياته، يُنظر: عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص258 وما بعدها.

⁴ - سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص247.

⁵ - المرجع نفسه، ص248.

المصري، أو قبله بقليل، وقد أصبح يتأخر أكثر عن ذلك الموعد في مواسم القرن 12هـ/18م، وذلك راجع إلى أسباب تنظيمية بحتة، منها عدم إتمام عملية التجهيز وتهيئة المؤمن¹. يقول الرحالة الجزيري عن ترتيب هذه المحطة (بركة الحاج) ووصفها²: (الرجز)

وَبَعْدُ فَاسْمَعُ عِدَّةَ الْمَنَازِلِ وَذَكَرَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَنَاهِلِ
أَوْهًا فَبِرْكَةُ الْحَجَّاجِ وَأَرْضُهَا وَسِعَةُ الْفَجَّاجِ

18. البُوَيْب (الدار الحمراء): مدخل أهل الحجاز إلى مصر، وهي أرض ممتسعة حمراء، ليس بها رزق لطالب، ولا مطعم لراكب، ولا ماء لشارب³! بل يأتي إليها الحجاج بالماء معهم. وقد يبئث الركب الجزائري - أحياناً - دونها، ثم يرحل، ثم يُقيم بعد أن يُجاوز المحطة الموالية لها بقليل⁴.

19. عَجْرُود: وهي قسبة تقع جنوب غربيّ السويس، يرتاح فيها الحجاج مع رواحلهم. فيها بئر تعرف ببئر عَجْرُود، ماؤها رديء لكن يُضطرُّ الحجاج للسقاية منه⁵.

20. السويس: مدينة مصرية هامة، تقع على رأس خليج السويس عند طرف البحر الأحمر، تبعد مسافة يومٍ إبحاراً عن القاهرة، ترسو بمينائها السفن المتجهة لسواحل الحجاز⁶. ومنها يركب الحجاج الحجاج الراغبون في إتمام السفر بجرأً، من ميناء الراجبية وصولاً إلى ميناء ينبع الأقرب إلى المدينة المنورة، أو منه باتجاه ميناء مدينة جُدَّة⁷ الأقرب إلى مكة المكرمة، قاطعين سفرَ عشرين يوماً⁸.

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج2، ص78.

² - عبد القادر الأنصاري الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ط01، تحقيق: محمد حسن

إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ج02، ص85.

³ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص70.

⁴ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و18.

⁵ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و04.

⁶ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص41.

⁷ - جُدَّة (أو جُدَّة في الدارج) بلدٌ على ساحل مكة المكرمة على بحر القلزم، بينهما أربعون ميلاً، أهلها مياسير وذوو أموال واسعة، لهم موسم قبل وقت الحج، تنفق فيه البضائع المحلوبة. وبجدة نزلت أمنا حواء، ويعرفات تعرّفت بأدم، وقيل بجدة قبرها. يُنظر: محمد بن عبد المنعم الحِمَيْرِي: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط02، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص157.

⁸ - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص215.

21 عقبة المنصرف: أرض ذات رمال دقيقة بيضاء، فيها مشقة كبيرة وخالية من الماء، تواجه الحجاج بعد مغادرة العمارة، لذلك كان الركب يمرُّ قبلها بواد النابعة المليء بالآبار، لحمل الماء. وقد نصَّب حكام مصر عليها أعمدة في شكل نواطير خلال القرن 11هـ/17م، علامات يهتدي بها الحجاج حتى لا يضلُّوا الطريق¹.

22 وادي التيه (صحراء سيناء حالياً): نسبة إلى أرض التيه، وهو الموضع الذي يُروى بأن سيدنا موسى عليه السلام وقومه ضلُّوا فيه. يقول عنه الرحالة التتلاي: "... وسرنا في تيه بني إسرائيل، وبتنا بأخره"². وهو محلُّ مشقة كبيرة على الحجاج في أيام البرد لشدته، وفي أيام الحرِّ لقلّة لقلة الماء، فتتلف فيه أنفسٌ كثيرة من جراء العطش. كما أنّ من الخطورة بمكان عبوره دون دليلٍ خبيرٍ بأرضه، وإلا فالرحالون قد دأبوا على التحذير منه³! (البيسط)

لَا تَسْلُكَنَّ بِوَادِي التَّيِّهِ مُنْفَرِدًا بِلَا دَلِيلٍ تَرَى وَقَع الرَّدَى فِيهِ
فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا مِنْ أَخٍ ثِقَةٍ فِي النَّاسِ إِلَّا وَقَالَ أَحَدَرٌ مِنَ التَّيِّهِ

23 بندر النخيل (محطة نخل): قرية صغيرة في منتصف الطريق بين السويس والعقبة، فيها سوق للفاكهة المتنوعة، التي يأتي بها أهل غزّة من الشام، وسوق أخرى يتم فيها شراء أو تبادل الإبل، وآبار وأحواض لسقي الحجاج ودوابهم. وقد كان بعض الحجاج الجزائريين يضعون فيها أمتعتهم إلى أن يرجعوا من الحرمين الشريفين، تخفيفاً على الإبل⁴.

24 سطح العقبة: يقطع الحجاج بعد محطة نخل أرضاً بسيطةً متّسعة، فيها آبار تتّصف بالمرارة مثل بئر تسمى "بئر الصعاليك"! وفي نهايتها يصلون إلى العقبة، على رأس الضفة الشرقية للبحر الأحمر. وبعد المبيت في سطح العقبة يتوجهون صباحاً إلى النقب، وهو طريق في جبل في غاية من الضيق. وهو بسبب ذلك الضيق والالتواء أكثر بنادر درب الحجاز التي يُتعدَّى فيها على الحجاج من طرف اللصوص، المنتمين إلى قبائل ذلك المقطع⁵.

¹ - سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص249.

² - عبد الرحمن التتلاي، المصدر السابق، و20.

³ - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص219.

⁴ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج02، ص172.

⁵ - سميرة فهمي علي عمر، المرجع نفسه، ص251.

25 عقبة أيلة: أيلة هي قرية صغيرة بها نخيل وبساتين، أمّا العقبة فهذا وصفٌ أحد الحجاج المغاربة لها في ذلك العهد: "... وما أدراك ما العقبة! كم بها من مضيقٍ وحدرات، وجبال في شكل الحمرة والبياض، وصعود وانهباط، وعلوّ وانحطاط، وهي علقه في الطريق"¹! وسميت بذلك لقربها من عقبة في جبل، وهي عقبة كئود، صعبة الهبوط والصعود. يسير فيها آلاف الحجاج في خطٍّ واحد، وينزل كلُّ حاج عن مركوبه خوفاً من السقوط، بل حتى النساء ينزلن من المحامل، ويمشين فيها على أرجلهن²!

26 ظهر الحمار: وهو بسيط مرتفع، يقع جنوب العقبة، يقطعه الحجاج مخلّفين البحر الأحمر يمينا، في مسلك ضيق بين البحر والجبل³.

27 الشرفة: مقطع طويل بين منخفضات ومرتفعات، وتُسمى كذلك "عشّ الغراب".

28 مغاير شعيب: دأب الرحالة المغاربة على نسبة هذه المغاير إلى نبي الله سيدنا شعيب عليه السلام، ينزل بها الركب بعد المرور بوادي مدين، ومياها عذبة تروي الحجاج وتشفي غليلهم، على رأي الرحالة المجاجي⁴: (الطويل)

وظَهْرُ الْحِمَارِ مَعْطِنٌ وَمَعَارَةٌ لَسَيِّدِنَا شُعَيْبٍ فِيهَا رُوَيْتِي
وَهَرُّ الْقَصَبِ بَعْدَهُ وَمَقِيلُنَا عَلَيْهِ لِأَجْلِ السَّقْيِ فِيهِ كِفَايَتِي

29 عيون القصب: وهي عيون ماء متقاربة، ينبت عليها القصب بوفرة، ينزل بها ركب الحج، من أجل السقي وغسل الملابس والأمتعة.

30 المويلح: موقع قريب من البحر الأحمر، فيه آبار كثيرة. وهو البندر المشهور في درب الحجاز، لكونه محطة معلمية، يتسلّم فيها الحجاج أحمال الفول (علف الدواب)، التي كانوا قد دفعوا ثمن إيصالها للبدو السماصرة بمصر. ويتكون في قلعة المويلح الهيئة أمتعتهم وودائعهم، وبعض الزاد الذي سيُعينهم على إكمال رحلة العودة (بعد عودتهم من الحجاز)⁵.

¹ - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص220.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص173.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص327.

⁴ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و03.

⁵ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص76.

31 الأزلم: محطة أخرى هامة، تقع جنوب العقبة، بما ثلاث آبار غزيرة، لكنها مألحة تصلح للإبل. وفيها كان يلتقي الحجاج الجزائريون وغيرهم بعد أداء الحج ببعثة قادمة من مصر، تحمل المؤن والملابس والمشروبات، وتُلاقى الحجاج، في ما عُرف بـ "الملاقاة الأزلمية"¹.

32 إسطبل عنتر: فضاء صغير بين الجبال، في أعلاه ماء يُسمى "الزعفران"، إلا أن قبائل البدو العرب كانوا يقومون بالاختفاء وراء تلك المرتفعات، ويتحییون الفرصة للهجوم على ركب الحج. لذلك كان الحجاج يُحدِّثون بعضهم بعضاً من خطورة محطة "الإسطل"²! (مجزوء الكامل)

إِنْ جِئْتَ لِلْإِسْطَبْلِ لَا تَعْفَلْ بِهِ عِنْدَ التُّزُولِ
وَاحْذَرْ مِنَ الْعَرَبِ الَّتِي بِجِبَالِهِ أَبْدَأَ تَصُولِ
وَاعْلَمْ فَدَيْتُكَ أَنَّهُ صَعْبٌ وَلَكِنِّي أَقُولُ
قَدْ سُمِّيَ الْإِسْطَبْلُ مِنْ عَرَبٍ بِهِ شِبْهُ الْخَيُْولِ

33 الوجه: محطة رئيسية لأركاب الحج، تصلها بعد قطع وادي "الأراك" الغني بذلك الشجر، فيها آبار محروسة تُنظَّف باستمرار من طرف أعوانٍ مكلفين، تصبُّ في ثلاث برك خارج البندر، ومن هذه المحطة ينتهي دَرَكُ عرب مصر ويبدأ دَرَكُ عرب الحجاز عند "بئر الدرَكَيْنِ"³.

34 الحوراء: قرية من قُرى الحجاز على ساحل البحر الأحمر، يُباع فيها السمك وتمر العجوة.

35 النبط: معطن ماء عذب بارد، عكس ماء الحوراء السابق، به آبار محكمة البناء بالحجر المنحوت، وخلقه وادٍ شديد الحرارة تسميه العامة وادي النار، وهو الطريق إلى الخضيرة⁴.

36 الخضيرة: من أعمال ينبع، ليس بها ماء، كان الحجاج يتعرضون فيها للعطش الشديد، ومنها يشرعون في مواجهة ما عُرف بـ "سبع وعرات" بجانب الجبل، وكذا "المخاطب" لكثرة الشجر فيها. وهي مُجهدة للحجاج والإبل، ومنها يتوجهون إلى ينبع في الرُّبع الأخير من الدرب⁵.

¹ - أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص14.

² - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص336.

³ - سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص255.

⁴ - محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص96.

⁵ - سميرة فهمي علي عمر، المرجع نفسه، ص257.

37 الينبع (أو ينبوع النخيل): أول بلاد الحجاز العامرة في مقطع الدرب، تُناظرها ينبوعُ البحر تُغرُّ المدينة المنورة على البحر الأحمر. بها نخل كثير وماء وزرع، تخرج فيها أقوات أهل المدينة. والحجاج جميعاً يستبشرون بوصولهم إلى هذه المحطة، التي تُقام فيها أسواق كبيرة، فيها غالب المحتاج، وفيها يطَّلِع حجاج الركب الجزائري على أخبار الحرمين الشريفين¹.

38 بدر: موضع ذو نخيل وعين ماء عذب، يسميه الحجاج "دار الوقدة"، لأنهم يُوقدون فيه الشمع الكثير تيمناً وتبركاً بغزوة بدر. وفيه بركة كبيرة تكفي لسقي الأركاب كلها².

39 رابغ: قرية بها آبار ونخيل، تقع على ساحل البحر الأحمر، وهي محلُّ ميقات الأركاب المغاربية والمصري والشامي، يُجرمون في موضع منها هو "الجحفة". وهذه المحطة تستقبل كذلك الحجاج الوافدين من طريق البحر عبر ميناء الطور³، والقاصدين لاحقاً ميناء جُدَّة. وفيها يقوم الحجاج الجزائريون بالاغتسال وشراء النعال المتوفرة هناك بكثرة، ثم يُجرمون ويشرعون في التلبية، مروراً بمحطة "خليص". وذلك بعد أن يُذيب أمراء الحج كميات كبيرة من السكر على عادتهم، ويسقونها للحجاج، فرحاً بقرب الوصول إلى مكة المكرمة. يقول ابنُ مسايب⁴: (المديد)

فُم يَا طَيْرِ ارْحَلْ وَأَعَزِّمْ وَأَوْعِدْ رَابِعٌ فِيهِ أَحْرَمٌ
جَرِّدْ ثِيَابَكَ وَتَقَدِّمْ وَأَقْصِدْ الْوَقْفَةَ وَأَنْوِيهَا

40 عُسفان: قرية على نحو يومين من مكة المكرمة، وفيها البئر التي يُروى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - تَقَلَّ فيها. وماؤها حلو للغاية، يحرص الحجاج على شربه تبركاً بالآثار النبوية⁵.

41 مرُّ الظهران: على مرحلة واحدة من مكة المكرمة، تسميه العامة "وادي فاطمة" أو "وادي الشريف". وبه قرية ينزل بها الحجاج، تقام فيها سوق كبيرة⁶.

¹ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و44.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص207.

³ - الطُّور: مدينة صغيرة على البحر الأحمر ذات ميناء، على مسافة ثلاثة أيام إبحاراً من السويس، يُنسب إليها جبل الطور أو جبل سيناء، ويتزوَّد فيها الحجاج بالماء والفاكهة. يُنظر: جوزيف بتس، المصدر السابق، ص41.

⁴ - Ben Messaib, Op.cit, p281.

⁵ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص76.

⁶ - محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص98.

42. ذو طوى: وادٍ أعلى مكة، وأسفله "الشبيكة"، ينزلُه الحجاج في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة، ويبيتون به، ثم يغتسلون غسلًا خفيفًا، استعداداً لدخول مكة المكرمة¹.

* مَكَّةُ الْمَكْرَمَةِ: أمُّ الْقَرْيِ. كان الركب الجزائري يصلُ إليها في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة غالباً²، ويدخلها من أعلاها من باب المعلّى، قاطعاً شارعاً يتوسّطها، مُشرفاً على "الحجون" مقبرة أهل مكة. وبعد إناحة الإبل وحثّ الرحال يتوضأ الحجاج، ويتوجهون إلى المسجد الحرام من باب السلام، الذي كان يُدعى باب بني شيبه سابقاً، ويشرعون في أداء المناسك.

المبحث الثاني: إشكالية تأمين مسالك ركب الحج ومعابره

01. مظاهر الاعتداءات على الحجاج ومسوّغاتها:

ظلاًّ توفيرُ الأمن في الطريق الهمّ الأول للحجاج وذويهم، ولسانُ حالهم يقول³: (الرمّل)

يا مُزْمِعَ الْارْتِحَالِ عَنَّا أَسْعَدَكَ اللَّهُ فِي ارْتِحَالِكَ
كَانَ لَكَ اللَّهُ خَيْرَ وَاقٍ أَمَّنَكَ اللَّهُ فِي الْمَسَائِلِكَ

وذلك بسبب كثرة اللصوص والمجرمين والحراية (الأشرار) على طول طريق الحج، من الجزائر إلى الحجاز، فهُم لا يرقبون في حاجّ مؤمن إلا ولا ذمّة، بل يستبيحون جمى الركب ومحارمته. والخطرُ الداهم الذي كان ينغص على الحجاج سفرهم، فيستعدّون لمواجهة في كلّ موسم حجّ هو هجوم قبائل "الأعراب"⁴! على ركب الحج، على اختلاف وكثرة المسمّيات التي عُرفت بها تلك القبائل

¹ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص363.

² - حدث في موسم حجّ 1232هـ/1817م أن تأخّر الركب الجزائري في الوصول لمكة المكرمة إلى وقتٍ حرجٍ جداً، وهو الثامن من ذي الحجة، وذلك بسبب مُعيقات الطريق، وكاد يفوت الحجاج موعدُ الحج لولا لطفُ الله عزّ وجلّ. يُنظر: عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و54.

³ - محمد السُّنُوسِي: الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوبي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1976م، ج01، ص67.

⁴ - الأعراب: هم البدو الرُّحَل من قبائل العرب غالباً، ويشيخُ ذكرهم في معظم كتب الرحلات وغيرها من المصادر المشرقية (خاصةً) والمغاربية الحديثة باسم العرب أو العُربان. من ذلك إشارة شاعر الملحون ابن مسايب التلمساني إليهم في رحلته، محذراً الحجاج منهم، داعياً إياهم إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر أثناء عبور الركب بمضاربهم: (المديد)

بَأَلْكَ انْهَلْ يَا وَرْشَانَ حَدَّ لَا تُفْرَأَ فِيهِ أَمَانٌ
وَيَنْ كَانَتْ نَجْعَ الْعُرْبَانَ هَامَلَهُ جُزْ وَخَلَّيَهَا

المعتدية في كتب الرحلات والمصادر التاريخية، على غرار: الأعراب - كما أسلفنا - العُربان، البدو، الرُّعاة... وأيضاً "العرب"¹! اللفظ الشائع والمتداول بكثرة في ذلك الزمان.

لقد كان الحجاج الجزائريون يضطرون إلى اقتحام الأهوال في سبيل الوصول إلى بلاد الحرمين الشريفين. يكفي دلالةً على تلك "الأهوال" المشهدُ التالي الذي عاينه الورثلائي ومَن معه من حجاج الركب الجزائري، بعد أن تعرَّضوا لهجوم "الأعراب" قطعاً الطرق المسلَّحين: "والحربُ مِنَ الصبح إلى قربِ العصر... نَعَمْ صَلَّينا على نحوِ صلاةِ المسايفة بالقسمة، فرقةٌ كانت اتجَّاه العدو، والأخرى تصلِّي مع الإمام، فلما فرغتْ ذهبَتْ باتجاه العدو حتى صلَّتْ الأخرى"²!

والسؤال المحيِّرُ الجدير بال طرح هو: كيف طوَّعت للأعراب أنفسهم بأن يتجاسروا على مقام ركب الحج المهيب وعلى قدسية رحلته؟ لأنَّ حيفَ الحجاج وإذلالهم لا مسوِّغ له إلا الجهل والطمع وتردِّي الأخلاق!

أ - تنوع الاعتداءات والمعتدين على ركب الحج: كانت معاناة الحجاج الجزائريين من عدم وجود الأمن تبدأ في طرق ومحطات الجزائر، الإيالة العثمانية نفسها، بسبب تمرد بعض القبائل على السلطات القائمة بأمر البلاد آنذاك. ولطالما اشتكى الحجاج من بعض القبائل المغيرة على ركبهم باستمرار، ومن كثرة شرِّها وإبذائها لهم. من تلك القبائل المذكورة "عرب النمامشة" في إقليم بايلك الشرق، حيث كانوا يتعرضون للركب بالأذى، وبعد تنفيذ إغارتهم يهربون إلى الصحراء، فهم بذلك ليسوا في حكم باي قسنطينة، ولا في حكم باي تونس!³

ومن القبائل المعتدية على الركب كذلك قبيلتا "أولاد عكاز" و"أولاد صولة" الظاعنتان بين الصحراء والسهوب الشرقية، فقد كانتا تعتديان على الحجاج بغرض سلبهم أموالهم وأملأهمهم ورواحلهم⁴. ولم تكن غاراتهم على الإبل تطال ركب الجزائر فحسب، بل لقد اشتكى منها ركب

¹ - العربُ هنا بمعنى البدو الرُّحل الذين يقطعون الطريق على المسافرين ويعيثون في الأرض فساداً، حسب استخدام الكتاب المغاربة، وعلى رأسهم ابن خلدون الذي اشتهر بتوظيف هذا المصطلح بكثرة في كتاباته، ممَّا جعل بعض المستشرقين من ذوي

النوايا السيئة يتهمونه بالقدح في جنس العرب!

² - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج 01، ص 258.

³ - المصدر نفسه، ج 01، ص 236.

⁴ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص 68.

المغرب الأقصى كذلك، أثناء عبوره لتلك المنطقة¹. وفي أقصى الصحراء كان "أعراب امقيدن" يسيطرون على الطريق بين القورارة والقُليعة، وينهبون الحجاج القادمين من منطقة توات².

وفي البلاد التونسية كان الحجاج يُعانون من متلصّصة مدينة "توزر"، المدخل الرئيس لأركاب الحج من المغرب الأقصى والجزائر، مما حدا بالرحالة الدرعي إلى وصف توزر بأنها "... أكثر بلاد الله سرقةً وخطفًا.... يسرقون بالليل ويخطفون بالنهار"³! أمّا في إيالة طرابلس الغرب فقد كانت الاعتداءات والغارات على الأركاب مزدوجة، يقوم بها "عرب سرت" في وسط البلاد أحياناً، ويقوم بها كذلك "عرب برقة" في شرقيّها. كما لم يسلم الفقراء والضعفاء من قبائل العرب في حد ذاتها من تلك الاعتداءات. كلُّ ذلك ساهم في خراب أرض برقة، ومضاعفة مخاطر اجتيازها⁴.

لم تخلُ البلاد المصرية هي كذلك من خطر أولئك "العربان". مثلما يُعرفون هناك - فقد كانوا يتحيتّون فرص وفود الأركاب المغاربية إلى مصر في رحلتي الذهاب والإياب، وذلك رغم انخفاض معدل السرقة والاعتداء نسبياً من حدود برقة الشرقية إلى مدينة الإسكندرية، بسبب كثرة القفار والمفازات الموحشة التي يصعب العيش فيها، مقارنة بالأراضي الخصبة العامرة، التي تُقيم بالقرب منها قبائل البدو لفترات من الزمن⁵. وفي المدن الكبرى التي يحلُّ بها الركب كانت حالات الاعتداء على الحجاج بقصد السرقة تأخذ طابعاً فردياً لا جماعياً، من أمثلتها اعتداء بعض اللصوص على حاجّ جزائري عمجوز في أزقة القاهرة، ممّا أدى في آخر المطاف إلى وفاته⁶.

لقد تعدّت جرأة "الأعراب" قاطعي الطرق الحدودَ والمناطق البعيدة والمعزولة، لتصل إلى أقرب مقطعٍ مُوصلٍ إلى بلاد الحرمين الشريفين وهو درب الحجاز، حيث كانت قبائل البدو العرب القوية تعترض سبل أركاب الحج، وتُخَيِّرُها بين دفع الأموال والمكوس أو السلب والنَّهب. وتقتسم تلك القبائل النفوذ والأنصبه في درب الحجاز على أربع! فمن عسفان (نواحي مكة) إلى الينبوع لقبيلة

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 539.

² - Bernard Saffroy, Op.cit, p06.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 162.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 01، ص 197.

⁵ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و 08.

⁶ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 38.

"حرب" المشهورة ببطشها الشديد على الحجاج، ومن ينبع إلى الأكره لقبيلة "جهينة"، ومن الأكره إلى المويلح لقبيلة "بلي"، ومنه إلى قرب مصر لـ "الحويطات وبني عقبة"¹.

رغم قدسية الحرمين الشريفين مكاناً وزماناً إلا أن بعض السُّرَّاق كانوا يستغلون موسم الحج وازدحام مكة المكرمة بالوافدين الجدد من مختلف البلدان لتحقيق أغراضهم الدنيئة، فيختلسون الأموال والأمانات من البيوت التي ينزل بها بعض الحجاج². والبعض الآخر من اللصوص لم يكونوا يتورَّعون عن سرقة الحجاج حتى في داخل الحرم ذاته³. وبعضهم كان يستغل نفرة الحجاج من عرفات إلى مزدلفة (المشعر الحرام)، ومبيتهم قرب الجبل لالتقاط الجمار، فيرمونهم بالأحجار من أعلى الجبل، طمعاً في إخراجهم من رحالهم وخيامهم، ومن ثمَّ السطو عليها⁴!

كان اللصوص وقطاع الطرق غالباً ما ينجحون في تحقيق أهدافهم، نتيجة انتهاجهم أسلوب المباغنة، وبسبب ضخامة ركب الحج وتعب الحجاج. فهم يستغلون أدنى غفلة من الحجاج المنهكين من طول السفر، فيهاجمونهم حين تضعف قواهم وتخور عزائمهم.

لقد تمكَّن اللصوص في أحد الاعتداءات على الركب الجزائري من سلب عددٍ من الجمال "عليها من الحوائج والذهب ما لا يعلمه إلا صاحبه"⁵! وفي هجوم آخر أغار اللصوص على أواخر أواخر ركب الجزائر، وأخذوا من الإبل قريباً من الثلاثين بأحمالها، وهربوا بها إلى مضايق الشَّعاب في درب الحجاز⁶. وفي اعتداء آخر - تمَّ نهاراً بعد أداء صلاة العصر - هجم بعض العرب على الركب الجزائري العائد، وتمكنوا من أخذ جملين بما حملا⁷. ولسوء حظَّ الحجاج المغاربة عموماً فإنَّهم دوماً متَّهمون بحمل الذهب بمناسبة أدائهم مناسك الحج، في نظر سكان أقاليم المشرق، حتى ولو كان أحدهم ذا أسمال بالية! - حسب تعليق الرحالة العياشي -⁸.

¹ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 605.

² - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص 109.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 65.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 320.

⁵ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 03، ص 144.

⁶ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 02، ص 403.

⁷ - عبد الرحمن التتلائي، المصدر السابق، و 20.

⁸ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 02، ص 462.

من أشنع الاعتداءات التي تعرّض لها الحجاج الجزائريون ومعهم المغاربة والمصريون، اعتداءً شديداً وقع في درب الحجاز سنة 1208هـ/1793م، فقد تجمّع العُربان (أي قبائل البدو من العرب) من كل ناحية عند محطة "مغاير شعيب"، وقتلوا غالب الحجاج، وفيهم حجاج مغاربة، وأخذوا أحماهم ودوابهم، ونهبوا أمتعتهم¹!

وفي بعض المواسم كان الحجاج الجزائريون يتعرضون للاعتداء والنهب بسبب الفتن الداخلية الناشئة بالحجاز، من ذلك ما وقع في ذي الحجة سنة 1105هـ/1694م، حيث قُتل عددٌ من الحجاج في عرفة وفي مكة المكرمة، من جراء ذلك الصراع المتجدّد بين الفينة والأخرى على الزعامة والإمارة بين أشرف الحجاز (حكام مكة المكرمة) فيما بينهم، وقد استغلّ المتلصّصُ ذلك الظرف، ونهبوا كثيراً من الحجاج في طريق عرفة، ولم يعدّ بمقدور القوافل العائدة بعد الحج السفر حتى يصحبها عسكريٌّ من مكة المكرمة، فيقوم بحراستها².

ويرى البعض أنّ السلطات العثمانية كانت تتسبب - بطريقة غير مباشرة - في إثارة القلاقل والشغب بالحجاز، حيث كانت تختار أيام الحج لإرسال فرمانات العزل أو التولية الخاصة بإمارة مكة المكرمة بصحبة الركب الشامي أو الركب المصري. فتضطرب الأوضاع وتسود الفتنة بين زعامات شرافة مكة، فهُم من ثلاثة بيوت: من ذوي زيد وذوي بركات وذوي عون العبادلة³، فيقتاسي الحجاج من أهوالها ما يُقاسون، وتُنهب أموالهم وأمتعتهم من طرف اللصوص، الذين يغتنمون أمثال تلك الفرص.

كما يُلاحظ أنّ ظاهرة اللصوصية وقطع طريق الحج في وجه الركب الجزائري وغيره من الأركاب استمرّت إلى أواخر العهد العثماني، ذلك ما يؤكده الأمير عبد القادر في رحلته إلى الحج رفقة والده، حيث وصف الطريق "... بكثرّة اللصوص المنتهيين، وعدم اجتياز السيارة مع قبائلها من البدو، لكونهم لا يناههم حكمُ سلطان، ولا خوفُ الله!"⁴.

¹ - أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص52.

² - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص454.

³ - لمعرفة أسماء أشرف مكة المكرمة من مختلف البيوت، المتعاقبين على إمارة وحكم بلاد الحجاز طيلة العهد العثماني ومآثرهم وآثارهم، يُنظر: إسماعيل حقي جارشلي، المرجع السابق.

⁴ - نقلاً عن: سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص82.

ب - استخدام المكر والحيلة في الاعتداء على الحجاج:

كان قطاع الطرق يستعرضون قواهم ومهاراتهم في ابتزاز الحجاج وسلبهم، ففي أحد مواسم الحج أحاط جمعٌ منهم بالركب الجزائري في صعيد مصر، ومنعوه من التحرك، معتدّين بأسلحتهم، وعددهم الكبير الذي بلغ خمسمائة فارس¹! غير أنّ المواجهة المباشرة مع الحجاج لم تكن في مصلحة أولئك "الأعراب"، بسبب ضخامة ركب الحج ووفرة سلاحه، لذلك لجأ معظمهم إلى استخدام المكر والخديعة من أجل تحقيق غايتهم، التي تُبرّر في نظرهم كلّ وسيلة.

من قبائل طريق الحج التي جربت تلك الأساليب "عرب الجبل الأخضر" شرق طرابلس، إذ كانوا يستغلون نزول الركب من أجل التسوّق للانقضاض على الحجاج ونهبهم، وهم - في وصف العياشي - "من أشدّ العرب كفراً ونفاقاً، لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، ليس عندهم من الدين إلاّ اسمه، لا حرفة لهم بعد تنمية مواشيهم إلاّ النهب والغارة، قلّما مرّ بهم ركبٌ سليم من إنشابه الحرب بينهم وبينه، بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسُّوق معهم"²!

وبما أنّ اللصوص أدركوا صعوبة التّيل من حجاج الركب كلّهم دفعةً واحدة، فقد أصبحوا يستهدفون المنعزلين منهم عن الركب. حدث ذلك في إحدى المرات، حيث انفرد عن الركب الجزائري رجلٌ من أهل توات، يحمل على جملٍه مقدار ثمانمائة مثقال تبراً، فوثب عليه بعض اللصوص، وأخذوا منه الجمل وما حمل، وذلك بعدما شجّوا رأس صاحبه، وخرّ ساقطاً مغشياً³. وفي حالةٍ أخرى مشابهة انتهز اللصوص فرصة انغزال بعض الحجاج عن الركب لأجل السقاية فانقضّوا عليهم، ذلك ما فعلوه بحاج جزائري يُدعى "عبد الرحمن بن الزعيم"، إذ سرقوا منه بغلته عنوةً، حينما كان يسقيها من بئرٍ غير بعيدة عن الطريق⁴!

وحينما يفتقد اللصوص القدرة على المباغتة والمناورة يقومون بانتهاج أسلوب آخر، وهو محاصرة ركب الحج في مكان ضيق، لا مفرّ بعده. فمثلاً كانوا يسبقون الركب إلى منبع الماء، ثمّ يُحيطون بالحجاج كالحلقة، ويشرعون في رميهم بالرصاص من بنادقهم! ذلك الفعل قام به في أحد

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج2، ص10.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج1، ص202.

³ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج2، ص164.

⁴ - نفسه، ج3، ص135.

المواسم لصوص درب الحجاز، حيث أحاطوا بالركب الجزائري في مضيقٍ حادٍّ كثيرٍ الأحجار، بين جبلين، وشرعوا في قذف أطراف الركب بالبارود، فعَلِيَ النداء والصياح، وانضمَّ أولُ الركب إلى آخره، وسلّم الحجاج الجزائريون في موضعٍ قلَّ أن يسلم فيه غيرهم من أيدي المعتدين¹!

لكنَّ هؤلاء اللصوص لم يكونوا يُقَدِّمون على فعلهم إلا بعد أن يتأكدوا من أن ركب الحج لا يتوقَّر على الحماية الكافية، وليس بمقدوره درءُ خطرهم. أمَّا إذا تبَيَّن لهم امتلاك الحجاج للأسلحة الكافية، واستعدادهم لملاقاتهم بكلِّ شجاعة وعزيمة، إذا رأوا ذلك رفعوا راية السلم، وتظاهروا بأنهم يرغبون في نزول الركب من أجل البيع والشراء²! وقد تكرر ذلك التظاهر الكاذب بالسلم مع العديد من أركاب الحج المغاربية في مواسم مختلفة.

رغم ذلك، بدَّ أن اللصوص من "الأعراب" أو "البدو" قد مرَّذوا على السرقة وتمرَّسوا فيها إلى درجةٍ لا تُصدَّق. فمن غرائب الاعتداءات التي كان الحجاج الجزائريون يتعرضون لها في سفرهم ما جاء في المشهد التالي: "... وعندما يرى هؤلاء البدو حاجاً قد استغرق في النوم فكَّوا رباط جملة من الأمام ومن الخلف، ويقوم أحد اللصوص بقيادة الجمل بعيداً، بينما يكون الحاج نائماً فوقه، ويقوم اللص الآخر - في الوقت نفسه - بسحب الجمل التالي ليربطه بجملٍ آخر بدلاً من الجمل المسروق"³! هذا فضلاً عن قدرة اللصوص العجيبة في اختلاس ثياب الحجاج بعد أن يكونوا قد غسلوها ونشروها خارج الخيام لتجفَّ، رغم حراستهم لها! ولا غرابة في ذلك - في نظر الرحالة السجلماسي - حتى "إنهم قد يختلسون القدور وهي تغلي"⁴!

وقد قارن بعض الرحالين بين جرأة أعراب الحجاز وجرأة أعراب شمال أفريقيا على السرقة، فوجد بأنَّ أعراب الحجاز "من أجراء الأعراب على السرقة"⁵؟ والغريب في الأمر أنَّ بعضاً من هؤلاء الأعراب المتعوِّدين على إذابة الحجاج يحضرون موسم الحج، ويحرصون على أداء المناسك! لكنَّهم لا يرفعون عن غيِّهم وجورهم أثناء الموسم وبعده، فيضايقون الحجاج ويؤساوموهم، ويفرضون

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج03، ص120.

² - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و54.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص71.

⁴ - الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص197.

⁵ - عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص227.

عليهم المكوس الجائرة بعد أداء المناسك، مقابل إخلاء الطريق للأركاب من أجل العودة إلى أوطانها، فصدقَ فيهم وصفُ الرحالة القائل¹: (الطويل)

رَأَى الْبَيْتَ يُدْعَى بِالْحَرَامِ فَحَجَّهُ وَلَوْ كَانَ يُدْعَى بِالْحَلَالِ لَمَا حَجَّاهُ

ج - القرصنة الأوروبية وترويع الركب البحري:

لم يَسَلَمَ الحجاج الجزائريون الذين فضّلوا ركوب البحر - وهم يُدركون مخاطره الأخرى - من الخطر والاعتداء على مراكبهم وسفنهم داخله، ولَمَّا كَانَ الْبَحْرُ فِي نَظَرِ الرَّحَالَةِ الْمُقَرِّي التلمساني من الثلاثة الذين لا يُؤْتَمَنُونَ: (الرجز)

"ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهَا أَمَانٌ الْبَحْرُ وَالسُّلْطَانُ وَالزَّمَانُ"

فكيف وقد انضمَّ إليه خوف العدو الغادر الخائن، والكافر الخائن²؟ رَغِمَ أَنَّ أَعْدَادَ الْمَسَافِرِينَ إِلَى الْحَجِّ بَحْرًا لَا يُمَكِّنُ مَقَارِنَتَهَا بِالْمَسَافِرِينَ إِلَيْهِ بَرًّا.

لقد مثّلت عمليات القرصنة الأوروبية التي شاعت في حوض البحر الأبيض المتوسط في تلك الفترة التحدي الأصبغ الذي واجهه الركب البحري الجزائري. ولا غَرَوَ إِنْ وَجَدْنَا أَنَّ عَدَدًا مِنْ الْأَسْرَى الْجَزَائِرِيِّينَ الْمُحْتَجَزِينَ لَدَى الدُولِ الْأُورُوبِيَّةِ الْمُعَادِيَةِ لِلْجَزَائِرِ كَانُوا يَحْمِلُونَ لِقَبِّ "الْحَاجِّ"، مِثْلَ النَّمَاذِجِ التَّالِيَةِ: الْحَاجِّ مُحَمَّدٍ، الْحَاجِّ مُصْطَفَى، الْحَاجِّ حَمُودَةَ...³. ولعلَّ البعض من أولئك الأسرى قد أُلْقِيَ عَلَيْهِمُ الْقَبْضُ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ مِنَ الْحَجِّ مُبَاشَرَةً، لِأَنَّ السَّفْنَ الْمُقَلَّةَ لِلْحَجَّاجِ الْجَزَائِرِيِّينَ كَانَتْ تَسَاهِمُ فِي الْجِهَادِ الْبَحْرِيِّ وَالِدِفَاعِ عَنِ مَصَالِحِ الْجَزَائِرِ أَيْضًا. ففِي أَحَدِ الْمُنَاسِبَاتِ قَامَتْ سَفِينَةٌ حَامِلَةٌ لِلْحَجَّاجِ بِتَحْرِيرِ أَرْقَاءَ جَزَائِرِيِّينَ وَأَتْرَاكٍ مِنْ أَيْدِي مَخْتَطِفِيهِمْ، الَّذِينَ كَانُوا يَرِغِبُونَ فِي نَقْلِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ جَنُوةِ الْإِيطَالِيَّةِ لِيَبْعَهُمْ هُنَاكَ⁴.

إِنَّ رِحْلَةَ الْحَجَّاجِ عِبْرَ الْبَحْرِ مَحْفُوفَةٌ أَصْلًا بِمَخَاطِرِ الْغَرَقِ أَوْ التَّيِّهِ. إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ كَانَ يَتَعَرَّضُ الْمَقْدِمُونَ عَلَيْهَا لِلْقَرْصَنَةِ الْأُورُوبِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، خُصُوصًا مِنْ طَرَفِ فَرَسَانَ مَالِطَةَ⁵، الْمَشْهُورِينَ

¹ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و19.

² - أحمد المقرئ، نفع الطيب، مصدر سابق، ج01، ص34.

³ - خليفة حمّاش: الأسرى الجزائريون في أوروبا في العهد العثماني، ملتقى سوسيوولوجية الهجرة، مرجع سابق، ص23.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص24.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص84.

المشهورين كذلك باسم "فرسان القديس يوحنا"*. فمالطة القريبة من سواحل بلاد المغرب لم يكن في الأوروبيين مَنْ هو أضرُّ منها على سفن المسلمين عامة والحجاج المغاربة خاصة، لكونها تقع بمحاذاة طريق ركب الحج الجزائري البحري. فهي كما وصفها ابن أبي محَلِّي السجلماسي ".... بين الغرب ومصر في البحر، تأسِرُ الحجاج وتلقفهم كالثعبان!"¹

ومالطة - كما شهد الرحالة الدانمركي نيبور - هي السبَّاقة إلى معاداة المسلمين وإثارة حَمِّ غضبهم، بسبب زعامتها للقرصنة الأوروبية ضدَّهم. يقول نيبور: ".... ولا ينبغي أن نستغرب أن ينسبَ المسلمون إلى المالطيين ما نسبُه نحن إلى المغاربة والجزائريين والتونسيين والطرابلسيين، إذ يعيش هؤلاء البرابرة على الأقل بسلام مع بعض الأمم المسيحية، في حين أنَّ فرسان مالطا يُعادون الأمم الإسلامية كلَّها!"² وهي شهادة حقٌّ، رغم ما اعترأها من تعصُّبٍ واستعلاء.

لقد انضمت بعض الدول المسيحية إلى ذلك الحلف العدائي، وأصبحت تستهدف سفن الحجاج دون رادع أو مانع. فالقبارصة أصبحوا يتصرَّفون مثل فرسان مالطة، وأخذوا يهاجمون السفن المسلمة، ويتعرَّضون للحجاج والتجار³. والروس كذلك أعلنوا انتقامهم من أعدائهم العثمانيين بمهاجمة سفن الجزائر، بحكم أنَّ الجزائر إحدى ولاياتهم. فقد هاجموا في إحدى السنوات سفينة فرنسية تمَّ كراؤها لنقل الحجاج الجزائريين، وأوشك القبطان الروسي أن يضرب السفينة الفرنسية ويُغرقها بمن فيها، لولا تدخُّلُ مساعديه الذين حذَّروه من تبَّعات ذلك الفعل⁴.

ومن أسوأ المواقف التي تعرَّض لها ركب الجزائر البحري حادثة اختطاف سفينتين تُقلَّان الحجاج والتجار الجزائريين سنة 998هـ/1590م، وذلك بمكيدة دبَّرها المستخدمون على متنيهما

* فرسان القديس يوحنا: بدأت هذه الجماعة نشاطها كمنظمة خيرية دينية في القدس، تساعد المحتاجين من الحجاج المسيحيين الذين يزورون فلسطين، وعندما نشبت الحروب الصليبية تحولت هذه الهيئة إلى منظمة عسكرية، ثم طُردوا من القدس إلى جزيرة رودس، ومدُّوا نفوذهم على الجزر المتوسطية، ثم أُخرجوا منها في بداية القرن 16م/10هـ واستقروا في جزيرة مالطة، منقلبين إلى عصابة من القراصنة، تحارب المسلمين والأسطول العثماني بدعمٍ من ملوك أوروبا المسيحيين. يُنظر المزيد في: عمر محمد الباروني: الأسباب وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، ط01، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952م، ص75.

¹ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص83.

² - كارستن نيبور، المصدر السابق، ج01، ص28.

³ - سامح التري، المرجع السابق، ص226.

⁴ - المرجع نفسه، ص527.

من العبيد والمُجَدِّفين النصارى، وسيقتُ السفينتان إلى "بلاد النصارى" بمن فيهما، في حين فضِّل بعض الراكبين المسلمين إلقاء أنفسهم في البحر، أملاً في النجاة سباحةً من الأسر¹. وفي سنة 1239هـ/1824م هاجم فريقٌ من القراصنة الإنجليز والمالطيين وغيرهم مركباً للحجاج الجزائريين، واقتادوه إلى مالطة، وبقي محتجزاً هنالك إلى أن وقع الصلح بين الجزائر وإنجلترا².

وبعيداً عن البحر كان الحجاج الجزائريون يتعرَّضون للنهب كذلك من طرف اللصوص في نهر النيل! وذلك أثناء انتقالهم في القوارب من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القاهرة، وهم - أي اللصوص - "يكثرُون في هذا الوقت من العام لكثرة عدد الحجاج الذين يتخذون طريقهم مُبحرين في النيل من رشيد للقاهرة، ويعلم اللصوص أنَّ الحجاج يحملون معهم مبالغ مالية!"³

02. الجهود المبذولة لتأمين الطرق والمسالك:

أ - الجهود الرسمية لتأمين طريق الحج:

بما أنَّ منافذ طرق الحج من إقليم الجزائر متباينة ومتباعدة، فقد انصبت جهود الحكام العثمانيين على تأمين ما يخضع لسلطتهم منها، حيث قام بعضُ البايات بإنشاء أبراج مراقبة القبائل المعتدية على المسافرين، وكان الجنود الأتراك يُسافرون بين الجزائر وقسنطينة بصفة دورية كلَّ ثلاثة أشهر، من أجل مراقبة الطريق المؤدية من الوسط إلى قسنطينة، فتستغلُّ قوافل الحجاج ذلك وتُرافقهم وهي آمنة⁴. كما أدرك شيوخ وزعماء قبائل "العرب" في إقليم بايلك الغرب أهمية تأمين تلك الجهات، فقام أحدهم بطرد المفسدين وقطاع الطرق واللصوص منها، وأخضع القبليين المتمردين على الأتراك لسلطته، وألزمهم بدفع الضرائب⁵.

وعلى مستوى المسالك الخارجية فقد بُذلت بعض الجهود بين الفينة والأخرى لحماية ركب الحج، فكان باي طرابلس الغرب يُحسن إلى الركب الجزائري، ويأمر عمَّاله بحراسة الحجاج وأملاكهم ليلاً من السراق، وذلك دون بقية الأركاب المغاربية الأخرى، إظهاراً للمودة ورغبةً في

¹ - علي التمكروتي، المصدر السابق، ص 130.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 153.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 29.

⁴ - محمد المكناسي، المصدر السابق، ص 330.

⁵ - سامح التمر، المرجع السابق، ص 536.

صالح الدعاء من أعلام الحج الجزائريين¹. أمّا سلطات مدينة القاهرة فلطالما حذّرت ساكنيها من مغبّة الاعتداء على الحجاج المغاربة عموماً، وذلك مدة مكوثهم بالأراضي المصرية². لكن تلك الجهود ظلت غير كافية، نظراً لظرفيتها وعدم انتظامها، ومحدودية مجالها الجغرافي.

لا شك أن الاعتداء على الحجاج وترويع أركاب الحج من الممارسات المستهجنة في أوساط المسلمين جميعاً، ويقع الجزء الأكبر من مسؤولية تأمين المسارات الواقعة في إقليم الدولة العثمانية على عاتق حكامها وولايتهم، فالسلطان العثماني هو حامي الحجاج الأول باعتباره "خادم الحرمين الشريفين". لذلك اهتمّ العثمانيون بحماية المعابر المؤدية إلى الحرمين الشريفين، وبصفة خاصة طريق درب الحجاز. فمنذ انضمام مصر للدولة العثمانية سنة 923هـ/1517م أمر السلطان سليم الأول بأن يسير الحجاج كلهم - مصريون ومغاربة - في الدرب مع قافلة المحمل الرسمية المهيبّة، المنطلقة من القاهرة، وذلك لتوفير الأمن والراحة للحجاج. فالعساكر يؤمّنون تلك الأركاب من مصر إلى بركة الحاج، والعسس يتواجدون غالباً في بنادر (محطات) درب الحجاز³، حيث أنشأ العثمانيون قلاعاً وحصوناً في ثلاثة بنادر هي: العقبة والمويلح والوجه، لتأمين الدرب، فيمكث الجنود فيها لمدة سنة كاملة، ثمّ يتم تغييرهم بفرقة أخرى⁴.

وجديرٌ بالذكر - والفخر - هنا أنّ أشدّ فرقة عسكرية قوّةً وتنظيماً ساهمت في حفظ الأمن بين مصر والحجاز، وقطع دابر لصوص قبائل الدرب المعتدية، هي فرقة "عسكر المغاربة"، المجنّدة باستمرار من قبيل الولاة المصريين. حيث أبلت بلاءً حسناً مع عسكر المماليك المصريين بقيادة أمير الحج ضد قبائل الدرب المهاجمة على الحجاج في موسم 1174هـ/1761م، ورجع الركب المصري يحمل رؤوس كبار شيوخ القبائل على الجمال⁵! وذلك في ظلّ عدم فعالية التدابير المبذولة من طرف السلطات العثمانية، والتي اقتصرّت على محطات قليلة، وفي مواسم بعينها.

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج01، ص337.

² - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص55.

³ - أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص37.

⁴ - عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص208.

⁵ - لم يرضَ الأمراء المماليك في مصر عن فعل أمير الحج والعساكر المغاربة، خوفاً من الثأر المتوقع للبدو، فنخاطبه أحدهم: "إنّك أفسدت علينا العرب، وأخرت طريق الحج، ومنّ يطلع بالحج في العام القابل؟" فقال متحدياً: "أنا الذي أسافر بالحج في العام القابل، ومي للعرب!" يُنظر: عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج01، ص406.

وتُضَافُ إِلَى تِلْكَ الْجُهُودِ الرَّسْمِيَّةِ جُهُودُ الْحُكَّامِ الْمَعْنِيِّينَ مَبَاشَرَةً بِشُؤُونِ الْحَجِّ وَالْحِجَّاجِ، أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهَمُّ أَشْرَافِ مَكَّةَ، حُكَّامِ الْحِجَازِ، وَسَدَنَةُ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، الَّذِينَ أَقْرَبَهُمْ سُلَاطِينُ آلِ عَثْمَانَ عَلَى إِمَارَتِهِمَا، مِقَابِلَ الدَّعَاءِ لِلخَلِيفَةِ الْعَثْمَانِيَّةِ وَالْحَصُولِ عَلَى جِزْءٍ مِنَ الْوَارِدَاتِ فِي مَكَّةَ وَجَدَّةَ. فَقَدْ كَانَتْ طِبَائِعُ شَخْصِيَّاتِهِمْ وَمَآثِرُهُمْ تَعَكُّسٌ عَلَى الْأَوْضَاعِ بِالْحِجَازِ، وَعَلَى مَدَى النِّجَاحِ فِي تَأْمِينِ مَوْسَمِ الْحَجِّ، وَحِمَايَةِ الْحِجَّاجِ مِنْ بَعْدِهِ.

فَهَذَا شَرِيفُ مَكَّةَ "مُحَمَّدُ أَبُو نَمِي" رَفِيقَةُ ابْنِهِ "الْحَسَنُ" يُؤمِّنَانِ دَرَبَ الْحِجَازِ طِيلَةَ النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ 10هـ/16م، وَقَدْ "... اِمْتَاَزَ أَبُو نَمِي بِجِزْمِهِ فِي إِدَارَةِ الْأُمُورِ وَصِرَامَتِهِ فِي الْحُكْمِ، وَبِذَلِكَ هَابَتْهُ الْأَعْرَابُ وَالْأَهَالِي، وَاحْتَرَمَهُ الْحِجَّاجُ وَالْمَجَاوِرُونَ، وَقَدَّرَ مَنَزَلَتَهُ أَصْحَابُ السُّلْطَانِ مِنَ الْعَثْمَانِيِّينَ، وَقَضَى بِجِزْمِهِ عَلَى أَصْحَابِ الْفِتَنِ، وَسَاعَدَ عَلَى رِخَاءِ الْأَسْعَارِ، وَاسْتَمَرَّتْ مَكَّةَ مَحْكُومَةً بِأَمْرِهِ سَنِينَ طَوِيلَةً، فِي اسْتِقْرَارٍ لَا تَعْبُثُ بِهِ الْقَلَاقِلُ وَالْفَوْضَى"¹.

وَعَلَى خَطَى شَرِيفِ مَكَّةَ "أَبِي نَمِي" سَارَ حَاكِمٌ جَدِيدٌ مِنَ الْأَشْرَافِ فِي مَنْتَصَفِ الْقَرْنِ 11هـ/17م، وَهُوَ "زَيْدُ بْنُ مَحْسَنِ"، فَأَخْمَدَ الْفِتْنَ، وَحَارَبَ بِسَيْفِهِ وَهَيْبَتِهِ الْمَتْرَبِّصِينَ بِأَمْنِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَاشْتَهَرَ بِوَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ، وَبِقَبُولِ دَعَائِهِ عَلَى الْأَشْرَارِ وَالْمَعْتَدِينَ، حَتَّى "... كَانَتْ أَعْرَابُ الْحِجَازِ تَقُولُ: نَخَافُ مِنْ دَعْوَةِ زَيْدٍ أَكْثَرَ مِمَّا نَخَافُ مِنْ سَيْفِهِ"²!

أَمَّا حَاكِمُ الْحِجَازِ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ 12هـ/18م الشَّرِيفُ "سُرُورُ بْنُ مَسَاعِدٍ" فَكَانَ يُبْلِغُ بِنَفْسِهِ قِطَاعَ الطَّرِيقِ مِنَ الْبَدْوِ، وَيُجَارِبُ أَكْثَرَ الْقَبَائِلِ فَتَكَاً بِالْحِجَّاجِ وَهِيَ قَبِيلَةُ "حَرْب"³، وَيُرْصِدُ الْأَمْوَالَ لِكُلِّ مَنْ يَأْتِيهِ بِرَأْسِ رَجُلٍ مِنْ أَفْرَادِ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ⁴. وَيُذَكِّرُ أَنَّ أَمِيرَ الْحَجِّ الْمِصْرِيِّ أَمَرَ فِي أَحَدِ الْمَوَاسِمِ بِكَيْفِيَّةٍ أُسْرَى قَبِيلَةَ حَرْبٍ فِي خُدُودِهِمْ بِوَسْاطَةِ مَحَاوِيرِ مَحْمَدَةَ، لِيَبْقَى ذَلِكَ وَسَمًا وَعَارًا يُعْرَفُونَ

¹ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج2، ص396.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص327.

³ - إنَّ اشْتِهَارَ قَبِيلَةِ "حَرْبٍ" الْعَرَبِيَّةِ بِمُحَارَبَةِ حُكَّامِ الْحِجَازِ وَقَطْعِ طَرِيقِ الْحَجِّ جَعَلَتْ الْحِجَّاجَ يَذْكُرُونَهَا فِي أَشْعَارِهِمْ، وَكَيْفَ أَمَّا هِيَ وَالْحَرْبُ الْقَائِمَةُ بِسَبَبِهَا تُعْطَلَانِ رِحْلَةَ سَفَرِهِمْ لِزِيَارَةِ خَيْرِ الْأَنْامِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ أَحَدُ الْحِجَّاجِ: (الرَّمْلُ)

رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرَ الْبَرِيَاةِ وَيَا مَنْ نَاوَزْنَا لَكَ لَيْسَ نَحْبُوبُ

مَتَى نَرْجُو لِقَاكَ وَكَيْفَ هَذَا يَكُونُ وَدُونَنَا حَرْبٌ وَحَرْبٌ

يُنظر: عبد الغني النابلسي، المصدر السابق، ص323.

⁴ - جيرالد دي غوري: حُكَّامُ مَكَّةَ، ط01، ترجمة: محمد شهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000م، ص213.

به، ويُعَيَّرُونَ بِسَبَبِهِ، لَكِنَّ ذَلِكَ الْعِقَابُ أَجَّجَ حِمِيَّةَ أَفْرَادِ قَبِيلَةِ حَرْبٍ، فَاجْتَمَعُوا مِنْ كُلِّ وادٍ، وَأَعْمَلُوا النِّهْبَ وَالسِّيفَ فِي الْحِجَابِ الْمَغَارِبَةِ وَالْحِجَابِ الْمَصْرِيِّينَ، الَّذِينَ يَمْرُونَ عَلَى مَنَاطِقٍ نَفُوزِهِمْ¹.

وعلى مستوى طريق الحج البحرية انطلاقاً من ميناء الجزائر، قام الداوي حسين في أحد الأعوام بإرسال ثلاثة من مراكبه القتالية مع سفن الحجاج الجزائريين، لحمايتها من القراصنة وتأمين وصولها إلى ميناء الإسكندرية²، لأنَّ تداعيات الصراع البحري بين العثمانيين والأوروبيين ظلَّت تهدد الأمن في حوض المتوسط، وانعكست سلباً على حركة نقل الحجاج لعقود متتالية.

ب - جهود الحجاج الذاتية في حماية الركب:

في ظلَّ العجز الرسمي عن حماية ركب الحج من الاعتداء والسلب، أضحت مسؤولية تأمين الركب مَنِيطةً بأفراده الحجاج أنفسهم، فكان الحجاج الجزائريون المتسلِّحون يُطلقون النار من أسلحتهم لإخافة اللصوص ودفعهم³. وهم بذلك يمثلون لنصيحة الرحالة العياشي في القرن 11هـ/17م مخاطباً الحاجَّ: "... وخذ لنفسك ما تحتاج إليه من البارود والرصاص، واتَّخِذْ لأصحابك ولنفسك مدافع (أي بنادق بارودية)، فإنَّها في الطريق هيئته، وأيُّ هيبة"⁴! لذلك كان الحجاج يصطحبون معهم في أول الأمر البنادق البارودية، المعروفة وقتها باسم "المكاحل"⁵. وفي فترات ومواسم مواتية اضطرَّ الحجاج إلى استخدام البنادق المزودة بالرصاص الحي في حراسة الركب. حيث ذكر الرحالة السجلماسي أنَّ لَصّاً تَمَكَّنَ مِنْ خَطْفِ بِنْدُقِيَّةٍ مِنْ بَعْضِ الْحِجَابِ، وَحِينَ تَبَعُوهُ رَمَاهُمْ بِرِصَاصَةٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يُصِبْ أَحَدًا⁶.

ومن أساليب الدفاع عن النفس وردَّ المعتدين إناخة الإبل ليتصل آخر الركب بأوله، ويتكثَّل الركب في هيئة كتلة واحدة كبيرة. فاجتماع الركب بهذا الشكل فيه نكاية وتثييط لعزائم المتربصين

¹ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص509.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص170.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص30.

⁴ - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص51.

⁵ - المكاحل: لفظٌ دارجٌ شائعٌ ببلاد المغرب، مفردة المكحلة، والمقصود بها هنا البندقية المستخدمة للبارود. ومن معانيها اللغوية الوعاء، ولعلها سميت بذلك لاحتوائها البارود وحشوه في الوعاء. يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، مادة: كحل.

⁶ - الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص163.

به. وقد حدث في أحد المواسم أن أدرك الحجاج الجزائريون إصرار مجموعة من المحاربين المسلحين على السطو والاعتداء عليهم في مقطع درب الحجاز، فقاموا بتقسيم من يُطيق حمل السلاح من الحجاج على خمسة: ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة ومؤخرة! - كما الحرب تماماً - وداروا جميعاً بالإبل وما تحمله من بضائع، وبالنساء والضعفاء منهم، فلما رأى المسلحون ذلك يئسوا من غايتهم، وخلّوا سبيل الحجاج¹. إنَّ تلك الواقعة مما يدلُّ على يقظة الحجاج وحسن استعداداتهم القتالية، وقدرتهم على إحباط هجمات المعتدين.

لم يكن الحجاج الجزائريون يكتفون بحماية أنفسهم من اللصوص ومدافعتهم عن الركب فقط، بل كانوا أحياناً يُطاردون "العرب" المغيرين لمسافات طويلة، حتى يُصيبيهم الإعياء، و ينجح الحجاج في استرداد بعض ما سلب منهم سابقاً. ففي أحد الاعتداءات سلب اللصوص من أحد الحجاج الجزائريين بغلته، ثم تمكّن رفاقه المسلحون من مطاردتهم، وأخذوا منهم فرساً، سلّموها للحجاج المنكوب، عوضاً عن بغلته، فلم يرضَ بذلك، وآثر الصبر على مُصابه، خشية أن يتسبّب ذلك في اشتداد أذى اللصوص على الركب أثناء العودة².

ولما كان يتعدّد على أركاب الحج مواجهة قبائل درب الحجاز المسلحة، كان بعض أمراء الحج يلجؤون إلى مُدارة تلك القبائل بالمال، وإعطائها المنح والهدايا، فبعض أمراء الركب المصري كانوا يُهدون شيوخ القبائل المتربصة بالطريق كميات من الكتان والألبسة لمداراتهم³! لكنّ القبائل العربية أصبحت تعتبر تلك الأعطيات عوائد سنوية لا بد من دفعها، فتثور وتُنكّل بالحجاج إذا لم تتلقاها في موسم الحج الموالي⁴.

إنَّ كثيراً من القرى والبوادي الواقعة في مسارات ركب الحج الجزائري كان يتمُّ الاحتراس منها وتجنُّبها في بعض المواسم، إن أمكن ذلك، لأنَّ بعض أهلها موصوفون بقلّة الأمانة، وبمعاملة الحجاج معاملة سيئة. وبالتالي فإن ممارساتهم تلك لا تسيء إلى ذواتهم فقط، بل تسيء كذلك إلى سُمعة القبائل التي ينتمون إليها. ولا غرو أن نجد - حينئذٍ - أعيان وشيوخ إحدى القبائل يستقبلون

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص147.

² - المصدر نفسه، ج01، ص257.

³ - كارستن نيور، المصدر السابق، ج01، ص115.

⁴ - أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص52.

ركب الحج، ويطلبون من الحجاج الصّبح والعفو عمّا بدرَ من بعضهم فيما مضى، مُعَلِّين التوبة من التعرض لأركاب الحج بسوء¹.

03. جدلية إسقاط ركن الحج بسبب غياب الأمان:

تجددت في بلاد المغرب الإسلامي من حينٍ لآخر، ومن موسمٍ حجٍّ لآخر، دعوات واجتهادات فقهية تدعو إلى إسقاط فرض الحج، وذلك بسبب تحقُّق حدوث خطر الموت في الطريق، مع تشدُّد الدين الإسلامي في حرمة قتل النفس، أو الإلقاء بها إلى التهلكة. فمنذ أواخر القرن 13م أشار الشيخ حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني إلى ذلك قائلاً: "سمعتُ الشيخ حسن الحلفاوي يقول: وقع الكلام بين يدي الفقيه الإمام أبي الحسن اللخمي في حكم السفر إلى الحج مع فساد الطرق، وهل الأولى تركه احتياطاً على النفس، أو الاستسلام في التوجُّه إليه؟ وكان اللخمي مائلاً إلى ترجيح التُّرك"²!

وخلال العهد العثماني لم تتحسن الظروف الأمنية كثيراً، حيث ظلت هذه الدولة - رغم قوتها وفتوحاتها - عاجزة عن تأمين جميع الطرق والمسالك، بحكم محدودية سلطتها المباشرة على بعض الأقاليم التابعة لها، أو ما سواها. ذلك ما أشار إليه العالم الجزائري أحمد بن قاسم البوني (ت1139هـ/1726م) صاحب "الدُّرَّة المصونة"، لافتاً أنظارَ الولاة العثمانيين إلى ظاهرة تفشي الظلم والخوف في البلاد وفي طُرُقها، قائلاً*: (الهنج)

وَالشَّرْعُ فِيهَا بَاطِلٌ وَالظُّلْمُ فِيهَا هَاطِلٌ
وَالخَوْفُ فِي سُبُلِهَا وَالقَّحْطُ فِي سُنْبُلِهَا

ولا أدلُّ على ذلك الوضع السيئ من أنّ قبيلةً من "الأعراب" تجرأت - في إحدى المرّات - على قطع الطريق أمام جيش باي الغرب الجزائري نفسه، وطلبت منه أجرة المرور بأراضيها³! فما بالك بما يقع للحجاج المسلمين، الذين يقطعون أراضي عشرات القبائل ما بين الجزائر والحجاز؟

¹ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص713.

² - محمد العبدري، المصدر السابق، ص60.

* أحمد بن قاسم البوني (ت1139هـ/1726م) للمزيد عن حياته ونظمه يُنظر: أحمد بن قاسم البوني: الدُّرَّة المصونة في علماء وُصلحاء بونة، ط خ، تحقيق: سعد بوفلاحة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عناية، 2007م، ص12.

³ - ابن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص298.

والأدهى ممَّا سبق ذكره أن يصل الاعتداء والترويع إلى حدٍّ لا يوصف، ففي منطقة ساحلية غربي طرابلس، لم يكن اللصوص يكتفون بسلب الحجاج وإخافتهم فحسب، بل يختطفونهم - كما فعلوا مع غيرهم - ويبيعونهم عبيداً للقراصنة الأوروبيين! فأصبحت أركاب الحج تحتس إذا مرَّت بتلك المنطقة، وإذا جاوزها الحجاج ولم يفقدوا أحداً منهم هنأ بعضهم بعضاً بذلك. غير أن تلك القرية خربت لاحقاً، وهجرها ساكنوها¹؟

ومن أدلة غياب الأمن عن طريق الحج لفترات متتالية قد تطول أنه بعد غزو الفرنسيين لمصر سنة 1213هـ/1798م نادى نابليون بوناپرت على المغاربة ليخرجوا من مصر ويسافروا إلى بلادهم، فخاطبه المغاربة قائلين: "أرنا طريقاً للذهاب، فإنَّ طريق البرِّ غير مسلوكة، والإنكليز واقفون بطريق البحر يمنعون المسافرين....!"². نستنتج من ذلك أن الحجَّ يُمكن أن يكون قد تعطلَّ في تلك المواسم كرهاً، إلا ما كان بصورة غير منظمة.

إذا ما أضفنا إلى ما ذكرنا انشغال الناسِ خاصتهم وعامتهم بواجب الجهاد المقدس، وتحرير الثغور والسواحل المحتلة، ودرء الخطر الصليبي الأوروبي المتزايد بعد تهجير مسلمي الأندلس إلى الشمال الأفريقي، فإنَّ الظروف تكون قد تهيأت لبروز الدعوات والفتاوى المرجحة إسقاط واجب الحج. ومنها فتوى لأحد الفقهاء صدرت سنة 971هـ/1563م، مؤدَّاها عدم وجوب الحج في هذا الزمن، لتواتر المشقات الحاصلة فيه³.

لكنَّ الحجَّ جهادٌ في حدِّ ذاته، فقد جاء في صحيح البخاري "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلَا نُجَاهِدُ؟ قَالَ: لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجُّ مَبْرور" ⁴. فالحج إذا كان مقروناً بالصعوبات والمشقات والمصائب عظم أجْرُه عند الله وقُبِلَ بإذنه. ذلك ما تيقَّنه منذ زمنٍ الخاصَّة من الحجاج، كالعالم الصوفي أبي الفضل النحوي التوزري المسيلي (ت513هـ/1119م) صاحب قصيدة "المنفرجة" المشهورة، فقد نُقِلَ عنه أنه حجَّ في أحد المواسم ورجع، ولم يُنكِّد، ولم يُصَبَّ في ماله ولا بدَّنه، فعظَّم ذلك عنده، معتقداً أن حجَّه لم

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج3، ص292.

² - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج3، ص31.

³ - عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج1، ص726.

⁴ - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ط01، دار ابن كثير، دمشق، 2002م، ص689.

يُقبل! فلم يلبث إلا قليلاً، حتى خرج عليه اللصوص، وأخذوا ماله وسلبوا ما عنده، فقال: الآن تمّ الأمر وعظّم الأجرُ وقُبِلَ الحجُّ¹!

وقد أشار الشيخ السوسي المغربي في سفره للحج أواخر القرن 13هـ/19م للجدل المتجدد بشأن رحلة الحج في تلك الأزمنة، بين أمنٍ ظلّ مفقوداً، ورأيٍ صارَ معهوداً، فقال²: (الرجز)
والأمنُ في الطريقِ ليسَ يُوجدُ فكمَ وكمَ نفسٍ هناك تُفقَدُ
حتى أُنَى عن بعضِهِم أن زالَ حجُّ إذا ما صادَمَ الأهوالَ

المبحث الثالث: المعيقات الطبيعية وسبل مواجهة الركب لها

مثّلت التضاريس الصعبة وتقلبات الجوّ جانب الإكراه الطبيعي من معاناة الحجاج الجزائريين في الطريق إلى الحجاز. ففضلاً عن السلب والنهب والاعتداء، كان لزاماً على الحجاج مواجهة الحرّ والعطش والجفاف والجوع والبرد، واجتياز التضاريس الصعبة مثل: الجبال والصحارى والمفازل والسبخات والعقبات وغيرها. وذلك بسبب تباعد المسافات وتنوع المناخات.

01. الركب وأساليب مواجهة العطش:

اشتهرت أسماء منابع المياه المختلفة (أو المعاطن) على طول طريق الحج، وتمّ تداولها على نطاقٍ واسع، وأصبحت محلّ توقّف الحجاج عن السير، للراحة والغسل والترؤد، فيقولون حين يردونها - مثلاً - ونزلنا التميمي أو الطرفاوي أو جرحوف أو الجميمة أو الشمامة أو امكيد أو تحجاوت....³. وكلما صادف الركب معاطن الماء والكأ والظلال ألقى بها عصا التسيار، ونفض عن جوانبه غبار الأسفار. فوجود الماء مدعاة للتوقّف وتجديد العهد بالسفر، لأنّ تتالي نقاط المياه عنصر هام في تحديد المراحل الواجب قطعها، وهي بمثابة محطات أو منازل مائية.

كان الحجاج يقومون بالسقي والتنظيف من العيون والآبار في حين ورودها، ثم بملء القرب الجلدية المعدّة لتخزين الماء وتبريده، وكذا تملأ القرب الاحتياطية بالمياه ليلة مغادرة الركب لتلك

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص283.

² - محمد المختار السوسي، المصدر السابق، ص32.

³ - لمعرفة أسماء أشهر معاطن (عيون أو منابع) الماء المنتشرة في طريق الركب الجزائري ومواقعها ومميزاتها، يُنظر الجدول المعدّ في الملاحق المرفقة بالبحث.

الخطة المائية، وذلك بعد معالجتها وتنقيتها من الرمل والشوائب. فكلُّ حاج يتحمل مسؤولية حصوله على مائه وأخذ احتياطه بتدبير الفضل منه¹. وقد اشتهرت القربُ المصرية لدى الحجاج في حفظ الماء وتبريده، بفضل جودة وسماكة الجلود المصنوعة منها، وشاع بين الحجاج المثلُّ القائل: "جَمَلٌ طَرَابِلْسِي وَقِرْبَةٌ مِصْرِيَّةٌ!"

تنوّعت معاطن الماء في الطريق بين ما هو عذبٌ فرات سائغ شراؤه، وما هو ملحٌ أُجاج. فمن الموارد الصافية عينُ ماء واقعة في أقصى صحراء الجزائر الشرقية، كانت آخر ما يُتزوّد به لبلاد فزان الليبية². وبما أن المسافة ما بين مصراتة الليبية ومعطن "الزعفران" شرقيها مأوفا لا يصلح للشرب لمورته وملوحته، كان الحجاج يأخذون احتياطهم من الماء ما يكفي خمسة أيام كاملة، هو زمن تلك المسافة³. وفي درب الحجاز تَقَلُّ المياه العذبة، فعيونُ بنادره في معظمها مالحة، على غرار ماء "الدركين" وماء "الأكره" وغيرهما، وبعضها نَتْنٌ لا يصلح للشرب أو الطهارة⁴!

أمّا ماء "الشمامة" بمفازة برقة الليبية فهو ماء ملوّث، يتجنب الحجاج شراؤه، وقد وصف أحد الحجاج قُبْحَه وعدم منفعته مُقْتَبِساً: "... وماؤها قبيح، من أقبح مياه برقة، يشوي الوجوه بئس الشراب!"⁵ بل إن بعض مياهه تُسبب الأذى والمرض، وقَلَّمَا يسلم الحجاج منه. لذلك يلجأ الكثير منهم إلى تقليل الأكل في تلك المواضع، لأنّ كثرة الأكل تستدعي الشرب الكثير. مع التركيز على أكل الإدام، فهو - في عُرف الرحالة المغاربة - نافع لاختلاف وتقلُّب المياه في الطريق⁶. ورغم خبث تلك المياه فإنه لا يتأتى الحصول عليها إلا بمشقة عظيمة من الحفر والازدحام والاستسقاء بالقداح وغيرها.

وفي مفازة برقة الموحشة أيضاً توجد صحراء "السروال"، وهي موضع صعب للغاية في طريق الحج، إذ يسلكها الركب في سبعة أيام دون أن يقف على الماء، ف "... القدام عليها - في نظر

¹ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص41.

² - عبد الرحمن التتلاي، المصدر السابق، و08.

³ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج01، ص405.

⁴ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و04.

⁵ - الحسين الورثلاي، المصدر نفسه، ج03، ص232.

⁶ - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص91.

الحجاج - كالقادم على القبر! وقد تقرّر فيها الموت الأبيض من شدة العطش"¹. لذلك كانت الأركاب المغاربية تتفادها، مفضلة طريق الجبل الأخضر الأقلّ جفافاً، رغم المسافات الزائدة في عبوره، لأن ضمان وجود الماء مفضّل على قصر الطريق بالنسبة للحجاج.

كانت معاناة الحجاج مع العطش تتجدّد في كل مقطع من مقاطع الطريق الجافة والطويلة، ولا يصرفهم عن العطش أو الاضطرار إلى شرب المياه المالحّة إلا عدد قليل من الآبار الموجودة في أماكن محدودة من الطريق، مثل "آبار السلطان" التي حُفرت في درب الحجاز جنوب بندر المويلح، بأمرٍ من أحد حكام مصر المماليك². أو "آبار السبيل" التي كان بعض المحسنين ممّن يبتغون الأجر يحفرونها لسقاية الحجاج، ويحيطونها بأشجار التين لتوفير الظل لهم.

وما عدا ذلك فإن الحجاج اضطروا أحياناً لحفر الآبار في طريقهم بأيديهم، من ذلك بئر حفرها حجاج مغاربة بمعية حجاج جزائريين في الطريق الجنوبية الصحراوية. يقول عنها الرحالة القيسي: "... ليس فيه إلا بئر واحدة، وحفر أهل الركب بئراً أخرى، أقمنا فيها يوماً لرعي الجمال"، كما اشتهرت بعض تلك العيون المائية المحفورة باسم "عيونات الحجاج"³.

وإذا ما حدث وأزحّت السماء عزاليها، وانهمر المطر أو "المياه السماوية"، فرح الحجاج بذلك فرحاً شديداً، أغناهم عن تتبّع معادن المياه، ومخاطر الازدحام عليها. ذلك ما عبّر عنه الرحالة الورثلاني في الحالة التالية: "... منذ ظعننا ونحن على المياه السماوية، وقد استغنينا عن جميع المعادن، والحمد لله على ذلك"⁴.

02. تباينُ التضاريس الجغرافية ومشقّة اجتيازها:

تأتي الجبال على رأس المظاهر التضاريسية الصعبة التي كانت تُعيق حركة الحجاج، لذا فقد كان الركب يحاول أن يتفادى المرور بها قدر المستطاع، فيتطلّب الأمر الدوران حولها واستهلاك أوقات إضافية، أو يضطر إلى أن يسلكها ولكن بمشقة فادحة. ومن أشدّ الجبال قسوةً على الركب في مبتدأ سفره جبال البيان في منطقة القبائل الصغرى الجزائرية، التي وصفها الرحالة المكناسي بأثما

¹ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص235.

² - سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص254.

³ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص31.

⁴ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص12.

".... بيانٌ (أي أبوابٌ) حقيقية، لأن الطريق تمرّ بين جبال في وسط نهر، وربما تدنو الجبال بعضها من بعض حتى لا يبقى إلا مجرى الوادي في أضيق ما يكون كأنّه الباب"¹. إضافة إلى الجبل الأخضر وجبال الهاروج في البلاد الليبية.

وبرقة الليبية أصعب المفازات على الإطلاق، فهي في مجملها قفار، أكثرها رملٌ ووحلٌ وسباح، تنتهي على التماس بين أرض طرابلس (ليبيا) وأرض مصر بعقبة "درنة"، وهي "العقبة الكبرى" التي يحسب لها الحجاج الجزائريون ألف حساب، لأنها طريق صعبة لا مناص من عبورها، تُعيقهم كثيراً ويصعب فيها السير، مما قد يستغرق زمنا طويلا على حسب قوة وتحمّل الرواحل². وبرقة أصعب ما تكون في الشتاء، بسبب الوحل والطين الذي لا تألفه الإبل.

وهناك مرتفعات وعقبات من نوع آخر واجهت الحجاج، ألا وهي سلسلة العروق والكثبان الرملية. روافد الصحراء الكبرى. التي عبّر عنها الرحالة التتلائي بالقول: ".... وسرنا في جبال من الرمل صعبة المرتقى إلى قرب الاستواء"³. إنَّها رمالٌ على مدِّ البصر أحيانا، يَحَارُ النظرُ في كثرتها وطغيانها، ويُقاسي الحجاج منها شدّة، وتلقَى الإبل أضعاف ما يُلاقونه بسبب الرياح، فيعلم المرءُ عندئذٍ حُسنَ مبالغة القائل: اللهم صلِّ على سيّدنا محمدٍ عددَ الرّمال⁴!

أمّا الشّعاب الضيقة المتلفة للأنفس فيكفي أن نوردَ بشأنها تعليق أحد الحجاج الجزائريين الرحالين، حيث قال: ".... ثمّ دخلنا في شعبة ضيقة أشدّ من جميع ما سبق، نلتوي فيها نحو ثمان لِيَّات (انحناءات)، تارة نستقبل الشمس وتارة نستدبرها، وتارة نغادرها ذات اليمين، وتارة نغادرها ذات الشمال إلى قرب القايلة، فنزلنا على ماء...."⁵.

لقد جسّد دربُ الحجاز المقطع الأخير من طريق الحج معاناة الحجاج مع الطبيعة من جميع الأوجه، إذ ليس فيه زروع خضراء أو طير أو حيوان، لا شيء سوى الصحراء والحجارة⁶! كما أنّه

¹ - محمد المكناسي، المصدر السابق، ص 329.

² - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج 03، ص 233.

³ - عبد الرحمن التتلائي، المصدر السابق، و 08.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 107.

⁵ - عبد الرحمن التتلائي، المصدر نفسه، و 07.

⁶ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 75.

أنَّه يجوي أرض التَّيِّه المَقْفِرَة الموحِشَة، الطويلة العريضة المعطِشَة، وهي محلٌّ من المحال التي تعظم فيها المشقة أيام الحرِّ، وقد تَلَفُ فيها أنفُس كثيرة بالعطش، وكذا يشتد أمرها في زمان الشتاء، لأنَّها أرضٌ عراء لا حطب فيها، وقد تزهق فيها الأرواح من البرد أيضاً¹. وفي شمالِ الدرب توجد السبخات والشطوط التي تعترض طريق الركب، وهي مناطق رخوة تغوص فيها أخفاف الإبل، ويعبرها الحجاج جماعةً، لأنَّ أثر العابر الفرد يكاد يَمَحِّي، فيصعب تمييزه.

وينفرد درب الحجاز بوجود محطة "عقبة أيلة"، العقبة الهائلة شديدة الانحدار التي يُضرب بها المثل في الوعورة، وأيضاً في شدة الخوف، لأنَّ قبائل تلك الأرض تتعرض للأركاب فيها، ولا سيما الركب المصري المحمَّل بالعطايا والمعدات². وما أَلطفَ وصفَ أحد الحجاج لتلك العقبة الشهيرة، حين قال³: (مجزوء الوافر)

يُقَاسِي رُكْبُنَا نَصَبَهُ وَنَالَ الْقَلْبُ مَا طَلَبَهُ
وَأُطْلِقْنَا مِنَ الْعَقْبَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ

وذلك فضلاً عن عقبات أخرى شبيهات بتلك العقبة، يقعن في درب الحجاز أيضاً، يُعرفن بـ "الوعرات السبع"، أصعبهنَّ الأولى والأخيرة.

المبحث الرابع: اجتيازُ الركب للتحديات ووصوله إلى الحجاز

01. معاناة الحجاج بسبب مستجدات الأوضاع:

لم تكن أوضاع الولايات العثمانية التي يجتازها ركب الحج الجزائري في أحسن حال، وذلك بسبب الاضطرابات السياسية، والفتن الداخلية المتجددة. والأدهى من ذلك المخاطر الخارجية المترتبة بسواحل البلاد المغاربية خاصة، وبلاد المسلمين عامة. فـ "... البحر بأفلاك الكفرة ملتان، والبرُّ بسواحله في غاية الدُّلِّ من عبدة الصُّلبان"⁴. حسب توصيف أحد الرحالة - وذلك رغم قيام الخلافة الإسلامية العثمانية، وضمِّها للأقاليم العربية، ومحاولات سلاطينها وولاة إيالاتها توفير الحماية للحجاج والرعايا في حلِّهم وترحالهم. فهذا الرحالة المقرِّي التلمساني يُقرُّ - وهو في

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص162.

² - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و06.

³ - عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج02، ص113.

⁴ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص84.

طريقه إلى الحج - بجهود السلطان العثماني سليمان القانوني (ت 974هـ/1566م)، وبمكاته بين ملوك العصر قائلًا¹: (الرملة)

أَعْنِي سُلَيْمَانَ الزَّمَانَ الَّذِي لَهُ مُلُوكُ الْعَصْرِ طُرّاً عَيْدُ
لَا بَرَحَ السَّعْدُ لَهُ خَادِمًا مَا سَارَ فِي الْأَفْلاكِ بَحْمٍ سَعِيدُ

غير أنّ ولاية الأقاليم الأتراك خالفوا أحياناً توجهات سلاطينهم، فمثلاً قام والي بولاق (نواحي القاهرة) بالتعدي على ركب الجزائر، حيث أمسك جماعة من الحجاج وألقاهم في السجن، ولم يُخل سبيلهم إلا بعد أن أخذ منهم بعض المال، وكان حجزهم بسبب وشاية كاذبة من "الشيالين" (الحمالين). غير أنّه لم يكن بمقدوره فعل ذلك - كما يروي الرحالة الورثلاني - لولا انزعال هؤلاء الحجاج عن الركب، وارتياذهم أسواق المدينة، إذ لا يجروّ هو أو غيره من الولاية الأتراك على المساس بهم داخل الركب، وذلك لقوة الركب، وشدّة الحجاج وتلاحمهم².

وقد تعرّض حجاج جزائريون في أحد المواسم للمضايقات والمساومات من طرف أحد المماليك بمصر، وذلك طمعاً في الحصول منهم على المال، ثمّ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى جمعه من الموسرين منهم، ودفعه له من باب المدارة³. كما تعرّضوا في موسم آخر إلى التعطيل والإهانة قبل ولوجهم الأراضي المصرية، من طرف عامل إقليم البحيرة (في صعيد مصر)، المدعّم بعدد كبير من الجنود الأتراك، وذلك بحثاً عن أحد القادة الكبار، الذي كان عُزل من منصبه في ما مضى ولجأ إلى الجزائر، فأوقف الجنود الأتراك ركب الجزائر عن المسير لساعات، وفتّشوا أعداداً كبيرة من الحجاج، وما استطاعوا من المتاع، ".... بل فتّشوا حتى الدرابك والمحابر، فلم يقفوا له على خبر، في حافر ولا وبر"⁴! - كما نقل رحالة شهد الحادثة - وذلك حال بعض ولاية الأقاليم الذين أعماهم الطمع، فأصبحوا لا يميّزون بين الحجاج وبين غيرهم.

وأصعبُ مواسم الحج التي عانى خلالها الحجاج كانت أواخر العهد العثماني، فقد وصل الحجاج المغاربة إلى مصر عقب الحملة الفرنسية سنة 1213هـ/1798م، فتقوّلت العامة بشأنهم،

¹ - أحمد المقرئ، رحلة المقرئ، مصدر سابق، ص 159.

² - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 02، ص 145.

³ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص 73.

⁴ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و 54.

وبأئهم إنما جاؤوا لأجل جهاد الفرنسيين وإنقاذ مصر منهم؟ فارتاب الفرنسيون منهم وأرسلوا إليهم جماعة ينظرون في أمرهم، لكنَّ الحجاج المغاربة نفوا تلك الدعاوى جملة وتفصيلاً¹. ومن أسباب توجُّس الفرنسيين من الحجاج كذلك أنَّ "ابن الأعرش" - الثائر على أتراك الجزائر مطلع القرن 13هـ/19م - كان قد جمع حوله بعض الجزائريين والمغاربة لقتال الفرنسيين في ضواحي القاهرة، فأثرت شوكتهم فيهم، وأصبح له صيت وهيبة في مصر².

ومن طوارئ طريق الحج معاناة الحجاج الجزائريين بسبب الصراع المرير بين محمد علي باشا والمماليك في مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها، لأنَّ من عادة الركب المكوث مدة طويلة نسبياً في هذه المحطة. وفي الحجاز ألقَّت الحرب بين أمير مكة والوهابيين بظلالها على الحجاج، فقد رغب الشريف "غالب" أمير مكة - وقتئذٍ - في تجنيد الحجاج المغاربة وضمَّهم إلى معسكره جبراً، فامتنعوا، ووصل الأمر إلى أن دافع الحجاج عن أنفسهم بالسلاح³.

بالإضافة إلى تلك المستجدات والحوادث التي لا شك أنَّها أثرت سلباً على معنويات الحجاج، كان الركب الجزائري يتعجَّل في كل موسم الخروج من مصر، بسبب المهرج والفتنة بين الحجاج الجزائريين من جهة والحمَّالين المصريين من جهة أخرى، فكلُّ طرف أضحى يتوعَّد الطرف الآخر بحبسه وضربه إنَّ هو اقترب من منطقتهم. ذلك كلُّه بسبب طمع الحمَّالين، واتهامهم للحجاج بعدم دفع مستحقَّاتهم كاملة، وشتيمهم وإذابتهم لهم في الطريق⁴! وفي المحصلة فإنَّ طريق ركب الحج من الجزائر إلى الحجاز لم تخلُ أبداً من الإكراهات أو المستجدات والتحديات.

02. إقامة الركب الجزائري بالحرمين الشريفين وتبعاتها

على الرغم من جميع تلك الظروف الأمنية السيئة، ومن التقلبات السياسية الحادة، وكذا المعيقات الطبيعية القاسية المرهقة للعزائم، فإنه بمجرد ما أن تقع أبصار الحجاج الجزائريين على أمارات بلوغ الحرمين الشريفين، يمَّحي كلُّ أثرٍ للتعب والإرهاق، وتصبح تلك الأيام الشديدة الطوال نسبياً منسياً، وكأنَّما وُلِد كلُّ حاجٍّ من جديد في تلك المعاهد الشريفة الطيبة.

¹ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج03، ص93.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص85.

³ - المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص283.

⁴ - الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج02، ص88.

أ - مكوثُ الركبِ الجزائري بمكة المكرمة لأداء المناسك:

كانت أركاب الحج الأربعة الكبرى تصلُ إلى مكة المكرمة تباعاً - على عاداتها - في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة، فيصلُ المصري أولاً لأنَّه يسوق الحمل وكسوة الكعبة المشرفة، ثمَّ يدخل المغربي (بما فيه الجزائري) في اليوم الذي يليه، ثمَّ الشامي، وأخيراً العراقي، وتُسارع إلى كراء البيوت من أهل مكة، وتَمَلأُ خيامُها - رغم ذلك - السَّهْلُ والوعر من أرجاء مكة المكرمة¹.

عندما يقع نظر الحجاج الجزائريين على الكعبة المشرفة للمرة الأولى يتدبرون فيها، وأعينهم تفيض من الدمع مهابةً وخشوعاً². وبعد أداء طواف القدوم والسعي يبدأ الاستعداد للخروج إلى المشاعر، مع ملاحظة أنَّ الركب الجزائري كان يحرص على أن يكون خروجه من مكة إلى منى في اليوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)، قدر ما يُدرك بها الظهر، ويصلي فيها ويبيتُ بها. خلافاً لأركاب مغربية أخرى كانت تخرج في اليوم السابع، بدعوى الخروج لعادةٍ مستحدثة أطلقوا عليها اسم "التسبيع"³؛ لكنَّ الركب الجزائري أصبح يتجاوز سنَّة المبيت بمنى ليلة التاسع لظروف أمنية، ولأنَّ جميع أركاب الحج الأخرى لم تُعدَّ تنزل بها، بل تذهب إلى عرفات مباشرة⁴.

وفي صعيد عرفات يجتهد الحجاج في الدعاء والاستغفار، ويتأكدون من صحة نُسك وقوفهم بعرفة الركن الأعظم في الحج، ومُطابقتهم للسنَّة. يقول الرحالة التلاني عن ذلك الموضع: "... ووقفنا على إبلنا اغتناماً لبركة سنَّة نبيِّنا - صلى الله عليه وسلم - ولم نزل في موضعنا ذلك واقفين مستغفرين مكبرين مهلِّلين داعين، إلى أن غربت الشمس وتحقَّقنا أنَّنا أخذنا جزءاً من الليل"⁵. كما كانت فرحة الحجاج تتضاعف إذا ما صادف وقوفهم بعرفة يوم الجمعة.

وتتوالى بعد ذلك إفاضة أركاب الحج المزدحمة بانتظام، من عرفات إلى المزدلفة، للمبيت بها والتقاط جمار العقبة تباعاً، الركب الشامي فالمصري فالمغربي وغيرها. وتمثُر جميع الأركاب بين "المأزَمِينَ العَلَمِينَ"، وهما بناءً ان مرتفعان، أحدهما عن يمين الطريق والآخر عن اليسار، يُوصَلان إلى

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 315.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 45.

³ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 02، ص 269.

⁴ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و 55.

⁵ - المصدر نفسه، و 56.

المشعر الحرام¹، حيث يقف الحجاج فيه قليلاً بعد أداء صلاة الفجر بالمزدلفة، داعين ومستغفرين ومكبرين ومهللين، ثم ينتقلون أخيراً إلى مشعر منى.

والمتعارفُ عليه أن يظلَّ الركب الجزائري في منى لثلاثة أيام، يوم عيد الأضحى ويومين فقط من التشريق، ثمَّ يعود الحجاج إلى مكة المكرمة مرة أخرى لإتمام بقية المناسك². وفي أحد المواسم وبعد أن أخذ الناس في الرحيل متعجلين، وتعجَّلت معظم الأركاب، وطويت الأخبية والخيام، لم يبقَ في منى إلا ركبُ الجزائر وبعضُ أهل البصرة والأحساء، مغتنمين السعة للصلاة في مسجد الخيف (أو مسجد الأنبياء)، وباتوا هناك آمنين رغم وجود اللصوص في ذلك الوادي³.

كانت العادة المتأصلة أن يُنادي حكامُ مكة المكرمة على أثر الفراغ من الحج مرددين: "يا أهل الشام شامكم ويا أهل اليمن يمنكم...."⁴، داعين الحجاج جميعاً إلى مغادرة مكة والعودة إلى بلدانهم. ففي سنة 971هـ/1563م صدر مثلاً (مرسوم) سلطاني مضمونه أن لا تزيد إقامة الركب المصري والأركاب المغاربية بمكة عن ثمانية عشر يوماً من ذي الحجة، وأنَّ الركب الشامي نهايةً إقامته إلى الرابع والعشرين منه، ومن امتنع من الحجاج أُخرج عنوه⁵؟

بعد الانتهاء من المناسك كلها يشرع ضيوف الرحمن في مغادرة مكة المكرمة، بأعدادهم الهائلة التي لا تقلُّ عن سبعين ألف حاجٍ (70000) كلَّ موسم⁶. وهي أعداد ضخمة نسبياً، إذا ما قارناها بمجموع المسلمين العام، وبظروف السفر إلى الحج في ذلك الزمان.

ب - زيارة الركب للمدينة المنورة وظروفها:

رغم أنَّ مناسك الحج والعمرة إنما تُؤدَّى في مكة المكرمة، إلا أنَّ الركب الجزائري لم يكن ليُغادر الحرم المكي دون أن يوليَّ وجهه شطرَ الحرم المدني. لكونِ الزيارة سنَّةً مؤكَّدةً مجمَّعاً عليها، وفضيلةً مُرغَّباً فيها، وقد قال بعض العلماء: أجنفى الناس من حجِّ ولم يُزر قبر المصطفى - صلى الله

¹ - محمد المكناسي، المصدر السابق، ص265.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص62.

³ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص287.

⁴ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص400.

⁵ - عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج01، ص726.

⁶ - جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص59.

عليه وسلم¹. لكنَّ سوء تدير أمراء الحج تسبَّب في الحيلولة دون ذلك في مواسم معدودة، ففي موسم 1198هـ/1784م وفي الذي أعقبه لم يتمكن الراكب المصري من زيارة المدينة المنورة، والسبب هو: "طمع أمير الحاج في عدم دفع العوائد للعرابن وصُرة المدينة"²!

وتنتظَّم أركاب الحج في ذهابها إلى المدينة المنورة، فينطلق المغاربي ثمَّ المصري فالشامي، وذلك لِتلافي الزحمة والخلاف. وتمرُّ بجزءٍ من طريق الدرب الذي قدِمَتْ منه، وبعد أن تصل "بدرًا" تميل عن طريق مصر، مارَّةً بالمواضع التالية: الصفراء، والجديدة، والروحاء، وأبيار علي، إلى أن تدخل المدينة المنورة³. عندئذ يسود الفرح وتعلو الأصوات في الراكب، إثر معاينة الحجاج المسجد النبوي وقُبَّة الهادي المصطفى - صلى الله عليه وسلم -.

وبعد التطهُّر والتطيب يقصد الحجاج الجزائريون المسجد النبوي للصلاة والسلام على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى صاحبيه، ثمَّ زيارة مقبرة البقيع وشهداء أُحُد والمساجد التي يُستحبُّ زيارتها. ولا يُقيم الحجاج الجزائريون بالمدينة المنورة سوى فترة قصيرة، لا تتعدى عشرَ ليالٍ في أفضل الأحوال⁴. وعند مغادرة الراكب للمدينة المنورة يشقُّ على الحجاج الجزائريين الفراق والوداع، ويتمنَّون ويتمنَّون البقاء في تلك البقاع. يعبرُ الرحالة المُقري عن ذلك المشهد قائلاً: "... ظهر من الشوق ما كان بطن، ولم يخطرُ ببالنا سَكَنٌ ولا وطن، ويا سعادةً من أقامَ بتلك البقاع الشريفةِ وقطن⁵".

خلاصة الفصل الثالث:

من خلال ما استعرضناه من مباحث هذا الفصل نستنتج أنَّ مسارات ركب الحج داخل الإقليم الجزائري كانت بمثابة منافذ، يسلكها الحجاج الجزائريون للوصول إلى الطريق الرئيسية الخارجية، وهي الطريق المحاذية للبحر الأبيض المتوسط، مروراً بتونس وطرابلس الغرب ومصر. بينما استُخدمت الطريق الجنوبية الصحراوية عبر إقليم فزان من قِبَل حجاج الصحراء الجزائرية.

¹ - تذكر بعضُ المصادر حالةً غريبةً نادرةً لم تتم فيها زيارة المدينة المنورة من طرف ركبٍ مغاربي، يتعلَّق الأمر بجماعةٍ من طرابلس الغرب، حجُّوا ورجعوا إلى بلادهم من غير زيارة المدينة المنورة؟ فانعقد بسبب فعلهم مجلسٌ علماء طرابلس، وحكموا عليهم بالرجوع إلى الحجاز وأداء الزيارة قهراً، فرجعوا. ينظر: الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج2، ص378.

² - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص147.

³ - محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص148.

⁴ - الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و02.

⁵ - أحمد المُقري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج01، ص48.

ويحطُّ الركب الجزائري خلال سفره الطويل في أكثر من اثنتين وأربعين محطة خارجية معهودة، ما بين الجزائر والحجاز، وذلك من أجل الراحة واستجماع القوى وتجهيز أفراده بما يحتاجون. وتتميّز الإيالة المصرية بطول مكوث الركب الجزائري بها، حيث يتمّ إعداد العُدّة لما تبقى من الطريق، ومصاحبة الركب المصري الضخم، عندما يخرج من القاهرة في احتفالات رسمية وشعبية أواخرَ شهر شوال من كلّ سنة. فتسير الأركاب المغاربية والمصري في المقطع الأخير الصعب المسمى "درب الحجاز"، وتسلك بنادره (منازله) الثابتة تبعاً إلى أن تصل إلى مكة المكرمة.

إنَّ أكبر خطر كان يتهدد الحجاج في رحلتهم الطويلة الشاقة هو الاعتداء على ركبهم وسلب أموالهم وأرزاقهم من طرف بعض قبائل البدو الرحل، التي أصبحت تفرض عليهم ما اعتبرته "عوائد الطريق" مقابل عدم التعرّض لهم بسوء. لقد سادت تلك الممارسات المشينة بأساليبها الماكرة جلَّ مقاطع الطريق، وبصفة خاصة في درب الحجاز، ولم يجد الحجاج سبيلاً لدرئها سوى جهودهم الخاصة في حماية ركبهم، في ظلّ عجز الدولة العثمانية عن تأمين جميع المسالك.

لم تكن تلك الاعتداءات البرية وكذا البحرية ما يشغل بال الحجاج فقط، بل أُضيفت لها إكراهات الطريق الطبيعية، من بُعدٍ وبردٍ وحرارةٍ وعطش، وتضاريس شاقّة يصعب على الرواحل اجتيازها. كلّ ذلك جعل الحجاج يأخذون احتياطاتهم للتأقلم مع ظروف الطبيعة القاسية من موسم لآخر، ويُدعون في إيجاد أساليب ناجعة لمواجهة مستجداتها.

وعلى ذكر المستجدات فإنّ رحلة الحج الطويلة كانت محاطة في ذلك العهد بجملةٍ من التحديات والصعوبات، منها تحمّل الحجاج لتقلّبات الحكم والسياسة في الأقاليم التي يمرّون بها، وتعرّضهم للتضييق والمعاملة غير اللائقة من طرف بعض الولاة العثمانيين، وتأثرهم بتطور الأحداث السياسية في الأقاليم المشرقية، مثل الحملة الفرنسية على مصر والحرب العثمانية على الوهابيين. كلّها صعوبات كان الركب الجزائري ينجح في تجاوزها، فيصلُّ إلى مكة المكرمة ويؤدي مناسك الحج، ثم يرتحل إلى المدينة المنورة لأداء الزيارة، في جوٍّ مفعم بالشوق والسكينة.

الفصل الرابع: التواصل الاجتماعي في رحلة الـركب وظروف عودته

- تمهيد

- المبحث الأول: خطُّ عودةِ الـركب إلى الجزائر ومميزاته

- المبحث الثاني: ركبُ الحجِّ والنشاط التجاري

- المبحث الثالث: العلاقات الاجتماعية البينية وأبعادها

- المبحث الرابع: تواصلُ الـركب الاجتماعي الإنساني مع مجاله

- المبحث الخامس: عاداتُ استقبال الـركب ودوره في الإخبار

- خلاصةُ الفصل الرابع

الفصل الرابع: التواصل الاجتماعي في رحلة الركب وظروف عودته

بعد التطرق إلى ما ارتبط بالطريق والإكراهات المحيطة بها المواجهة لركب الحج الجزائري، يُخصّص هذا الفصل الرابع لاستقصاء النشاط الاجتماعي الإنساني، سواء البيئي أو التفاعلي المصاحب للركب طيلة رحلته، والظروف المحيطة بعودته إلى الجزائر. بدءاً بالمتغيرات الحاصلة على خطّ سير العودة من الحجاز إلى الجزائر، وما يتميز به نزول ركب الحج في محطات الطريق أثناء رجوعه، مقارنة بنزوله فيها أثناء طلوعه، مع إبراز بعض المستجدات الحادثة في رحلة العودة.

ثمّ نفضّل في المبحث الثاني في حيثيات النشاط التجاري المقترن برحلة الحج ذهاباً وإياباً، وفي متلازمة "حجاج - تجار"، وهل تجلّت في مسار الركب الجزائري إلى الحجاز؟ بما أنّ ركب الحج سوقٌ متنقلة في حدّ ذاته. وكيف ساهمت الأسواق الموسمية المنعقدة بمناسبة موسم الحج بالطريق والمحطات الرئيسية في تيسير أعباء السفر على الحجاج، وإيجاد فضاء للتواصل بين الحجاج ومرتادي الأسواق. مع التركيز على البضائع الرئيسية المتداولة في نشاط ركب الحج بيعاً وشراءً.

ويُعرّج المبحث الثالث على العلاقات الاجتماعية البينية فيما بين الحجاج عناصر "مجتمع الركب"، والتي من أهمّ مظاهرها قيم التعاون والتضامن فيما بينهم، وكيف انعكست تلك القيم على التعامل مع حالات الوفاة التي أصابت بعض الحجاج؟ إضافة إلى إبراز بعض السلوكيات والممارسات السيئة المتنافية مع رحلة الحج المقدسة، وكيف تعامل معها ركب الحج؟

أمّا المبحث الرابع فنخصّصه للحديث عن الأبعاد الاجتماعية الإنسانية التي يُجسّدها ركب الحج الجزائري، وذلك من خلال تواصل الحجاج المباشر مع فضاء الرحلة إلى الحج، سواء كان ذلك في المدن والحوضر التي يحطّ فيها الركب لأيام معدودات، أو كان ذلك في القرى والبوادي والبنادر التي ينزل بها الركب لفترات معدودة. وإلى أيّ مدى كان يتمّ التواصل بين الحجاج الجزائريين وساكني تلك المحطات أو المنازل؟

وأخيراً سنختتم هذا الفصل بماهية العادات التي كانت تتمّ في قرى الجزائر ومدنها فرحاً بعودة ركب الحج؟ وبالمخاطر الصحية التي كانت تهدّد الركب في عودته إلى الجزائر، خاصة انتشار الأوبئة والأمراض بسبب حركة تنقل آلاف الحجاج عبر العديد من المحطات؟ وما موقف الحجاج من

ظاهرة الحجر الصحي المحدث في البلاد الإسلامية أواخر العهد العثماني؟ وما طبيعة الدور الذي غدا ركب الحج يؤدّيه في نقل أخبار المشرق إلى بلاد المغرب؟

المبحث الأول: خطُّ عودة الركب إلى الجزائر ومميزاته

01. مشاعرُ فراقِ الحرمين والرغبةُ في المجاورة بهما¹:

إذا ما أتمَّ ركب الحج الجزائري مناسكه وزياراته بكلِّ سكينة وتؤدة ووقار، آبَ من الحرمين الشريفين إلى الوجهة الغربية، حيث المبدأ والمنطلق. حينها كان ينتابُ الحجاج شعورٌ بالراحة النفسية والفرح والفخر. فهناك يستصغرون ما قاسوه في طريقهم من المحن والشدائد، في جنبٍ ما حصل لهم من النعيم والفوائد، سائلين الله - عزَّ وجلَّ - أن "لا يجعله آخرَ العهد بتلك الأماكن المعظمة والمشاعر المحترمة"² - حسبما جاء في دعاء وابتهاال أحد الحجاج -

لكنَّ مغادرة المدينة المنورة وتوديع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمرٌ كان يشقُّ على الحجاج الجزائريين، حتى أنَّ منهم مَنْ علا صوته بالبكاء والعيول، وبدا عليهم أثرُ الحزن الشديد وعِظَم "مصيبة" الفراق، ولم يُواسيهم في تلك الحال إلا يقينهم بأنَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد انتقل من دار الدنيا وفارق أصحابه ومحبيه³.

وتغمَّر المشاعرُ الجياشة الحجاج الجزائريين ومن رافقهم في الركب، فهذا حاج أيرلندي - عانى من العبودية في اسبانيا وفرنسا ثمَّ أسلمَ في الجزائر - يُعرب عن سعادته بعد أدائه الحج ضمن الركب الجزائري قائلاً: "إنَّ الله تعالى نجاني من جهنم على الأرض، ومكَّنني من الوصول إلى جنَّته على الأرض، بزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة"⁴! ولا ينسَ الحاج الجزائري أن يحمل معه في رجوعه الكفن المبلَّل بماء زمزم، يحملهُ معه أينما ذهب براً أو بحراً.

¹ - المجاورةُ بالحرمين الشريفين تخصيصاً يُرادُ بها المقامُ بهما أو بأحدهما مُطلقاً، غيرَ ملتزمٍ بِشرائطِ الاعتكاف الشرعي، والمجاورة بالحرمين الشريفين سلوكُ اعتاده الجزائريون بعد أدائهم للحج لقرون متوالية، وخاصة الأعلام العلماء منهم. ومن أشهر الحجاج الجزائريين الجاورين قبل العهد العثماني: عبد الوهاب بن يوسف الجحائي (القرن 13/هـ 13م) وعبد الله بن محمد بن موسى البسكري (القرن 14/هـ 14م) وأبو عصيدة الجحائي ومحمد بن عمر الهواري الوهراني (القرن 15/هـ 15م).... يُنظر: عادل نويهض، المرجع السابق. أيضاً: ابن منظور، المصدر السابق، ص724.

² - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و61.

³ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص113.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص70.

وكان عددٌ قليل من الحجاج الجزائريين يُفضّلون البقاء بالحرمين الشريفين بعد أداء مناسك الحج، والشروع في المجاورة أو الجوار، لأسباب ودوافع متباينة، من ضمنها الرغبة في التمتع برؤية زيارة الأماكن والمشاهد المستحبّ زيارتها في الحرمين الشريفين، ريثما يقدم ركب الحج في الموسم الموالي على الأقل! لأنّه "لا يحصلُ كمالُ التفتيش والبحث عن الأماكن المشرفة إلا بالمجاورة، إذ لا يزول الاشتياق إلى تلك المعاهد إلا بطول المكث فيها"¹. ذلك ما عبّر عنه أحد الحجاج الجزائريين بلسانِ الدّارج في الأبيات التالية²: (الرجز)

يَا الرَّكْبَ اللَّيِّ مَاشِي لِيَهْ بَلَّغْ سَلَامِي عِنْدَكَ لِيَهْ
رَإِنِّي أَنَا نَاوِي لِيَهْ كَانَ جَاذَ اللَّهِ عَلَيَّ
نُجَاوِرُو وَنَعُوذُ مِنْ أَهْلِ الْهَاشِمِيِّ قُرَّةَ عَيْنِي

وإنّ كُنّا نجد بعض الحجاج الجزائريين يُظهرون نواياهم في المجاورة قبل موعد سفر الركب ومغادرة المدينة المنورة، فإنّنا نجد آخرين كانوا ينوون المجاورة منذ خروج الركب من الجزائر، فيطلبون من الله عزّ وجلّ أن يُيسّر لهم ما فيه الخيرة لهم، بالمشارك أو بالمغرب³. ومن نماذج التعلّق بالحرمين الشريفين أنّ حاجاً جزائرياً أصرّ على المجاورة رغم رفض أصدقائه الحجاج لذلك، لكونه ترك زوجته وحيدة في البلد، فتحجّج ذلك الحاج بأنّه سيبحث إليها مع الركب العائد ما تُنفقه حتى يرجع إلى الجزائر، وإنّ هي أبّت وأرادت التزويج فلها ذلك!⁴

لكنّ مرارة البعاد، وشدة الاشتياق إلى الأهل والوطن بعد طول الغيبة، وما يجده بعض الحجاج من ألم النوى، كل ذلك كان يدفع بمن جاور لفترة من الزمن إلى قطع الجوار، وتحديد العهد بالسفر، والرجوع إلى الجزائر مع ركب الحج في الموسم الموالي. رغم ذلك تلقاه يُغادر الحرمين الشريفين وخاطره يملؤه الشوق والحنين إلى معاهدهما، التي لم يمض بعد زمنٌ طويل على مفارقتها. ولسان حاله يقول: (البيسط)

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَجِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج03، ص64.

² - أحمد أبا الصافي جعفري، المرجع السابق، ص167.

³ - أحمد المقرّي، نفع الطيب، مصدر سابق، ج01، ص32.

⁴ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج03، ص114.

02. التغيرات الحاصلة في خط سير العودة:

تتميز رحلة عودة الركب الجزائري (أو الرجعة) بانحسار بعض مظاهر المشقة، وانخفاض حجم الأموال التي كان يُنفقها الركب على المعاش والكراء، وكذا بانخفاض المعدل الزمني في قطع المسافات والمراحل مقارنةً مع رحلة الذهاب (أو الطلعة). وذلك بسبب لجوء الحجاج إلى اعتماد السرعة والعجلة، مجسدين مثلاً شائعاً بينهم، يحضُّ على السير كثيراً، والنزول لأجل النوم قليلاً، إلى غاية الوصول إلى مدينة قابس من البلاد التونسية، ومُعَاينة منارِتها المشهورة من بعيد، الدالة على الوصول إلى بلاد إفريقيّة (تونس). يقول الحجاج في ذلك المثل¹: (الرجز)

لَا نَوْمَ لَا نَوْمَ وَلَا قَرَارًا حَتَّى أَرَى قَابِسَ وَالْمَنَارَا

وتبدأ مسيرة عودة ركب الحج بالتوجُّه من المدينة المنورة إلى مصر براً، حتى وإن كان الجيء إلى مكة المكرمة قد تمَّ بحراً عبر ميناء جُدَّة. ومَّا جرت به العادة أن يسبق الركب الجزائري رفقةً بقية أركاب بلاد المغرب الركب المصري في طريق درب الحجاز، خلافاً للذهاب حيث المصري هو الذي يسبق ويتخلف المغاربي وراءه. لذلك كان الركب الجزائري يخرج من المدينة المنورة على عجل، بسبب الخشية من "ضغط" الركب المصري له².

وقد حدث في أحد مواسم الحج أن أصرَّ الركب المصري على التقدُّم بعد مغادرة المدينة المنورة، فاجتمع أمراء أركاب: الجزائر وطرابلس وتافيلالت (سجلماسة)، واتفقوا على أن يكون السُّبِق كالعادة في الرجوع، وتعاهدوا على ذلك، رغم امتعاض أمير الركب المصري وغضبه³، لخشيتته - على ما يبدو - من سبق ثمَّ استئثار الأركاب المغاربية بآبار وبنادر درب الحجاز دونهم. أمَّا المغاربة فإنهم أصبحوا يُدركون حجم المخاطر الأمنية التي يمكن أن تعترضهم، إن هم صحبوا الركب المصري، بسبب حروب أمرائه المتكرِّرة مع قبائل البدو في الطريق. ويعلمون أنَّ الحل البديل والأمثل في رحلة العودة هو أن تخرج الأركاب المغاربية مجتمعة في ركبٍ كبير، لتتقوى ببعضها على قبائل "الأعراب" المنتشرة في الطريق⁴.

¹ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 684.

² - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و 03.

³ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 02، ص 373.

⁴ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص 127.

رغم ذلك سجلنا حالاتٍ رافقَ فيها حجاج مصريون الركب الجزائري بعد مغادرة المدينة المنورة، وفرح أهالي الحجاج المصريين بوصول الركب الجزائري رفقة أبنائهم إلى مصر آمنين. كما أنّ عدداً من الحجاج المصريين الفلاحين كانوا يخرجون مع الركب الجزائري منذ مغادرته لمكة المكرمة، لكنهم ينفصلون عنه في محطة بدر، متوجهين نحو ينبع، عائدين إلى بلادهم مباشرة! في المقابل عرضَ أمير حجاج قبائل صعيد مصر على الركب الجزائري - بعد الحج - مرافقته في درب الحجاز، فقَبِلَ الجزائريون، وأكرمهم المصريون طول الطريق¹. ذلك رغم ما اشتهر من وجود الشحناء والشنآن بين الركب الجزائري والركب المصري الرسمي.

ومن الحالات النادرة أن يكون سفرُ الركب الجزائري - مع الأركاب المغاربية الأخرى - رفقةَ الركب الشامي، فيقصدون الشام بدل مصر! حدث ذلك في مواسم الحج المتزامنة مع الحملة الفرنسية على مصر، حيث حجَّ بعض المغاربة ثمَّ عادوا مع الركب الشامي، لأنَّ الركب المصري لم يحجَّ². ومن حسنِ حظِّ الحجاج الجزائريين العائدين في مقطع درب الحجاز التقاؤهم دورياً بـ"الملاقية"³ في بندرٍ أو محطة المويلح، وهم يتقدمون قافلة كبيرة آتيةً من مصر، اعتاد الحكام على إرسالها إلى هناك، مصحوبة بالعساكر، ومحمَّلةً بالطعام والبشماط والدقيق والبول، فيشتري منها الحجاج الجزائريون ما يحتاجون إليه بأسعار زهيدة⁴.

كانت العادة أن يقطع الركب الجزائري درب الحجاز ويصل إلى مشارف القاهرة بعد مسير أربعين يوماً، يكون السير فيها بالليل في بعض الأحيان⁵. فيدخل مصر مع مستهلِّ شهر صفر من كل سنة. وينزل الركب في إيباه ببركة الحاج مثلما خرج منها في الذهاب، ومن البركة ينتقل إلى مدينة القاهرة مباشرة⁶. وقد يتأخَّر الحجاج في دخول مصر إلى ما بعد النصف من صفر، نظراً

¹ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و42.

² - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج03، ص131.

³ - الملاقية: هي البعثة الرسمية السنوية المرسلة من طرف حكام القاهرة لملاقاة الحجاج المصريين والمغاربية، عند محطات: العقبة، الأزلم والمويلح، ومعاونتهم في رحلة عودتهم، وإمدادهم بما يلزمهم من مؤن وملابس وعَلِّيق. يُنظر: أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص48.

⁴ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص136.

⁵ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص66.

⁶ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و20.

لبعض الطوارئ أو المعوقات. وهي كلها مواعيد وصول متأخرة، مقارنةً بمواعيد وصول الحجاج إلى مصر قبل وفي بداية العهد العثماني، حيث كانت تصادف أواخر شهر محرم¹.

بعد دخول الركب الجزائري القاهرة، ونظراً لفترة الإقامة التي قد تطول، يقوم الحجاج باكتراء السكنى في حي بولاق المجاور لها، لأنه منزل ومحط الحجاج المغاربة عموماً، وفيه توجد الوكالة المخصصة لذلك². وقد حدث في أحد المواسم أن فضل الركب نصب خيامه بين حي بولاق ونهر النيل لعدة أيام، فقام بعض الحجاج المتزوجين الميسورين باكتراء عدد من الدور داخل مدينة القاهرة، أما المتزوجون الفقراء منهم فحطوا بالوكالة المذكورة³. ويمكن الركب الجزائري العائد من الحج في مدينة القاهرة أو ضواحيها حوالي أسبوعين، وأحياناً تصل مدة الإقامة بها إلى حدود الشهر، وذلك ما بين منتصف صفر ومنتصف ربيع الأول⁴.

تعد زيارة الركب الجزائري لمدينة الإسكندرية الساحلية أمراً ثابتاً في رحلة العودة، على خلاف الذهاب، وذلك لأجل زيارة معالمها والتبرك بصلحائها. والأهم من ذلك لامتناء السفن من مينائها. فحجاج جزائريون كثر من بينهم مشايخ وعلماء كانوا يركبون سفناً جزائرية أو أوروبية في ميناء الإسكندرية للعودة إلى الجزائر⁵.

كان معظم الحجاج الجزائريين القادمين إلى مصر بعد تأدية مناسك الحج يفضلون الانتقال من القاهرة إلى الإسكندرية عبر نهر النيل، ومن مينائها يركبون البحر متوجهين إلى ميناء تونس بصفة خاصة، حيث ينتظرون في تونس حتى يصل إليها الركب البري، الذي يقطع الأراضي الليبية مروراً بإقليم برقة، كما فعل في رحلة الذهاب⁶. ويُقيم الركب الجزائري بالإسكندرية مدة ستة أيام لإتمام إجراءات السفر، أما الركب المغربي فيقيم بها سبعة أيام⁷.

¹ - أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص 47.

² - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و 04.

³ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج 03، ص 151.

⁴ - المصدر نفسه، ج 03، ص 178.

⁵ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص 59.

⁶ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج 03، ص 156.

⁷ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 477.

تعتبر المحطة المصرية من أهم محطات طريق الحج راحةً وإسناداً وتواصلًا إنسانياً وفكرياً بالنسبة للحجاج الجزائريين، لذلك كانت فترة إقامة الركب الجزائري تطول في مدينة القاهرة، إذا ما قارناها بغيرها، لولا توالي بعض الأحداث السيئة غير المتوقعة، أو بعض المستجدات المنعّصة بين الفينة والأخرى، التي تدفع بالركب إلى الخروج منها على عجل.

من تلك الأحداث السيئة - مثلاً - تحايل واثّام بعض البدو أصحاب الكراء للحجاج الجزائريين بأنهم لم يوفوهم حقوقهم كاملة؟ وقد استعان أولئك البدو في مكربهم وظلمهم بالمرتشين من الجنود المماليك في القاهرة، فتمّ إلقاء القبض على العشرات من الحجاج الجزائريين الذين وُجدوا منعزلين عن منزل الركب، وأودعوا السجن ظلماً وقهراً، وكادت الأمور تسير نحو الأسوأ، لولا وساطة بعض العلماء المصريين الخيّرين وكذلك الجزائريين¹.

ومن المنعّصات الحائلة دون بقاء الحجاج الجزائريين بمصر لمدة معتبرة أيضاً ما أتمّ بالركب الجزائري من نكبات في إحدى رحلاته، حيث تعرّض للابتزاز من طرف أحد المماليك البكوات المصريين المدعو "إبراهيم بيك"، فقد بعث إلى الحجاج الأغنياء أصحاب السلع الكثيرة في الركب أن يُسلّفوا له مبلغاً ضخماً من المال، وذلك على سبيل التحايل والمكيدة، فلمّا رأى استجابة البعض وتردّد البعض الآخر ونفورهم، خاطبهم قائلاً: "من قعد في هذا البلد بعد الأمر والشأن فلا يلومنّ إلا نفسه"². وفي ذلك استغلال سيء للسلطة والنفوذ في محطة هامة كمصر.

كلّ تلك الأحداث كانت تؤدي في آخر المطاف إلى قلق الحجاج الجزائريين، وشعورهم بعدم الأمان في مصر، واستعجالهم الخروج منها، خاصة وأنهم ليسوا ملزمين بالمغادرة في زمنٍ محدّد، مثلما هو الأمر في الطلعة، حيث يكون الخروج في أواخر شهر شوال لزوماً.

عندما يغادر الركب الجزائري مصر فإنه يتوجّه غرباً نحو الريف الغربي جهة "كرداسة"، فهناك يسترجع بعض الحجاج ما خلفوه وراءهم من الدواب ودائع عند الفلاحين المصريين أثناء الطلوع. والملاحظ أنّ الأركاب المغاربية تفترق وتتباعد بعد اجتياز هذه المحطة، فبعضها يُجاذي ساحل البحر الأبيض المتوسط، وبعضها الآخر يمرّ ببسيط برقة الفسيح³. وتلتقي الأركاب المغاربية مرة أخرى في

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج03، ص152.

² - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص84.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص631.

في مدينة طرابلس الليبية، حيث تأخذ قسطاً من الراحة والّرّاد. وحدث أن اجتمعت في طرابلس ستة أركاب مغربية دفعةً واحدةً ما بين ذاهبين وآيين، من بينها الركب الجزائري¹.

كذلك تتميز رحلة الإياب بمستجدّ هام، وهو زيارة الركب الجزائري مدينة تونس، والإقامة بها لأيام، والاستئناس بأهلها وعلمائها، بحكم العلاقات الاجتماعية والثقافية الوطيدة بين أهالي تونس وأهالي الجزائر آنذاك. فمنذ يجلُ الركب الجزائري بها والناس "مقبلين على الحجاج من كلّ ناحية بالإطعام والإكرام، ثمّ يذهبون بهم إلى بيوتهم متبرّكين بهم وفرحين بمقدّمهم"². ورغم تلك الزيارات والإضافات في برنامج العودة، إلّا أنّ زمن المكوث الإجمالي في بعض المحطات ينخفض إلى أقلّ من النصف مقارنة بالذهاب، لأنّ الجِدَّ في السير هو الغالب على الحجاج.

وحيثما يكون الركب الجزائري على مشارف الأراضي الجزائرية من الجهة الشرقية يشرع الحجاج في الاستعداد للانفصال عنه، والتوجّه نحو مواطنهم الأصلية، فمنهم: العُنّابي، والفُسَنْطيني، والوَارْقَلِي، والرّيغي، وبعض من أهل الرّاب، وغيرهم من مجمل النواحي، يودّع بعضهم بعضاً في مشهدٍ مؤثّر، حاول الرحالة المجاجي تصوير جانب منه قائلاً³: (الطويل)

هُنَالِكَ قَدْ وَادَعْنَا شَيْخَ أَمِيرِنَا وَدَاعَ الْمَوْجِبِّ لِلْحَبِيبِ بِوَحْشَةٍ
وَقَدْ رَجَعَ عَنَّا وَدَمَعُهُ سَاكِباً مِنَ الْعَيْنَيْنِ يَجْرِي عَلَى الْحَدِّ مُثْبِتِ

كما ينصرف بعض حجاج صحراء الجنوب الغربي الجزائري عن الركب المغربي الذي رافقوه، بعد تجاوزه محطة الأغواط، ويقصدون وادي الساورة وتوات وغيرها، على أمل تجديد العهد بالحج وقيادة الركب من تلك الأقاليم الجزائرية البعيدة⁴.

أمّا العائدون من الحجاج الجزائريين عبر البحر فإنهم ينطلقون من ميناء الإسكندرية، ويصلون في مراكز متفاوتة الحجم، في أزمنة متقاربة، سواء إلى ميناء تونس المحطة البحرية المفضّلة لديهم، لكونه مؤمناً طبيعياً، وقريباً من المدن الجزائرية الشرقية، أو إلى ميناء الجزائر المتعرّض لبعض المخاطر الطبيعية، إضافة إلى نشاطه الجهادي المستمرّ. ويستبشر الحجاج ويفرحون قبل الوصول إلى الجزائر

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 136.

² - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج 03، ص 313.

³ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و 06.

⁴ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص 129.

لِسْمَاعِ أَخْبَارِ سَارَةَ عَنْ وَطَنِهِمْ، كَفَّرَحَهُمُ الْكَبِيرُ بِخَبْرِ فَتْحِ وَهْرَانَ، وَطَرَدَ الْأَسْبَانَ مِنْهَا نَهَائِيًّا عَامَ 1206هـ/1792م، وَقَدْ كَانَ الرَّحَالَةَ النَّاصِرِيَّ مَعَهُمْ فِي تُونِسَ، فَابْتَهَجَ بِذَلِكَ قَائِلًا: ".... وَخَبْرُ الْجِهَادِ بُوَهْرَانَ كُلِّ يَوْمٍ عِنْدَنَا فِي زَيْدِيَادٍ، وَانْتَشَرَ فِي أَقْطَارِ إِفْرِيْقِيَّةٍ فَعَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ"¹.

المبحث الثاني: ركب الحج والنشاط التجاري

01. الحجاج الجزائريون بين أداء الحج والتجارة:

ارتبط الحج على ممرّ العصور بالنشاط التجاري الموازي لخطّ مناسكه في كل موسم، فالمزاوجة بين الحج والتجارة كانت - ولا تزال - وثيقةً في سفر أركاب الحج إلى الحجاز. هذه الأركاب التي وجدت نفسها مُجَبَّرَةً على ضمان مصادر لتموين أفرادها بالزاد والمعاش، وتعويض المصاريف المالية المطَّردة منذ مغادرة البلاد. وقد قال بعض العلماء: يُسْتَحَبُّ لِلْحَاجِّ أَنْ لَا يَتَّجِرَ فِي طَرِيقِهِ!² لكنّ كيف يمكن ذلك وركب الحج سوقاً متنقلة في حدّ ذاته؟ كلما نزل في محطة تبادل فيها الحجاج مع الزوار العديد من السلع بيعاً أو شراءً. فنجد أنّ حجم رؤوس الأموال الموظَّفة في تجارة الحج أواخر العهد العثماني قد تجاوز معدل مليوني (2000000) فرنك سنوياً في الرحلة الواحدة³!

وفضلاً عن وجود فئة "الحجاج التجار" غالبية الركب، الذين لم يحترفوا التجارة من قبل، لكنهم اضطروا إلى امتهاتها واكتساب فنونها اضطراراً، هناك فئة "التجار الحجاج"! الذين تمثّل لهم رحلة الحج أفضل استثمار ناجح لأموالهم، وتُحَقِّق لهم أرباحاً طائلة، ما كانوا لينالوها لو لم يقصدوا الحجاز، مجسّدين بذلك المثل الشعبي الشائع: "حجّة وتجارة". لكنّ هؤلاء التجار لا يقدرّون على السفر منعزلين، فيتحيّنون سفر ركب الحج حتى يذهبوا في خفارتهم، مثلما فعل عددٌ من التجار المزابيين، عندما استغلُّوا مرور ركب الحج بأرضهم للسفر معه⁴.

ويمثّل ميناء "حلق الوادي" بتونس محطة الربط الرئيسية بين البضائع المشرقية والبضائع المغاربية، كما أنّ نسبة كبيرة من تجارة البلاد المصرية مع أقاليم المغرب كانت تتمُّ عن طريق ميناء

¹ - أبو راس الناصري العسكري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، رقم: 3960، ص 139.

² - محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص 89.

³ - محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 183.

⁴ - الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص 196.

الإسكندرية، بالإضافة إلى ما تقوم به أركاب الحج البرية المحملة بالسلع¹. وساهم في تسهيل تلك الحركية التجارية وجود وكلاء للمغاربة في مصر، على رأسهم "شيخ طائفة المغاربة"، الذي يسهر على ضمان حقوق التجار المغاربة، والدفاع عن مصالحهم أمام السلطات المصرية². وقد كان تجار القاهرة يعقدون صفقات تجارية مع الحجاج المغاربة، يقوم الحجاج بموجبها بنقل البضائع ما بين مصر والحجاز ذهاباً وإياباً، مقابل حصولهم على ما نسبته 10% من الأرباح عن البضائع المصرية، و15% من الأرباح عن البضائع الحجازية³.

ومن العروض المحفزة لتعاطي التجارة في ركب الحج إعفاء البضائع المحملة في رحال الحجاج من دفع نصف الرسوم الجمركية عند دخولها إلى مصر والحجاز. وهو الإجراء الذي ظلّ معمولاً به إلى غاية منتصف القرن 10هـ/16م، ثمّ ما لبث الوضع أن زاد تحفيزاً، وسُمح للحجاج بنقل بضائعهم دون رسوم. وفي سنة 1136هـ/1724م استحدثت شريف مكة ضريبة جديدة على المترددين سنوياً من التجار على الحج، واتخذ لأجل ذلك سجلاً خاصاً، مما أدّى إلى تدمر التجار وارتفاع الأسعار في بلاد الحجاز ارتفاعاً كبيراً⁴. وفي نهاية القرن 12هـ/18م أُعفيت تجارة الحجاج نهائياً من دفع الرسوم الجمركية، فقد راسل والي مصر داي الجزائر مخبراً إياه بإعفاء الجزائريين المتوجهين إلى الحج من أداء الرسوم الجمركية في المنافذ والموانئ المصرية⁵. في الوقت الذي لم يُعفَ من أداء المكوس التجار الحجاج من ركني المغرب الأقصى وبلاد السودان (جنوب الصحراء)، بذريعة أنهم ليسوا من رعية السلطان العثماني⁶!

وطيلة زمن السفر كان تجار الركب الجزائري يتحسّسون أخبار المشرق وأسواقه ممّن يلتقون بهم في طريقهم، ففي أحد المواسم أُخبروا بانكسار سوق الحجاز إلى الرخاء بعد الغلاء الشديد، ففرحوا فرحاً شديداً بعد سماعهم هذا الخبر⁷. وذلك لعلمهم بأنّ الأرباح المتوقّعة تحصيلها في مثل

¹ - بيير سيمون جيرار، المصدر السابق، ج04، ص253.

² - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص51.

³ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص26.

⁴ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص481.

⁵ - رسالة من والي مصر إلى والي الجزائر، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 3190/104.

⁶ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص432.

⁷ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و10.

تلك الأوضاع ستكون طائلة في الذهاب وفي الإياب معاً. ومما يُعصّد ذلك هو أنّ أحد الحجاج ويدعى "الحاج يوسف" احتاج إلى كراء 14 بغلة، لنقل أغراضه وبضاعته من تونس التي وصلها بحراً إلى موطنه مدينة الجزائر¹! يبدو أنّ الظروف كانت مهيةً لمعظم حجاج الركب الجزائري من أجل ممارسة بعض النشاط التجاري، في إطار احترام متطلبات وضوابط رحلة الحج المقدسة.

02. ازدهار الأسواق الموسمية بمناسبة الحج:

يمكن تمييز نوعين من الأسواق الموسمية التي كان يغشاها الحجاج الجزائريون بمناسبة سفرهم إلى الحجاز، أسواق بسيطة يُقيمها أهل الصحراء أو القرى أو البوادي، فينزل الركب لأجلهم، ويتم تبادل السلع فيما بينهم. حيث تجد البدو الرحل يتعرضون لركب الحج قصد التسوق، ويجلبون معهم عادةً الكثير من الزرع والسمن والعسل واللحم والإبل. وقد يحدث أن يتخلف سكان القرية لسبب من الأسباب عن التسوق، رغم نزول الركب في أرضهم وانتظار الحجاج لهم². والتسوق بين الحجاج وأولئك البدو مدعاةً لحصول الثقة، وتهدئة روع الحجاج من قبائل الطريق.

من نماذج أسواق البوادي سوق أقامتها قبيلة من الطوارق لحجاج مغاربة وجزائريين، فتعاطى الطرفان فيها البيع والشراء³. وليس بعيداً عنها سوق أخرى أقامتها قبائل عرب الجبل الأخضر بليبيا لأركاب الحج المغاربية، وتجددت هذه السوق لأيام متتالية، بطلب من أهل الجبل الأخضر، الذين كانوا يقصدون الركب ويطلبون نزوله في كل ليلة، فلبى الحجاج طلبهم، وصادفوا عند بعضهم تمرّاً كثيراً ذا نوعية جيدة يريدون بيعه، فأخذوا منه كفايتهم بأرخص سعر⁴. وقد يحدث التبادل التجاري دون سابق قصدٍ أو إعداد، ففي إحدى رحلات الركب الجزائري صادف الحجاج قبيلة عربية مُرتحلة بإبلها في صحراء ليبيا، وقد بدت على الإبل السمنة والمعافاة، بينما كانت إبل الركب ضعيفة هزيلة، فشرع الطرفان في التبادل بالتراضي، لكن لما رأى البدو اضطراب الحجاج وتزاحمهم امتنعوا من التبديل وصاروا إلى البيع⁵!

¹ - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص 343.

² - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و 11.

³ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص 31.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 203.

⁵ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 03، ص 238.

والنوع الثاني من تلك الأسواق هو أسواق المدن الكبرى، والتي وإن كانت لا تنقطع في بعض الحواضر طيلة السنة، مثلما هو الأمر في طرابلس أو في القاهرة أو في الإسكندرية، إلا أن تلك الأسواق تنشط أكثر وتزدهر بمناسبة موسم الحج، ومرور الأركاب المتتالية بها. وبعض الأسواق كان يُقام داخل الإقليم الجزائري، كسوق مدينة بسكرة المملوءة بالتمر والسمن والشعير والإبل¹. وفي مدينة قابس التونسية كان الركب الجزائري ينزل من الصباح إلى صلاة الظهر، وذلك لتمكين أهلها من التسوق مع الحجاج².

أما أسواق المدن المصرية فإنها تحتوي على بضائع محلية، وأخرى مجلوبة من الأقاليم الشرقية المجاورة، وذلك من أجل إشباع نهم التجار الحجاج الوافدين بكثرة. فسوق "الرملة" المصري فضاء واسع خارج القاهرة، فيه تُباع الإبل والخيل وسائر الدواب، وبه غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة واللباس، وتُنصَّب فيه بمناسبة مرور أركاب الحج أرحاءً متعدّدة لتدشيش الفول، الذي ينقله الجمّالون بالكرء إلى محطة "المويلح" في درب الحجاز، علفاً لدواب الحجاج. ويرتاد سوق الرملة المذكورة كذلك المشعوذون وأصحاب القروود والكلاب والتيوس، كلٌّ يستعرض مهاراته وأعبائه على الحجاج والأهالي المتفرجين³! وبالجملة فإن أسواق مصر لا يُحاط بعدها، ويقصدها الحجاج الجزائريون في الذهاب وفي الإياب.

والطريق من مصر إلى بركة الحاج كلها سوقٌ عامرة، حافلة بالسلع والخانات والأفرشة، وهي من أهم الأسواق في رحلة الحجاج المغاربة وأرخصها. ومن البنادر الحجازية المعدّة لتسوق أركاب الحج بندر "المويلح"، حيث تُقام فيه الأسواق لتزويد الحجاج بما يحتاجونه في الذهاب والقفل، فتمتلى بالمنتجات المحلية من المزروعات، وما يأتيها من مصر في المراكب. علاوة على "الملاقية" التي تنتظر مقدم الحجاج لتقديم الهدايا والحلويات، والجمع الغفير من "الأعراب"، الذين يستقبلون الأركاب لبيع المؤن الطازجة والاتجار مع الحجاج⁴. وفي درب كذلك سوق "ينبوع البحر"، وهي مرسى عامرة ينزل بها الحجاج المغاربة للتسوق أحياناً.

¹ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و131.

² - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج01، ص268.

³ - المصدر نفسه، ج02، ص51.

⁴ - عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص331.

تُعتبر مكة المكرمة بالنسبة للحجاج أثرى سوق تجارية، غنية وعامرة بالسلع من جميع الجهات، إذ تُجلب إليها المنتجات الهندية والأفريقية واليمنية¹. ولا ينتظر الحجاج كثيراً حتى ينفضوا إلى تلك السلع المغربية، خاصة في مشعر منى بعد أدائهم جلّ المناسك، حيث أنّ للحجاج غرضاً في الشراء من ذلك المكان بالذات. فهذا الرحالة الورثلاني يبيّن ذلك المشهد والغرض قائلاً: "... وعمرت الأسواق بمينى، وأُخرجت البضائع ذوات الأثمان، وعُرضت صنوف السلع وأنواعها، فتزاحم الناس على الشراء منها، رجاء بركة ذلك المكان، حيث يَشيعُ بين الحجاج التجار أنّ من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته وجدّ بركته، وظهرت له ثمرته لاحقاً"².

وإثر العودة من منى إلى مكة المكرمة، يستغلّ الحجاج الأيام المتبقية لشراء السلع والهدايا، فتعقد بها سوق كبيرة تباع فيها كل بضائع الهند، كما تباع فيها أحجار كريمة للخواتم والأساور المجلوبة من اليمن، وكذلك بضائع الصين والمسك وغيرها من الأشياء الغريبة³! وإن كان الحجاج المغاربة قد ضجّوا من الفوضى التي تُسببها سوق "المسعى"، المقامة على جانبي الصفا والمروة، فارتفعت أصواتهم بالشكوى من وجودها هناك، حيث تضرر الساعون من شدة الزحام فيها، وتمنّوا لو يأمر الحكام بمنع الناس من التسوق هناك، خلال أيام الموسم على الأقل⁴! وحينما ينتقل ركب الحج الجزائري إلى زيارة المدينة المنورة يجد أسواقها كذلك عامرة زاهرة، بفضل قدوم ركب أهل الشام من جهتها، نظراً لما يأتون به من بضائع كثيرة وطعام وزيت وأشربة، فلا تنتفع تجارة أهل المدينة المنورة بركب من أركاب الحج قدر انتفاعها بأهل الشام⁵.

03- أهمّ السلع وأشكال المعاملات التجارية:

لقد تنوّعت البضائع التي كانت محلّ بيع وشراء من طرف تجار الركب الجزائري وتباينت في مراحل العهد العثماني، وذلك بسبب طول فترته الزمنية والتطورات الصناعية الحادثة في أواخره. لكنّ الملاحظ أنّ الغالب عليها هو المنتجات الصناعية الحرفية، محاصيل الغزل والنسيج، والدباغة،

¹ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص 218.

² - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 02، ص 284.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 62.

⁴ - عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص 315.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 385.

والعطارة بالدرجة الأولى. فكان الحجاج يأخذون معهم القلانيس (الطرابيش أو الشواشي) والبرانس والأحزمة والنعال والمظلات وريش النعام والتبر والمرجان.... وعندما يعودون يجلبون معهم كميات من القهوة والأقمشة الحريرية والسجاد والشيشان الهندية والمسك والزبد....¹

اشتهرت مدينة الجزائر - آنذاك - بصناعة البرانس أو المعاطف البيضاء باهضة الثمن، التي كان يُحَاك بعضها من الصوف، وبعضها الآخر من الحرير، إضافة إلى الأغطية الكبيرة أو قطع الأقمشة الصوفية البيضاء، المعروفة بالأحرمة، كل ذلك كان يُنقل عبر المراكب ومع قوافل الحجاج إلى مصر². ومن البرانس الجزائرية المسوّقة على نطاق واسع خارج إيالة الجزائر كذلك البرانس التبسية، ذات الجودة الرفيعة، التي كانت تلقى رواجاً كبيراً بالبلاد التونسية³.

وعلى غرار البرانس سادت تجارة القلانيس (أو الشواشي كما تُعرف)، وأضحت تُسوّق في بلاد المشرق، وتحقق أرباحاً طائلة. وذلك بمساهمة أركاب الحج (الجزائري والمغاربية أيضاً)، والتي كانت تنقلها بكميات كبيرة من أماكن إنتاجها. إلا أنّ أشهر الشواشي في ذلك العهد: الشاشية التونسية والشاشية الإسلامية (التركية)⁴.

رغم ذلك كانت لمدينة الجزائر أسبقية في صناعة الشاشية، حيث يؤكّد المؤرخ الأمريكي وليم سبنسر ذلك قائلاً: "... وقد كانت مدينة الجزائر تتحكّم في إنتاج بعض المواد المصنوعة في منطقة المغرب. إحداها هي الشاشية، وهي لباسٌ منسوج دائري حول الرأس، شائعٌ في أوساط المسلمين الشباب بالمشرق، وفي شمال أفريقيا كذلك"⁵. يبدو أنّ ذلك التحكّم في صناعة الشاشية الشاشية لم يُجسّد من طرف تجار الركب الجزائري، الذين لم يُسوّقوا لذلك المنتج بشكلٍ كافٍ!

لم تستمر التجارة في الشواشي التونسية والجزائرية من طرف أركاب الحج إلى الحقب المتأخّرة من العهد العثماني، بسبب كثرة المصانع التي أنشأها ولي مصر محمد علي باشا، والمتخصّصة في ذلك، في إطار إصلاحاته الاقتصادية. فأحجم معظم الحجاج الجزائريين عن تسويق الشواشي إلى

¹ - محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 185.

² - بيير سيمون جيران، المصدر السابق، ج 04، ص 254.

³ - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص 376.

⁴ - محمد الشنوسي، المصدر السابق، ج 01، ص 121.

⁵ - وليم سبنسر، المرجع السابق، ص 145.

المشرق بعدما أنشأ محمد علي المذكور مصانع الطرابيش¹. أما التّعال الجلدية الجزائرية فقد ظلّت مطلوبة بكثرة خارج الجزائر، واشتهر من أصنافها الأحذية التلمسانية الحمراء².

لم يعدّ الحجاج الجزائريون الرواحل المطلوبة لنقل تلك البضائع من الجزائر أو من تونس المجاورة، إذ كان يحدث في بعض المواسم أن يحمل الركب الجزائري معه المئات من الإبل لبيعها - هي بدورها - في محطتي طرابلس ومصر بصفة خاصة، مع ملاحظة أن معظمها كان يُباع في مصر بالدين إلى حين الرجعة من الحجاز³، وذلك بسبب وفرتها في الركب وفضلها عن احتياج الحجاج من جهة، وضيق الوقت لإتمام البيع من جهة أخرى. لقد كان ركب الحج الجزائري بمثابة معرض متنقل لتسويق المنتج الجزائري المحلي في تلك الأزمنة.

لئن كان وجود العبيد السود قصد المبادلات التجارية ببلاد الحجاز وغيرها من المدن وارداً في ذلك العهد، حيث يُجلبون إليها من طرف الحجاج المغاربة وغيرهم⁴، فإنّ ركب الحج الجزائري لم يكن ينقلهم لهذا الغرض بالذات، إذا ما استثنينا بعض العبيد الذين كان أسيادهم يستقدمونهم معهم لأجل خدمتهم في السفر الشاق، ولكن وجودهم قليل وفي حالات نادرة، يُشير إلى إحداها الرحالة الورثلاني قائلاً: "... وانفردَ عن الركب مُسايرةً بإزائه رجلٌ من أهل توات، مع ولده وعبيده"⁵. ومنطقة توات من أقرب المناطق الجزائرية إلى أسواق تلك التجارة الأفريقية.

تصدّر الكتان بأنواعه والأقمشة المختلفة رأس مشتريات الحجاج الجزائريين من الحجاز ومدن عبور الركب، فيذكر - مثلاً - أنّ حاجاً جزائرياً اشترى حَمَلَيْن من الأقمشة الكتانية، قام بفتحهما في الطريق لتحفيفهما من الماء الذي أضّرّ بهما⁶. وبعض الحجاج كانوا يُحضرون معهم شالات كشمير المزخرقة المزينة، المطلوبة بكثرة من طرف حجاج شمال أفريقيا جميعهم. وكذا القماش الفاخر، وخاصة النوع الرفيع منه المسمّى "البزّ"، لدرجة أنّ الركب الجزائري كان يتوقف بمدينة

¹ - محمد العربي الزيري، المرجع السابق، ص 185.

² - خليفة حمّاش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص 360.

³ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 03، ص 126.

⁴ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص 72.

⁵ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج 02، ص 164.

⁶ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 28.

سوسة التونسية الساحلية في طريق عودته، فيقصد الحجاج الجزائريون أسواقها الشهيرة بأنواع البزّ والكتان، ويقومون بشراء كميات كبيرة جداً منه، يأتون بها إلى الجزائر¹.

ومن المقتنيات الأخرى التي لا يفوت الحجاج فرصة وجودهم بالمشرق للإتيان بها: البُنّ، والطيب والتّدّ والبخور الجاوي، وصمغ الصنوبر، والسّاج (من الخشب)، وملح النشادر، والسكر، وبعض الأقمشة المصرية والشامية. وغيرها من السلع التي لا تتوفر في شهور السنة الأخرى، فهي خصيصاً لأسواق موسم الحج، المنتشرة بالحجاز وحواليه. وعلى رأي الرحالة الشرقي: "... ولا تسلّ عمّا يوجد في تلك الأسواق من مهيجات الأشواق..."².

أما المنتج الذي فرض نفسه بقوة في أسواق المشرق من بين تلك المنتجات السابقة منذ بدايات العهد العثماني فهو البُنّ (القهوة) اليمني. حيث لا يكاد ينقضي موسم من مواسم الحج حتى تُباع أطنان من البُنّ، يحملها التجار من الحجاج إلى بلاد المغرب على ظهور الرواحل وامتون المراكب، وتُدفع فيها أموال ضخمة قلّما تُدفع في غيرها من التجارة. كل ذلك طمعاً في الربح السريع الوفير، خاصة وأنها كانت في أزهى فترات رواجها خلال العهد العثماني.

وأسعار القهوة تتضاعف كلما غرّينا، فيجني التجار أرباحاً كبيرة من تجارتها، إذ تُباع في بلاد المغرب بأضعاف ثمن شرائها عشر مرات، فقد لا يتجاوز سعر الحمل³ الواحد العشرين ريالاً في مكة المكرمة، في حين يصل سعره في بلاد المغرب إلى المائتين⁴!؟

وعلى ذكر الأرباح المحققة من التجارة المواكبة لركب الحج يمكن عرض شهادة أحد التجار من منطقة وادي مزاب يُدعى "الناصر"، حول ربحية بعض السلع بعينها. يذكر هذا التاجر أنّه اشترى من تونس 180 رطلاً من الزعفران بسعر دورو⁵ للرتل الواحد، وفي الحجاز يُباع نفس الرتل بثمانية دورو. وفي الرجوع اشترى عشرين شاشاً على زوج من الدورو للواحد، وستة عشر

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص310.

² - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و63.

³ - الحمل: ما حُمل على الظهر أو الجمل ونحوهما، والجمع أحمال. يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص1001.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج02، ص57.

⁵ - الدورو: قطعة فضية أصلها إسباني، كانت تساوي في وقتها ربع قطعة ذهبية، وزن ستة (06) غرامات تقريباً. يُنظر: الشريف الزهار، المصدر السابق، ص54.

رطلاً من المسك بسعر دورو للرتل الواحد، وفي تونس يُباع الشيشان بخمسة دورو للواحد والمسك بسعر 112 دورو للرتل¹! إنَّه الريح السريع بفضل الحج، طبعاً مع تحمُّل عناء النقل.

ومن مُعيقات النشاط التجاري لركب الحج في المشرق مشكلة صرف العملة (أو السكَّة)، فالعمّلات الجزائرية مثل: المحبوب أو الريال أو الموزونة أو الصائم...²، وحتى التونسية والطرابلسية لم تكن متداولة في بلاد المشرق. وعلى رأي الرحالة الحضيكي - الذي مرَّ بالإيالات الثلاث في موسم من القرن 12هـ/18م - "... وكلُّ عمّالة من هذه العمّالات لها سكَّة تخصُّها، لا تُجاوِزُها، واعلم ذلك واعرفه"³. لذلك كان الحجاج والتجار يستعيضون عنها بالنقود الأسبانية، مثل: الأسكودو والدورو وغيرهما في المعاملات التجارية ذات القيمة المنخفضة، وبالدينار المسكوكة من الذهب والفضة في المعاملات التجارية ذات القيمة العالية⁴.

وإلى جانب استخدام النِّقد في المعاملات التجارية، وُجدت مناطق تتعامل بالمقايضة، وفي أسواق مكة المكرمة الثرية نفسها كانت تُعقد الصفقات التجارية على أساس تبادل منتجات البحر الأبيض المتوسط بمنتجات جنوب شرق آسيا وجنوب غرب أفريقيا⁵. فيتمُّ - مثلاً - تبادل القلانس والبرانس والنعال بالأقمشة والموسلين والعنبر والتوابل⁶. غير أنَّ هناك عوامل تتحكم في تحديد معادلة البضائع لبعضها البعض، منها حجم أو مدى وفرة المعروض. فقد أدَّى - مثلاً - تأخُّر السفن التجارية الهندية الموسمية عن المحييء إلى مكة المكرمة في سنة 968هـ/1561م لأسباب طبيعية إلى غلاء أسعار أصناف البضائع التي تُجلب من الهند واليمن، من الشاشات والقطنيات والقماش والبهار وغيرها⁷. لذلك كان تجار ركب الحج يُقيمون علاقات وطيدة بالتجار المغاربة المقيمين في جُدَّة وفي مصر بصفة خاصة، لرعاية مصالحهم وضمان تجارتهم.

¹ - محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 185.

² - لمزيد التفاصيل عن العملات المتداولة بالجزائر في العهد العثماني وميزاتها، يُنظر: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، ط 01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، الفصل الخامس.

³ - محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص 88.

⁴ - عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص 337.

⁵ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص 218.

⁶ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص 72.

⁷ - عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج 01، ص 627.

يمكن أن نضيف إلى تلك السلع المتاجر فيها في سفر ركب الحج نوعاً آخر من السلع، وهو ما تعلق بتجارة الطريق أو الدروب، التي كان الحجاج يتعاطونها مع أهل القرى والبوادي، من أجل ضمان تموين الركب بمتطلباته المتجددة من الأكل والعتاد. فحين ينزل الركب في منزل من الطريق يأتيه أهل القرى يتسوقون الحجاج، رجالاً ونساءً وصبياناً، بالتمر والزرع والدجاج والخبز، ويأخذون منهم الخنء والكحل و"الخزق البالية"، ف"هي أعظم رغبتهم لقلّة ذلك عندهم"¹! ويستغلُّ الركب الجزائري موسم جني المحاصيل، فيشتري التمر بكميات كبيرة من قرية سيوي، قبل دخول صعيد مصر، فتمرّها أجود أنواع التمور وأحلاها، يتميز بلونه الصافي، ونواته الكبيرة، ويوضع في قُفِّفٍ طويلة من الحلفاء عليها غطاء، لتسهيل عملية رفعه وحمله على ظهور الإبل².

نستنتج ممّا سبق زخم النشاط التجاري الذي كان يُرافق ركب الحج الجزائري، في طلوعه إلى الحجاز، وأيضاً في هبوطه. والسؤال المحيّر هو: هل ضمنّ التاجر الحجاج استمرارية جني الأرباح في جميع المواسم؟ مهما يكن من حالٍ فالثابت هو أنّ الأمر يحتاج إلى كثير الفطنة والتحدّي، إضافةً إلى الصبر والجسارة المطلوبين في رحلة الحج أصلاً³!

المبحث الثالث: العلاقات الاجتماعية البينية وأبعادها

01. مظاهر التضامن والتآزر في ركب الحج:

منذ انطلاق ركب الحج من الأراضي الجزائرية يتشكّل مجتمع جزائري مصغرّ متنقّل، يسوسه شيخ الركب، وتسوده المودة والتعاون والتشاور. وتتجسد صفة التشاور فيما بين أفراد الركب بخصوص المستجدات الحاصلة في طريق الحج. من ذلك - مثلاً - أنّ بعض البدو العرب طلبوا من الركب النزول للتسوّق معهم في إحدى المحطات، فوافق بعض الحجاج على ذلك بنية مساعدتهم، بينما امتنع الكثيرون عن النزول لضيق الوقت، فتمّ تغليب رأي الأغلبية الممتنعين⁴.

رغم كثرة حجاج الركب الجزائري وتنوع أصولهم وقبائلهم وعاداتهم، إلا أنهم جعلوا الركب كالجسد الواحد، يشدُّ بعضه بعضاً، وتتجلّى فيه صور التضامن والإيثار والإنفاق. مثلما فعل

¹ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و09.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص13.

³ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج02، ص12.

بعض الحجاج الجزائريين حينما قاموا بتوزيع كميات كبيرة جداً من التمر على مَنْ في الركب، كانت قد أُهديت لهم من قِبَل أقاربهم وأصدقائهم بإحدى المدن الليبية، فكلُّ مَنْ في الركب أخذ نصيبه وفرح بذلك فرحاً شديداً¹. أمّا أحد الحجاج ويُدعى "الشيخ عبد الحفيظ" فقد كان يواسي الحجاج الفقراء في الطريق، ويُطعمهم التمر والسمن والطعام، ويكفيهم تكاليف المؤونة مدةً شهر كامل، من ماله وأرزاقه². وهذا حاج جزائري آخر، مَنَّ آتاهم الله سعةً من المال، اشتهر بشمول أفضاله خاصّةً الركب وعامته، ابتغاءً الأجر والدعاء له، وقد وصفه الرحالة الورتلاني بأنّه "... كريمٌ فاضل، لا صبرَ له عن إطعام الطعام في الطريق"³!

ومن مظاهر التعاون والإيثار ضمن ركب الحج الجزائري أنّ بعض الحجاج قاموا في أحد المواسم بالبحث عن مسكن يكثرونه لأحد المرضى الحجاج، وذلك بعد أن اشتدَّ عليه المرض، ولما حان وقت السداد قام أحدهم ببيع كسائه لتوفير مبلغ الكراء⁴! وفي مشهدٍ آخرٍ ينمُّ عن عزّة نفسٍ، قام بعض الحجاج الجزائريين بشراء ثلاثة جمال في المدينة المنورة، وأعطوها لأحد الحجاج، تعويضاً له عن جماله التي سُلبت في الطريق إليها، فقبل ذلك الحاج استلامها بشرط السُلقة ليس إلّا، إلى غاية العودة إلى البلد ودفع ثمنها إليهم⁵. وكان الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر الجزائري قد استلف أموالاً من الحجاج المرافقين له في الركب، لأجل تغطية مصاريف العودة من الحجاز، بعد أن نفدت ذخيرته من المال في رحلته الإضافية إلى بغداد⁶.

ونظراً لكون ركب الحج مداوماً في سفره على القيام والنزول، فقد اعتادت مجموعة من الحجاج المتطوعين فاعلي الخير على امتطاء البغال والسير خلف الركب، فيكونون آخرَ من يصل من الحجاج إذا نزل في موضعٍ ما، وذلك لأجل مساعدة الضعفاء من الحجاج ومرافقتهم، وكذا لأجل جمع الرّحل (المتاع) المنسي من طرف بعض الحجاج، أو الساقط من على ظهور الإبل أثناء

¹ - الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج03، ص249.

² - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و06.

³ - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ج01، ص255.

⁴ - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص25.

⁵ - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ج03، ص112.

⁶ - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص46.

سيرها، وإعادته لأصحابه¹. كما كان ركب الحج يتمهّل في سيره أحياناً لانتظار بعض الحجاج المتخلفين من أجل السقاية في بعض المنابع.

وقد حدث في أحد المواسم أن انفصلت جماعة من الحجاج الجزائريين عن ركب الحج، بسبب خلافٍ بسيطٍ وسوء فهم، وانضمّوا إلى الركب الفزاني الليبي، فإذا بالركب الجزائري يُطيل النزول في إحدى المحطات الموالية، أملاً في لحاق أولئك الحجاج المتخلفين، فلما وصلت الجماعة إلى منزل الركب الجزائري فرح بهم الحجاج كثيراً، وقالوا لهم: ما نزلنا إلا منتظرين أمركم².

وبما أنّ حرمة المرأة الجزائرية الحاجّة من حرّم الركب كلّهُ، فإنّ الحجاج كانوا أخوف ما يخافون على نساء الركب، فيسألون أهاليهنّ عن أخبارهنّ بين الفينة والأخرى، ويتوقف الركب عن السير إذا شعر بخطر محقق بالإبل الحاملة للنساء. وحدث مرة أن تخلفت عن الركب نسوة مع محارمهنّ لغرض خاص، فأعلنت في الركب حالة النفير، خوفاً عليهنّ من كيد القبائل الماكرة في الطريق³. وفي حالة تضامنية أخرى أصرت مجموعة من الحجاج على التخلف عن الركب، لأجل مساعدة عائلة وضعت إحدى نساها مولوداً، ثمّ التحق الجميع بالركب بعد نزوله واستقراره بخيامه، فتلقّى الوالد التهناني من طرف الحجاج، والدعاء للمولود بالبركة⁴.

وكان يحدث أن يُبادر حجاج الركب الجزائري إلى استقبال أو ضيافة حجاج آخرين لم يكونوا ضمنه، فيصطحبونهم بصفة نهائية أو مؤقتة، مثل جماعة حجاج من بلدة القرارة (نواحي غرداية)، كانت تريد الحج لكنّها لم تُدرك الركب، فاستقبلوها في مدينة تونس⁵. كما رحّب الركب الجزائري بحجاج من المغرب الأقصى كانوا تائمين، بعد أن تخلفوا عن رفاقهم، فبقوا مع الحجاج الجزائريين إلى أن اهتمدوا إلى أثر ركبهم⁶. وإضافةً إلى حمل الحجاج كان الركب يحمل معه الأمانات والودائع والرسائل من الجزائر وإليها، وفي ما بين محطات الطريق المتلاحقة.

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص170.

² - المصدر نفسه، ج02، ص376.

³ - نفسه، ج02، ص09.

⁴ - نفسه، ج01، ص434.

⁵ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص69.

⁶ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص498.

لم يكن بعض الحجاج يتوانون في تقديم المبادرات الفردية، أو المساهمة في خدمات السفر اليومية، مثل نصب الخيام، أو جمع الحطب، أو إشعال النار للطهي، أو سلق طعام الغداء، أو إعداد الوجبات للعشاء، أو تحضير القهوة لبعض الحجاج المعتادين على شربها¹.

كما كان الركب الجزائري يوسّع على أفراده في المأكولات، مع كل مناسبة دينية يُجيبها الحجاج بعيداً عن بلادهم، مثل عاشوراء والمولد النبوي الشريف وغيرهما. وحين يتجمّع كلُّ ثلاثة أو أربعة حجاج لتناول الطعام معاً، فإنّهم غالباً ما يدعون أحد فقراء الركب لكي يُشاركهم طعامهم، فهناك كثيرون يقطعون رحلة الحج دون أن يكون معهم المال الكافي، بل منهم من يسيرون مع الركب على أقدامهم طوال الطريق²!

ومن الذين غمّهم إحسان الحجاج الجزائريين بمناسبة السفر إلى الحج أسيّر أيرلندي، كان قد أسلم في الجزائر، وعاش بها، فتكفّلت عائلة جزائرية بتكاليف حجّه بمعيتها، ليقوم هذا الأسير الأيرلندي بخدمتها في الرحلة إلى الحج، عرفاناً منه بصنيعها³.

لقد تحطّى الإنفاق الجزائري حدود طريق الحج ليتجلّى كرم الحجاج الجزائريين بالحرمين الشريفين، حيث اشتهر حاجّ جزائري يُدعى "علي العتّابي" بالعطاء والسخاء مدةً مجاورته بمكة المكرمة في إحدى السنوات، وعمّ فضله الجميع، ومنهم الرحالة المغربي العياشي الذي وصفه قائلاً: ".... وكانت فيه سخاوة نفس ودماثة خلق، قد نال غيرنا من المجاورين وأهل مكة من معرفته أكثر ممّا نالنا، ولقد طوّفتني من منته ما عجزتُ عن مكافأته إلاّ بالدعاء له"⁴.

بالإضافة إلى ما ذكرنا فقد كرّس الحجاج الجزائريون صوراً أخرى للبعد الإنساني، هذه المرة في التعامل مع الإبل رواحل السفر، إحداها هي إرسالهم لمجموعة من الأحمال والأمتعة عبر البحر مع بعض الحجاج، من ميناء طرابلس إلى ميناء الإسكندرية، بعد أن لاحظوا أنّ الإبل قد عُطبت من جرّاء حملها فوق طاقتها، وقد أصابها الضعف لقلة القوت، فحَقَّقُوا عنها بذلك⁵!

¹ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 69.

² - المصدر نفسه، ص 70.

³ - نفسه، ص 70.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 161.

⁵ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 01، ص 410.

02. حوادث الوفاة في ركب الحجّ الجزائري:

سادَ في العصور الماضية المثلُ الشعبي القائل: "الماشي للحج مفقود والراجع مولود"، للدلالة على أنّ حدوث الوفاة في رحلة الحج الشاقة والخطيرة - بكلّ المقاييس والأبعاد - أمرٌ مألوف، وأنّ العائد منها كَمَنْ كُنِبَ له عُمُرٌ ثانٍ! لذا كان بعض الحجاج يحتاطون للأمر بكتابة وصاياهم قبل سفر الركب، ويُعيّنون فيها من ينوب عنهم في التكلّف بأولادهم وأرزاقهم¹.

وفي أحد مواسم الحج كان عدد الوفيات من الحجاج الجزائريين قد تجاوز العشرات، والركب لما يتجاوزُ بعدُ محطة مصر، وقد أشار إلى تلك النكبة الرحالة الورثلاني دونما تحديد لعدد الوفيات قائلاً: "ماتَ مِنْ الحجاج مَنْ ماتَ، مِنْ الرجال والنساء"²! لكنّ إطلاقَ التعبير "... مَنْ مات" وإدراجَ النساء أيضاً - وهنَّ أقلُّ عدداً من الرجال - دليلاً على أن عدد الأموات كان معتبراً. بل لقد أضحى عدم حدوث أية وفاة في الطريق هو الاستثناء المثير لاستغراب الحجاج، والجدير بالتحديث عنه. من ذلك ما نقله الرحالة الفلاني قائلاً: "... وخرجنا على بركة الله من القاهرة ووصلنا فزان، ولم يمُتْ أحدٌ من الرفاق"³!

إنّ الموت في طريق الحج واحدٌ لكنّ أسبابه متعددة، منها اعتداءات اللصوص، وحوادث الطريق، من سقوط أو برد أو حرارة أو عطش أو طاعون وغيرها، وما ينتج عن اختلاف مياه الطريق وتلوثها، من أمراض وأوبئة شتى، على رأسها مرض الإسهال. هذا المرض الذي لطالما اشتكى منه الحجاج الجزائريون، ومات بعضهم ضحية الإصابة به.

ومن مات بمرض الإسهال أميرُ منطقة زاوية المدعو "سيدي محمد بن القاضي"، فقد اشتدَّ عليه المرض في المدينة المنورة، فعزمَ أن يُقيم بها ويودّع الركب لظنّه وقوع الموت! لكن أصحابه أقنعوه بالسفر رجاء الشفاء، ولما لم يتحقق ذلك واصلَ رحلته مُقعداً محمولاً على محفّة، حتى وافاه أجله في الطريق قرب ينبع، وذلك في مستهلّ سنة 1180هـ/1766م. وكان قبل وفاته استدعى عاملين اثنين من الركب، ليُشهدَهما على وصيته، فأطلعهما على مكان حفظ ماله وجميع مستلزماته

¹ - من أمثلة تلك الوصايا وصية الحاج محمد آغا لزوجته "كريمة" أو جارها السيد "أحمد شاوش"، وقد توفّي الحاج المذكور في سفره لأداء الحج موسم 1040هـ/1631م عن زوجة وأربعة أولاد. يُنظر: خليفة حمّاش، الأسرة...، مرجع سابق، ص 77.

² - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 03، ص 230.

³ - الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و 03.

وحوائجه، وبعد وفاته - في طريق العودة - توقّف الركب لأجل تجهيزه وتكفينه، وحفر قبره والصلاة عليه، ثم قاموا بتعليم قبره بحساب المرحلة التي قطعوها¹.

وفي حالات نادرة تكون الوفاة بسبب القتل الخطأ من طرف بعض العساكر الجفّاءة، كما في الحالة التالية، التي تُبيّن شدّة عسكر الحجاز وغلظتهم في التعامل مع حجاج متخاصمين على إحدى عيون الماء. نقل الرحالة الورثلافي تلك الحالة قائلاً: "... بل على أقلّ شيء يقتلون العبد، ولقد قتلوا صاحبّ أختنا في الله سيدي محمد بن قسّوم الرّبيغي، على شربة الماء!"²

لكنّ أشدّ الأوقات على الحجاج الجزائريين وأكثرها دراماتيكية هي لحظة حضورهم جنازة أحد الحجاج المتوفّين على ظهر السفينة، حيث يُعرض على لوح خشبي بعد غسله وتكفينه والصلاة عليه، ثم يُرمى الميت في البحر بعد ربط رجله بكمية من الحديد لإغراق الجثة، كي لا تطفو على سطح الماء³. وهو مشهد مؤثّر يصعب على الحجاج نسيانه! وفعلاً لقد تمّ في أحد المواسم إلقاء عشرين جثةً في البحر المتوسط، ممّن ماتوا بسبب إصابتهم بالطاعون الساري بين الحجاج الجزائريين، إثر صعودهم من ميناء الإسكندرية، حيث كان الوباء قد استشرى بها⁴.

لا يمكن بأي حال من الأحوال جمع واستقصاء جميع حالات الوفيات الحادثة في الركب الجزائري، لذا نكتفي بذكر نماذج متباينة عن حوادث الوفاة في طريق الحج، هي في معظمها لأعلام مشهورين، أو لأشخاص برزوا في الرحلة إلى الحج، على النحو التالي⁵:

* وفاة الشيخ "محمد الفكون" والد الشيخ عبد الكريم الفكون (شيخ الركب الجزائري) على شاطئ البحر الأحمر قرب بندر المويلح سنة 1045هـ/1635م. وقد علّم قبره ببناء، وواظب بعض الحجاج المغاربة على زيارته والتبرّك به، كلما مرّوا من هناك⁶.

¹ - الحسين الورثلافي، المصدر السابق، ج03، ص ص:119-121.

² - المصدر نفسه، ج02، ص362.

³ - هواري قبائلي، المرجع السابق، ص250.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص75.

⁵ - لمزيد النماذج عن حالات وفاة الجزائريين في رحلة الحج. يُنظر الجدول المعدّ ضمن الملاحق المرفقة بالبحث.

⁶ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص286.

* وفاة حاج اسمه "محمد" في درب الحجاز سنة 1180هـ/1766م، وأصله من مدشر أسامة (نواحي بجاية). وقد وصفه من كان معه بأنه "رجلٌ صالح مُدتمٌ للصوم، كثيرُ الصمت، قليلُ الاضطراب، لا ترى عليه إلا آثار الخير دائماً"¹.

* وفاة الشيخ "عبد الرحمن بن عمر التنايني" أحدِ أعيان وعلماء منطقة توات بمدينة القاهرة سنة 1189هـ/1775م. فصلَّى عليه جميع من كان في الركب، إضافة إلى ألوفٍ من المصلِّين من مصر، ودُفن بمقبرة سيدي عبد الله المنوفي وصيةً منه².

* وفاة الشيخ "مصطفى الغريسي" جدُّ الأمير عبد القادر في برقة الليبية عند معطن ماء يُعرف بعين غزالة سنة 1212هـ/1797م، وقبره فيها شهير، يتبرَّك بزيارته الكبير والصغير³.

* وفاة سرِّيَّة (جارية)، كان أحد الشيوخ يصطحبها معه، بالقرب من مدينة قابس التونسية، مما اضطرَّ الركب إلى التوقُّف عن المسير لفترة طويلة، من أجل تجهيزها ودفنها. يقول عن تلك الواقعة الرحالة المصعبي⁴: (الطويل)

هُنَالِكَ قَدْ مَاتَتْ لِشَيْخٍ سَرِيَّةٌ فَظَلَّ بِتَجْهِيزِ إِلَى الشَّمْسِ ضَاحِيًا

ومن محاسن الأقدار أنَّ معظم حوادث الوفاة قد وقعت في رحلة العودة، أي بعد أداء مناسك الحج. هذا بالإضافة إلى عشرات الحجاج المتوفين أثناء المجاورة بالحرمين الشريفين، أو في الأقاليم القريبة من الحجاز بعد زيارتها أو الاستقرار بها، مثل: الشام ومصر واليمن والعراق.

وقد أسهم وجود منصب وكيل الجزائر بمصر (بالإسكندرية غالباً) في نقل تركات وأموال الحجاج الجزائريين المتوفين بمصر إلى ذويهم بالجزائر، ثم أصبحت مهمة صيانة أملاك وأموال الحجاج المتوفين بمصر موكلة إلى "بيت مال الجزائرية"⁵، الذي أقره الأمراء المماليك المصريون

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص171.

² - الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و03.

³ - محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ج02، ص302.

⁴ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص70.

⁵ - بيت المال عند العثمانيين هو المكان الذي تُحفظ فيه تركة الميت الذي لا وارث له، أو من لم يُعيَّن له وارثٌ بعد، وإذا لم يظهر لهذه التركة وارث خلال خمس سنوات تؤول ملكيتها تلقائياً إلى بيت المال، وإن ظهر لها وارثٌ أخذ بيتُ المال عن التركة ما نسبته واحد على أربعين (2.5%) من قيمتها نظير حفظها. يُنظر: سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص219.

منتصف القرن 12هـ/18م¹. ولم يكن الركب الجزائري كذلك يغفل عن زيارة قبور الحجاج الجزائريين المتوفين فيما سبق من المواسم، والدعاء لهم بالرحمة والمغفرة.

03. سلوكيات وعادات سيئة من بعض الحجاج:

الحجاج ضيوف الرحمن أولى الناس بلباس التقوى والعفة والزهد، إلا أن سفرهم محاط ببعض السلوكيات الفردية أو الجماعية المسيئة لأشخاصهم وسمعتهم. منها ما يُيديه الحجاج بقصدٍ، ومنها ما يتم عن غير قصدٍ. ذكر بعضها الرحالة العامري التلمساني ناصحاً الحاج²: (الخفيف)

لا تُفارق جماعة الشيخ كفي لا تستبد بيتهاك التيهاء
واعتقد أن ذاك آخر حج فتحفظ مما به البأساء
مثل زور وغيبة ونميم بيس للمرء هذه الأشياء
وكذا كذب وعجب وخمر وفسوق وسمعة ورياء

لقد كانت مهمة ضبط الحجاج وتنظيمهم أكبر تحدٍ يواجهه الركب، نظراً لكثرة أعدادهم، وتقارب المحطات والمنازل، وما يحيط بها من نزول وقيام. فهناك نموذج لحجاج لا يسيرون بسير شيخ الركب، ولا ينزلون بنزوله، فهم متمردون على النظام، ويغضبون إذا نهأهم أحد الحجاج عن ذلك، الأمر الذي يؤدي - لا محالة - إلى الهرج والمرج في القافلة، بسبب أنانية البعض وتعصبهم، وسعيهم لإحراز السبق باستمرار³. وغالباً ما كان يقع تدافع الحجاج الجزائريين وتسابقهم إلى الآبار وغدران الماء، فيشتد التنافس ويظهر الشقاق. من أمثلة ذلك أن حجاجاً تسابقوا إلى غدِير صغير في منطقة قلما يوجد بها الماء، وكل منهم رغب في السقي أولاً، فأدى ازدحامهم على الغدير إلى أن صار الماء طيناً، ولم يُوف أحد مقصوده منه⁴!

وفي عادة سيئة أخرى تكررت من طرف الحجاج المغاربة في درب الحجاز، قامت مجموعة من الحجاج الجزائريين بمغادرة الركب، وتسبقوا لصعود جبل "الرملة الكبير" المشرف على "بدر"، رجاء أن يسمعو صوت ضرب الطبل المدوي؟ فقد أخبروا بأنه يُسمع في كل موسم حج في مكان

¹ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص75.

² - محمد المنوني، المرجع السابق، ص92.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص67.

⁴ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج01، ص433.

حدث معركة بدر الكبرى، تعبيراً عن نصرته أهل الإيمان على الكفار في تلك المعركة، رغم أنّ حجاجاً آخرين أكدوا لهم أنّه لا يعدو أنّ يكون صوت طبل ركب حج متأخراً، أو رجوع صدى حوافر الدواب¹! كما قام حجاج من الركب في الرصيف الحجازي بجمع بعض القطع النقدية والشموع، ثم أرسلوها في البحر على لوح خشبي إلى ضريح أحد الأولياء الصالحين، المدفون في جزيرة صغيرة نائية بالبحر الأحمر. راجين وصولها إليه²!

والأمير المشيخ في السفر - رغم ندرته - هو نشوب الفتنة بين الحجاج الجزائريين داخل الركب ذاته، مثلما حدث في حجة 1179هـ/1766م، حيث تعارك حجاج بلدين تنتميان إلى طائفتين متخاصمتين من قبل بالحجر والعصي، مما أدى لحدوث الفرقة والنفور في الركب، لولا تدخل بعض الفضلاء من الحجاج الذين نجحوا في الإصلاح بينهم³. وحين عاود الحجاج الهرج وظلم بعضهم بعضاً في درب الحجاز غضب حجاج مسلمون واغتازوا من ذلك، فأقسموا بالله أنّ لا يبيتوا معهم ليلتها، وامتنطوا بغالهم متوجهين نحو الركب المصري الذي كان قريباً منهم⁴.

كما كان يصل اللغو والجدال إلى داخل المسجد الحرام، بسبب تصرفات بعض الحجاج السيئة. وذلك - مثلاً - حينما يُفتح باب الكعبة المشرفة لتعليق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة في يوم النحر لمدة قصيرة، فيتزاحم الحجاج على الباب، ويحصل لكثير منهم حينها سوء أدب من ضرب وشتم بألفاظ يُنزه المكان منها⁵.

ومن تلك السلوكيات داخل المسجد الحرام أيضاً أنّ حاجاً جزائرياً أحسّ بالتعب بعد الطواف، فجلس ومدّ قدميه اتجاه الكعبة المشرفة، فإذا بحاج تركي بجانبه يوبّخه قائلاً: "لقد تعبت كثيراً وتكلفت كثيراً حتى وصلت هنا، لكنك بمدك قدميك نحو الكعبة المشرفة ترتكب عملاً غير وقور!"⁶. ومما كان يُعاب على الحجاج جميعهم في ذلك العهد هو رمي المخلفات والأقذار في كلِّ

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص205.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص43.

³ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج01، ص440.

⁴ - المصدر نفسه، ج02، ص242.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص321.

⁶ - جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص64.

مشعرٍ أو مزارٍ تحطُّ فيه رِكابهم. بل لقد تكدَّست أوساخهم - ذات موسمٍ - في المسعى بين الصفا والمروة، وعلى مداخل أبواب المسجد الحرام ذاته!¹

وهذا الرحالة الحضيكي يُنبِّه الحاجَّ الجديد إلى سلوكٍ خطير، ابْتُلي به بعض الحجاج المغاربة أثناء تسوقهم مع النساء البدويات المتبرِّجات، يقول الحضيكي: "... اتَّقِ الله يا أخي، فلا تبيعنَّ شيئاً من ذلك للنساء المفتنات، واحذر ما تفعله عامَّةُ الحجاج وسفلتُهم من مخالطتهم مع نساء العرب، ومعاملتهم لهنَّ، واختلائهم بهنَّ، ومضاحكتهم معهنَّ. إِيَّاكَ!"².

إنَّ تلك السلوكيات والممارسات السيئة قد تؤدِّي بالحاج إلى الوقوع في المحرِّمات، فيحبط عمله المخوف بالنَّصَب من يوم طلوعه إلى يوم رجوعه. ويصدق فيه قول الشاعر³: (الوافر)

حَجَّجْتَ الْبَيْتَ لَيْتَكَ لَا تَحْجُجُ وَمِنْكَ الرَّكْبُ فِي الْأَفَاقِ ضَجُّوا
وَرُحْتَ بِحِمْلٍ أَوْزَارٍ ثِقَالٍ فَعُدْتَ وَفَوْقَ ذَاكَ الْحِمْلِ خَرَجُ

المبحث الرابع: تواصل الركب الاجتماعي الإنساني مع مجاله

01. في البوادي والبنادر:

تُعتبر البوادي والبنادر المعدَّة لنزول ركب الحج إحدى المواطن الأساسية التي ترتادها قبائل العرب (البدو الرحل) باستمرار، حيث تلقى الخير الكثير بنزول الركب بإزائها. فالأسواق التي يُقيمها الركب مع "الأعراب" بيعاً وشراءً هي المجال الرئيس للقاء الطرفين وحدوث التواصل بينهما، سواء في بُعدِه التجاري أو في بُعدِه الإنساني. ورغم أنَّ الحجاج تكرَّرت شكواهم من إذابة بعض البدو للركب، إلا أنَّهم لا يجدون بُدّاً من مخالطتهم، فهم سلاح ذو حدين كما بيَّن الرحالة السجلماسي في الحالة التالية المرتبطة بأعراب بلاد الزَّاب: "... وكسدت سلغ الحجاج التي جلبوا من سجلماسية بقصد البيع هنا، لغيبة الأعراب، ولكننا حمدنا الله على ذلك، لأنَّ مضرَّتَهُم أكبرُ من نفعِهِم، فإنَّهم تكثُر إذايتُهُم للركب، ويهْمُون بنهبه"⁴؟

¹ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص 79.

² - محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص 88.

³ - ابن الطيب الشريقي، المصدر السابق، و 19.

⁴ - الهاللي السجلماسي، المصدر السابق، ص 208.

ومن الآثار السلبية لذلك التواصل المتجدد كل موسم بين الطرفين معاينة الحاج للنساء البدويات الفاتنات في فُرَاهُنَّ ومضارب قبائلهنَّ، بحكم ضرورة التعامل معهنَّ أثناء التسوق في أغلب الأحيان، ونتيجة لعادات القبائل العربية المحاذية لمسار الركب المتساهلة حيال ذلك. وقد اشتهرت محطتان بدويتان بهذا الخصوص هما: بلدة "عين ماضي" الجزائرية (نواحي الأغواط) وبندر "عيون القصب" في درب الحجاز، ومن محاسن الصدف أنهما ترمزان معاً إلى العيون، التي تَغَيَّ بها بعض الرحّالين من الحجاج في سفرهم إلى الحج!¹ وذلك رغم قدسية ووقار تلك الرحلة، وتحذير الشيوخ للحجاج من كيد النساء أينما كانوا، في البوادي أو الحواضر.²

لكنَّ فتنة النساء البدويات المتزيّئات في أسواق الركب لم تُعَدُّ لوحدها مَثاراً استغراب، فقد اندهش الحجاج الجزائريون في أحد المواسم من أهل قرية يغتسلُ رجالها ونساؤها في مجرى وادٍ واحدٍ، دون سترٍ أو حشمة!، فما كان من بعض الحجاج سوى أن قاموا برمي جميع المغتسلين في ذلك الوادي بالحجارة، حتى فرَّ جُلُهم.³

ومن المحطات البعيدة الموغلة في الصحراء الكبرى، والتي استقطبت أنظار الحجاج الجزائريين إليها، قرية "زويلة" قاعدة إقليم فزان الليبي القديمة، حيث زار الحجاج فيها "سبع قبات" وهي قِبابٌ زعمَ أهلُ تلك القرية أنّها تضمُّ قبور ورفات من افتتحها من الصحابة والتابعين منذ القرن 01هـ/07م، دون أن يُعيّنوا للحجاج أسماء هؤلاء الفاتحين السبعة؟⁴

¹ - وصفَ أحدُ الرحالين نساء "عين ماضي" بـ "ذوات العيون الفَوَاتِر، الحَادَّةِ مثلَ السِيوفِ البَوَاتِر" مُستشهداً: (الوافر)

عَيْنُ مَاضِي بِهَا عَيْونٌ مَوَاضٍ فَاعِلَاتٌ فِعْلُ السُّيُوفِ المَوَاضِي
وَقُدُودٌ تَزْهُو إِذَا قَدَّتِ القُلُوبُ ازدهاءُ الأَعْصَانِ بَيْنَ الرِّيَاضِ

ووصفَ آخرُ نساء بندر "عيون القصب": "ورأينا مجاوراً لتلك العيون نسوةً من العرب يُوصَفْنَ بِحُسْنِ العَيْونِ" مُنْشِداً: (الرملة)

قَدْ وَصَلْنَا لِعَيْونِ القَصَبِ وَاسْتَرَاخَ القَلْبُ بَعْدَ النَّصَبِ
وَتَشَوَّقْنَا لِشَادٍ مُطْرِبٍ يَتَغَيَّ بِعَيْونِ القَصَبِ

يُنظر: ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و32. أيضاً: أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص222.

² - حدَّرَ الشَيْخُ الوَرْتَلَانِي الحجاج من فتنة نساء تونس كذلك: "... وهنَّ يُرْعَنَ مَنْ فُتِنَ، نَعَمَ تونِسَ مَنْ لم يكن على حدٍ فيها من النساء زلَّ في مَهوَاةِ الضلال، وسقط في مَفَاذةِ الهلاك". يُنظر: الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج03، ص312.

³ - المصدر نفسه، ج01، ص267.

⁴ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و11.

كما أبدى الحجاج إعجابهم الكبير بقرية "سيوى" على الحدود مع مصر، ذات التمر الجيد، وبصفة أخصّ بأهلها الذين أخبروا الحجاج بأنهم يولّون أمرهم لاثني عشر شيخاً من أجلاء شيوخهم، لهم سياسة وشهامة، فلا يجسُرُ عليهم أحدٌ من الأعراب ولا من غيرهم¹! وهي تجربة بدوية رائدة في مجال الحكم والإدارة والسياسة.

وكان يحدث في السفر أن يُبادر أهل البوادي والقرى إلى توجيه الحجاج الجزائريين للسقي من منابع الماء، وتحذيرهم من العيون الضارة أو المالحة، وكذا إعلام الحجاج بما يسُرُّهم من أخبار رخاء أسواق المدن وخصب الطريق². ففي إحدى الحالات تلقى جماعةٌ من "العرب" الحجاج الجزائريين في أطراف قربتهم، وطلبوا منهم الدعاء، وحين ارتاب بعض الحجاج منهم خاطبواهم مُطمئنين لهم: "لا تخافوا فلا بأس عليكم، ولا ضررَ لديكم"³.

وفي الريف المصري تعرّف الحجاج الجزائريون على نهر النيل عن كثب، وعلى مصبّه الرئيسيّين في رشيد وفي دمياط، وشاهدوا بلّ شاركوا الفلاحين المصريين سعادتهم بفيضان النيل، وإقامتهم الأفراح بعد انحسار مياهه، التي غمرت الأرض أربعين يوماً⁴. غير أنّ الحجاج هالهم حجم العمارة المتصلة على ضفاف النيل بمقدار مسيرة الشهر، وشكوى الفلاحين لهم من احتقار وإهانة الجند الأتراك، فهم يضربون ظهورهم، ويصادرون أموالهم وأراضيهم⁵.

وتعدُّ بركة الحاج من نقاط التماس المباشر بين الحجاج الجزائريين وغيرهم، نظراً لخروج الجميع إليها، حجاجاً لمواصلة السفر، وسكاناً للتنزّه ومُرافقة الحمل. كما يتعارف الحجاج بحجاج الشام في محطة رابع، حيث يُخيّمون بالقرب منهم، ثمّ ينفضون أحبيتهم ويرحلون قبلهم.

وعلاقات الحجاج في رحلة الحج لم تكن مقتصرة على المسلمين فقط، فقد التقى الحجاج الجزائريون في إحدى سفرياتهم بنصارى مصر الأقباط، منعزلين في كنائس بوادي الرهبان في الريف الغربي المصري، لا يدخلُ عليهم أحدٌ من غير جنسهم، وليس لهم زرغٌ ولا ضرغٌ، وإنما تأتيهم

¹ - عبد الرحمن التتلاي، المصدر السابق، و14.

² - المصدر نفسه، و09.

³ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج03، ص118.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص28.

⁵ - الحسين الورثلاي، المصدر نفسه، ج02، ص23.

الكسوة والطعام من نصارى المدن القريبة منهم، ولكن لما مرَّ الحجاج بقرهم في العودة أشرفوا عليهم وحاوروهم، وسألوهم عن حالهم مع رحلة الحج، وعن أخبار القاهرة كيف تركوها؟¹.

ومن أروع قِيم التواصل الإنساني قيام الركب الجزائري في عودته من الحج بإجلاء قبائل بدوية ليبية فقيرة، من بنغازي إلى مصراتة، وقد أنهكها الجوع والعوز والخوف، فضيَّفهم بعض الحجاج طيلة السفر في حدود طاقتهم، وآثروهم على أنفسهم رغم المشقَّة والحِصاصة، حتى أصبح يتجمَّع أمام كلِّ خيمة من خيام الحجاج - أثناء النزول - الستون سائلاً أو مسكيناً من أولئك البدو². لقد ظلَّ ركب الحج المتنقِّس الهام لقبائل البدو الأعراب رغم إساءاتهم المتكرِّرة لأفراده.

02. في المدن والحواضر:

تُعتبر المحطة المصرية أهمَّ المحطات الحضرية في طريق ركب الحج، نظراً لميزاتها من جهة، وطول فترة الإقامة بها في الذهاب وفي الإياب من جهة أخرى. فمصر (القاهرة في القصد) في نظر المغاربة هي: "أمُّ البلاد شرقاً وغرباً، الجامعة بين الخير والشرِّ، لأنَّ مجتمعها متنوعُ الأجناس، وقاصدها يجد فيها رغبته ومُناه، فمن طلب جنساً وجد منه فوق ما يظنُّ، فيعتقد أنَّ غالب أهل البلد كذلك"³! كما يجد الحجاج ضالتهم في معالمها الشهيرة، كالأزهر والقلعة والفسطاط ومشهد الإمام وجامع ابن طولون والأهرام والأسواق الشعبية وزوايا أهل العلم والأدب والأخبار...⁴.

والقاهرة - كما وصفها أحد الحجاج - مدينةٌ آهلةٌ بالمساجد والجموع، يصلُ عددها زهاء خمسة آلاف مسجد، وفي معظمها توجد آبار تزوِّدها بالمياه، وثمة رجال معيَّنون يجلسون عند نوافذ المساجد لتقديم الماء لكل عابر، وتُزيَّن مآذن المساجد وشرفاتها عند حلول شهر رمضان بمصايح كثيرة مبهرة في جمالها⁵. ويشجِّع الحجاج على زيارة أحياء القاهرة والتواصل مع مجتمعها وجودُ

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص231.

² - المصدر نفسه، ج03، ص238.

³ - ذكر الرحالة المغربي العياشي في رحلته أنَّ أحد الحجاج أُخبرَ بأنَّ أربعة أشخاص اجتمعوا في بيتٍ واحدٍ بالقاهرة ليلاً، وهم: تاجرٌ، وطالبٌ علم، وصوفيٌّ، ومسرفٌ على نفسه من أهل الجون. فتحدَّث كلُّ واحد منهم بما رآه في النهار، وبأنَّه وفي غرضه ممَّا أراد. فتعجَّبوا ممَّا سمعوا، وبدا لهم كأنَّ مدينة القاهرة إنما جُعِلت لذلك الغرض دون غيره. ينظر: أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص222.

⁴ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص115.

⁵ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص33.

عائلات جزائرية من قسنطينة والجزائر وتلمسان ووهران، استقرت في مدينتي القاهرة والإسكندرية منذ مطلع القرن 10هـ/16م، منها عائلات: قسنطيني وابن منديل وابن قريش والقرموني وبوزيان وبونهار والصباحي والحناوي والوهراني والصباغ والسايح والتمراني وشعلان...¹

إن وجود تلك العائلات وتواصل بعض الحجاج الجزائريين معها، بالإضافة إلى "اجتماعية" البعض الآخر من الحجاج، ومبادراتهم الشخصية، كلُّها مثَّلت ظروفًا مثالية لإقامة الركب بارتياح، وتخفيف أفرادها على التواصل بمحيطه المؤقت، فيزور الحجاج مسليات المدن المصرية، ويُشاهدون عجائبها المتعددة. ومن عجائب مصر - والعالم بأسره - التي أصرَّ بعض الحجاج الجزائريين على رؤيتها أهرامات الجيزة، حيث اندهشوا من شكلها وضخامتها².

وقد نزل بعض الحجاج الجزائريين بالقاهرة ضيوفاً على نقيب كسوة الكعبة المشرفة، في أحد المواسم، واطَّلعوا على ظروف نسج الكسوة الشريفة، وأخبرهم النقيب (أو شاوش الكسوة) بأن كسوة الكعبة المشرفة تقام كل سنة بمبلغ اثنين وعشرين ألف كيس من الدراهم، ويكلف المحمل الذي توضع فيه سبعة أكياس، كلُّ ذلك من ربيع الأوقاف المخصَّصة لهما³. ويوم خروج المحمل والكسوة من القاهرة نحو بركة الحاج يوم مشهود، يجمع بين الحجاج والسكان في مشهدٍ عظيم، وصفه الرحالة ابن مسايب التلمساني قائلاً⁴: (المديد)

شَاوَشُ الْمِحْمَلِ وَالْكَسْوَةِ تَبَعْتَهُ رُجَالٌ وَنَسْوَهُ
مَا بَقَاتِ الدُّنْيَا تَسْوَى عِنْدَ نَاسٍ لَا تَهْوِيهَا

وتوجد بمدينة القاهرة أسواقٌ لبيع الإماء والجواري على اختلاف أصولهن وأعمارهن، ويُقبل على شرائهن ميسورو الحال من الحجاج، كما فعل شيخ الركب الجزائري ذات موسم، حيث قام بشراء أمةٍ علجية أوروبية من أحد الأسواق، بمبلغ كبير من سكة ذلك العصر الفضية⁵. كما انتشرت في أحياء مدينة القاهرة بعض بيوت الحنا والبغاء، فهناك شوارع معينة ومواقع خاصة بهذا

¹ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص 76.

² - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و 04.

³ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 02، ص 46.

⁴ - Ben Messaib, Op.cit, p280.

⁵ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر نفسه، و 04.

النوع من البيوت، تسكنها بائعاتُ الهوى، اللائي يَقْفَنَ أمام أبوابها بكلِّ جرأة، وَيَهْدِفْنَ إلى الإيقاع بالرجال العابرين وإدخالهم لهذه الأوكار!¹

لم يكن الحجاج المغاربة ليرضوا بشيوع الفاحشة أثناء تواجدهم في مصر، خاصة إذا كانت ممارستها تتمُّ قريباً من أماكن نزول أركانهم. فقد نقلَ "الجبرتي" في تاريخه من حوادث سنة 1202هـ/1788م الفتنة التي وقعت بين الحجاج المغاربة النازلين على شاطئ النيل في بولاق، وبين عسكر أحد المماليك، بسبب تعاطي العسكر المنكرات الشرعية مع بعض النسوة جهاراً، وحينما تمَّهَّم الحجاج عن ذلك أطلقوا عليهم النار، فثارَ عليهم الحجاج، وتبعوهم إلى مراكبهم التي فُتُّوا إليها، ومسكوا من مسكوه، وذبحوا من ذبحوه ورموه إلى النَّهر²! وهو ما نستشفُّ منه شدَّة الحجاج المغاربة في التَّهْي عن المنكر، ورفضهم لأيِّ سلوكٍ دينيٍّ مُدنِّسٍ لمسارِ حجِّهم.

ومَّا يدلُّ على جرأة الحجاج الجزائريين في تفاعلهم مع مستجدَّات محيطهم أنَّ وفداً منهم أصرَّ على لقاء شريف مكة الأمير "مساعدة بن سعيد" (ت1184هـ/1770م)، طلباً لتعويض إبلهم التي أغار عليها عربُ الحجاز عند إحدى الآبار، فاستقبلهم الأمير "مساعدة" بفرح شديد لما علم أنَّهم أهلٌ علمٍ، وأنَّهم من "عمالة الجزائر"، وسلَّم عليهم بتقبيل الكنف للكتف، ووعدهم بإرجاع إبلهم التي ضاعت منهم، سائلاً منهم الدعاء له ولذريته³.

وفي مكة المكرمة لا تكاد تُميِّزُ الدُّور التي تستقبل الحجاج الجزائريين عن دُور غيرهم من الساكنين فيها أو القادمين إليها، إذ تقوم كلُّ جماعةٍ منهم بكراءٍ دارٍ ينزلون بها، ويكون لقاءهم واجتماعهم في المسجد الحرام⁴. وبسبب حرارة المدينة الشديدة كان بعض الحجاج ينامون فوق أسطح المنازل ليلاً، مستخدمين قطعاً من القماش يظَلُّون يُبَلِّغونها بالماء المرَّة تلو الأخرى⁵.

ويتميِّز أهل الحرمين الشريفين ببعض العادات التي أثارت انتباه الحجاج، منها التهنئة بجلول الشهر، أيِّ شهر كان، ولا يُقصرونها على الأعياد وما شاكلها، فيهنئ الواحد منهم أقرابه

¹ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص32.

² - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص248.

³ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج02، ص327.

⁴ - المصدر نفسه، ج02، ص328.

⁵ - جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص49.

وأصحابه في أول يوم من كلِّ شهر¹! ومن عادات أهل المدينة المنورة في الزواج أن يُؤتى بالعريس ليلة الدخول إلى باب المسجد النبوي بعد العشاء، يحيطُ به جماعة من أقاربه يحملون الشموع، فيدخل ويسلم على النبي - صلى الله عليه وسلم - ويدعو ثم يخرج، ومن هناك يزفونه إلى بيت العروس في دار أهلها، فإذا أصبح الزوج ذهب إلى بيته، وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج!²

وكان تواصلُ الحجاج بالمدينة المنورة مع فئةٍ مميّزة تتولّى خدمةً الروضة الشريفة والمسجد النبوي، إنهم عبيدٌ أغوات موقوفون على ذلك، لا يشاركونهم غيرهم، وشيخُ الحرم المدني هو كبيرهم. و"الآغا" يقصدون به هناك الخصي من العبيد، أو "الطواشي" كما يُسمّيه المشاركة، فيتوزّع هؤلاء الطواشيّة بين جنات المسجد النبوي في نظامٍ شديد، إذ لكلِّ واحد منهم رتبة معلومة وشغل معلوم. وسببُ تفضيل وقف الطواشية أو الخصيان لكونهم أنزرة وأطهر من دنس الجنابة ومباشرة النساء، ويزيد عددهم بالمسجد وينقص بحسب كثرة الرّاعبين في الوقف وقتلتهم³.

وقد يقوم البعض من المغاربة بإرسال عدد من هؤلاء العبيد الخصيان مع أركاب الحج إلى الحرمين الشريفين تحبباً، وذلك على مذهبي الحنفية والمالكية الذين يجوّزون هذا النوع من الوقف⁴. ولا غرو إذ أن نجد للحجاج الجزائريين السّبق في هذا الأمر، فنذكر - مثلاً - أن أحد شيوخ قبيلة "أولاد سيدي الشيخ" بالسهب الجزائرية الغربية حجّ وأوقف غلاماً خصياً على المسجد النبوي الشريف اسمه "يحيى"، فأصبح ذلك الغلام يُنسبُ إليه، وترقى في المناصب، حتى وصل رتبة كبير الأغوات لاحقاً⁵.

ونظراً لوجود قبور شهداء أحد بالقرب من المدينة المنورة فإنَّ الحجاج الجزائريين رافقوا أهل المدينة في خروجهم المعتاد كلَّ يوم خميس لزيارة قبر سيدنا حمزة - رضي الله عنه - وبقية الشهداء،

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 441.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 03، ص 82.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 550.

⁴ - لا يرى الشافعية والحنابلة صحة هذا النوع من الوقف، على خلاف الحنفية، وقد أُلّف الشيخ الحافظ جلال الدين الشيوطي (ت 911هـ/1505م) كتاباً بخصوص خدمة هؤلاء "الطواشية" في المسجد النبوي، سمّاه "حرمه خدمة الخصيان لضريح سيّد ولد عدنان". يُنظر: محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق، ص 263.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 01، ص 459.

وزاروا مشهدَه الذي وُضع له بابٌ مصفَّح بالحديد، وبُنيت عليه قبة عالية متقنة، في بناء متَّسع، يحوي بئراً وأحلية للوضوء متصلة بالسطح¹.

شكَّلت "الملاقيّة" التي كانت تُقام لأركاب الحج عند عقبة أيلة في الدرب الحجازي فضاءً من فضاءات اجتماع الحجاج بالسكان الحضر من أهل الشام وعزّة ومصر، وتُنصب أثناءها سوق كبيرة بين الحجاج ومستقبليهم. أمّا سكان مدينة القاهرة فإنَّهم كانوا يستقبلون الحجاج بالفول والدقيق وأصناف الطعام الأخرى، فيخرجون إلى بركة الحاج لملاقاة الركب المصري والجزائري وغيرهما، والتبرُّك بمقابلة الحجاج العائدين من الحرمين الشريفين، لأنَّ الأركاب تصلُ إلى البركة تبعاً، فتمتلى الطريق منها إلى القاهرة بالأحبية والخيام والأسواق².

ولا يلقى ركب الحج الجزائري من الودِّ والضيافة في سائر المدن التي يحلُّ بها مثل الذي يلقاه في مدينة طرابلس الليبية، حيث يفرح الفضلاء والأعيان من ساكنة المدينة ونواحيها بمقدم الركب الجزائري، ويكرمون وفادته، ويُنافسهم في ذلك عامَّة أهلها، ذلك ما شهد به الرحالة المحاجي في حجَّته، فقال³: (الطويل)

طرابلس المعلومُ بالجودِ أهلها وفيها رجلٌ مشهورٌ بالولاية
وأهلها أيضاً ضيفوا الركبَ كُلَّهُ وقد أبدلوا مجهودهم بالكفاية

فالكثيرون من الحجاج في ذلك الزمان كانوا يُكبرون في أهل طرابلس شغفهم برؤية ركب الحج، وإتيانهُ أفواجاً أفواجاً، فهم في نظر الحجاج الجزائريين أهل اعتقاد ومحبة، يتبركون بالحجاج، ويطلبون منهم الدعاء. وقد ألقوا مرَّة الحجاج الجزائريين جاععين نهمين للأكل، بسبب الجفاف وطول السفر ونفاد الزاد، فأطعموهم اللحم والخبز والتمر والفتير (المسمن)⁴.

لذلك كان الركب الجزائري يُقصر في السير أحياناً لأجل الراغبين في ملاقاته وإكرام وفادته، من أهل إيالة طرابلس الغرب. وكذلك الشأن بالنسبة لإيالة تونس، فقد أثنى الحجاج على كرم أهلها في مناسبات كثيرة، رغم أنَّ مدينة تونس بالذات لم تكن محطة ثابتة في سفر الركب.

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص35.

² - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص193.

³ - عبد الرحمن المحاجي، المصدر السابق، و05.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج03، ص249.

المبحث الخامس: عادات استقبال الركب ودوره في الإخبار

01. مظاهر الفرح والسرور بمقدم الركب الجزائري:

إنَّ زمنَ غياب ركب الحج عن وطنه الجزائر كبير جداً، حتى أنَّهم قالوا عن أركاب الحج في أمثالهم: "عُدُّوْهَا عَامٌ وَرَوَّاحُهَا عَامٌ"¹! ونظراً لحجم المتاعب والمشقات التي كان الحجاج الجزائريون يُعانون منها في سفرهم ذهاباً وإياباً، وظروف رحلة الحج المحاطة بالمخاطر من كلِّ جانب، فقد أصبح أهالي الحجاج يتلهَّفون إلى عودتهم سالمين، وكأنَّهم عائدون من دار حرب وقتال!. إذْ تَقْصُرُ العبارة عن وصف مظاهر الفرح والنُّزْهة والسرور بمن قدم من الحجاج سالماً.

كان أهل القرى والمدن الجزائرية يستقبلون الحجاج بالطبول والمزامير، وإقامة الولائم والأفراح، وتحديد واجهات المنازل وفرشها، لا فرق في ذلك بين أمير وفقير. وحيثما حلَّ الركب يلقي الضيافة والبشاشة من لدن سكان القرى والمدن التي تملأ طريقه، بدءاً من مداخل البلاد الشرقية، فيزدحمون رغبةً في الوصول إلى الحجاج إلى درجة "النَّهْم للتقبيل والمعانقة"²!

من نماذج الكرم والقرى الدِّين دأب عليهما سكان المدن والقرى الجزائرية في ملاقات ركب الحج العائد، خروج أهل "الزربية" الواقعة على الطريق بين توزر والزَّاب لإيقاف سير الركب، من أجل نزوله عندهم وإطعامه، والسلام على أمير الركب بصفة مُلَّحة³. أمَّا أهل "برج زمورة" من القبائل الصغرى فقد خرجوا عن بكرة أبيهم لاستقبال الحجاج، بينادقهم وغيرها من ألعاب الترفيه والفرح، ثم انقسموا على أنفسهم طوائف، كلُّ طائفة تريد أن تُطعم الحجاج، وتعرض عليهم المبيت عندها، حتى وصل تنافسهم إلى درجة الفتنة والهرج بسبب ذلك، ثم آل الأمر في الأخير إلى إحدى الطائفتين غلبةً وقهراً⁴؟

كما كان أهل "القنادسة" البعيدين عن منافذ دخول الركب يستقبلون الحجاج الجزائريين الواصلين، والمغاربة العابرين، بسباق الخيل وضرب البارود، إظهاراً للفرح والسرور⁵.

¹ - محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص 264.

² - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص 109.

³ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و 07.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 03، ص 374.

⁵ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 732.

لم يكن بمقدور ركب الحج حينها أن يجدَّ في السير داخل إقليم إيالة الجزائر، حيث يمتلئ الوعرُ والسَّهْلُ بالناس البسطاء الذين يرغبون في رؤية الحجاج، واغتنام البركة، وطلب الدعاء منهم، لما وردَّ من أنَّ دعاء الحجاج مستجابٌ ما دام في الطريق ولو طالت¹. وتتماثلُ صورُ العادات في استقبال الحجاج، وتتشابهُ في كامل أرجاء البلاد، من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، ضربٌ ولعبٌ بالبارود، وذبحٌ للأنعام، وضيافةٌ لجميع الحاضرين.

ففي ضيافةٍ عظيمةٍ على شرف حجاج الغرب الجزائري بسهلِ غريس ".... دُبح خلال هذه المناسبة خمسة عشر بقرة وثمانون شاة، وحضر الضيوف من كلِّ الدرجات والطبقات، كلَّ ساعةٍ من جميع الأنحاء، تلقائياً ودون دعوة.... وهكذا مرَّت الأسابيع الواحد تلو الآخر، وما زال الضيوف الجدد يصلون باستمرار، لينضافوا إلى سيلِ الولايم العام"²! ويطول أمدُ الضيافة واستقبال المهتئين بسلامة العودة من الحج إذا كان الحاج من عليّة قومه، معروفاً في ما جاورها.

وعلى ذكر أمدِ الضيافة فإنَّه قد يتجاوز المعتاد، فيتضاعف عددُ الزوار والمهتئين أضعافاً كثيرة، وهذا الرحالة الورثلاني يصفُ أجواء التهئة بالحج عند الجزائريين في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م قائلاً: ".... تأتي إلينا الوفود من كلِّ وطن، تبلغ تارةً ألفاً، وتارة أكثر من ذلك نحو ألف وأربعمائة، ثمَّ كذلك على حسبِ القلة والكثرة، إلى أن انقطعوا في مدة طويلة نحو الشهرين"³! وهي كلها علامات تؤكِّد مدى ارتباط الجزائريين بركب الحج والحجاج.

لا يغفل الحجاج الجزائريون هم كذلك عن إكرام أهاليهم ومستقبليهم بهداياهم من ماء زمزم، الذي يجلبونه معهم في قوارير من صفيح أو نحاس أصفر، فيتلقَّاه الناسُ بامتنانٍ كبير وفرحٍ غامر، ويرتشفون منه قليلاً، ويمسحون ببقية جوههم ورؤوسهم، ويرفعون أيديهم بالدعاء، طالبين من الله - عزَّ وجلَّ - أن يُتيح لهم فرصة الحج إلى بيته العتيق⁴. فالحجُّ يُغيِّر أخلاق وأحوال قاصديه من المسلمين نحو الأفضل، ويدفعهم إلى مداومة التوبة والاستغفار.

¹ - في حديثٍ مرفوعٍ عن ابن عمر أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلّم - قال: "إذا لقيت الحجاجَ فسَلِّمْ عليه وصافِحه ومُرّه أن يستغفرَ لك قبل أن يدخلَ بيته فإنه مغفورٌ له".

² - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص47.

³ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص385.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص58.

02. المخاطر الصحية الناجمة عن أوبئة الحجّ الجزائريين:

أ. حالات انتشار الأوبئة بسبب عودة الركب:

رغم مظاهر الفرحة وصوره المتنوعة في استقبال ركب الحجّ الجزائري إلا أنّ ذلك الفرحة كان يشوبه أحياناً بعضُ القلق من إمكانية نقل الحجّاج العائدين لأمراض خطيرة مُعدية يصعب علاجها، فمحطاتُ ومسارات تنقل الحجّاج أضحت بمثابة خطوط ناقلة للعدوى¹! وبالفعل فقد أصيبت - مثلاً - سفينة جزائرية كانت على وشك إجلاء الحجّاج من ميناء الإسكندرية بعد موسم حجّ 1091هـ/1680م بالطاعون، وذلك بسبب صعود بعض الأشخاص المصابين به من مدينة الإسكندرية، التي كان منتشرًا بها في ذلك الوقت، فسرى الطاعون بين الحجّاج، فشفي في الطريق بعضٌ ممن أُصيبوا به، ولم يُشفَ آخرون².

لقد ساهم ركب الحجّ بالإضافة إلى مراكب البحّارة وقوافل التجار في توسيع دائرة عدوى أمراض خطيرة مثل: الكوليرا، التيفوس، الجذري، السُّل وغيرها³. وكانت بؤادر الإصابة بالطاعون تظهر على جسم الحجّاج الجزائري في شكل دمل وبثور (تقرُّحات) تحت الذراعين وعلى الساقين. وفي ظلّ غياب الرعاية الطبية والأدوية الفعّالة - آنذاك - فإنّ محاولات العلاج كانت تتمُّ بأساليب تقليدية بسيطة، مثل شويّ البصل وتغميسه في الزيت، ثمّ وضعه على الدمل المنتفخ⁴!

يُعتبر وباء سنة 1202هـ/1788م من أخطر وأعنف الأوبئة التي عرفتها مدينة الجزائر، فقد فتك بآلاف السكان. وقد ساهمت حركة الحجّاج البحرية في نقله من مينائي الإسكندرية وتونس، حيث استقرّ فيهما لفترة زمنية قبل انتقاله إلى مدينة الجزائر⁵. واستمرّ فتك الطاعون بالجزائر بالموازاة مع عودة السفن الحاملة للحجّاج في معظم مواسم حجّ أواخر العهد العثماني بالجزائر، بل أصبحت مدينة الجزائر بؤرة انتشار الوباء في الأرياف وفي البلاد المجاورة.

¹ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص 29.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 75.

³ - لبصير سعاد: دوافع الهجرة العلمية والدينية من الجزائر في العهد العثماني، سوسولوجية الهجرة، مرجع سابق، ص 70.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص 76.

⁵ - أرزقي شويّتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ.د: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م، ص 288.

ويلاحظ أنّ ركب الحج البري كان أقلّ حملاً للوباء مقارنة مع البحري، بسبب إحصائه عن دخول المدن والمحطات الموبوءة، وبُعده النسبي عن نقاط التلاقي بالأجانب. وإذا حدث وتمّ تسجيل حالات وباءٍ داخل الركب فإنّ الجميع يحتاط لأمرٍ تعامله مع الحجاج. ذلك ما وقع للركب المغربي الموبوء أثناء عبوره أراضي الجزائر، فقد تجنّب أهل الأغواط عندما قيل لهم: في الركب وباء؟ فلم يتركوا أحداً من الحجاج يدخل إليهم، ولم يخرج منهم أحداً إلى الركب، وكانوا يُنزّلون الزرع للحجاج من فوق السُّور، ويأخذون النقود ويغسلونها، ولا يتناولونها إلا بعد الغسل¹!

ب - الحجر الصحي (الكرنينة) للحجاج والموقف منه:

الكرنينة أو الكرنينا تعني الحجر أو الحجر الصحي لمدة أربعين يوماً، وأصل الكلمة فرنسي، ويُقال أنّ أصلها إيطالي "Quarantina" بمعنى الأربعين، لأنّ المسافرين القادمين للبلد من الخارج والمشتبه في نقلهم للمرض يُحجزون في الحجر الصحي أربعين يوماً، حتى تثبت سلامتهم من الأمراض الوبائية². وبدأ العمل بالكرنينة في البلاد الأوروبية أولاً حسبما ذكر حمدان خوجة*: "اشتهر في بلاد الفرنج الاحتماء عن الوباء، وأعدّوا لذلك موضعاً سمّوه كرنينة، وحقيقتها إنما هي الاحتماء والاحتياط، وجعلوا ذلك في محلّ دخول الداخلين إليهم، وألزمهم بأن يمكثوا بتلك الأماكن إذا توهّموا أنّهم أتوا من بلاد بها الوباء إلى أن يتحقّقوا انقطاع أثرها عنهم"³.

يخضع الحجاج المسافرون بجزراً للحجز أو الحجر الصحي في مينائي الإسكندرية وتونس، فالركب القادم إلى تونس تعترضه "الكرنينة" إذا كان هناك شكّ في إصابة المسافرين بالطاعون، فيُعزّل زكّابه في قلعة وسط البحر أربعين يوماً⁴، احترازاً من عدوى الوباء. وكان باشوات الجزائر قد

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 546.

² - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 185.

* حمدان بن عثمان خوجة (ت 1256هـ/1840م) كاتب سياسي كرغلي، من طلائع الحركة الوطنية المقاومة للاحتلال الفرنسي، وُلد بمدينة الجزائر وبها نشأ وتعلّم، زار مدن البلقان واسطنبول، وفرنسا التي تعلم بها اللغة الفرنسية. بعد الاحتلال تزعم حمدان خوجة أول جراك وطني سياسي، عُرف بلجنة المغاربة. قارع الاستعمار الفرنسي بلسانه وقلمه، إلى أن تمّ نفيه، فكان أول مناضل عربي مسلم يُطرد من وطنه من أجل قضية وطنية. يُنظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 136.

³ - حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، دار الطباعة السلطانية، اسطنبول، 1592م، ص 16.

⁴ - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص 282.

اعتمدوا قاعدة الحجر الصحي على الحجاج العائدين خلال القرن 12هـ/18م، حيث تمّ حجز سفينة قادمة من الإسكندرية، تقلّ حجاجاً جزائريين سنة 1156هـ/1743م¹.

رغم أنّ أمر "الكرنتينة" مبنيّ على مبدأ الاعتناء بالنفس، واستواء الجميع في ذلك، وعدم مراعاة الخواطر، إلاّ أنّها في نظر الرحالة "ابن طوير الجنة الشنقيطي" معتقّد فاسد، لأنّ الموت لا يكون بالعدوى، وإنّما بانقضاء الأجل كما هو معتقّد أهل السنّة². وفي نظر بعض الحجاج فإنّ الكرنيتينة بدعة شنيعة، ممنوعة عرفاً وشرعاً، يُقلّد فيها المسلمون مسيحيي أوروبا.

لقد صبّ الرحالة المغربي أبو القاسم الزياني غضبه على مسؤول ميناء تونس سنة 1200هـ/1786م، بسبب معاناة الحجاج المغاربة من الكرنيتينة التي أجبرهم على المرور بها، في حين تساهل مع بعض الأوروبيين الموجودين بالميناء. ورأى بأنّها فعل شنيع، فقال³: (البيسط)

سَنَّ "الكرنطينة" الشَّنْعَا بِيَدْعَتِهِ فِي بِلْدَةٍ هِيَ دَارُ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ
يَحْسِبُهَا بِصَمِيمِ الْجَهْلِ مُنْجِيَةً يَقِي بِهَا النَّفْسَ مِنْ سُقْمٍ وَمِنْ عَطَبٍ

وبما أنّ الحجاج ليسوا مسافرين عاديين، ولم يقصدوا بارتحالهم التجارة أو السياحة، بل هم ضيوف الرحمن، ومقصد الزائرين المتبركين، فقد أعرب عالم جزائريّ عن رأيٍ حادّ بشأن الكرنيتينة، يقول فيه: "... قد كان الملوك والسلاطين المتقدمون يتلقّون الحجاج، ويخرجون للقائهم والسلام عليهم وطلب الدعاء منهم، ويهيّئون لهم الضائفة ويحسنون إليهم. فالأمر إلى أن صار ملوك السوء يمنعون الحجاج من الدخول إلى أمصارهم، ويأمرون بحبسهم مُدَّةً في مكانٍ مخصوصٍ يسمّونه بالكرنتينة، ويخرون ثيابهم بالكبريت، لتزول منهم رائحة تلك المعاهد الشريفة! ويكشفون أبدانهم وعوراتهم، وربّما حرّقوا ثيابهم"⁴؟

03- ركب الحج ودوره في الإعلام والإخبار:

يحمل الحجاج الجزائريون العائدون إلى أوطانهم ذكرياتهم عن رحلتهم، وما شاهدوه أو سمعوه من أحداث وأخبار متعلّقة بالحجاز خصوصاً، وبالمشرق عموماً. فيدوّن بعضهم ذلك ويحفظه،

¹ - لبصير سعاد، المرجع السابق، ص71.

² - Et-talib Ahmed Ben Towair Al-ganna, Op.cit, p221.

³ - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص364.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص22.

بينما ينقل البعض الآخر ذلك مُشافهة. والإحالاتُ العديدة لمصدرية أخبار "الحجاج" الواردة في مصادر ذلك العهد، كتاريخ الجبرتي - مثلاً - وغيره، تكفي للدلالة على أنّ ركب الحج أضحى قناة إخبار وإعلام، بل وربط وتواصل بما يحدث في المشرق.

أ. الإعلام بأخبار الحجاز والمشرق:

اهتمَّ الحجاج الإخباريون كثيراً بأخبار الحرمين الشريفين، لاسيما ما تزامنَ منها مع موعد الحج، فنقل الرحالة المُقري خبرَ نقصان عدد الحجاج في موسم 1035هـ/1626م نقصاناً جلياً، مُرجعاً ذلك إلى شدة الحرِّ غير المعتاد، وعليه فقد كانت الحُجَّة في غاية السكينة والاطمئنان، ونهاية الاستقرار والأمان¹. ومن أخبارِ الحجِّ ما تعلقَ بوصفِ وسيرة حاكم الحجاز وشريف مكة "زيد بن محسن" (ت 1077هـ/1666م)، وعدله وتواضعه ومحبة الناس والحجاج له، وثنائهم عليه لكونه من أحسن أمراء الحجاز سياسةً وحُسنَ تدبير².

كما نقل بعض الحجاج الرحالين وصفاً تفصيلياً وتخطيطياً للمسجد الحرام الواسع جداً في أواخر القرن 11هـ/17م، وكذا لأبوابه التي بلغت حوالي اثنين وأربعين باباً، تُفصي لممراتٍ مغطاةٍ بالحصى، باستثناء الممرات المؤدية للكعبة المشرفة فإنها رُصفتُ بأحجارٍ عريضة، في حين زُيِّن المطاف بالرخام الرفيع والأعمدة الحاملة للمصاييح الزيتية. أمّا الكعبة المشرفة فقد رُصفت بدورها وعُطِّرت، وألبست كسوة من حرير، مزخرفة بشريطٍ حروفٍ ذهبية³. ويُفتح باب الكعبة المرتفع يومَ قدوم الحجاج من مشعر منى لأداء طواف الإفاضة لمدةٍ قصيرة، ولا يُسمح بدخوله إلا للقيِّم وأمير الحج المصري وأتباعهما المعيّنين لذلك، ولمن انتهز تلك الفرصة من الحجاج⁴.

وبخصوص العبادة فقد ذكر حجاج بأنَّ صحن الحرم يمتلئ بالطائفين من الرجال والنساء بعد صلاة العشاء، حين توقد الشموع، غير أنّ النساء يُشكِّلن دائرة بعد دائرة الرجال، أي الدائرة الأبعد من الكعبة، ويعطي الرجال للنساء فرصة تقبيل الحجر الأسود إذا كان الطائفون قليلين⁵.

¹ - أحمد المُقري، رحلة المُقري، مصدر سابق، ص 244.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 326.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص ص: 50-54.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 02، ص 278.

⁵ - جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص 47.

ويمكن الاستعانة بالدواب وركوبها في المسعى، بين الصفا والمروة، وذلك لمن له عذر، أو عجز عن إتمام أشواط السعي بينهما في عُمرته¹. أمّا استخراج ماء زمزم من البئر الموجودة بالقرب من المقام فكان يتمُّ من طرف أربعة رجال، يستخدم كلُّ واحد منهم قريتين جلديتين مربوطتين بجبلٍ إلى عجلة صغيرة، وبينما تدور العجلة ترتفع القربة المملوءة وتقبط الفارغة².

ومن الأحداث التي وقعت في موسم الحج وتناقلها الحجاج - متأسفين - فقدان مفتاح الكعبة المشرفة سنة 996هـ/1588م من حجر سادِنِهَا المسمَّى "عبد الواحد الشيبى"، وبعد أن ضجَّ الناس لسماع الخبر، أُغلقت أبواب المسجد الحرام وفُتِّش الحجاج، فلم يُعثَر على المفتاح، وكان مصفَّحاً بالذهب، ثم وجدوه لاحقاً مع أحد الأعاجم في بلاد اليمن، ومعه مسروقات أخرى فرَّ بها إلى هناك! فأعيد المفتاح إلى سادِنِ البيت³.

ومن الأخبار التي أدمتْ مستمعيها من الحجاج وعموم المسلمين في جميع البلاد غرقُ ألف شخص في مكة، وسقوطُ جانب كبير من البيت الحرام سنة 1039هـ/1630م، من جرَّاء السيول والأمطار التي لم يعرف لها الحرم مثيلاً. وقد كتب أحدُ المؤرِّخين الحجاج بشأن ذلك الحدث الجلل قائلاً: "... وسقطَ بناءُ البيت الشريف من الجوانب الأربعة، وانحسفت أرضه حتى كان الأرفع، ولم يبقَ من بناء البيت إلا بابُه، وركنُ الحجر الأسود فإنَّه لم يسقط"⁴. فتألم المسلمون لما حلَّ بالكعبة المشرفة، وتعاون الجميع في ترميم ما أصابَ الجدران.

كما كان ركب الحج وسيلةً إعلامٍ بالتطورات الأمنية الحاصلة على مستوى طريق العودة، مثل تجدد الصراع في مصر بين مماليكها البكوات، ومعاناة الحجاج الجزائريين منه. وما أصاب أهل برقة الليبية وقبائلها من جفاف ومجاعات أجلتهم عن أوطانهم، واضطرتهم إلى أكل الحشيش والنَّبَق مدة أربعة أشهر أو يزيد، وقد ابتعدوا بسبب ذلك عن الطريق التي ألفت الحجاج الالتقاء بهم فيها، وأنَّ بعضهم أصبح يغزو البعض الآخر⁵.

¹ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج2، ص290.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص57.

³ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج2، ص399.

⁴ - أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص181.

⁵ - الحسين الورثلاي، المصدر نفسه، ج3، ص234.

ومن جملة الأمور التي كان الركب يُخبر بها بعد عودته كذلك وفيات الأعيان والعلماء المشهورين في الحرمين الشريفين أو في مصر أو في الشام، مع تمييز أصولهم ومذاهبهم الفقهية، على غرار الإعلام بوفاة أربعة من الأئمة العلماء المفتين بمصر المحروسة سنة 1014هـ/1606م، من الشافعية والحنفية والمالكية¹. وإن كان هذا النوع من الأخبار لا يعني عامة الناس في ذلك العهد، بل كان يرغب في سماعه أو إشاعته نظراً لهم من الأعلام الجزائريين بصفة خاصة. فهذا أحد علماء الركب الجزائري يُخبر في أحد المواسم بموت عالين جليلين من علماء الحجاز، ويذكر بعضاً من مناقبهما، أحدهما بمكة المكرمة، والآخر بالمدين المنورة².

إضافةً لما ذكر ساهم ركب الحج في تحقيق التقاء الحجاج الجزائريين المجاورين بالحرمين الشريفين مع الحجاج الوافدين الجدد، وسماعهم أخبار أهاليهم وبلادهم. دون أن ننسى حمل الأمانات والرسائل الشخصية والرسمية في الاتجاهين، من وإلى بلاد الحرمين الشريفين.

ب - صدى الحركة الوهابية في أخبار الركب:

لقد شكّلت تطورات الحركة الوهابية بالحجاز وأخبار حروب آل سعود مع حكامه وحكام مصر³ نموذجاً للأخبار التي فرضت نفسها على مشهد عودة الحجاج، وذلك نظراً لأهمية الحدث وخطورته من جهة، وطول فترته وتزامنه مع موسم حج متتالية من جهة أخرى.

لما اشتدّ الصراع بين أنصار الوهابيين وحكام الحجاز، حاول شريف مكة "غالب بن مساعد" (ت1233هـ/1818م) استمالة الحجاج إلى صفّه، وعرض على أمراء الأركاب بعد انقضاء موسم حج 1217هـ/1803م أن يساعده في مواجهة جيش السعوديين بقيادة الأمير "سعود بن عبد العزيز"، فلم يقبلوا ذلك العرض وغادروا مكة بعساكرهم، كما غادرها والي جدة العثماني، وبقي شريف مكة وحده في كرّ وفرّ مع السعوديين، حتى تمكّنوا من السيطرة عليها⁴.

¹ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص139.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص133.

³ - لمعرفة تفاصيل ظهور الحركة الوهابية، وحروب الدولة السعودية الأولى مع أشرف مكة، والحملات العسكرية العثمانية المصرية ضد الزعماء السعوديين، يُنظر: هارثرد جونز: موجز لتاريخ الوهابيين، ط01، ترجمة: عويضة بن متيريك الجهني، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2005م، ص68 وما بعدها.

⁴ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص562.

عادَ الحجاج الجزائريون والمغاربة وهم يُخبرون باستيلاء الوهابيين على الحرمين الشريفين، وهدمهم للقباب، مثل قبة آدم وقباب ينبوع والمدينة المنورة، ومنع التبرُّك بكسوة الكعبة المشرفة، وإبطال شرب الدخان و"النارجيلة" من الأسواق. كما أخبر الحجاج بحرق الوهابيين للمحمل المصري، وتحذيرهم الحجاج من الإتيان به أو بالطبول والمزامير والأسلحة، بل و".... ذكروا أنَّ الوهابي (أي سعود الكبير) نادى بعد انقضاء الحج أن لا يأتي إلى الحرمين بعد هذا العام (1221هـ/1807م) من يكون حليق الذن!.... وأمر بإخراج الواصلين إلى مصر"¹.

وقد نقلَ بعض الحجاج المغاربة من "ممنوعات" الإمام سعود ما أثار امتعاضهم، لشيوعه في ذلك العصر بينهم، فوصفوه بأنه "يُخيفُ أهلَ الحرمين، ويمنعُ زيارة الأنبياء والتوسُّل بهم إلى ربِّ السماوات، وينهى عن قراءة دلائل الخيرات، والدعاء بمقامات الأولياء أهل الكرامات!"².

وعلى نفس المنوال وصف الرحالة ابن الدين الأغواطي الوهابيين وصفاً أشدَّ تشخيصاً، فقال: ".... وهم يؤمنون بمعرفة الله وحده ولا يدعون للرسول - عليه الصلاة والسلام - كما أنهم لا يقرؤون دلائل الخيرات، وإذا وجدوه عند أي شخص فإنهم يضربونه ويحرقون الكتاب، وهم لا يتساحون مع التسبيح، فإذا وجدوا السبحة عند أحد يعاقبونه، وهم يعتبرونه مُشركاً، ولذلك يدعونه إلى التوبة إلى الله"³! يظهر من هذه الشهادة أنَّ البعض بدأ متأثراً بالدعاية التي نشرها خصومُ الوهابيين ضدَّهم في ذلك الزمان⁴.

لقد قام أمراءُ أركاب الحج كذلك بحمل مجموعةٍ من رسائل آل سعود وخطاباتهم إلى البلاد المغاربية، مركزين بصفة خاصة على تونس والمغرب الأقصى! ضُمَّت تلك الرسائل الحجاج والمسوّغات بشأن حركتهم وأفعالهم التي ردَّدها الحجاج. فكان الردُّ على تلك الرسائل من طرف العلماء المغاربة بالحجج والأدلة، مع أركاب الحج المسافرة كذلك⁵.

¹ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج4، ص89.

² - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص389.

³ - ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص267.

⁴ - من تلك الدعاية الشائعة أنَّ الوهابيين أقدموا على حفر قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ونهبوا الذخائر والنفائس التي تراكمت في الروضة الشريفة على مدى قرون. ممَّا أدَّى إلى تزايد غضب الحجاج على دولة السعوديين الناشئة. يُنظر: عبد الرحمن الجبرتي، المصدر نفسه، ج4، ص463.

⁵ - أبو القاسم الزباني، المصدر نفسه، ص396.

ثمَّ استمرَّتْ المراسلات بين الجهتين عبرَ بوابة ركب الحج غالباً، فوصل إلى فاس كتاب عبد الله بن سعود المتغلَّب على الحرمين الشريفين بعد وفاة والده سعود الكبير، وكان الرُّدُّ هذه المرة رسمياً من قِبَل السلطان العلوي المغربي مولاي سليمان (ت1238هـ/1822م)*، الذي دخل بدوره في مناظرات كتابية مع آل سعود. غير أنَّ حجاجاً مَنَّ حملوا تلك المكاتبات أخبروا بعد رجوعهم أنَّهم "ما رأوا من ابنِ سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهرِ الشريعة، وإثماً شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة، والقيام بشعائر الإسلام، من صلاةٍ وطهارةٍ وصيامٍ، ونهيٍ عن المنكر الحرام، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام، التي كانت تُفعل بهما جهاراً من غير نكير"¹.

ومَّا يُوَكِّدُ وصول صدَى الدعوة الوهابية إلى الجزائر وتفاعل البعض معها ذهابُ العالم الرحَّالة أبي راس الناصري العسكري إلى الحج في زمنِ اشتدادها، ومناظرته لشيوخ الوهابية بشأن المسائل التي أثاروها. يقول الحافظُ أبو راس الناصري في رحلته: "... ولما ذهبْتُ للحج سنةً ستَّ وعشرين (1226هـ/1811م) لقيتُ علماء الوهابية، وهم تسعة علماء أكابر جماهير، فوقَّع لي معهم مناظرة ومباحثة واعتراضات، وسؤالات، وأجوبة فائحات، ودلائل قاطعات، وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة من الأمهات، ثمَّ تناظرنا بعد صلاة العصر قُبالة الحجر، في: صلاة العصر، وقرآءة دليل الخيرات، والتسبيح بالسبحة، ومشاهد السادات، وهدم مباني الأولياء ذوي الكرامات. فرجعوا عن البعض بعد الاستدلال بالنصوص العظيمة العميمة"².

إنَّ ذلك دليلٌ على صدَى وتفاعل أعلام ركب الحج الجزائري مع الدعوة الوهابية في ذلك العصر، وصعوبة اقتناع الجزائريين بها في أول أمرها³.... ودليلٌ كذلك على التواصل الفكري الحضاري الذي كان يُبيحُه الانخراطُ في ركب الحج الجزائري.

* المولى سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل، أبو الربيع، من سلاطين الدولة العلوية، بويع سنة 1206هـ/1792م بفاس، استقرَّ له الملك بعد ثورات وحروب، كان عاقلاً محباً للعلم والعلماء. ينظر: الزركلي، المرجع السابق، ج03، ص133.

¹ - أحمد الناصري، المصدر السابق، ج08، ص121.

² - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص119.

³ - ذكر الباحث المرحوم عبد الحليم عويس أنَّ أولَ من حملَ الدعوة الوهابية إلى الجزائر هو المؤرِّخ أبو راس الناصري، بعد اجتماعه بتلامذة الإمام محمد بن عبد الوهاب في موسم الحجِّ، واقتناعه باتجاه حركتهم؟ ولعلَّه يقصد حمل أخبار الدعوة فقط.

يُنظر: عبد الحليم عويس: أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الفكر الإسلامي الإصلاحى بالجزائر، ط01، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1985م، ص13.

خلاصة الفصل الرابع:

نُحِّلصُ في نهاية هذا الفصل الرابع إلى أن مسيرَ ركب الحج في عودته إلى الجزائر كان يختلف قليلاً عن مسير الذهاب، وذلك من حيث الفترة الزمنية التي تبدو أقلّ، بسبب عزم الحجاج على العودة بسرعة، ومن حيث إصرار أهل المدن والقرى التي يمرُّ بها الركب على الترحيب بالحجاج وإكرامهم. والنشاط التجاري الذي يقوم به الحجاج عقب الموسم مظهر من مظاهر التواصل مع بلاد الحجاز بأسواقها الكبرى، بالإضافة إلى الأسواق الموسمية المقامة على طول الطريق.

لاحظنا ممَّا سبق ذلك الترابط الاجتماعي الناشئ بين حجاج الركب، وتجسيدهم لأسمى صور التضامن والتآزر فيما بينهم، خاصة إذا ما تعلَّق الأمر بحوادث المرض أو الوفاة، أو الذود عن المحارم والشرف. فالركب مجتمع متنقِّل يسوده ما يسود بقية المجتمعات، ومنها بعض المظاهر والسلوكيات السلبية التي تُسيء حُرمة الحاج، مثل التدافع والمهرج ورمي الأوساخ في غير محلِّها وغيرها. بينما يميِّز هذا المجتمع المتنقِّل عن غيره بإقامته جسراً للتواصل الميداني المباشر - إيجاباً وسلباً - مع سكان المدن والحوضر المتتالية، وتكريسه للقيم الإنسانية في علاقاته مع البدو الرحل في القرى والبوادي، التي كان يعبرها الركب.

كانت عودة ركب الحج إلى الجزائر حدثاً سنوياً هاماً، تُقام له الأفراح والولائم، ويُحاطُ بمهالة من الاحتفالات الشعبية، التي تطول مدتها ويتضاعف خلالها عدد المهتئين والزوّار. وذلك رغم بعض التحديات التي كانت تُثيرها أوبئة الحجاج أحياناً، وعلى رأسها المخاوف من جلب الوباء وانتشاره؟ والتي تجسدتْ أواخر العهد العثماني في اعتماد الحجر الصحي (الكرنتينة) بالمنافذ البحرية خاصةً. ولم تكن رحلة ركب الحج الطويلة والشاقة إلى الحجاز تنتهي بمجرد عودة الحجاج إلى بلدانهم، بل بعودتهم يبدأ فصلٌ آخر من فصولها عنوانه الإخبار والإعلام بمشاهدتها ومشاهداتها، وأحوال المشرق وأخبار أعلامه، وتطوُّر الأحداث المختلفة المحيطة بمجالها.

الفصل الخامس: الإشعاعُ العلمي والفكري للركبِ الجزائري

- تمهيد

- المبحث الأول: العطاءُ العلمي لأعلام الحجِّ الجزائريين

- المبحث الثاني: المُثاقفةُ مراكزها وتوجُّهاتها في رحلة الركب

- المبحث الثالث: تأثُّر ركب الحجِّ بالمناخ الفكري السائد

- المبحث الرابع: مظاهرُ الاستئناس والغرائبية في سفر الركب

- خلاصةُ الفصل الخامس

الفصل الخامس: الإشعاع العلمي والفكري للركب الجزائري

يُخصَّص هذا الفصل الخامس للحديث عن نشاط متميِّز يمثِّل نتاج رحلة الركب الجزائري إلى الحج، المحلَّة بوجود العشرات من طلبة العلم والعلماء الأعلام ضمنها. إنَّه العطاء العلمي والفكري الذي يُخلِّفه مسيرُ الركب ثقافةً ومُثاقفةً، فالحج لم يكن في ذلك الزمان شعيرة دينية فحسب، بل كان فرصة سانحة للحجاج من أجل تكريس نشاطهم العلمي. وهو نشاطٌ من نوع خاص، يظلُّ إشعاعه مستمراً لعهودٍ وقرون، رغم انقضاء موسم الحج وعودة الركب إلى بلده الجزائر.

وعليه يبحث الفصل الأخير في ماهية العطاء العلمي للعلماء الجزائريين المنخرطين في ركب الحج، من خلال مزاجتهم بين الحج والنشاط العلمي. وكيف نجح معظمهم في تبوُّء مكانة علمية رائدة في بلاد المشرق بعد انقضاء موسم الحج؟ وما تأثيرهم الثقافي على المحطَّات العلمية التي كانوا يرتادونها في سفرهم للحج، أو أثناء مجاورتهم بالحرمين الشريفين أو بالجامع الأزهر بمصر؟ وهل أدَّى ركب الحج دوراً واضحاً في التعريف بالعلوم والمصنَّفات الجزائرية بالمشرق العربي؟

كما يتطرَّق هذا الفصل إلى مدى تأثُّر ركب الحج الجزائري بسيادة الطرق الصوفية الطاغية تأثيراتها على منطلقه وطريقه ومقصده، وما مظاهر ودلالات ذلك التأثير؟ وكذلك إلى التنوُّع المذهبي الحاصل بالمشرق آنذاك، وكيف تفاعل الحجاج الجزائريون والمغاربة المالكيون أصلاً مع ذلك الواقع الجديد، الذي طغى عليه التوجُّه المذهبي الرسمي للدولة العثمانية؟

ثمَّ ما هي أهمُّ القضايا الفكرية أو الفقهية المستجدَّة في تلك الفترة، والتي أثارت انتباه الأعلام من الحجاج الجزائريين في معرض سفرهم؟ فقد أضحت بعض المسائل والنوازل الفقهية مثار جدل فكري حادٍّ بينهم، يُساهمون في إثرائه بالحجج المنطقية والأدلة القطعية، ويؤلِّفون الرسائل والتصانيف لأجل ذلك في سفرهم، أو بعد مقدم الركب واستقرارهم في بلادهم.

ويُختتم هذا الفصل الأخير باستعراض الجانب الخفيِّ في سفر الركب الجزائري، المتمثِّل في بعض مظاهر الاندماج في رحلة الحج والاستئناس بيومياتها وأحداثها، ومحاولة إيجاد مُتنقِّسٍ للترفيه والترويح عن النفس من طرف الحجاج. وكيف كان هؤلاء يتعاملون مع المواقف المخرجة أو الطريفة التي كانوا يُصادفونها في سفرهم؟ وهل وجدت الطُرفة أو التُّكئة مكاناً لها في رحلة الركب إلى الحج؟ تلك الرحلة الشاقَّة من بدايتها إلى نهايتها!

المبحث الأول: العطاء العلمي لأعلام الحجّ الجزائريين:

01. المزوجة بين الحجّ والنشاط العلمي:

مثّلت الرحلة لطلب العلم في ذلك الزمان أحدَ البدائل التي أوجدّها الجزائريون لتعويض تقصير الحكام العثمانيين الثقافي، فأضحّت بذلك مَنقبةً ومفخرةً لصاحبها، لذا حرص الجزائريون على إقرانها برحلة الحج. ولا تكاد تطلّع على تراجمٍ وسيّر الأعلام من الجزائريين - زمنئذٍ - إلّا قابلتك العبارات التالية: "رحل إلى المشرق وحجّ"، أو "أخذ عن علماء مصر والشام والحرمين"، أو "أخذ عنه جماعةً من علماء المغرب والمشرق". يقول المرحوم أبو القاسم سعد الله عن أهمية الحج وقيّمته في منظور النخبة الجزائرية من أعلام العهد العثماني "... والحجّ عندئذ ليس مجرد أداءٍ للفريضة، ولكنّه تعلّمٌ وتعليم، وسياحةٌ وإطّلاع، ومشاركةٌ في كثير من جوانب الحياة...." ¹. والحجّ أيضاً عند بعض المؤرخين والمفكرين بمثابة "مؤتمر عالمي للفكر الإسلامي".

لم يكن الحجاج ينتقلون في سفرهم من بلدٍ لآخر إلّا سألوا عن عالمٍ يكشف كربة أو أديبٍ يؤنسُ غربة. والبداية بالداخل قبل الخارج، فمثلاً التقى حجاجُ جزائريون في أحدِ مواسم حجّ القرن 12هـ/18م بمجموعةٍ من علماء مدينة قسنطينة، حفظت رحلته الحج أسماءهم: قاضي المالكية إبراهيم الضرباني وقاضي الحنفية شعبان بن جلول، والمفتي الشيخ علي الشريف، وقاضي الجماعة المنطقي المفسّر عبد القادر الراشدي، والشيخ الصالح يحيى اليعلاوي، والأديب النحوي أحمد الزين.... وعلي الزموري وأحمد العلمي وعبد الله التومي وعلي بن سعيد والطاهر بعداش ومبارك بن بوقرانة ومحمد الشليحي ومحمد بن نزار وعلي الشريف بن منصور وأحمد بن الأحمر وأحمد بن وادفل وعلي بن الكيرد ومحمد العنتري....². هؤلاء جميعاً في لقاءٍ قسنطينة فقط، فما بالك بمقابلة علماء بقية المدن والحواضر المنتظمة على طريق الحج، داخل الجزائر وخارجها؟

كانت البلاد التونسية أول محطة علمية يقصدُ مدارسها ومعاهدها الحجاج الجزائريون، فيمكث بها الركب لمدة قليلة لأجل الراحة، ولزيارة علمائها المشهورين كذلك، لاسيما من بلغ درجة التأليف منهم، كأحد العلماء التونسيين، وقد سمع عنه الحجاج أنه تعرّض لشرح مختصر

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد....، مرجع سابق، ص36.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص363.

الشيخ خليل في الفقه المالكي، فأصروا على زيارته أثناء طلوعهم إلى الحجاز¹. وفي الديار المصرية كان الحجاج يقصدون مواطن العلم والتدريس، ويُزاحمون طلبتها والطلبة الوافدين عليها من مختلف البلدان بالركب². أمّا بلادُ الحرمين الشريفين فكانت معاهد مفتوحة أمام الحجاج، تفدُ عليها الكتب والمؤلفات، وتُتبادل فيها الرسائل والإجازات. وما يُحيط بركب الحج من نشاط علمي يشمل رحلة الإياب كما الذهاب، والبلدات الصغيرة كما المدن الكبيرة. يقول الرحالة الورثلافي عن ذلك: ".... وفي الرجعة اجتمعنا بهذه البلدة مع علماء الوقت، كالفقيه الأديب سيدي سالم وإخوانه وطلبته، وقد عمّر أوقاته بتدريس العلم نحواً وفقهاً"³.

وفي المحطات شبه الخالية ومقاطع السير الطويلة التي يتعدّر فيها على الحجاج اللقاء بأهل العلم ومجالسه يكون التعويل فيها على التحصيل المعرفي البيني، أي داخل الركب وبين مكوثاته من الحجاج. فيبدي طلبة العلم منهم نهمهم للسؤال والمعرفة، مستغلّين وجود بعض الشيوخ ضمنه، كما تُلزم الأسئلة الركب الغادي نحو المشرق نثراً وشعراً⁴.

لقد ضرب بعض الحجاج الجزائريين المثل في قدرتهم على الجمع بين المقصدين، الحج والتحصيل العلمي، فهذا أحدهم يحجّ خمس حجّات، فيُدْرَج بين كلّ اثنتين زيارة علمية ميدانية لإحدى حواضر المشرق، مثل القاهرة ودمشق والقدس⁵! وهذا حاجّ رحّالة آخر يعترف ويفتخرُ بأنّه ما حصلَ ما فاتّه من علومٍ ومعارفٍ سوى بالمطالعة أحياناً، وبالرحلة إلى الحجّ أساساً⁶. لذلك كان مبلّغ تأسّف الحجاج - غاية التأسّف - أن يمروا على محطّاتٍ في طريقهم إلى الحجاز ليس فيها عالم يؤنّس إليه، ويكون التعويل عليه⁷؟

وكأنيّ بالحجاج الجزائريين - والحال تلك - يتأسّفون على أوضاع بلادهم، وتقصير أترك الجزائر في الجانب الثقافي، ويودّون لو انتبه حكائهم إلى أعمال نظرائهم في الإيالات الشرقية المجاورة. فقد

¹ - الحسين الورثلافي، المصدر السابق، ج01، ص266.

² - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و03.

³ - الحسين الورثلافي، المصدر نفسه، ج01، ص359.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص84.

⁵ - أحمد المقرّي، نفع الطيب، مصدر سابق، ج01، ص57.

⁶ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص91.

⁷ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص120.

أشاد حجاج بحكام تونس وأمراءها وأصحاب الدولة فيها لأنهم في نظرهم "صرفوا هممهم إلى العلم، وأقاموا منارات عدّة، فبنوا المدارس وأوقفوا الأقباس وأعزّوا العلماء"¹؟

02. الأعلام من الحجاج الجزائريين ومكانتهم بالمشرق:

لا تكاد تخلو معظم مواسم سفر الركب الجزائري إلى الحج من نماذج لحجاج جزائريين أعلام، اشتهروا بنبوغهم، وفرضوا أنفسهم ومكانتهم في أقاليم المشرق الإسلامي، وإن كانت أسماء البعض منهم لا زالت مجهولة لدينا، بسبب أنّ كثيراً من الأعلام الجزائريين كانوا يُصنّفون بالمشرق. في ذلك العهد - تحت مُسمّى "مغاربة"، حيث كانت نسبة "المغربي" تشمل علماء المغرب الأقصى والجزائر وتونس وحتى طرابلس الغرب، فصار من الصعب تمييزهم². والجامع بين أولئك الأعلام جميعاً هو ركب الحج، إذ يرجع إليه الفضل في شهرتهم العلمية وشيوع أخبارهم بالمشرق والمغرب. وهذه نُتف من مآثرهم بالدرجة الأولى، بناءً على زمن رحلاتهم إلى الحج وظروفها وعطاءاتهم إثرها:

أ - الحاج علي بن ولي بن حمزة الجزائري (ت أواخر القرن 10هـ/16م): علي بن ولي بن حمزة الجزائري المغربي العالم النابغة في علم الرياضيات (أمّ العلوم العقلية)، المعروف بـ "النّساب"، وذلك لاشتهاره بالأمانة العلمية في إحالة ما اعتمد عليه من معلومات ومعارف إلى مصادرهما، وقد درّس في مدينة اسطنبول بفضل إتقانه اللغتين العربية والتركية، ثمّ عاد إلى الجزائر، ومنها توجّه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والمجاورة³.

وفي مكّة المكرمة كان ابن ولي يُعلّم الحجاج علم الفرائض والحساب، وألّف فيها كتابه الرائد في الحساب، الموسوم بـ "تحفة الأعداد لذوي الرّشد والسّداد"، ورثبه على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة. كما اشتهر ابن ولي الجزائري بسبقه في حلّ المسألة المكية (أو الهندية)⁴، التي عجز عن حلّها علماء الهند، فطرحها عليه أحد أمراء الحج الهنود أثناء مجاورته بالحرم المكي منتصف القرن

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص316.

² - المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية...، مرجع سابق، ص83.

³ - عادل نويهض، المرجع السابق، ص124.

⁴ - للاطلاع على تفاصيل هذه المسألة المكية، وعلى مظاهر نبوغ العالم الجزائري علي بن ولي بن حمزة في فروع الرياضيات، يُنظر: هدى الصادق ارحومة: عالم الرياضيات النّساب ابن حمزة المغربي، المجلة الجامعة، جامعة الزاوية (ليبيا)، العدد الخامس عشر، 2013م، ص179.

10هـ/16م فحلّها. واشتهرت بحوثه في المتتاليات الحسابية والهندسية، فكانت الأساس الذي بُني عليه علم اللوغاريتمات في الرياضيات¹.

ب - الحاج أحمد المقرّي التلمساني (ت1041هـ/1631م): أبو العباس أحمد المقرّي من أشهر أعلام الجزائر العثمانية وحفّاظها، جال المغرب أولاً ثمّ المشرق للحج والمجاورة. نزل في سفره للحج بمحروسة الجزائر، ولقي بها جماعة من الأعيان، منهم مفتي الحنفية الخطيب محمود بن حسين بن قرمان والأديب الرحالة الشاعر ابن راس العين². وقد التقى المقرّي التلمساني بعلماء قسنطينة، ومدح عبد الكريم الفكون شيخ الركب الجزائري قائلاً³: (الوافر)

وَدَامَ عَبْدُ الْكَرِيمِ فَرْدًا فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْوِلَايَةِ
فَهُوَ الَّذِي حَازَ خَصْلَ سَبْقٍ وَصَارَ فِي ذَا الزَّمَانِ آيَةً

حجّ المقرّي التلمساني خمس مرات، بينما زار المدينة المنورة سبع مرات، وكان كثير التردّد خلالها على الشام ومصر، فأقام علاقات مع علمائهما كرّسّتها الإجازات والمكاتبات الشعرية والنثرية الوفيرة بينه وبينهم. وفي المشرق عاش المقرّي حياة حافلة بالنشاط العقلي، وألّف معظم كتبه هناك، منها: موسوعته "نفح الطيب"، و"فتح المتعال"، و"أزهار الكمامة"، و"إضاءة الدجّة"....، وأظهر حفظه الواسع وموهبته الأدبية فوجد تقديراً كبيراً من علماء الشام وغيرهم⁴. وكان من ضمن الذين أجازهم العلامة المقرّي الشيخ شهاب الدين العجمي المصري، أحد أجلاء علماء مصر في زمنه، والشيخ حنيف الدين بن مرشد مفتي الحنفية بالديار الحجازية، والشيخ تاج الدين بن إبراهيم المالكي المكي الخطيب والمدرّس بالمسجد الحرام⁵.

وهذا المقرّي التلمساني يصف نفسه الإقبال الكبير على نظمه في العقائد المسمّى "إضاءة الدجّة بعقائد أهل السنّة" فيقول: "....وقد كتبت من هذه العقيدة بالحرمين واليمن ومصر والشام أكثر من ألفي نسخة، كتبت خطّي على أكثرها، ودرّسّتها بمكة وبيت المقدس ودمشق

¹ - عادل نويهض، المرجع السابق، ص124.

² - أحمد المقرّي، رحلة المقرّي، مصدر سابق، ص72.

³ - المصدر نفسه، ص102.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج02، ص217.

⁵ - أحمد المقرّي، رحلة المقرّي، مصدر نفسه، ص90.

ومصر والإسكندرية ورشيد وغزّة. والله المنة¹. كما نقل العياشي المغربي في رحلته إشادةً أحد علماء الشام المشهورين بالمقري التلمساني، وبقدرته الفائقة على الحفظ والاستظهار، ومن غريبها أنّه ختم بحضرته القرآن الكريم، بمناسبة خروجهما لإحدى المزارات صباحاً، وتمّ ذلك في زمن وجيز، من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس!².

ومن شواهد نبوغ المقري التلمساني وتميُّزه العلمي بالمشرق أنّ أمراء مكة وأعيانها كانوا يطلبون منه نظم أبيات من الشعر على ألسنتهم، تُترجم لهم ما يجولُ بخواطرهم، أو ما يرغبون في التعبير عنه من أغراض أو مشاعر³؟ وفي بلاد الشام كان للمقري مكانة وهيبة لدى العامة والباشوات أيضاً، حيث يذكُر أحد علماء غزّة أنّه بفضل سعي المقري ووساطته أمر باشا غزّة ببناء مدرسة للطلبة قرب المسجد وأجرى عليها الأوقاف⁴! ولتبيان تبجيل المصريين للشيخ المقري يكفي أن نوردَ موقفاً طريفاً وقع بين أحد شيوخها من الشافعية وحجاج مغاربة، فقد سأل الشيخ المصري الحجاج عن بلدهم، فقالوا: من مراكش، فقال ما سمعتُ به قطُّ ولا علمتُ أنّه كان! ولا سمعتُ إلا بفاس حيث قدم علينا العلامة النحرير سيدي أحمد المقري تغمّده الله برحمته⁵.

ج - الحاج عيسى الثعالبي (ت1080هـ/1669م): أبو مهدي عيسى الجعفري الثعالبي الجزائري من أكبر فقهاء المالكية في عصره، أصله من نواحي وادي يسر وطن قبيلة الثعالبة، درس بالجزائر ثم ارتحل إلى تونس ومنها إلى المشرق للحج والمجاورة حتى وفاته⁶. استقرّ الشيخ الثعالبي بمكة المكرمة زمناً طويلاً، وألّف فيها فهرسته "كنز الرواة المجموع في دُرر الحجاز ويواقيت المسموع". وكان يتردّد على المدينة المنورة من وقت لآخر، ويقرئ في الحرم النبوي حيث مجلسه حافلٌ غاصُّ بأهل العلم⁷. كما امتلكت الثعالبي خزانة هامة للكتب النادرة بمكة المكرمة، جعلت بيته مقصداً للطلبة والعلماء من أقاليم المشرق وأقاليم المغرب على حدّ السواء، وذلك رغم أنّه خلّف معظم ما

¹ - محمد حجي: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط01، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964م، ص284.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص127.

³ - أحمد المقري، رحلة المقري، مصدر سابق، ص148.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص409.

⁵ - القيسي السراج، المصدر السابق، ص48.

⁶ - عادل نويهض، المرجع السابق، ص91.

⁷ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص467.

جمعه من الكتب بوطنه الجزائر، وبالضبط في "حنقة سيدي ناجي" بنواحي منطقة الزّاب، عندما مكثَ بها لسنوات عند شيخه "سيدي التواتي بن ناجي"¹.

لقد أثنى العلماء المشاركة والمغاربة على الشيخ عيسى الثعالبي، سواء الذين عاصروه والتقوا به بمناسبة مواسم الحج، أو الذين أتوا من بعده. فهذا المحدث الشيخ محمد البابلي المكّي كان يقول للشيخ الثعالبي: "مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنَ الْغَرْبِ أَحْفَظُ مِنَ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْمُقْرِي التَّلْمَسَانِي وَلَا أَزْكَى مِنْكَ"²! وهذا الرحالة ابن ناصر الدرعي يُثني على الثعالبي واصفاً إيّاه بأنّه: "نادرُ الزمان، وإمام من ضمّه الحرمان"³. أمّا الرحالة العياشي فقد أطنب في مدح الثعالبي، ذاكراً فضله على الحجاج المغاربة عموماً في حجّهم أو مجاورتهم، مُحلياً إيّاه بقصيدٍ، هذه أبياتٌ منه⁴: (الطويل)

إِذَا غَالَبَتْكَ النَّائِبَاتُ فَغَالِبِ بِفَخْرِ فُحُولِ الْعِلْمِ عَيْسَى الثَّعَالِبِ
إِذَا زُمْتَ مِنْهُ الْقُرْبَ يَوْمًا لِحَاجَةٍ فَلَا تَغْلُ فِي الْإِطْرَا وَسَدِّدْ وَقَارِبِ
وَمَا قُلْتُ ذَا ظَنًّا وَلَكِنْ لِحَبْرَتِي بِكُلِّ الْبِلَادِ شَرْقِهَا وَالْمَغَارِبِ

د - الحاج يحيى الشاوي (ت1096هـ/1685م): يحيى بن محمد بن عيسى بن أبي البركات الملياني الشهير بالشاوي، يُضربُ به المثل في ملازمة الشيوخ وتحصيل العلم، فقد سارَ مع شيخه عيسى الثعالبي - المذكور آنفاً - نحو ثماني مراحل دون قصدِ السفر، وأتمَّ لإتمام قراءته عليه في علم المنطق فقط⁵! ثمَّ رحل العالم يحيى الشاوي مع ركب الحج الجزائري إلى الحجاز لاحقاً، ولما قضى حجّه رجع إلى القاهرة مواظباً على التعلُّم والتعليم، واجتمع به فضلائها وأخذوا عنه، وترقّت به الحال فتصدّر للإقراء بالأزهر، وتولّى قضاء المالكية بمصر. وكانت له سفريات إلى اسطنبول حاضرة الخلافة، وهناك اجتمع عليه الوزراء للتقرُّب منه، والعلماء للبحث والإجازة. وألّف الشيخ الشاوي كتاباً في النحو جعله باسم السلطان العثماني محمود الأول، أتى فيه بكلّ غريبة⁶!

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 538.

² - أبو الخير عبد الله مرداد: المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة، ط 02، تحقيق: محمد سعيد العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة، جدّة، 1986م، ص 384.

³ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 401.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 02، ص 186.

⁵ - أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ج 01، ص 83.

⁶ - المصدر نفسه، ج 01، ص 188.

جذبتُ شخصية الشيخ يحيى الشاوي إليها إعجاب المغاربة والمشاركة، فقد تمى الشيخ الرحالة العياشي - مثلاً - أن يُرافقه في سفر عودته من الحج بقصد الاستزادة من علومه في الطريق، يقول في ذلك: ".... وكان عزمي أن أذهب مع ركب أهل الجزائر، رغبةً في مرافقة سيدي يحيى الشاوي، وكان من فقهاء أهل بلده.... رجاء المذاكرة في بعض العلوم إن تيسر ذلك"¹.

وقد تُوفي الشيخ يحيى الشاوي على متن السفينة المغادرة لميناء الإسكندرية باتجاه الجزائر بعد موسم الحج، فأراد الملاحون إلقاء جثته في البحر ليُعد البرّ عنهم، فقامت ریحٌ شديدة أرغمت السفينة على أن ترسو بأحد الرؤوس القريبة فدفنوه به، ثم نقله ولده إلى القاهرة، ودفنه بمقبرة القرافة الكبرى تُربة المالكية، بين قبري علمين من أعلام المذهب المالكي هما: ابن القاسم وأشهب². وظل اسم العالم يحيى الشاوي مشهوراً في مصر بعد وفاته بفضل تلامذته، ومنهم الشيخ عبد الملك المغربي الحنفي القاضي في صعيد مصر³.

هـ - الحاج عبد العزيز التواتي (ت أواخر القرن 11هـ/17م): عبد العزيز بن حسن بن عيسى القوراري التواتي، من علماء ركب الحج الجزائري المغمورين، جال بلاد المغرب وقرأ على كثير من علمائها، ثم رحل إلى المشرق بعد سنة 1040هـ/1631م ودخل القاهرة، ومنحه مُقرئها "الشيخ سلطان" الإجازة لإتقانه علم القراءات. وهو من العلماء الذين أغفل مؤرّخو الحجاز ذكرهم على الرغم من أنه كان يُعدُّ من النابغين في علم القراءات في زمن إقامته بالحجاز⁴.

انتقل الشيخ عبد العزيز التواتي بعد الحج إلى الطائف، ولقيته فيها الرحالة العياشي الذي نزل بداره فيها، ووصفه برئيس المقرئين، وأستاذ المجوّدين، وطلب منه الإجازة في بعض القراءات التي نبغ فيها، فأجازته التواتي أمام ضريح حبر الأمة ترجمان القرآن الصحابي عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - ويكفي للدلالة على مكانة الشيخ التواتي بالحجاز قول العياشي فيه: ".... ولم نلق بالطائف أحداً ممن ينتسب إلى علم أو صلاح سوى الشيخ عبد العزيز الذي نزلنا عنده"⁵.

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 475.

² - أبو القاسم الحفناوي، المصدر السابق، ج 01، ص 190.

³ - عبد الغني النابلسي، المصدر السابق، ص 323.

⁴ - عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص 569.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 02، ص 172.

و - الحاج عبد الرحمن الجنتوري (ت1160هـ/1747م): أبو زيد عبد الرحمن الجنتوري التواتي، من أجل علماء توات في القرن 12هـ/18م، التقى أثناء رحلته لأداء الحج بعلماء كثيرين، أفادهم واستفاد منهم. من بينهم عالم جزائري آخر هو أبو عبد الله محمد البليدي (المذكور لاحقاً) مدرس الجامع الأزهر والأشرفية. وقد سأل الرحالة عبد الرحمن التتلاي شيخه عبد الرحمن الجنتوري عن حال من لقي من العلماء بالمشرق بعد عودته من الحج فقال: "اختبرت علماء القاهرة والحرمين فلم ألق فيهم من يصلح أصعب رجل شيخنا أبي حفص (عمر الأكبر التتلاي) إلا واحداً في علم الحديث لقيته بمكة"¹!

ز - الحاج محمد المنور التلمساني (ت1173هـ/1760م): محمد بن عبد الله بن أيوب، من علماء الحديث الجزائريين، أخذ عنه الشيخ مرتضى الزبيدي صاحب "تاج العروس"، عندما التقى به بمناسبة سفره للحج، وذكره في أرجوزته "ألفية السند" قائلاً²: (الرجز)

الجَهْدُ البَارِعُ فِي الفُنُونِ عَالِمٌ قَطْرَ المَغْرِبِ المِيْمُونِ
لَقِيْتُهُ بِمِصْرَ لَمَّا وَرَدَا أَجَازَنِي وَنَلْتُ مِنْهُ المَدَدَا

كانت للشيخ المنور التلمساني شهرة لا تُضاهى في الأزهر الشريف، لقدرتة على الجمع بين علوم شتى، فاجتمع عليه خلق كثير من مصر ومن المجاورين بالأزهر وغيرهم. ومن المحاورات العلمية الحادة التي كان يُنشطها أعلام ركب الحج الجزائري في الجامع الأزهر مناظرة علمية جمعت بين ثلاثة علماء مغاربة، جزائريين ومغربي هم: المنور التلمساني والحسين الورثلاي وخليل المغربي، وذلك في مسألة من مسائل علوم البيان والمعاني، مُنطلقاً قول القائل: "أنبت الربيع البقل"، إضافة إلى مسائل أخرى من علم الكلام، بحضور جمع من طلبة الأزهر³.

ح - الحاج محمد البليدي (ت1176هـ/1763م): محمد بن محمد الشريف البليدي، أحد أعيان المالكية بالجامع الأزهر الشريف العامر، ممن استقرّوا بالمشرق بعد أدائهم الحج، عدّه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي من أشياخ الوقت بمصر في القرن 12هـ/18م، مُضاهياً بذلك شيوخها: الملوي والجوهري والحفني والصعيدي وغيرهم، حيث كان يحضر درسه بالأزهر أكثر من مائتي مدرّس،

¹ - محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج01، ص160.

² - المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص168.

³ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج02، ص123.

فضلاً عن المئات من الطلبة¹! وكان للناس في البلدي اعتقاداً وبركة، وبخاصةً التجار المغاربة منهم، الذين اشتروا له بيتاً واسعاً بالقاهرة من ما لهم، تقديراً لعلمه ومكانته².

ألّف الشيخ البلدي في التفسير والقراءات والمنطق، وتلمذ على يديه كثيرون منهم العلامة مرتضى الزبيدي، وكان يقوم بضيافة وإجازة زوّاره من علماء بلده الجزائر الوافدين مع ركب الحج كلّ موسم إجازةً تامةً في العلوم كلّها ومخطّط يده³. ولطالما أشاد الحاج المغاربة بالشيخ البلدي وبأفضاله عليهم وبشخصيته ذات الأبعاد العلمية والإنسانية⁴.

ط - الحاج عبد الرحمن التلاني (ت1189هـ/1775م): أبو زيد عبد الرحمن بن عمر التلاني التواتي، من أكثر شيوخ منطقة توات تأليفاً. ذاع صيته في مصر بعد دخوله إليها في رحلة عودة الركب الجزائري، رغم أنّه لم يُقَمَّ بها زمناً طويلاً، وإنما توفيقاً من الله وتمكين. ذكر ذلك في رحلته قائلاً: "وأقبل عليّ الفقهاء هناك، واعتقدوا فيّ ما لستُ له أهلاً، يأتون أفواجاً للدعاء، ويقدموني للإمامة إذا حضرت الصلاة"⁵. ولم يلبث التلاني بها إلا قليلاً حتى اختزمتُهُ المنية، وصلى عليه جميع من كان في الركب، إضافةً إلى ألوفٍ من المصلّين بمقبرة سيدي عبد الله المنوفي⁶.

ي - الحاج الحسين الورثلاني (ت1193هـ/1779م): الحسين بن محمد السعيد بن الحسين، صاحب الأسفار والرحلات إلى الحجاز لأداء الحج في ثلاثة مواسم متفرقة من ثلاثة عقود متتالية. ما دخل قرية أو مدينة حلّ بها ركب الحج إلاّ شاع أمره فيها، وصار طلبة العلم والمريدون يأتون إلى خيمته، طلباً للاستفادة في العلم أو الاختبار، على حسبٍ قصد كلّ منهم⁷. ومن العلماء البارزين الذين التقى بهم الشيخ الحسين الورثلاني في مكّة المكرّمة أثناء حجّه مفتي بلاد الهند الشيخ المحقّق محمد أكرم بن الشيخ عبد الرحمن⁸.

¹ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص142.

² - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص105.

³ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص88.

⁴ - محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص183.

⁵ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و18.

⁶ - مبارك جعفري وعبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص191.

⁷ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص307.

⁸ - المصدر نفسه، ج02، ص271.

وقد اجتمع الرحالة الشيخ الورثلاني بطلبة الأزهر مراراً، فتعجّبوا من درسه وشرحه وأدلته، وذلك بحضور الشيخ "علي الصعيدي" أعظم مشايخهم في ذلك الزمان، ومكث بينهم لشهور بعد عودته من الحج. باحث أثناءها الشيخ الورثلاني العلامة علي الصعيدي في مسائل فقهية ونحوية في مجلس إقرائه، وردّ عليه قوله في إحداها، فما كان من الشيخ الصعيدي إلا الإذعان وتقبيل يد الشيخ الورثلاني، وطلب مداومة الحضور منه لإثراء ذلك النوع من المسائل العلمية¹.

ك - الحاج أبو العباس الصحراوي (ت1202هـ/1788م): أبو العباس أحمد الجزائري، المعروف في المشرق بأبي العباس المغربي - على غرار العشرات من الأعلام الجزائريين الموسومين مجازاً بـ "المغربي" في ذلك العهد - وأصله من صحراء الجزائر. يقول عنه الجبرتي في تاريخه: "الشيخ العلامة المتفنّن، البحّاث المتقن، أبو العباس المغربي أصله من الصحراء من عمالة الجزائر، ... حجّ سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، وجاور بالحرمين سنة، واجتمع بالشيخ أبي الحسن السندي ولازمه في دروسه وباحثه"². ثمّ راج أمره في مصر بعد قفوله من الحج لفصاحته وقوة حفظه، فصار يُقرئ الطلبة، واحترمه علماء مذهبه، وازداد أمره ظهوراً بعد وفاة أستاذه علي الصعيدي، وأشير له بالمشيخة في رواق المغاربة بالأزهر الشريف، ولكن الأمر لم يتم له³؟

ل - الحاج أحمد بن عمّار (ت1206هـ/1791م): أبو العباس أحمد بن عمّار مفتي المالكية بالجزائر في عصره، من المبدعين الجزائريين القلائل الذين جمعوا بين الفقه والأدب، تنقل إلى المشرق عدة مرات، فجاور بالحرمين وأقام بمصر فترة، وأجاز طلبه كثيرين، أشهرهم مفتي الشام في وقته الشيخ المرادي صاحب كتاب "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" إجازة مكتوبة⁴.

ومن تلامذة ابن عمّار المتميّزين خليفته في الحفظ والنبوغ أبو راس الناصري العسكري، الذي وصف شيخه ابن عمّار بأنه "عالم الجزائر، أمّنها الله من سوء الدوائر ... خبر الأكارم، وبحرّ المكارم، تاج المفاجر، وقليل (كم ترك الأول للآخر)، علاً بعلمه واعتزّ، ومائل في الأدب ابن الخطيب وابن المعتزّ، وفكّ فيها بذكائه كلّ عويص جليل، وشابّة بذكائه إياس بن معاوية والخليل،

¹ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص91.

² - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص257.

³ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص105.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب، مرجع سابق، ص64.

وَأَلَقَتْ إِلَيْهِ رِئَاسَةَ الْعُلُومِ زَمَانَهَا، وَوَقَفَتْ الْأَعْلَامُ دُونَهُ بِمَرَاحِلَ فَصَارَ أَمَامَهَا¹. وقد ذكر الناصري وغيره أَنَّ ابْنَ عَمَّارٍ بَقِيَ فِي الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ حَتَّى تَوَفِّي فِيهِمَا².

م - الحاج أبو راس الناصري (ت1238هـ/1823م): الحافظ أبو راس محمد بن أحمد الناصري الراشدي المعسكري، كان يُسأل بمناسبة ذهابه للحج عن أصعب المسائل وأكثرها إثارة للجدل أينما حلَّ، فيخوضها بكلِّ دراية وثقة في النفس، ممَّا أدَّى إلى إعجاب العلماء به، مثلما أشار إلى ذلك في رحلته قائلاً: "ذهبتُ للحجِّ فقامت لي علماءُ المشرق على ساقٍ"³. وكانت بداية اشتهار أمره من جامع الزيتونة في تونس، واصفاً مناظراته ومحاوراته العلمية مع علماء تونس بالقول: "واجتمعَت مع العلماء بجامعها الأعظم، فتذاكرنا، وتناظرنا، وترافعنا، وتشاجرنا، وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة، والمسائل المخفية، وقد أظهرني الله عليهم في ذلك كله"⁴! لقي أبو راس جلَّ علماء الحجاز ومصر في رحلتيه إلى الحج، وتبادل معهم الإجازات والتقاريط. وهو بالجملة شخصية علمية لامعة، اعترف بفضله وقيمه معاصروه من علماء المغرب والمشرق، نظراً لإنتاجه العلمي الوفير، الذي بلغ مائةً وأربعين مصنفاً في مختلف العلوم⁵!

ن - الحاج علي الميللي المغربي (ت1248هـ/1832م): الشيخ علي بن محمد الميللي الجزائري المغربي المالكي، سافر إلى الحجاز، ثمَّ إلى مصر، وأضحى من علمائها المحققين، الذين ينزل عندهم الأعلام من الحجاج الجزائريين⁶. استقرَّ الشيخ علي الميللي بمصر وصار له فيها شأنٌ، وأثار الجدل في مناظراته مع علمائها، فقد دُعي من طرف الباشا في أحد المرات بسبب فتوى له حول حرمة ذبيحة أهل الكتاب الموجودين في مصر، فأبى عن الحضور لمجلس تحضره العامة والغوغاء، وأصرَّ على عقد مجلس خاص، يتناظر فيه مع خيرة العلماء في مصر دون غيرهم⁷!

¹ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص48.

² - ذكر المرحوم أبو القاسم سعد الله بأنَّ المفتي أحمد بن عمَّار عاد إلى الجزائر في آخر المطاف، رغم طول إقامته بالمشرق. يُنظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج01، ص178.

³ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر نفسه، ص24.

⁴ - المصدر نفسه، ص115.

⁵ - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص179.

⁶ - المرجع نفسه، ص179.

⁷ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج04، ص490.

ومن أعلام الركب الجزائري كذلك الذين أشاعت رحلتهم للحجّ عطاءهم العلمي في بلاد المشرق قاطبة نذكر الأسماء الأخرى التالية بإيجاز:

*الحاج عبد الرحيم العصنوني التواتي، الذي حجّ في أواخر القرن 10هـ/16م، وزار مصر والتقى بكبار علمائها، قبل أن يرجع إلى بلده¹.

*الحاج أحمد مقداد البسكري، فقيه من بلاد الزاب، بقي في مصر لفترة طويلة بعد حجّه، كان لا يتخلّف عن مجالس شيوخ مصر ويجالسهم ويُدارسهم².

*الحاج سليمان القشبي النقاوسي، رحل إلى مصر بقصد الحجاز (الحج)، فأقام بها مدة واشتغل بالإقراء مخالطاً شيوخها، ثم عاد إلى الجزائر لاحقاً³.

*الحاج أبو الحسن علي بن ناجي من بلاد الزاب، من عائلة ابن ناجي الشهيرة، كانت له شهرة ومكانة في المشرق وفي طريق الحج أيضاً⁴.

*الحاج عبد اللطيف التلمساني، المسنن الفاضل الذي نزل بمصر بعد الحج، وسكن بالزاوية الناصرية فيها، وشهد له الحجاج المغاربة بالكرم والفضل⁵.

*الحاج أحمد التليلي من شرق الجزائر، له يدٌ في العلوم كلّها، وبصفة خاصة التاريخ والسّير، وقد أدهش الحجاج جميعاً بدقّته في تحديد أماكن قبور الصحابة والتابعين بالحرمين الشريفين، حتى كأنّه - على رأي الورثلاني - هو الذي وضعهم في التراب⁶!

*الحاج عبد القادر بن السنوسي بن دحو، كان عالماً عاملاً، له لكلّ علم وُصول، من حديثٍ وفقه ونحو وأصول. رحل للحج وطلب العلم، فطار صيته بمصر حتى صار من نخبة أهل العصر، ولُقّب فيها وعُرف باسم الشيخ عبد القادر⁷.

¹ - يونان ليب رزق ومحمد مزين، المرجع السابق، ص 107.

² - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص 111.

³ - عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص 60.

⁴ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و 09.

⁵ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و 118.

⁶ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج 01، ص 255.

⁷ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص 65.

*الحاج مصطفى بن المختار الغريسي (جدُّ الأمير عبد القادر الجزائري)، تُوفيَّ الشيخ الغريسي في رحلة العودة من الحج بإقليم برقة الليبي، ودُفن هناك¹.

*حاجٌ فقيه متصوِّف من أهل تلمسان، حُكيث عنه أحوالٌ غريبة، منها قوة حفظه وختمه القرآن مراتٍ ومرات في اليوم الواحد. وأشاد به مُفتي الشام الذي تعرّف عليه بالحرمين الشريفين².

يمكنُ أن نضيف إلى أولئك الأعلام المذكورين المئات من الشيوخ والقضاة، والعلماء العاملين الكثيرين المتقلِّدين مهام إمارَة الركب، المتجدِّدين بتجدُّد مواسم الحج. وصدق الرحالة الشيخ ابن زاكور الفاسي المغربي في وصفه لعلماء الجزائر وإشعاعهم في الداخل والخارج - أثناء زيارته للجزائر سنة 1094هـ/1683م - بأنهم "....عُرِّزَ أعلام، يَنجُلي بهم الإِظلام، وشموسُ أئمَّة، تَنفِرُجُ بهم كلُّ عُمَّة، وتفتخرُ بهم أحبارُ هذه الأُمَّة"³.... إنَّها الاحتكاكات والتفاعلات الثقافية التي يفسِّحُ الحجُّ وركبُه مجالاً واسعاً لحدوثها، وبفضلها أصبح أولئك الأعلام العلماء من الحجاج الجزائريين بمثابة "رُسل الثقافة والتعليم في ذلك العصر"⁴.

المبحث الثاني: المُثاقفةُ مراكزها وتوجُّهاتها في رحلة الركب

01. النزول أو الجِوارُ بمحطَّات الركب العلمية

لا تكاد تخلو طريق الحج من منطلقها إلى منتهاها من محطات ثقافية بمثابة نقاط توقُّف علمية، يركنُ إليها ركب الحج من أجل إشباع نهم بعض الحجاج الجزائريين للمعارف والإجازات، وإتاحة المجال لحدوث "المثاقفة" أو التأثير الثقافي المتبادل بين الأعلام الجزائريين ونظرائهم من العلماء المشاركة بصفة خاصة، وذلك لأنَّ ركب الحج كان يُمكث في بعض المدن لأيام وأسابيع. وتأتي في صدارة تلك المحطات العلمية المقصودة من طرف أعلام الركب الجزائري محطتا القاهرة والحرمين الشريفين: فالقاهرة هي محجُّ العلماء والطلبة بسبب وجود الجامع الأزهر الشريف بشهرته التي أطبقت الآفاق، بينما الحرمان الشريفان هما محلُّ المجاورة الدينية والعلمية.

¹ - المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص168.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص127.

³ - ابن زاكور الفاسي: نشر أزهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص40.

⁴ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص109.

أ - الجامع الأزهر قبلة أعلام الحج العلمية:

الجامع الأزهر أو "جامع الأزهار" - كما سُمِّه بعض الرحالين - هو في نظر أعلام ركب الحج: "محطُّ رحالِ الأسئلة، ومفكُّ أقفالِ كلِّ معضلة، في قواعد الأصول وفوائد الفصول، بين جهابذة المعقول وصيارفة المنقول"¹. والحجاج الجزائريون لا يعدِّلون بقرب الأزهر مكاناً، حيث كانوا يقومون بكراء الدور والغرف القريبة من الجامع، لملاقاة المشايخ ومزاحمة أهل المجالس العلمية. فبمجرد وصول الركب إلى القاهرة يطرح الحجاج أمتعتهم بالوكالات المخصَّصة لذلك مثل وكالتي "قايت باي" و"بولاق"، ثم يُسرعون إلى البحث عن منازل قريبة من الأزهر للكراء، مجسِّدين بذلك نصيحة الرحالة ابن مسايب التلمساني للحجاج الجزائري قائلًا²: (المديد)

انزَلْ مَجَاوِرَهُمْ يَا صَاحَّ عِنْدَهُمْ تَهَنَّا وَارْتَاخْ
زُرْهُمْ كُلَّ مَسَا وَصَبَّاحْ وَالْمَجَالِسْ لَا تَخْطِئْهَا

وفي حالة ما إذا تعدَّر على الحجاج الجزائريين إيجاد منازل قريبة من الجامع الأزهر فإنَّهم كانوا يحضرون إلى الجامع يومياً، ولا يعودون إلى الفنادق محلَّ نزولهم في منطقة "بولاق" سوى لتحصيل الطعام والشراب، ثمَّ يؤوبون إلى الأزهر لتحصيل الأهمِّ، وهو العلوم والإجازات. بل منهم من كان يؤثر الصيام أياماً متتالية لأجل التفرُّغ لذلك، وإطالة مدة المكوث في الأزهر زمناً طويلاً³. وبما أنَّ مقصد الحجاج الجزائريين في الجامع الأزهر هو "رواق المغاربة"، فلقد أصبح هذا الرواق أوفر عدداً وأكثر حركية مقارنة ببقية الأروقة! وذلك بسبب توافد الحجاج عليه بأعداد كبيرة⁴.

وعلى ذكر "رواق المغاربة" فإنَّه يُعدُّ أكبر وأقدم رواق في الجامع الأزهر، بل إنَّ تاريخ إنشائه يسبق زمن تولِّي المماليك الشراكسة للحكم في مصر⁵. ومن جملة شروط وقف رواق المغاربة: أن لا يدخله أميٌّ، ولا غير المالكي، ولا مَنْ وُلِدَ في غير بلاد المغرب من أقطار: طرابلس وتونس والجزائر وفاس. أما طلبة رواق المغاربة فهم تحت رئاسة شيخ الرواق أو وكيله، والوكيل بدوره تحت رئاسة

¹ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص155.

² - Ben Messaib, Op.cit, p279.

³ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و17.

⁴ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص110.

⁵ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص99.

شيخ المالكية، وشيخ المالكية تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر مباشرة¹. وهذا الرواق أصبح يمثل للحجاج المغاربة مؤسسة علمية واجتماعية في آن واحد، ووكيل الرواق أضحي بمثابة المتحدث الأول باسم الطلبة والأعلام من الحجاج المغاربة، يرمي وجودهم ويدافع عن مصالحهم.

ويُعرف وكيل رواق المغاربة بالأزهر باسم "النقيب" كذلك، ويتمّ انتخابه من بين العلماء المغاربة المجاورين به، وتحفظُ كتب التاريخ أسماء بعض هؤلاء النقباء أو الوكلاء، فمنهم: الشيخ أبو الحسن الجزائري الذي استقبل بعض الحجاج الجزائريين عام 1179هـ/1766م، وأعارهم كتاب شرح الشيخ الخطاب على مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي². ومنهم في عام 1204هـ/1789م الشيخ عمر بن سليمان التونسي والد الرحالة محمد التونسي صاحب كتاب "تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان"³. ومنهم: الشيخ نور الدين بن أبي القاسم الشهرير بالجمّالي المغربي، والشيخ زين الدين عبد السلام، والشيخ شمس الدين محمد بنو وغيرهم⁴.

ويجذب الأعلام من الحجاج الجزائريين إلى رواق المغاربة وجودُ مكتبة ضخمة من المصنّفات الفقهية والأدبية والتاريخية وغيرها، بالإضافة إلى باعة الكتب المتجولين، على غرار أحدهم المشتهر بـ "الدمشقي دلال الكتب"، والذي أوصى الرحالة العياشي الحجاج المغاربة بالسؤال عنه بمجرد دخول الجامع الأزهر⁵. كما كان الحجاج الجزائريون يستأنسون بوجود شيوخ صالحين لهم مكانة في مصر، من أمثال الشيخ المتصوّف عبد الرحمن الخلاّدي البجائي الملقّب بـ "أقطال"، فوجوده برواق المغاربة كان مدعاة لإقبال بعض الحجاج على المجاورة بالأزهر الشريف⁶.

من أشهر الأعلام الجزائريين الذين تبوءوا مكانة مرموقة في الأزهر الشريف العالم محمد الأمير المازوني (ت1232هـ/1817م) المشهور بـ "محمد الأمير الكبير"، الذي استقرّ أسلافه بمصر، فنشأ واشتهر فيها، وتمكّن من نيل أهمّ منصب علمي، وهو منصب مشيخة السادة المالكية⁷.

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص86.

² - المصدر نفسه، ج02، ص86.

³ - محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق، ص11.

⁴ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص102.

⁵ - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص85.

⁶ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج01، ص350.

⁷ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع نفسه، ص109.

فأشاد به المؤرخ الجبرتي أحد معاصريه وزملائه في الدراسة قائلاً: "المتفّن في العلوم كلّها، نقليّها وعقليّها وأديبّها، إليه انتهت الرياسة في العلوم بالديار المصرية، وباهت مصر ما سواها بتحقيقاته البهيّة، استنبط الفروع من الأصول، واستخرج نفايس الدرر من بحور المعقول والمنقول"¹. ووصفه تلميذه أبو راس الناصري المعسكري بأنه "محطّ الرحال، لا يخلو منهم في كل حال، أتاه الرّفاق من كل الآفاق، وطار صيته في المغرب والشام والعراق، كان إمامَ مصرَ بل سائر الأمصار، وفقية عصره في جميع الأقطار"². إنّ الشيخ محمد الأمير المازوني يُعدُّ أفضلَ مثال لنجاح الإعلام الجزائريين في الأزهر الشريف ومصر³، وأنموذجاً ناجحاً يَحْتَدِي به الحجاج المغاربة عموماً.

لقد كان بعض مُريدي العلوم من الحجاج الجزائريين ينفصلون عن الركب بعد أداء الحج ويتخلّفون عنه، مفضّلين البقاء بمصر من أجل المجاورة بالجامع الأزهر. نذكر من أولئك الحجاج الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري الأزهري، المنسوب إلى الأزهر الشريف لأنّه جاور به مدة ثلاثين سنة، بعد عودته من الحج عام 1152هـ/1739م، درس خلالها مبادئ الطريقة الصوفية الخلوتية، وعاد إلى الجزائر مؤسساً للطريقة الرحمانية⁴. ومنهم الشيخ علي بن محمد الجزائري⁵ (ت1185هـ/1771م)، المعروف بابن الترجمان، لأنّه خالط أرباب الدولة لمعرفته لسائهم التركي، وقد استقر بمصر لسنوات، وابتنى فيها داراً حسنة قرب الأزهر الشريف، وزاحم علماءه بمنابكهِ في تحصيل أنواع العلوم⁶.

¹ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج04، ص441.

² - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص60.

³ - كان لمحمد الأمير دور سياسي بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، ويُنسبُ له بيتان شعريان طرفان حول عزل الوالي خورشيد باشا من ولاية مصر سنة 1220هـ/1805م، بسبب شكوى العلماء والطلبة والعساكر منه: (مجزوء الكامل)

عَزَلُوكَ لَمَّا قُلْتَ: مَا أُعْطِي، وَوَلَّوْا مَنْ بَدَلُ

أَوْ مَا عَلِمْتَ بَأَنَّ "مَا" حَرْفٌ يَكْفُ عَنْ الْعَمَلِ

يُنظر: محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق، ص17.

⁴ - Louis Rinn: Marabouts et Khouan, étude sur L'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1884, p452.

⁵ - الجزائري تَرُدُّ هذه النسبة بهذه الصيغة في بعض المصادر المشرقية الحديثة للدلالة على "الجزائري"، مثل: علي الجزائري، حسن الجزائري، أحمد الجزائري، وغيرها من الأسماء.

⁶ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر نفسه، ج01، ص579.

وبفضل أركاب الحج المتتالي وروُدُها على مصر من موسم لآخر تزايد عدد المجاورين بالجامع الأزهر من الطلبة والمشايخ الجزائريين، وساهمت كثرة الأوقاف على رواق المغاربة في تيسير أعباء بقائهم في مصر، وكان للأثرياء الجزائريين المستقرّين بمصر قصبُ السَّبْق في وقف العقارات والأماك على رواق المغاربة وطلبة العلم، فمن المسارعين إلى ذلك الحاج شعلان التلمساني، التاجر الذي أجرى النفقة من ماله الخاص على شيخ الرواق، واشترى كتباً كثيرة لطلبة العلم، ولم يكتف بذلك بل رصد مبلغ إحدى عشر ألف (11000) بارة لشراء عقارٍ ووقفه على طلبة رواق المغاربة بالأزهر¹. كما كان المغاربة المجاورون بالأزهر الشريف ينتفعون في بعض المناسبات من دراهم وهدايا بعض الأمراء البكوات نظير قراءة صحيح البخاري على أجزاء، لمدة أربعة أيام².

وإضافةً إلى المجاورة بالأزهر الشريف اعتاد الحجاج الجزائريون كذلك أن يقصدوا بين الفينة والأخرى بعض المساجد التي تحوي مكتباتٍ أو خزائن كتب، والمساجد المنسوبة إلى المغاربة بالقاهرة. وكذا المشاهد المتعارف على زيارتها كلّمًا حلّ ركب الحج بمصر، وفي مقدمة تلك المزارات المشهد الحسيني، الذي يضمُّ أضرحة جماعة من أهل البيت، أشهرهم السيدة نفيسة، والسيدة سكيّنة، والسيدة زينب، والسيد زين العابدين، والسيد زيد بن علي... وغيرهم.

وبعيداً عن الأزهر الشريف والقاهرة تأتي مدينة الإسكندرية الساحلية في المرتبة الثانية من حيث مقصد الحجاج الجزائريين في مصر بعد أدائهم الحج، نظراً لوقوعها على إحدى طرق الحج الشهيرة من جهة، ووجود عائلات من أصلٍ جزائري فيها من جهة أخرى، وذلك رغم قلة معاهدها ومدارسها العلمية. فقد سكنها جزائريون على فتراتٍ، حمل معظمهم لقب "حاج" للدلالة على أنّهم حجاج فضلوا البقاء بالمدينة³. غير أنّ بقاء الأعلام الجزائريين في مصر لم يكن موفقاً في جميع الحالات، إذ أبدى المقرّي التلمساني - مثلاً - ندمه على البقاء قائلاً⁴: (الوافر)

تَرَكْتُ رُسُومَ عَزِي فِي بِلَادِي وَصِرْتُ بِمِصْرَ مَنْسِي الرُّسُومِ
وَنَفْسِي عَفْتُهَا بِالذُّلِّ فِيهَا وَقُلْتُ لَهَا عَنِ الْعِلْيَاءِ صُومِي

¹ - حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص 300.

² - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج 04، ص 492.

³ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص 57.

⁴ - أحمد المقرّي، رحلة المقرّي، مصدر سابق، ص 78.

ب - مجاورة الجزائريين بالحرمين الشريفين وأثرهما:

كانت ظاهرة الجوار (أو المجاورة) بالحرمين الشريفين بالنسبة للحجاج الجزائريين مقتصرة على الأعلام العلماء من ركب الحج الجزائري، ومن أوائل الأعلام المجاورين في بدايات العهد العثماني الشيخ طاهر بن زيان الزواوي الجزائري (ت950هـ/1543م)، فقد أخذ عن الشيخ أحمد زروق البرنسي (دفين مصراته)، وعن الشيخ محمد الوزان المغربي، ثم حجَّ وجاور، ونزل بالمدينة المنورة، حيث اشتهر وألَّف كتابه "نزهة المرید في معاني كلمة التوحيد"¹.

أمَّا الشيخ أحمد المقرئ التلمساني فقد ألَّف كُتبه في السيرة وهو في الحرمين الشريفين، ورغب في سُكنى المدينة المنورة بعد تعاقب زيارته إليها. وها هو يتحدث عن مجاورته بها في رسالة بعثها إلى أحد أصدقائه بالمغرب الأقصى قائلاً: "... حجَّ الفقيرُ مراراً خمساً، وأضحى في بعضها مجاوراً وأمسى، واستجلى من طيبة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام في سبعٍ مرارٍ بدرأً وشمساً. وجاور هنالك، ودرّس وصنّف وأضاء فكره الحالك"².

ومن العلماء الجزائريين المجاورين بالحرمين الشريفين في موسم حجّ القرن 11هـ/17م كذلك: الشيخ محمد الفقيه الزواوي الذي كان يتردّد على الحجاز مع ركب الحج الجزائري انطلاقاً من مدينة قسنطينة³. والحاج علي العنّابي التاجر الذي انتفع المجاورون المغاربة من إنفاقه وكرمه⁴. والشيخ خالد الجعفري المالكي الذي قرأ في الغرب على أجلاء شيوخ عارفين وأئمة محققين، ورحل إلى مصر، ومنها توجه إلى مكة وجاور بها، وتصدّر للإفادة والإقراء⁵. والشيخ عاشور القسنطيني المدعو "الفكيرين"، فقد هاجر هذا العالم إلى الحجاز حاملاً معه كُتبه بنية الاستيطان والمجاورة⁶. والشيخ إبراهيم بن جلاب الرّيغي، أحد أقارب أمير دولة بني جلاب بتقرت جنوبي الجزائر، حيث

¹ - محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الحمية، ط02، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص69.

² - محمد حجي، المرجع السابق، ص282.

³ - عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص103.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص161.

⁵ - محمد أمين بن فضل الله المحيّي الحموي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ط01، دار صادر، بيروت، د س، ج02، ص129.

⁶ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص430.

جاور بالحرمين عدّة من السنين، ختمها سنة 1074هـ/1664م¹. والحاج عبد الرحمن الغريسي الجزائري الذي كان يستقبل الحجاج الجزائريين والمغاربة في المدينة المنورة، ومن ثمّ يُعرّفهم بمشايخها الأفاضل ويجمعهم بهم².

وخلال مواسم الحج المتتالية من القرن 12هـ/18م تضاعف نشاط المجاورة، ليشمل علماء جزائريين آخرين منهم: الحاج محمد العنّابي، فقد كان عالماً جزائرياً فاضلاً، قدم مكة للحج، وجاور بها لمدة سنة، فمات هناك ودُفن بمقبرة المعلاة سنة 1140هـ/1728م³. والشيخ محمد بن أحمد الشريف الجزائري (ت 1159هـ/1746م)⁴، إذ كان كثير التنقل بين الجزائر وأزمير التركية، وذهب وذهب خلال أسفاره تلك إلى الحجاز في آخر المطاف، حيث بقي مجاوراً فترة من الزمن⁵. والتاجر بعائلته إلى مصر وصار ممّن يُشار إليهم بالبنان فيها، وحلّف بعد وفاته ابنه محمد الذي حصل طرفاً من العلوم، وصارت له الشهرة بالجملة⁶. وكذلك القاضي محمد بن عبد الرحمن التلمساني، الذي "نبذ تلمسان وودّعها وداع من لا يعود إليها، ولحق بالحرمين الشريفين، وأخذ معه كمّاً من العسجد والورق الوريق، ناوياً البقاء هناك، متفرّغاً للعبادة حتى أتاه اليقين"⁷.

ومن كافة النماذج المعروضة سابقاً يظلّ الشيخ عيسى الثعالبي الجعفري رائد المجاورين الجزائريين بالحرمين الشريفين في ذلك العهد دون منازع، فقد وُسم بلقب "جار الله" لكثرة مجاورته بهما، رغم أنه - في وصف الرحالة المغربي الدرعي - "قاسى في أول مجاورته من الفقر شدّة، فأتخذ الصبر عدّة، ثمّ اشتهر بعد ذلك أمره، وظهر للناس خيره، واثتال الناس إليه من كلّ جانب"⁸.

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 133.

² - أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص 100.

³ - أبو الخير عبد الله مرداد، المصدر السابق، ص 471.

⁴ - أورد الباحث عادل نويهض في معجمه اسماً مطابقاً لاسم هذا العالم (ابن الشريف الجزائري)، كما ترجمه المرحوم سعد الله للشخصية ذاتها، مع اختلاف في تاريخ الوفاة؟ يُنظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 107.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 01، ص 431.

⁶ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج 01، ص 595.

⁷ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص 50.

⁸ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 402.

وبعد أخذِ الثعالبي عن علماء مكة كالقاضي تاج الدين المالكي والإمام زين العابدين الطبري والشيخ علي بن الجمال المكي، أجازوه جميعاً وأطنبوا في مدحه. ثمَّ اشتغل بالتدريس في المسجد الحرام في فنون كثيرة، وحضر دروسه أجلاء العلماء، وانفرد بتحقيق الفنون، فأقرأ الكتب الستة والموطأ والمعجم الصغير والشفاء والسيرة وجامع المسانيد والمواهب اللدنية والمجالسة وألفية العراقي وألفية ابن مالك والخزرجية والسلم ومختصر السنوسي في المنطق....¹

بينما نجدُ الشيخ عبد العزيز التواتي (سالف الذكر) قد خالفَ عادات المجاورين من الأعلام الجزائريين، وفضلَ أن يستقرَّ بعد الحج والمجاورة في الطائف، حيث اختاره لقربه من الحرمين الشريفين، فتزوج امرأة من أهله، ووزق منها عدة أولاد، وأصبحت له عند أهل الطائف حظوة ومكانة، يحجُّ كلَّ سنة ويحضر الموسم.²

لم يكن المجاورون الجزائريون بالحرمين الشريفين عائلةً على المقيمين بهما أو الوافدين عليهما، بل كان منهم تجار يُساهمون في أعمال الخير والحملات التطوعية في الموسم، مثل الحاج علي العنابي المذكور. أما طلبة العلم الفقراء منهم فقد انتفعوا من حلقات الإقراء التي كان أثرياء مكة يُقيمونها في رمضان، ومن التكايا (الزوايا) التي أنشأها بعض السلاطين العثمانيين بالمدينة المنورة خاصة.³ كما كان للشيخ عيسى الثعالبي رباطٌ يقصده هؤلاء بالمدينة المنورة، وأصبح بيته في مكة المكرمة مألفَ العلماء والفقهاء ومحطَّ رحالهم، إليه يأوون وعنده ينزلون، وبصفة خاصة المغاربة منهم، فقد وهب - في أحد المواسم - حُجَّاجاً مغاربة بيتاً قريباً من المسجد الحرام.⁴

ويُحسبُ للمجاورين المغاربة تأثرهم الإيجابي بالتطورات الحادثة في المشرق، من ذلك - مثلاً - تضامنهم واندفاعهم التلقائي للدود عن حياض مصر وبيضة الإسلام، بعد وصول خبر الحملة الفرنسية على مصر إلى بلاد الحرمين. حيث شرعَ المجاورون في تعلُّم استعمال السلاح، والجِدِّ في التدريب العسكري، استعداداً للتعبئة من أجل جهاد الفرنسيين المحتملين لمصر.⁵

¹ - أبو الخير عبد الله مرداد، المصدر السابق، ص 385.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 172.

³ - أحمد الرشيد، المصدر السابق، ص 18.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 02، ص 143.

⁵ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج 02، ص 554.

إنَّ معظم المجاورين الجزائريين كانوا يستغلُّون وجودهم بالحرمين الشريفين لزيارة الأقاليم المجاورة والمدن المشرقية المشهورة، فيخرجون من مكة المكرمة مع الركب العراقي العائد إلى بلده، أو من المدينة المنورة بمعية الركب الشامي. ونجدُ المقرئ التلمساني وأبا راس الناصري ممن اشتهروا بزيارة بلاد الشام ومصاحبة علمائها وأمرائها بعد أداء فريضة الحج، في حين فضَّل الأمير عبد القادر ووالده محي الدين زيارة العراق، والنزول بمدينة بغداد¹.

والملاحظُ كذلك أنَّ البقاء في الحرمين الشريفين أو المغادرة يرجع إلى نوعية المجاورين وأسباب مجاورتهم، فإن كانوا ممن قرؤوا بدينهم من الناس والفتن وحكَّام الجزائر الأتراك، فإنَّهم يُرمعون البقاء هنالك حتى يقضي الله أمره، وإن كانوا ممن قصدُهم طلب العلم أو انتظار موسم الحج الموالي، فأكثر هؤلاء يقطع جواره بعدما ينالُ مُرادَه. ورغم ظروف المجاورة القاسية أحياناً، وتقلبات الأوضاع الأمنية والسياسية في الحجاز، بسبب الصراع المتجدد بين أشرف مكة (أمرائها) على الحكم، إلا أنَّ المجاورين الجزائريين كانوا يتمنون البقاء في رحاب الحرمين الشريفين أطول مدة ممكنة، ولو أعوزهم المال، أو حيل بينهم وبين ما يشتهون من رغد العيش، ولسانُ حالهم - كحال الرحالة المقرئ التلمساني - يقول²: (الطويل)

إذا كنتُ جاراً للنبيِّ وصحبهِ ومكَّةُ بيتُ الله منِّي على قُربِ
فَمَا ضُرِّي أَنْ فَاتَنِي رَغْدُ عَيْشَةٍ وَحَسْبِي الَّذِي أُوتِيَتْهُ نِعْمَةٌ حَسْبِي

02- ركب الحج ونشر المصنَّف الجزائري:

ركبُ الحج مكتبةٌ كبيرةٌ متنقلة، تحمل الكتب والتقاييد والمسودات والمبعضات والرسائل في الوجهتين ذهاباً وإياباً. ولطالما خلف الحجاج وراءهم كتباً في بعض المحطات أو أعاروها لمريديها³، لأجل استنساخها وعموم الفائدة منها، ريثما يعود ركب الحج من الحجاز. ذلك ما تمَّ - مثلاً -

¹ - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص45.

² - أحمد المقرئ، نفع الطيب، مصدر سابق، ج02، ص60.

³ - على ذكر إعارة الكتب وانتقالها بين الأعلام فإنَّ للعالم الجزائري ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) موقفاً حاداً

من ذلك، أوردَه المقرئ التلمساني في رحلته، كما أوردَ ردوداً عليه. يقول ابن قنفذ: (الوافر)

أَلَا يَا مُسْتَعِيرَ الْكُتُبِ دَعْنِي فَإِنَّ إِعَارَتِي لِلْكَتُبِ عَارٌ

فَمَحْبُوبِي مِنَ الدُّنْيَا كِتَابِي وَهَلْ أَبْصَرْتَ مَحْبُوباً يُعَارُ

يُنظر: أحمد المقرئ، رحلة المقرئ، مصدر سابق، ص126.

على يد شيخ الركب الجزائري نفسه محمد بن عبد الكريم الفكون، فقد كان يحمل معه في سفره إلى الحج أسفاراً من تأليف والده الشيخ عبد الكريم الفكون، حيث أعار أحد العلماء المغاربة منها بعض شروح والده في النحو والتصريف، مدة إقامة الركب بمدينة طرابلس فقط¹.

وفي بلاد المشرق استمرّ الطلب لمواسم عديدة على منظومة الشيخ أحمد المقرّي التلمساني المسماة "إضاءة الدجّة بعقائد أهل السنّة" من طرف الطلبة بمكة المكرمة خاصة، كما كتّب منها بالحجاز ومصر والشام نيفاً على ألف نسخة². ولا غرو في ذلك فقد كانت للشيخ المقرّي مراسلات في علم العقيدة مع بعض العلماء المشاركة، منها ردّه الكتابي على عالم مصري سأله عن جواز رؤية الله - عزّ وجلّ - عقلاً، وعن أدلة ذلك نقلاً³.

ورغم ذلك تأتي المصنّفات العقديّة الشهيرة للعالم الجزائري الإمام السنوسي التلمساني (ت 895هـ/1490م) على رأس المصنّفات الجزائرية المطلوبة بكثرة في المشرق بمناسبة الحج، حيث كان طلبة الجامع الأزهر يُلحّون على أعلام الركب الجزائري في سماع قراءة العقيدة الكبرى للشيخ السنوسي⁴. بل إنّ حجاج بلاد السودان كانوا يطلبون أيضاً من الحجاج المغاربة الذين يلقونهم بالحرّمين الشريفين قراءة مقدمات الشيخ السنوسي في العقائد⁵.

ويحقّ للحجاج الجزائريين الفخر - كلّ الفخر - في بلاد المشرق، حين يجدون أنّ تأليف العالم الجزائري الشيخ عبد الرحمن الأخصري (ت 953هـ/1545م) وعلى رأسها "السلم المروّق في علم المنطق" شائعة في الجامع الأزهر، وطلبة العلم في مصر قد أقبلوا عليها إقبالاً كلياً، تدرّساً وبجثاً وشرحاً وتعليقاً بالحواشي والطُرّ⁶، بفضل حركية ركب الحج الجزائري الثقافية.

ومن مشاهد النشاط الكتابي اللحظي أثناء سفر الركب أنّ حاجاً جزائرياً بديع الخطّ سريع اليد فيه نسخ كراساً من القالب الكبير في الطريق، أمّا أثناء إقامة الركب المؤقتة فقد تمكّن من زبّ

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 02، ص 514.

² - المصدر نفسه، ج 02، ص 411.

³ - أحمد المقرّي، رحلة المقرّي، مصدر سابق، ص 156.

⁴ - عبد الرحمن التتلاي، المصدر السابق، و 17.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج 01، ص 430.

⁶ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج 01، ص 41.

(كتابة) رحلة "الدرعي" وكتاب الصباغ في كرامات الشيخ "ابن يوسف الملياني"، مُقارِباً ستين كتراساً¹! في حين تمكّن حاج جزائري آخر من نظم سائر معاطن المياه بإقليم برقة وأسماء المراحل والمنازل، مبيّناً مواقعها وأوصاف مياهها بدقة متناهية، لكي يُساعد الحجاج اللاحقين على اجتياز ذلك الإقليم بسهولة، غير أنّ الكراس الذي جمع فيه النظم المذكور ضاع قرب أحد الآبار في يوم شديد البرودة، ورغم عودة بعض الحجاج للبحث عنه إلا أنّ ذلك لم يُجدِ نفعاً².

لطالما كان العلماء المرافقون لركب الحج الجزائري مقصدَ طلبة العلم وأهله في معظم محطات الركب المتتالية، طمعاً في الحصول على بعض التقايد أو الإجازات منهم، أو حتى الإجابة على بعض المسائل كتابيةً أو مشافهةً. ففي أحد المواسم اجتمع أهل قابس التونسية وفضلاؤها بالركب الجزائري، وطلبوا من علمائه البحث في بعض النوازل والمسائل الفقهية، وتمنّوا منهم إطالة فترة النزول أزيد من يومين، ليشفّوا غليلهم، قائلين لهم: نِعَم الملاقاة لو طالت³؟ وفي بلدة زويلة الليبية استقبل الطلبة أعلام الركب الجزائري بحفاوة، وشرعوا يسألون عن مسائل مختلفة، منهم من يسأل امتحاناً، ومنهم من يسأل مستفيداً⁴. ويكفي دليلاً على كثرة الأسئلة التي كانت توجهُ لأعلام الركب الجزائري في سفرهم قولُ أحدهم: "... هذا ما حضرني من الأسئلة في وجهتي وأثناء رحلتي.... وما نسيْتُ أكثر وأحفل وأكمل، والمدار على العمل"⁵!

03. العلوم والفنون المأمولة من طرف الحجاج:

لقد انعكس التوجّه الفكري السائد بالجزائر وغيرها من الأمصار الإسلامية في ذلك العهد على مُبتغى الحجاج الجزائريين في إطار رحلتهم المشرقية المقدسة، فالتأليف أو العلوم التي كان يبتغيها الحجاج ويحرصون على نيل الإجازة فيها لم تكن تخرج عن نطاق فنون: الفقه والأصول والعقائد والتفسير والقراءات والأثبات والتاريخ والتصوف والبيان والحديث والكلام.... وما شابهها. فـ "علوم الوقت" التي فرضت نفسها فرضاً - في نظر المرحوم أبي القاسم سعد الله - هي

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج01، ص256.

² - المصدر نفسه، ج03، ص234.

³ - نفسه، ج03، ص302.

⁴ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و11.

⁵ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص165.

علوم الحفظ والرواية لا علوم الاجتهاد والدراية¹. والأدهى أن تلك العلوم لم تكن مُتاحة بما يكفي - جميعها - في معظم المناطق الجزائرية على الأقل، فهذا الشيخ الورثلاي يذكر بعضاً من العلوم التي تراجع إشعاعها في إقليمه، وسعى إلى تحصيلها في المشرق قائلاً: "... غير أن أهل وطننا لا يشتغلون بالإعراب أتمّ اشتغال، وإنما دأبهم الفقه وأصول الكلام، وأما مسائل الإعراب والمنطق والتصريف والبيان والأصول فلا"²؟

وبما أن مدينة القاهرة أهمُّ محطات الركب الجزائري ذهاباً وإياباً، فقد كان أعلام الفكر من الحجاج يقصدون علماءها البارزين، فيقرؤون عليهم ويطلبون منهم الإجازة. ومن تلك الأسماء اللامعة المقصودة الشيخ مُرتضى الزبيدي (ت1205هـ/1790م) عالم اللغة والنحو والحديث بمصر، فالحجاج المغاربة لا يعبرون أراضيها دون زيارته، فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح إلى الغروب، وبعضهم يأتيه بمراسلات وصِلات من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها، ويلتمسون منه الأجوبة³. ولعلّ ذلك راجعٌ إلى حسن اعتقادهم فيه، وعلاقاته الطيبة مع أهل الجزائر وولائتها أيضاً، فقد كان يتلقّى الهدايا والإعانات من باي الغرب الجزائري الباي محمد بن عثمان الكردي (محمد الكبير)، لتوزيعها على الفقراء من طلبة العلم⁴.

تأتي رواية الحديث في مقدمة الفنون التي كان العلماء الجزائريون يشدّون الرحال نحو المشرق من أجل الإجازات فيها، وقد أقرّ الرحالة ابن أبي محلي السجلماسي الساوري بذلك، مُرجعاً السبب إلى "عُربة" فنّ الحديث في البلاد المغاربية قائلاً: "... إذ لم تكن لي رغبة أيام إقامتي بمصر والحجاز إلا في فنّ الحديث الذي هو في غربنا غريب"⁵! وذلك رغم أن رواية الحديث كانت تتمُّ في مساجد الجزائر وقتَ الزوال على مدى ثلاثة أشهر كاملة هي: رجب، شعبان ورمضان⁶.

وتكون إجازات علماء المشرق لمن يطلبها من الحجاج الجزائريين في فنّ الحديث وغيره مكتوبة، يخطُّ يد المميز رأساً. وقد يكتفي العالم المميز بأن يأمر أحد تلامذته بكتابتها إملاءً لسببٍ

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج02، ص10.

² - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج03، ص141.

³ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص310.

⁴ - المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص49.

⁵ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص104.

⁶ - ابن المفتي، المصدر السابق، ص112.

من الأسباب، غير أنه في الأخير يختمها هو بخط يده، ويطلع عليها بطابعه¹. فضلاً عن الإجازات المخطوطة كان الأعلام من الحجاج الجزائريين يرجعون من رحلتهم الحجية ببعض المصنّفات في علوم شتى، فهذا حاجّ جزائري عاد من الحج وقد اشترى حاشية القاضي زكريا الأنصاري على شرح البيضاوي في التفسير من بعض أهل تونس². وهذا حاجّ ثانٍ عاد إلى تلمسان بكتاب فتوح البلدان للبلاذري في ستة أسفار في التاريخ³. بينما أهدي لحاجّ آخر بمكة المكرمة كتاب توضيح ابن مالك على صحيح البخاري في النحو والحديث معاً⁴.

ويمكن للعالم الحاجّ أن يُجازَ في علوم عديدة من لدن شيخ واحد، مثلما تمّ بين الشيخين الجزائريين عيسى الثعالبي وعبد الكريم الفكون، فقد استمرّ التواصل بينهما في المشرق بمناسبة مواسم الحج، حيث قرأ الثعالبي على الفكون كتاب الموطأ للإمام مالك، والصحيحين والسنن الأربع، والأحكام الصغرى للإشبيلي، والشفاء للقاضي عياض، والشهاب للقضاعي، وبعضاً من رباعيات أبي عوانة، ونظم أصول السلمي لزروق، وغنيمة الوافد لعبد الرحمن الثعالبي⁵.

المبحث الثالث: تأثر ركب الحج بالمناخ الفكري السائد

01. المفاضلة بين المغرب والمشرق من منظور الحاج:

كانت رحلة ركب الحج الموسمية من بلاد المغرب نحو بلاد المشرق مناسبةً سانحةً للتواصل متعدّد الأوجه بين المغاربة والمشاركة، غير أنّها كانت كذلك سبباً في تجلّد ظاهرة "المفاضلة"⁶ بين الإقليمين المتباعدين. حيث لا تخلو مواسم الحج من ممارسات أو مواقف أو مناظرات توحى كلّها بتعصّب كلّ طرف لإقليمه أو جهته، مع قليلٍ من الإنصاف والاعتراف بالفضل للغير.

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج2، ص89.

² - المصدر نفسه، ج03، ص307.

³ - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص144.

⁴ - أحمد المقرّي، رحلة المقرّي، مصدر سابق، ص96.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص91.

⁶ - المفاضلة بين المشرق والمغرب ظاهرة قديمة، فقد ذكر أنّ هارون الرشيد وقدّ عليه بعض أهل المغرب، فداعبهم بالقول أنّ بلاد المغرب بمثابة ذنّب الطائر، فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين، لكنّ الطائر المذكور هو الطاووس، فضحك الرشيد، واستحسن سرعة بديهتهم وانتصارهم لقطرهم بلاد المغرب. وقد ألّف الرحالة ابن سعيد المغربي في ذلك كتاباً سمّاه "الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشاركة والمغاربة". يُنظر: أحمد المقرّي، نفع الطيب، مصدر سابق، ج01، ص243.

يرى بعضُ الرّحّالين الحجاج بأنَّ أهل المغرب كانوا يفضّلون أهل المشرق في تلك الأزمنة بأمرين، أولاهما أنّهم لا يعرفون تلك الصراعات المذهبية الكلامية الحادّة المنتشرة بالمشرق، وثانيهما أنّ المناصب الدينية مثل القضاء والفتوى والتدريس والإمامة والخطابة والشهادة لا تُباع ولا تُشترى بينهم كعادة أهل المشرق! الذين جعلوا مدار أحكام قضائهم على الرّشا وقبض المال في الحقّ والباطل¹؟ وهذا حاج جزائري يُحدّر الحجاج من سماسة الكراء في مصر ومن حلاوة لسائهم قائلاً: ".... ولا تغتَرّ أيها الحاج بحلاوة اللسان من الشياطين، ولا بإظهار المودّة فإنّهم ذئاب في ثياب، وكذا إن أتوا لك بهدية فلا تقبلها منهم، فإنّهم يريدون التّحيل بالوصول بها إلى مالِك²؟ أمّا "أعراب المشرق" الذين اشتهروا بإذابة أركاب الحج المغاربية فهم - في نظر الرحالة العياشي - جهلةٌ جفافة، وأعرابُ المغرب "فقهاء" إذا ما قورنوا بهم³!

وقد شاعت - حينئذٍ - ممارسات مُنبئة عن نظرة المشاركة السلبية للمغاربة، منها قولهم في بعض أمثالهم: "كلّ ما يجيء من المغرب مليح إلا ابن آدم والرّيح"⁴! فالمغاربة مُحتقرون من طرف المشاركة - حسب رأي حاج - إذ ".... لا تجد أحداً من مصر إلاّ يحتقرُ المغاربة، وطبائعهم منافية لطباع أهل المغرب، فترى المغربي إذا تكلم تعصّبوا عليه بالباطل ولو بالزّور، فلم ينفع فيهم إلاّ عدمُ مخالطتهم والانعزال عنهم، أو لباس زيّهم ليصرف عنه السوء والفحشاء الصادرة منهم"⁵.

إنّ السبب في تلك النظرة الدونية من طرف المشاركة هو سلوكيات بعض "الغوغاء" من المغاربة في مصر خاصة والمشرق عامة، حيث كانوا يلجؤون إلى التكبُّب من ممارسة الشعوذة والدجل⁶. فانعكس ذلك على الحجاج المغاربة عند كلّ موسم حج، ووصل الأمر إلى اتّهام بعض الأعراب في مكة المكرمة للحجاج المغاربة بالحيلة والدّجل لإخراج كنز من محلّ إحرار⁷!

¹ - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص232.

² - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج02، ص83.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص466.

⁴ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج03، ص334.

⁵ - المصدر نفسه، ج03، ص156.

⁶ - كان المغاربة عموماً متهمين من قِبَل المشاركة في ذلك العصر بالحيل والدّجل، وأدعاء القدرة على تحويل الفضة والدرهم إلى ذهب، وتعاطي ما عُرف وشاع باسم "علم الكيمياء".

⁷ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص166.

وبعيداً عن أشكال الفخر والتعصب للجهة أو الإقليم من كلا الطرفين، فإنَّ بعض الحجاج المغاربة أقرُّوا بسبق أهل المشرق في بعض الأمور، وتمنَّوا مجاراتهم فيها، منها الاعتناء بالمساجد وتعظيمها وتزيينها، على خلاف أهل المغرب، الذين ".... لا تكاد ترى في مدائنهم مسجداً عظيماً قد أُحدِث، ولو سقط شيءٌ من المسجد أعادوه بأجرٍ وجصٍّ وطنين، بحيث يصبح المسجد كأنه مُرَقَّعة فقيرٍ هندي، فيه من كلِّ لون رُقعة!"¹. ومنها التدريس بالأزهر الشريف في ملاً كبير من العمائم، لم يكن له نظيرٌ - وقتئذٍ - في البلاد المغاربية كلِّها!²

ومن مظاهر اعتناء المشاركة بالعلم وأهله عادةٌ أثارت فضول الحجاج وغيرهم، وهي أنَّ المصريين إذا مات عندهم عالم مشهور فإنَّ المؤدِّنين يقومون بتلاوة قوله تعالى "إنَّ الأبرار لفي نعيم"³ في جميع الجوامع، فينتشر الخبر بموت ذلك العالم، ويزدحم الناس لأجل الصلاة عليه، ويُنبشِّدون قصائد ومرثياتٍ في محاسنه وسيرته، ويُظهرون التأسُّف عليه وعلى موت العلماء، ويُكثِّرون من تلاوة الآيات والأحاديث ذات الصلة بذلك.⁴

لم يُخفِ المغاربةُ اعترافهم بالتفوق العلمي للمشرق على المغرب في ذلك العهد البتَّة، والواقع أنَّ حجاج وأعلام الجزائر خاصةً لم تكن تتفتقُ مكنوناتهم أو تشيعُ مآثرهم إلَّا إذا يَمَمُوا ساحة المشرق - كما رأينا في نماذج سابقة - وكأهمَّ امثلوا نصيحة عالم بجاية وقاضياها أبي عبد الله محمد بن يحيى الباهلي المعروف بالمسفر (ت744هـ/1343م) عندما قال⁵: (الكامل)

شَرِّقْ لِتَجْلُو عَنْ فُوَادِكَ ظُلْمَةً فَالشَّمْسُ يَذْهَبُ نُورُهَا فِي الْمَغْرِبِ

02- ركب الحجِّ والمدِّ الصُّوفي الغالب:

خضعتُ ضفتا العالم الإسلامي مشرقه ومغربه لتيار المدِّ الصوفي الجارف خلال العهد العثماني، وبدا تأثير ذلك جلياً على أطوار رحلة ركب الحجِّ الجزائري. فكان دأب الحجاج الجزائريين زيارة قبور أولياء الله الصالحين في الطلوع والرجوع، نذكر منهم بالجزائر خاصةً: سيدي أبا

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص53.

² - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص132.

³ - سورة الانفطار، الآية 13.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج02، ص107.

⁵ - عادل نويهض، المرجع السابق، ص31.

مدين بتلمسان، وسيدي أحمد بن يوسف الراشدي بمليانة، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر، وسيدي عقبة بالزاب، وسيدي عبد المؤمن بقسنطينة، وسيدي ابن عبد الكريم المغيلي بتوات... بل إن زيارتهم موسى بها للحجاج قبل سفره، على ألا يُخْلَفَ من مُجْلَتِهِمْ أحداً¹: (المديد)

زُرُّ قُطْبِ الْعَبَّادِ وَزِدْ لِلْسُّنُوسِيِّ مَوْلى التَّوْحِيدِ
لَا تُخْلَفْ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ سَيِّدٌ كُلُّهَا جُمْلَةً وَاحْصِيهَا

وفي طريق الركب نحو المشرق لا ينفك الحجاج يزورون قبر الصحابي "أبي لبابة" دفين قابس التونسية، وقبر العالم الصوفي "أحمد زروق البرنسي" دفين مصراتة الليبية، والتبرك والانكسار عند ضريحه، والاستئناس بزيارته، والإمداد من معونته، والتقوية على ما هم بصدد مطالعة حضرته... حسب تعابير الصوفية، ومنهم الرحالة الورثلاني الذي أقرَّ بفضل ومفعول تلك الزيارة قائلاً: "....وما مرزنا عليه إلى الحجِّ وأصابنا شيءٌ إلا فُرِّجَ في الحين، وقد وقعتُ في أيدي الحرامية أي المحاربين من العرب، وتمكَّنوا من هلاكنا فنحنَّاني الله منهم بجاهه وجاه أمثاله"²؟

وبحكم طغيان التوجُّه الصوفي في طريق الركب، فإنَّ الحجاج كانوا يغتنمون فرصة دخول القاهرة لزيارة الصالحين فيها، الأحياء منهم والميتين، وقد عدَّ الرحالة العامري التلمساني أشهرهم، فمنهم: الحسنان والعارف الشعراي والصحابي سارية والإمام الشافعي وابن قاسم وأشهب وأصبغ والست نفيسة وابن عطاء الله وابن أبي جمره والشاطبي وخليل والمنوفي.... داعياً الحجاج إلى الاجتهاد في زيارتهم³. وبالجملة فإنَّ البلاد المصرية - حسب تعبير الرحالة الورثلاني - "قد حُشِيَتْ بأولياء الله دون غيرها من البلاد، فوجودهم كثير، وهم يَنْبُتُونَ فيها دائماً"⁴!

كان الحجاج الجزائريون يتلقون من أعلام التصوف الذين يقصدونهم في المشرق الأذكار والإجازات، ويُجَدِّدون عليهم العهد في الطرق الصوفية المتباينة، كلٌّ حسب مُرادِه. وإذا علموا بوجود شيوخ متصوفة ضمن أركاب الحج الأخرى الوافدة على الحجاز قصدوهم لأجل ذلك، وطلبوا منهم الانخراط في سلوكهم، والسماح لهم بالتلقين، مثلما فعلَ فريقٌ من حجاج منطقة

¹ - Ben Messaib, op. cit, p 275.

² - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص404.

³ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص96.

⁴ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص121.

غريس، حيث طلبوا من بعض شيوخ الركب المغربي الإذن لهم في تلقين الأوراد¹. ومن أعلام التصوف ضمن ركب الحج الذين طار ذكرهم بالجزائر أواخر العهد العثماني الشيخان محمد القشتولي الجرجري وأحمد التجاني، وكلاهما تلقيا الأوراد والوظائف الصوفية في سفرهما للحج إجازة، وبقيا في مصر لفترة، فتأثرا بالتيار الصوفي الجارف فيها، ونتيجة لذلك تم انبعاث أهم طريقتين صوفيتين بالجزائر في تلك الفترة هما: الرحمانية والتجانية، بعد رحلتي مؤسسيهما إلى الحج².

وفي المقابل لم يخل ركب الحج ذاته من أقطاب الصوفية الجزائريين الذين كان عليهم مدار الطلب في طريق الحج ومحطاتها، فهذا الشيخ أبو حفص ابن الولي الصالح سيدي الشيخ كانت له حرمة وصيت حسن وتنسك في حجاته خلال القرن 11هـ/17م، تؤثر عنه كرامات، وله أتباع، ويعامله الناس كثيراً، الأمراء فمن دونهم، ويتبركون به³. وهذا الشيخ ابن أبي زيان القندوسي (ت1145هـ/1732م) يلقن الأوراد للمريدين من الحجاج أثناء الرحلة، وقد انكبت عليه الناس لنفوقه وشدة رغبتهم في الانخراط في سلك مشيخته⁴. وظلّ الركب الجزائري يحمل في رحلته الموسمية الصالحين و"الفقراء" و"المجاذيب"، ومنهم حكيم أمازيغي، عرّف بأنه "المحبّ العارف المجذوب بالتحقيق، المقبل على الله بالتدقيق... سيدي سعيد، له في الوعظ وطريق الحبّ بالبربرية ما يسلب العقل، ويكاد أن يكون كلام ابن عطاء الله، وإنما فاتة لما كان كلامه بغير العربية"⁵؟

وبسبب ذلك السياق الصوفي الطاعمي امتلأت بلاد الحرمين الشريفين بالمزارات من أضرحة وقباب الأولياء الصالحين، القدامى والمحدثين، الذين أضحي العامة والغوغاء من الناس يُعالون في تقديسهم وتنزيههم! وقد نقل الرحالة الورتلاني مثلاً عن أحدهم يُدعى "سيدي عمر العُرابي"، ولاحظ بأن غالب السائلين بمكة المكرمة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه، أمّا أهل البادية فتسمع الرجال منهم والنساء يقولون: شيء لله يا عُرابي! وهو عندهم عظيم القدر، شهير الذكر⁶. ومن المواقف الطريفة الدالة على طغيان المدّ الصوفي أنّ حاجاً جزائرياً من مدينة بجاية وقف بصعيد

¹ - ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص732.

² - روبر مانتزان، المرجع السابق، ج01، ص563.

³ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص112.

⁴ - ابن ناصر الدرعي، المصدر نفسه، ص723.

⁵ - الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج03، ص227.

⁶ - المصدر نفسه، ج02، ص356.

عزفة، وصارَ يصرخُ ويستغيثُ بالأولياء الصالحين في أمرٍ أصابته، فأتاه بعضُ الصالحين وقالَ له: إن رجعتَ إلى بجاية فاستغيثْ بـ "رجال النخلة"؟ فَمَنْ استغاثَ بهم يُعَاثُ بإذنِ الله¹!

لم يكتفِ بعضُ الأعلام والصالحين من الحجاج الجزائريين بالفضاء الصوفي المحيطِ بمسار رحلتهم إلى الحج، بل كانوا يتوجَّهون بعد إتمام المناسك إلى بغداد لزيارة قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتقديم الهدايا إلى حرَّاس الضريح، معتبرين تلك الزيارة جزءاً مكماً للحج والرحلة من أجله²! فَمِنْ أولئك الشيخ مصطفى الغريسي (جد الأمير عبد القادر) الذي توجَّه بعد الحج إلى بغداد، ثم رجع وهو عاقد العزم على بناء زاوية تكون مركزاً للتعليم ومبعثاً للطريقة القادرية. وعلى خُطاه سار ابنه محي الدين وحفيده الأمير، فبعد أدائهما مناسك الحج بمكة المكرمة قاما "بِحجِّ آخر" - حسب وصف أحد الكتاب - إلى قبر الولي الصالح عبد القادر الجيلاني ببغداد³.

لقد ظلَّ ذلك السعي الحثيث للبحث عن "الصالحين" دأب الحجاج الجزائريين، في جميع محطات الطريق، بل إنَّ الاستثناء المثير لتعجبهم وأسفهم هو عدمُ زيارة أضرحة الأولياء لسببٍ من الأسباب. كما صوِّر الرحالة الورثلاني في المشهد التالي: ".... ومررنا على الزاوية الغربية، وهي كثيرة النخل قوية العمارة، فيها أفاضلٌ وعلماءٌ وعُبادٌ وزُهَّادٌ، معلومةٌ بأهلِ الصلاح الأحياء والأموات، غير أنَّ الركب لم ينزلها، وإمَّا اجتازَ عنها فقط"⁴! لقد تحوَّل بذلك بعض الحجاج الجزائريين إلى مُريدين وأتباع، يقتفون آثار شيوخهم الجدد، ويلتمسون منهم الفتح والمدد.

03. التباين المذهبي في مواجهة ركب الحج:

رغم ريادة المذهب المالكي في البلاد المغاربية لقرون متتالية، إلاَّ أنَّه لا يخفى شيوع المذهب الحنفي في الجزائر وفي البلاد الواقعة على طريق الحج خلال العهد العثماني. وذلك بسبب سلطة الأتراك العثمانيين، و"تمذهب" البعض بمذهب الإمام أبي حنيفة رجاءً في التقرب إلى أرباب الدولة، أو لنيل خُطَّة من الخُطط، رغم تحذير العلماء من الانتقال في المذاهب لأغراض دنيوية⁵. ففي

¹ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص70.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص513.

³ - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص45.

⁴ - الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص272.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص413.

الجزائر نفسها تمّ - مثلاً - تحويل جامع "السيدة" من المالكية إلى الحنفية بسبب أهمية موقعه، فقد كان له إمام مالكي ثم جعل له الأتراك إماماً حنفياً¹. والقاصدُ بيتَ الله الحرام في ذلك الزمان كان يُصادف أقواماً وحقّاجاً من مذاهبٍ ونحلٍ متباينة، فيمثل قول الشاعر²: (الكامل)

أَحْفَظُ لِسَانَكَ لَا تُبْحِ بِثَلَاثَةٍ سِنَّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبٍ
فَعَلَى الثَّلَاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلَاثَةٍ بِمُكْفَرٍ وَبِحَاسِدٍ وَمُكَدِّبٍ

كانت تواجه الحجاج المغاربة المالكيين - أحياناً - ظاهرة تعصّب بعض العلماء المشاركة لمذاهبهم، ومحاولات التنقيص من قيمة علماء المالكية الزائرين للمشرق، مثلما حدث مع ابن أبي محليّ الساوري والمقريّ التلمساني وغيرهما، بل حتّى مع أحد شيوخ المالكية بالأزهر الشريف، حيث كاد يُقتل بسبب حسد أهل المذاهب!³. رغم ذلك فإنّ الحجاج الجزائريين كانوا يتبادلون الودّ والتقدير مع الفقهاء الحنفيين والشافعيين الذين يلتقون بهم في الحجاز أو القاهرة، كما أنّ شيخ الشافعية بالأزهر الشريف كان يُجلُّ المغاربة، ويحسن بهم الظن، لما اعتقده فيهم⁴.

لم يكن الحجاج الجزائريون يغفلون عن زيارة مرآد حاملي راية المذهب المالكي المدفونين بمصر عندما يجلُّ الركب فيها، من أمثال الشيخ خليل صاحب المختصر الشهير، وكذا أشهب وابن القاسم وغيرهم، فيقصدون مقبرتي القرافة الكبرى والقرافة الصغرى بالقاهرة لأجل ذلك. لكنهم لا ينسون زيارة مرقد الإمام الشافعي بالقاهرة، وحضور المولد (الزيارة أو التجمّع) الذي يُقام عند قبره كلّ ليلة سبت، حيث يجتمع فيه أناسٌ كثيرون، يضيق بهم المسجد المقام عليه وأفنيته، ما بين فقراء وأمراء، رجال ونساء، يبيتون طول الليل يذكرون ويقرؤون القرآن⁵.

وفي الحرمين الشريفين تجلّى ذلك التنوّع المذهبي في وجود مقامات الأئمة الأربعة، المبنية بالمسجد الحرام، في مقابل جوانب الكعبة المشرفة الأربعة، فعُيّن لكلِّ مقام إمامٌ يصلي بأهل مذهبه، وكانت العادة أن يُصليّ بالجماعة الحاضرة في المسجد الحرام أحد الأئمة من المذاهب

¹ - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص32.

² - أحمد المقري، نفع الطيب، مصدر سابق، ج05، ص207.

³ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص102.

⁴ - المصدر نفسه، ص117.

⁵ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج02، ص70.

الأربعة، ثمَّ يتلوه غيره بالتناوب، إلى أن سيطر السعوديون على الحجاز مطلعَ القرن 13هـ/19م فأمرُوا بإبطال تلك العادة، وألاً يُصلي الصلاة الواحدة في المسجد إلا إمامٌ واحد، فأصبح يصليُّ الصبح الشافعي والظهر المالكي وهكذا بقية الأوقات، ويصليُّ الجمعة مُفتي مكة المكرمة¹. أمَّا بالحرم النبوي الشريف فقد أحدثَ العثمانيون محراباً جديداً عن يمين المحراب الأصلي، ليصلي فيه الحنفي أو الشافعي مناوبةً، دون المالكي والحنبلي، لأنَّ السلطان وجنده من التُّرك حنفيون، وعامة الحجاز شافعي كمصر، فمنَّ هنا تقوى المذهبان هنالك خصوصاً دون الآخرين².

وحدث في أحد مواسم الحج أن نزل حجاج جزائريون أباضيون بوكالة "المجاورين" في حي طولون بمدينة القاهرة على جماعةٍ من شيوخ جزيرة جربة التونسية، فتعرضوا للمكيدة والابتزاز من طرف بعض المصريين، ثمَّ للوشاية بهم للحكام المماليك، بسبب انتمائهم المذهبي لا غير³. كما كان بعض العلماء من الحجاج يحاورون علماء الأباضية في المعتقد أحياناً، وكذا في مسألة المسح على الخفين في الطهارة، ويقومون برّد معظم الأحاديث المثبتة لذلك، والتي استدلت بها شيوخ أباضيون، بحجة أنها أخبار أحاد لا يجب العمل بشيء منها⁴.

وفي موسمٍ آخر مرَّ الحجاج الجزائريون في طريقهم على قريتين، الأولى يتبع أهلها جميعاً مذهباً من مذاهب الاعتزال، والثانية بدا أهلها من الروافض، لما ظهر للحجاج من أفعالهم⁵. كما لاحظ الحجاج أن شيعة العراق يُبالغون في زيارة مشاهد أهل البيت بالمدينة المنورة، ويأتون إليها أفواجا، وقتلما ينقطع منهم زائر أيام إقامتهم بالمدينة المنورة، ويعتقدون في أئمتهم العصمة. وحدث أن اجتمع بعضهم مع أتباعه على بئرٍ خارج المدينة المنورة، وقال لهم: إنَّ هذه البئر هي التي دخل فيها الإمام جعفر الصادق، فغاب عن أعين الناس إلى الآن⁶! وفي مشعر منى قام أحد الحجاج الشيعة بكتابة بيت شعري يدعو إلى التشيع، نقشه على سارية بمسجد الخيف⁷.

¹ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص563.

² - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص123.

³ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص74.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج03، ص293.

⁵ - عبد الرحمن المجاحي، المصدر السابق، و: 05-07.

⁶ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج03، ص12.

⁷ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص332.

من المسائل الفقهية التي أبرزت التباين المذهبي المواجه للحجاج الجزائريين مسألة القبض في الصلاة، فقد شاع في الحجاز وقتها أن القبض للأحناف، والسدل لأتباع المذهبين المالكي والشافعي¹. لكن بعض علماء المالكية كانوا يقبضون في صلواتهم كلها فرضاً ونفلاً، ومنهم الشيخ عيسى الثعالبي الجزائري المجاور بالحرمين الشريفين، مما أثار حفيظة حجاج مغاربة، وحججتهم أن العوام المقلدين إذا رأوه هو وأمثاله من أئمة المالكية يقبض لم يصدّقوا بعد ذلك أن السدل من فعل أهل السنة أيضاً كالقبض، فحقه هو أن لا يخالف رسوم المذهب، لأنه عالمٌ قدوةٌ لغيره².

إضافةً إلى القبض هناك مسألة خلافية أخرى أثرت في إحدى رحلات الحج، هي حكم "البسملة" في الصلاة المكتوبة، فقد طُرحت هذه المسألة من طرف أعلام الركب الجزائري بالجامع الأزهر في مصر، وحضر نقاشها ثلثة من علماء المالكية والشافعية. بحكم أن بسملة المصلي في أول الفاتحة مكروهة عند المالكية، وتركها أولى، بينما يرى الشافعية بطلان الصلاة إن تركت، لأنها آية من الفاتحة³، لا يكفي الإسرار بها في الصلاة الجهرية مثلما يفعل الأحناف. وقد استعان العلماء من الحجاج بجملة من الأدلة والبراهين، لتعزيب رأيهم والدفاع عن مذهبهم⁴.

وقد دار في أحد مواسم الحج جدلٌ فقهيٌّ مطوّل في الجامع الأزهر أيضاً حول بعض "التضاد" الموجود بين المذاهب، رغم أن الملة واحدة، والنبي - صلى الله عليه وسلم - واحد. تمّ ذلك بين مجموعة من علماء المالكية كالشيخ الورثلائي والمفتي ابن عمّار من جهة، وبين علماء الشافعية ومنهم الشيخ العفيفي من جهة أخرى، حيث أسهم كل طرف بآرائه وحججه⁵. غير أن من أعلام الحجاج الجزائريين من كان له حظٌ وافر ويضرب بسهم في كل المذاهب، إنّه الشيخ الرحالة أبو راس الناصري المعسكري، الذي كان حفاظاً لمذاهب الأئمة الأربعة، ويُفتي الناس بها كلها،

¹ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 56.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 445.

³ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج 02، ص 135.

⁴ - استمرّ ذلك الجدل الفقهي حول مسألة "البسملة"، هل هي جزء من الفاتحة أم لا؟ إلى غاية فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وخلال رحلة إلى الحج كذلك في موسم 1286هـ/1870م، بين الشيخين دحلان المفتي الشافعي بالديار المقدسة وعلّيش المصري من جهة، وبين الشيخ علي بن الحفّاف الجزائري المفتي المالكي من جهة أخرى، الذي ألّف رسالة سمّاها "الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة". يُنظر: المهدي البوعبدلي، تراجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 64.

⁵ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج 02، ص 135.

وكانت له في معسكر مصرية (خزانة أو مخزن) سمّاها "بيت المذاهب الأربعة"، حافظَ عليها وأعادَ ترميمَها بدعمٍ من حاكم بايلك الغرب الجزائري الباي محمد بن عثمان الكبير¹.

04. سجلاتٌ فقهيةٌ حول مسائلٍ مستجدّة:

كان تعاطي البُنّ (القهوة) والدخان (طابة) أكثرَ أمرين مثاراً للجدل طيلة العهد العثماني، وقد أضحى علماء الركب يُسألون عنهما، مثلما سُئل عنهما الرحالة أبو راس الناصري في إحدى المحطّات: "...ولقيتُ مُفتيها وعلماءها، فتفاوَضْنَا زماناً في الدخان والقهوة، فأجبتُهُم بما قال العلماء في ذلك"². لأنَّ العلماء أَلَّفوا فيهما عدة رسائل، وتناقشوا بشأنهما، وانتصر بعضهم لحليتهما وبعضهم الآخر لتحريمهما، فكان معظمهم ميّالاً إلى حليّة القهوة وتحريم الدخان³.

أ. الجدل حول حكم قهوة البُنّ:

بدأ الجدل بشأن قشور البُنّ أو القهوة منذ ابتداء أمرها وانتشارها على مستوى مجال طريق الحج، فقد نقل ابن أبي محلي السجلماسي الساوري في رحلته أنّ الشيخ أحمد زروق البرنسي كان من أوائل العلماء المغاربة الذين خاضوا في أمرها خلال القرن 09هـ/15م⁴. وشاع عند كثير من الحجاج أنّ أول من أخرجها من أرض اليمن هو الشيخ الصوفي علي بن عمر الشاذلي اليمني، وأمر أصحابه وطلبته بشربها، ليستعينوا بها على السّهر في العبادة، ثمّ ساهم الحجاج في نقلها ونشرها⁵. ولم يستسغ المغاربة شربها حينئذ، على خلاف المشاركة، كما نقل أحدُ الرّحّالين: "... وإن كان أهلُ مصر وكذلك غيرهم من أهل الحرمين والحجاز والآفاق المشرقية كلّها إنّما يتكلمون بالقهوة التي لا يعرفها المغاربة، ولا يعدّونها في الأطعمة ولا في الأشربة ولا في الأدوية"⁶!

وفي مكة المكرمة أفتى بعضُ العلماء بتحريم شرب القهوة، ليشبّهة الإسكار والإدمان، فحُوربت القهوة، وعوقب بائعوها وشاربوها، فكان الناس يتعاطونها خلسةً في أقبية البيوت،

¹ - ابن يوسف الزياتي، المصدر السابق، ص303.

² - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص120.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص454.

⁴ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص179.

⁵ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص57.

⁶ - ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و57.

فيها جمعهم الأعوان المكلفون ويكسرون أوانيها الفخارية على رؤوسهم حتى تدميهم! ثم ما لبثوا أن تهادنوا في شأنها فكثرت شيوغها¹. وكلما اشتدّ النهي عن القهوة زاد إقبال الناس عليها. وأنشئت محلات لبيعها في أرض الحجاز، أحصى الرحالة العياشي منها ثمانية "قهاوي" بين مكة المكرمة وجدّة، ينزل الزوّار في كلّ قهوة، فيستريحون ويشربون القهوة أو الماء، ويشترون علفاً للدواب².

رغم ذلك استمرّ الجدل حول شرب القهوة حتى مطلع القرن 13هـ/19م، وساهم أعلام ركب الحج المطّلعون على حيثياته - بفضل رحلاتهم إلى الحج - في نقله إلى مجلس علماء الجزائر المعتاد، المنعقد كلّ يوم خميس في الجامع الأعظم بالجزائر. حيث رأوا أنّها ليست محرّمة لذاتها، ولكنّها غدت مشروب مجالس السفهاء والمردان، وتُدار على الجلوس كإدارة الخمر! فأوصى الرحالة أبو راس الناصري باجتنابها، مستذكراً قول القائل³: (الطويل)

أقول لأصحابي عن القهوة انتهوا ولا تجلسوا بمجلسٍ هيّ فيه
وليسَتْ بمكروهٍ ولا بمحرّمٍ ولكن غدت مشروب كلّ سفيه

وعلى النقيض من ذلك الرأي المتشدّد بشأن القهوة، أشاد الرحالة المقرّي التلمساني بالقهوة وشاربيها في مراسلاته لعلماء المشرق، لأنّها في نظره "سمّت وبالمديح اتّسمت، وكم إمام صرّح بفضيلها إذ مدح"⁴. أمّا الشيخ عيسى الثعالبي فقد نقل مراسلات ومحاورات علماء من المشرق بشأن حلية القهوة⁵، على غرار الشيخ الرحالة عبد القادر الجزائري، الذي صنّف فيها رسالة شعرية شعرية طريفة سمّاها "عمدة الصّفوة في حلّ القهوة"⁶. بينما استشهد الشيخ الورثلاني الرحالة المتصوّف بالبيتين التاليين للإشارة إلى عدم حرمتها⁷: (الرجز)

فَقَهْوَةُ الْبُرِّ حَالًا وَسِفًا قَدْ أَيْدَ اللَّهُ بِهَا أَهْلَ الصَّفَا
وَإِنْ يَكُنْ فِي شُرْبِهَا مِنْ رَبِيَّةٍ لَمَّا سَقَوْهَا عِنْدَ قَبْرِ الْمُصْطَفَى

¹ - أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص417.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص154.

³ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص160.

⁴ - أحمد المقرّي، رحلة المقرّي، مصدر سابق، ص127.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص239.

⁶ - عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ج01، ص636.

⁷ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص62.

ب - الخلاف حول تدخين عشبة "تبغ":

لئن كان ركب الحج الجزائري قد ساهم في شيوع الجدل الناشئ بالمشرق بخصوص القهوة، التي ظهرت أول ما ظهرت هناك، فإنّه في المقابل ساهم كذلك في نقل الخلاف القائم بشأن الدخان المحدث في البلاد المغاربية إلى مجالس العلماء بالمشرق. ويُذكر أنّ دخول التبغ إلى بلاد المغرب كان مع وصول الفيّلة التي أرسلها ملك السودان هديةً للسلطان السعدي الشهير "أحمد المنصور الذهبي" سنة 1001هـ/1593م، لأنّ أهل السودان الذين قدموا بالفيّلة كانوا يشربونها، ويزعمون أنّ فيها منافع، ومن ثمّ عُرفت وانتشرت¹. وقد ألّف العلماء من المغاربة والمشاركة في تحريم الدخان أو في جوازه زهاء ثلاثين تاليفاً في فترة شيوعه².

أصبحت مسألة تعاطي الدخان والأبّجار فيه ملازمة لرحلة ركب الحج، وتعاقبت الأسئلة المطروحة على أعلام الركب بشأنه، مثل السؤال التالي الذي ورد بهذه الصيغة: "... ما قولكم في شجرة خرجت من بلاد الكفّار تسمّى بتبغ، واستعملها الناس. تُجعل في نار، ويُشرب دخانها في قناة. ويحصل لمن يشربها خدور، وبعضهم يغيّب عقله، خصوصاً في ابتدائها"³. وفي السؤال إشارة إلى إقبال الكثيرين على التدخين، رغم أنّ مصدره قد يكون بلاد الكفار، في مرحلة عصيبة مرّ بها الغرب الإسلامي؟ رغم ذلك كان بعض الحجاج أنفسهم يحملون معهم أوراق تلك العشبة، ويُقايضون أعراب البوادي بشيء منها مقابل الحصول على بعض المؤونة⁴!

لقد غطّى النزاع القائم بين العلماء بشأن التبغ كافة المعابر المؤدية للحج، وشمل مجالس العامة وكذلك الخاصّة، فقد أصبح حكام بعض الأقاليم ينتهزون فرصة مرور ركب الحج لإثارة الرّوى حوله. حدث ذلك - مثلاً - مع ركب الحج في إقليم فزان الليبي، لما استوقفه حاكم الإقليم للخوض

¹ - أحمد الناصري، المصدر السابق، ج 05، ص 126.

² - من أشهر من ألّف في الدخان منعا: عبد الكريم الفكون القسنطيني في "محدّد السنان في نحر إخوان الدخان"، ومحمد الجمالي المغربي في "تنبيه الغفلان إلى منع شرب الدخان"، ومحمد بن سليمان المالكي في "الأدلة الحسان في بيان تحريم شرب الدخان"، والسوسسي المغربي في "كشف العسّق عن قلب الفتى في التنبيه على تحريم دخان الورق". وممن ألّف فيه جوازا: علي الأجهوري في "غاية البيان لحلّ شرب ما لا يُغيّب العقل من الدخان"، وسلامة الشاذلي في "الإعلان بعدم تحريم الدخان".... يُنظر: صالح الأسمرى: التبيان في شرب الدخان، www.manarahnet.net، بتاريخ: 2017/03/04م.

³ - عبد الحميد القدوري، المصدر السابق، ص 165.

⁴ - الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص 176.

في الأمر، بعد أن منع الناس من استعمال عشب التبغ وبيعها، وتوعد بالعقوبة من يتناولها في بلاده¹. وكان الأتراك قد أشاعوا استخدام "النجيلة" و"السبسي" أو "الغليون" لشرب الدخان حيثما حلوا، ونحا المشاركة نحوهم فكانوا متساهلين في قضية تعاطي الدخان². يُعزّد ذلك ما وقع لحجاج مغاربة بالقاهرة سنة 1110هـ/1698م، فقد رأوا رجلاً يشرب الدخان، فكسروا أنبوتته وتشاجروا معه، واتسعت القضية بتدخل أنصاره، واحتجز أولئك الحجاج في مصر³.

على خلاف المشاركة كان العلماء الجزائريون متحفّظين بعض الشيء في أمر الدخان، فقد فصل أمير ركب الحج الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني في الآراء حوله، في مجموعة كراريس سمّاها "مُحدّد السنن في محور إخوان الدخان"، استفاد منها العلماء المغاربة وكذا المشاركة، ومنهم الرحالة العياشي الذي لخصها في معرض رحلته إلى الحج⁴. كما دعا أبو راس الناصري إلى نبذ الدخان على اختلاف أسمائه وأشكال تعاطيه، سواء من خلال سقّه أو بواسطة شمّه، وحدّر من الحُبث والتدليس الحاصل في تسمية الدخان باسم "طابة"، كما سمّوا الخمر بأسماء شريفة⁵!

كان موقف أعلام ركب الحج الجزائري من مسألة تعاطي الدخان موافقاً لموقف بقية علماء الجزائر آنذاك⁶، قائماً على ثلاثية الضرر: إفساد الأخلاق، والإضرار بالجسم، وإتلاف المال. كما كما صوّر ذلك رحالة معاصر بأبيات طريفة منها⁷: (الرجز)

فِي بَدْعَةِ الدُّخَانِ لِمَا بَانَ وَأَفْسَدَ الرِّجَالَ وَالتَّسْوَانَا
بِشُرْبِهِ قَدْ ضَاعَتِ العُقُولُ وَطَالَتِ العَقْلَةُ وَالدُّهُولُ
يَا وَيْحَكُمْ أَتَشْرَبُونَ حَيْفَهُ وَقَدْ جَعَلْتُمُوهُ كَالوُظَيْفَةِ
وَإِنَّهُ بِكُلِّ دَمٍّ قَدْ وُصِفَ وَلَمْ يَزَلْ شَارِبُهُ فِي "أَخٍ وَتَف"

¹ - عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص151.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص454.

³ - عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج01، ص55.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص521.

⁵ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص161.

⁶ - للقاضي عبد القادر الراشدي (ت1194هـ/1780م) رسالة هامة في تحريم الدخان، شحنتها بيان شافٍ في حاله، ثم جلب من الأدلة المقتضية لحُرْمَتِهِ ما لا مزيد بعده. يُنظر: أبو القاسم الحفناوي، المصدر السابق، ج02، ص220.

⁷ - ابن يوسف الزباني، المصدر السابق، ص160.

المبحث الرابع: مظاهر الاستثناس والغرائبية في سفر الركب

01. الترويح عن النفس في رحلة ركب الحج:

سعى الحجاج الجزائريون في سفرهم الطويل الشاق إلى إيجاد جوانب للترفيه والترويح عن الأنفس، فمثلاً كانوا يستغلون مرور الركب بمحاذاة سواحل البحرين الأبيض والأحمر، فيخرج بعضهم للنزهة ومقابلة البحر، والتفكير في أمره، والتعجب في صنع الله، وكذا لتفريغ الغم وإزالة الهم. رغم أن الإبل لم تكن تُسَعِفُ الحجاج في ذلك، بسبب نفورها وإجفائها في كثير من المرات، بسبب رؤيتها للبحر الذي لم تتعود عليه من قبل¹.

لكن طابع الجدية وإعمال الفكر ظل يُرافق الحجاج حتى في أنسهم وسمهم، ففي أحد المواسم انبعث خلاف فقهي بين طلبة الركب الجزائري، بشأن قضية أفراد قبيلة عربية، انقطعت بهم السبل وأشرفوا على الهلاك، وعثر عليهم الحجاج في وضعية صعبة. فهل يجب على الركب رفعهم وأخذهم معه إلى العمارة؟ أم يكفي إطعامهم في حالهم لتحصل لهم الحياة؟² وفي رحلة أخرى انبرى أحد أعلام الركب الجزائري للرد على عالم تونسي قدح في العلامة ابن خلدون، فرد عليه العالم الجزائري قائلاً: "... كفى بابن خلدون مزياً أن عالم الدنيا ابن مرزوق الحفيد تلميذه، وأثنى عليه علماً وديناً، وشرحه للبردة يدل على غزارة علمه"³. وهي إحالة ذكية من علماء الركب، تنم عن فخرهم واعتزازهم بعلماء وطنهم، ومنهم ابن مرزوق الحفيد شارح "البردة"⁴.

لقد وجدت الألباز والمعارضات الشعرية ضاللتها عند أعلام ركب الحج الجزائري، لتنشيط الفكر، وكسر جمود الطريق وأمد السفر. واشتهر في ذلك الرحالة المقرئ التلمساني الذي كاتب وشافه العديد من الأعلام الجزائريين والمشاركة، مُلغزاً في مختلف الظواهر والمواضيع أثناء سفره إلى المشرق، من ذلك لغز بينه وبين أحد العلماء الفاسيين، وآخر بينه وبين أحد المصريين⁵. والملاحظ

¹ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج 01، ص 130.

² - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج 01، ص 435.

³ - أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص 110.

⁴ - تم تحقيق شرح ابن مرزوق الحفيد الوابي لبردة البوصيري المسمى "إظهار صدق المودة في شرح البردة" من طرف الباحث "الطاهر بن علي"، في إطار أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وأدائها عن جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان 2013/2014م.

⁵ - أحمد المقرئ، رحلة المقرئ، مصدر سابق، ص 91.

والملاحظ أنّ جُلَّ الألغاز جاءت هزجاً ظريفاً، يُرَكِّز على جانبي الفقه والنحو، فمثلاً طلبَ أحد الحجاج من مُرافقيه حلَّ اللغز التالي، المتعلّق بالخمّر حين يستحيلُ خلاً¹؟ فقال: (الهنج)

وَمَا شَيْءٌ إِذَا فَسَدَا نَحْوَلْ غَيْئُهُ رَشَدَا
وَإِنْ هُوَ رَاقٍ تُمْ صَفَا أَتَارَ الشَّرِّ حَيْثُ بَدَا

كان الركب الجزائري يستأنس في مقاطع الطريق البعيدة عن الحضّر بمقدم أهل القرى، الذين يتلقّون الحجاج عادةً بالترحيب والسرور والرمي بالبنادق². وفي درب الحجاز نزلَ الركب الجزائري في أحد المواضع ذات مرّة، فقام الحجاج الجزائريون بإشهار أسلحتهم وما معهم من البارود، وشرعوا في رمي البارود، واللعب بالخنيل، والضرب على الأرض بالأرجل، استعراضاً للقوة، وإرهاباً لعربِ الدرب الذين كانوا قد اعتدوا على الركب المغربي هناك في موسمٍ سابق، وبينما هم كذلك، انضمَّ إليهم بعضُ العساكر من الركب المصري، وشاركوهم استعراضهم وفرحتهم³.

وفي موقفٍ آخر، لما نزل الحجاج في بندر (محطة) بدر استذكروا ما شاعَ بينهم من أنّ الصحابة أوقدوا قبل المعركة نيراناً كثيرةً هناك، فقاموا بإشعالِ الشموع على أقتاب الجمال بالليل، وكانوا قد أحضروها معهم من مصر خصيصاً لهذا الغرض، فأصبح الركب كأنّه مدينةٌ مسرّجةُ المصابيح⁴. وإشعالُ الشموع وإيقادُ المصابيح والرمي بالبنادق من العادات التي دأب على فعلها ركبُ مصر وركبُ الشام في كلّ موسم، لإظهار القوة والقدرة على التنظيم.

تلكم القوة وذلك التباهي أظهرهما كذلك ركب الجزائر لما طلب في أحد المواسم من ركب المغرب الأقصى التأخّر في المسير، وفسح الطريق حتى يرتحل الركب الجزائري أولاً، بحجّة أنّ ركب الجزائر أكثر تنظيمًا، ويحمل طائفة من أكابر التُّرك؟ غير أنّ ذلك التباهي أدّى إلى تنامي الحميّة والأنفة في صفوف الركب المغربي⁵. والحجاج المغاربة - عموماً - اشتهروا في سفرياتهم ببعض الشدّة والانفعال السريع، فقد نقل الرحالة الورثلافي خبرَ امتعاض بعض الفلاحين المصريين الذي سافروا

¹ - الحسين الورثلافي، المصدر السابق، ج02، ص32.

² - عبد الرحمن التتلافي، المصدر السابق، و09.

³ - الحسين الورثلافي، المصدر نفسه، ج02، ص174.

⁴ - المصدر نفسه، ج02، ص202.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص496.

مع الركب الجزائري في درب الحجاز، وشكواهم من ضرب الحجاج الجزائريين لهم، بسبب كثرة لغط هؤلاء الفلاحين، وعدم انتظامهم في مسيرة الركب كما ينبغي، فأضحى المصريون يُردّدون: "عافية يا مغربي عافية... المغاربة مجانين لا يعرفون إلا الضرب"¹!

كما حدث في إحدى طلعات الركب الجزائري أن أخذ معه المئات من الإبل لبيعها في محطتي طرابلس ومصر، إضافة إلى المئات الأخرى الموظفة في حمل الأثقال، وعندما رأى المصريون حجم الركب الضخم وعدد الإبل بالآلاف، خاطبوا الجزائريين معلّنين: "إنّ هذه الإبل الموجودة في ركبكم ليست مولّدة من التوق، وإنما هي مجتمعة من الحطب أو الرمل! حتى صارت في مصر كالماعز، فلا تجد أحداً يسأل عنها لكثرتها، وقد عمّ بيعها أرياف مصر وأطرافها"²!

وإذا سقط جملٌ من جرّاء المشقة والتعب، فإنه غالباً ما يعجز عن مواصلة السير، فيرفع عنه الحجاج الأمتعة ويذبحونه، ويستفيد من لحمه بدرجة أولى الفقراء الصعاليك في الركب. وقد تدوّق الرحالة الإنجليزي "بتس" لحم الجمل مع حجاج الركب، فوصفه بأنّه "حسن المذاق مفيد للصحة"³. وفي المدينة المنورة استضاف أحد الشيوخ حجّاجاً جزائريين في بيته، وأطعمهم خبزاً ولحماً، فقال أحدهم: كأني لم أذق طعاماً مثله⁴!

أمّا الطعام "الجزائري" فقد أطبقت شهرته آفاق المشرق بفضل ترحال وسياحة أعلام الركب هناك، حيث ذكر الرحالة العياشي أنّ بعض أهل الشام كانوا يطلبون من الشيخ أحمد المقرئ التلمساني أن يصنع لهم طعام الكسكس الشهير، فيسعفهم في ذلك ويصنعه بنفسه، فيتذوّقونه ويُعجبون من جودته⁵! ومن لطائف السفر أنّ حاجاً مغربياً قارن بين أكل المشاركة وأكل المغاربة، فوجد أنّ "المغاربة أهل بادية وقسوة وجفوة، لا يأكلون ما يأكله الأتراك من الرقيق واللين! ولا بدّ لهم من الكسكس واللحم والسمن والخليع (القديد) وما تعودوه من الخشين"⁶.

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص166.

² - المصدر نفسه، ج03، ص126.

³ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص67.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر نفسه، ج03، ص113.

⁵ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص410.

⁶ - أبو القاسم الزباني، المصدر السابق، ص171.

ومَّا أثار دهشة الحجاج الجزائريين من المأكولات حجم الدلاع (البطيخ) المتداول في مدينة طرابلس، فكانوا يتلذذون ويتمتعون بأكله¹. وفي مدينة القاهرة وقف حجاج جزائريون على مشهدٍ مُسلٍّ يتفرَّج عليه المصريون، وهو معاقبة الحَبَّازين الغاشين لوزن الخبز. فالخبزُ يتمُّ فحصه يومياً، وإذا ما ثبتَ أنَّ وزنه أقلُّ من الوزن القانوني تمَّ حجزه وضرب الحَبَّاز الغاشِّ بالفلكة (العصا) على قدميه العاريتين بشدَّة. فأصبح بعض الحَبَّازين يتركون خبزهم، ويجرون هارين خوفاً من العقاب².

لم تَغِبْ النُّكْتة والابتسامة عن مُحَيَّا الحجاج الجزائري حتى في وقتِ أداء المناسك الصعب والضيِّق. فمثلاً خاطبَ حاجُّ فَكَّة خفيفُ الرُّوح حاجاً آخر أثناء ذهابه لرمي الجمرات قائلاً: لا بُدَّ أن تذهب وترمي بسرعة، فقد فقأت عَيْني الشيطان لِتَوِّي³! بينما شدَّ حاجُّ آخر بعد الرمي بالبيتين التاليين، معتقداً أنَّه قد أرغَمَ أنفَ الشيطان بقذفِ تلك الحصيات⁴: (الطويل)

قَدْ رَمَيْتُ الشَّيْطَانَ فِي يَوْمِ حَجِّي بِجِمَارٍ لِبَاعَةِ الرَّحْمَانَ
وَعَجِيبٌ إِنَّ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلَطَّى وَهِيَ سَبْعُونَ جَمْرَةً بِالْعَيَانَ

02. معاينة الغرائب والطرائف في سفر الركب:

لطالما صادف الركب الجزائري بعض المواقع الغربية أو الطريفة في رحلة سفره المتسعة زماناً ومكاناً، وكان ذلك يقع في الذهاب والإياب على السواء. ومن غرائب الرحلة إلى الحج - مثلاً - أنَّ أمير الركب التواتي الشيخ محمد بن عبد الرحمن الكنتي قصَدَ الحجَّ على ظهر "نعامة" منتصفَ القرن 12هـ/18م، انطلاقاً من صحراء الجزائر، فأصبح يُعرف بأبي نعامة⁵: (الرجز)

وَبِالَّذِي حَجَّ عَلَى نَعَامَةٍ وَالِدِهِ الْقُطْبِ أَبِي نَعَامَةٍ
وَبِأَبِيهِ عَابِدِ الرَّحْمَانِ ذِي الْمَجْدِ وَالْفَضْلِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

ومن المواقع الغربية نادرة الحدوث كذلك التقاء الحجاج الجزائريين في بادية تونس بشيخ من شيوخ قبائل الشرق الجزائري، وقد فرَّ من باي قسنطينة الذي توَعَّده بالعقاب الشديد، وذلك

¹ - إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص71.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص39.

³ - المصدر نفسه، ص61.

⁴ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص289.

⁵ - محمد بون: كاشف الغمِّ والعَمامة عن حياة الشيخ أبي نعامة، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيللي، أدرار، و12.

بسبب مخالفته الشرع، حيث تجرأ على الزواج باثنتي عشرة امرأة¹؟! وفي إحدى القرى الليبية وقف الحجاج الجزائريون على قبرٍ طويلٍ، في نحو خمسة عشر ذراعاً (سبعة أمتار تقريباً)، زعم أهل تلك القرية بأنه قبرُ نبيٍّ، وعليه خط دائر به، زعموا أنه قدس لا تمحيه ريح ولا مطر²!

وعلى ذكر المقابر فقد شاهد حجاج جزائريون نقرأ من أعراب البادية مجتمعين على قبرٍ أحدٍ زعمائهم، يُدعى "شهران"، وشرعوا يطلبون منه الضيافة والزاد، ويُنادونه: يا شهران أقر ضيوفك. ويزعمون أنهم لن يبيتوا قطّ دون عشاء بعد ذلك³؟ والأغرب من ذلك أنّ أعراب إحدى البوادي أصابهم القحط والجوع لسنين متتالية، فإذا بهم يعرضون أولادهم للبيع على حجاج التقوا بهم! ورغم أنّ علماء الركب الجزائري تدخلوا ونهوا عن ذلك، إلا أنّ الحجاج منهم من امتثل للنهي، ومنهم من أعرض واشترى⁴!؟

كما نقل الحجاج الجزائريون ما يرويه بعض المصريين من أنّ باني الأهرامات هو ابنُ سيدنا نوح - عليه السلام - الذي رفض دعوة والده لركوب السفينة، وحين تيقن الغرق والهلاك بنى الهرم طلباً للنجاة⁵. وبالجامع الأزهر تعرّف حجاج جزائريون على أحد شعراء المرثيات، كان باستطاعته أن ينظم في ساعة واحدة قصيدة طويلة في غاية الحُسن والسبك، تُؤايم حال العالم المتوفّي الذي أمر برثائه! ثمّ ما لبث أن مات ذلك الشاعر المؤرّخ للمآثر، فرثاه أحد الطلبة بقصيدة معبّرة، على غرار ما كان يفعل هو، من جملة ما قال فيها⁶: (البيسط)

لَا زَالَ يَلْهَجُ بِالتَّارِيخِ يَكْتُبُهُ حَتَّى رَأَيْنَاهُ فِي التَّارِيخِ مَكْتُوباً

وكثيراً ما كان الحجاج الجزائريون يتعرّضون للسقوط أثناء سير الرواحل، إمّا بسبب النوم أو لصعوبة المسلك. فقد سقط أحدهم مرّة من على ظهر مركوبه، ولم يبق فيه إلا نفسٌ ضعيف، وبعد أن تحيّر الحجاج بشأنه أشار عليهم أحدهم بأن يتركوه، ولا يمسه حتى يُفنيق بنفسه، فكان الأمر

¹ - الحسين الورثلاي، المصدر السابق، ج01، ص267.

² - عبد الرحمن التتلاي، المصدر السابق، و10.

³ - الحسين الورثلاي، المصدر نفسه، ج01، ص343.

⁴ - المصدر نفسه، ج01، ص435.

⁵ - عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و04.

⁶ - الحسين الورثلاي، المصدر نفسه، ج02، ص107.

كما ذكر، إذ تركه الحجاج قليلاً حتى أفاق من غفوته بنفسه¹! ومن الأمور الطريفة التي كان ركب الحج الجزائري يتعرّض لها في السفر هي افتقاده بعض الحجاج أثناء مغادرة منزل من المنازل. ففي أحد المواسم تاه حجاج جزائريون في صحراء برقة الليبية، بسبب تخلفهم عن الركب لأداء صلاة العصر، لكنهم تمكّنوا من اقتفاء الآثار حتى لحقوا به، بعدما أصابهم من النصب ما أصابهم². وفي مدينة القاهرة كاد أحد الحجاج الجزائريين أن ييأس من اللحاق بالركب، الذي انعزل عنه ثم افتقد أثره، بفعل الزحام وتباين الأجناس بالمدينة، وتقاطع الأزقة وتشابها³.

ونظراً لكثافة سكان القاهرة لاحظ الحجاج أنّ الخشب المعدّ لتشغيل الأفران فيها لم يُعدّ يكفي، فاهتدى سكانها إلى استخدام روث الخيل والأبقار في تشغيلها⁴. وروى بعض العرب للحجاج الجزائريين أنّ الإبل تنفر وتهيج في بندر "عشّ الغراب"، بزعم سماع صوت سقّب (ولد) ناقة النبي صالح - عليه السلام - التي عُقرت، وأنّ هنالك محلّ الصخرة التي دخل فيها لما عُقرت أمّه، وكأنّ الإبل إذا وصلت إلى ذلك المكان تسمع الصوت فتتنفر! رغم أنّ الحجاج لم يروا تأثير ذلك على إبلهم، وأدرك المطّلعون منهم أنّ ذلك المكان ليس ديار ثمود الذين عقروا الناقة⁵.

لم يكن سمسرة الكراء في مصر والحجاز يُفوّتون فرصة غفلة الحجاج لنصب كمائن الاحتيال والنصب، وقد وقع بعض الحجاج الجزائريين فعلاً في شرك أحد السمسرة في وقت حرج، وهو مغادرة مكة المكرمة، حيث أخذ منهم ثمن كراء مجموعة من الجمال، وهرب بالجمال ولم يترك لهم إلا أربعة ضعيفة! وبعد بحثٍ حثيثٍ عنه وجدوه هارباً ملتجئاً للركب المصري، فأمسكوه وربطوه، وإذا بجماعة أخرى من الحجاج المغاربة تبحث عنه، لأنّه اكترى لهم كذلك⁶!

وفي موسم حجّ 1073هـ/1663م غمرت السيول المسجد الحرام، وارتفع الماء سبعة عشر شهراً (3,5م تقريباً) داخله، فطاف بعض الناس بالبيت عوماً ممن يُحسِن السباحة⁷! كما رأى

¹ - الحسين الورثلائي، المصدر السابق، ج01، ص439.

² - المصدر نفسه، ج01، ص432.

³ - عبد الرحمن التتلائي، المصدر السابق، و10.

⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص35.

⁵ - الحسين الورثلائي، المصدر نفسه، ج02، ص183.

⁶ - المصدر نفسه، ج02، ص374.

⁷ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص141.

الحجاج مجموعة من الجمالين الجهلة - الذين حضروا موسم الحج - وهم ينفرون من عرفة قبل إتمام نُسك الوقوف بها كاملاً، متعذّرين بالعجلة وتلافي الزحام الشديد¹. ولاحظوا أنّ الحلاّقين في مشعر مئى لا يستوعبون الرأس بالحلق ولا يُحسِنونه عندما يكثر الزحام عليهم، بعد رمي جمرة العقبة، فإذا حلقوا ناحيةً من الرأس قالوا للحجاج: يكفيك هذا فقد أحللت؟ طمعاً طلباً لاستكثار الأجرة². أمّا أميرُ الركب الشامي فقد ادّعى "المهدوية" بعد أداء المناسك، وشرع يسأل عن الحجاج الجزائريين والمغاربة، ويُخبرهم بأنّه "المهدي المنتظر" الذي يخرج بمكة ويملك المشرق والمغرب، وسيصل إلى الجزائر ويأخذ ما فيها من الأموال، ويدخل بلاد المغرب الأقصى³؟

ومن طريف أفعال البدو في الحرم النبوي أنّ أعرابياً جاهلاً بآداب زيارة الرسول - صلى الله عليه وسلّم - وقفَ أمام الوجه الشريف، وضربَ بعصاه الأرض مرتين وهو يقول: يا محمد، يا محمد، لا تُقل أنا ما جئتُك، ها أنا ذا، ثمّ ذهب ولم يزد على ذلك⁴! وعلى ذكر العصا فإنّ اللصوص المتربّصين بالحجاج في درب الحجاز كانوا يستخدمون العصي في قطعهم الطريق على الأركاب، زيادةً على ما يُقاسي منه الحجاج هناك أصلاً من شدة البرد شتاءً. يصوّر الرحالة الجزيري ذلك المشهد بشكلٍ طريفٍ فيقول⁵: (الرجز)

لَكِنَّ فِيهَا الْبَرْدَ يَا فُلَانُ هَتَّتْ مِنْ شِدَّتِهِ الْأُبْدَانُ
وَكَمْ بِهَا مِنْ كُلِّ لِصٍّ سَارِقٍ يَضْرِبُ بِالْعَصَا عَلَى الْمَرَاقِقِ

كان الحجاج يتوقّعون الاعتداء من حينٍ لآخر، وإذا قطع الركب مسافةً يومٍ كاملٍ دون أن يتعرّض للسرقة أو الاعتداء فإنّ ذلك يدعو الحجاج للدهشة والغرابة، كما يروي الهلالي في رحلته الحجية متندراً: "...وسرنا جميعَ النهار، فلم نر سارقاً بحمدِ الله، جزأهم الله خيراً"⁶.

يُذكر كذلك أنّ حاجاً من علماء الجزائر شرع في الطواف حول الكعبة، ومعه جماعة كبيرة من الحجاج من الرجال والنساء، يُعلّمهم كيفية الطواف، فلمّا رآه بعضُ المطوّفين المكّيّين غضبوا

¹ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و56.

² - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص320.

³ - أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص259.

⁴ - أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص466.

⁵ - عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج02، ص85.

⁶ - الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص170.

منه وقالوا: أمّ تعلم أنّ أهل مكة لا ينتظرون إلّا هذا الموسم؟ طفّ لنفسك واترك الناس. فردّ عليهم - بكلّ ثقةٍ وزهدٍ - قائلاً: أنا أطوفُ بهم وأعلّمهم، وأنتم تُخدوا الأجرة منهم¹.

يزعم البعض أنّ الحاجّ من الجزائريين إنّما يفرح بلقب "الحاج" المبجل، لأنّه من شأنه أن يرفع قدره أو يُبوّئه مكانة مرموقة في مجتمعه؟ أو أنّ البعض إنّما ينوي بحجّه المفاخرة والتباهي، وليُقَال أنّه حجّ وفقط²! ولعلّ بعضاً من ذلك الاعتقاد لا زال واقعاً متوارثاً في الجزائر إلى اليوم. لكنّ الحقيقة الثابتة أنّ تلك نظرة ضيقة لمعنى ومدلول "الحاج". والأكيد أنّ "الحاج" - فعلاً - أشرف لقب قد يتحلّى به المسلم في حياته، لكنّه حملٌ ثقيلٌ على من فقّه معناه، نظراً لرمزيته الدينية، وخلفيته الوجدانية. وهو لقبٌ غالٍ نفيسٌ، يظلُّ الجزائريُّ الحاجُّ يحمله بفخرٍ وورعٍ حتى انقضاء أجله، ولسان حاله يرجو مغفرة ربّه قائلاً³: (البسيط)

مَا كَانَ أَهْنَى وَأَحْلَى حَجَّةٍ حَصَلَتْ لَنَا فَنَلْنَا الَّذِي نَرْجُوهُ مِنْ أَمَلٍ
رُحْنَا إِلَى عَرَافَاتٍ وَالذُّنُوبُ عَلَى ظُهُورِنَا فَحَطَّطْنَاهَا عَلَى الْجَبَلِ

خلاصة الفصل الخامس:

جمعنا في هذا الفصل الأخير حوصلة النشاط الثقافي الفكري لرحلة الحج، الذي تجلّى بوضوح في مسيرة ركب الحج الجزائري من مُنطلقها إلى مُنتهاها. فالعطاء العلمي لأعلام الحج الجزائريين لم ينقطع في أيّ محطة من محطات الطريق المتعاقبة، لأنّ المزوجة بين الحج والعلم كانت ديدن العلماء الجزائريين في تلك الأزمنة. وما أوردناه من أسماء لأعلام الحج وعطاءاتهم ما هي إلّا عيّنة قليلة، وإلّا فإنّ "الظواهر العلمية" الجزائرية كانت تتجدّد مع كلّ موسم حجّ.

وعرّجنا على مظاهر ذلك الإشعاع الفكري لأعلام الركب الجزائري، من خلال المثاقفة الحاصلة ومحطّاتها والمجالات التي غطّتها. ورأينا أنّ الجامع الأزهر الشريف بمصر كان أهمّ محطة علمية يقصدها الحجاج أثناء سفرهم، مستغلّين وجود "رواق المغاربة"، وتشكّل إرث علمي مغاربي مميّز بفضل أعلام سابقين حطّوا هنالك. أمّا العلوم المأمولة فلم تكن تخرج عن نطاق العلوم التقليدية المنتشرة حينئذٍ، وعلى رأسها علم الحديث الذي كان مطلب الإجازات.

¹ - الحسين الورثاني، المصدر السابق، ج02، ص263.

² - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص59.

³ - عبد القادر التلاني، المصدر السابق، و96.

ونظراً لتباين بلاد المغرب عن بلاد المشرق في الكثير من الجوانب، فقد تجددت بعض دعوات "التفاضل" فيما بينهما، وأدلى الحجاج الجزائريون والمغاربة عموماً بدلوهم فيها. ومن مظاهر ذلك التباين تنوع المذاهب الإسلامية التي واجهها ركب الحج في سفره، وانعكاس ظاهرة التعصب الحاصل للمذهب من جميع الأطراف على رحلة الحج. أمّا المدُّ الصوفي الطاغي على المغرب والمشرق في العهد العثماني على السواء، فقد سيطر على الرحلة إلى الحج من أولها إلى آخرها، وأصبح همُّ العديد من الحجاج ملاقة الأسيخ، وزيارة الصالحين الأحياء منهم والأموات.

وأخيراً تطرّقنا إلى جانبٍ خفيٍّ من رحلة الركب الجزائري، إنّه جانب الاستئناس والترويح عن النفس من قبل الحجاج، وذلك في مواجهة السفر الطويل والظروف الشّاقة المحيطة به، من ذلك ما كان يتمُّ بينهم من محاورات فكرية، ومطاردات شعرية، وألغاز متبادلة شعراً ونثراً. كما لم تغب الطُرفة والنُكته عن يوميات سفرهم، إضافةً إلى ما كان يُصادفهم من أمور غريبة عجيبة، يُقابلونها بثباتٍ وإيمانٍ. كلُّ ذلك أكّد أنّ رحلة الحج في العهد العثماني رحلةٌ روحيةٌ بالدرجة الأولى.

الخاتمة

الخاتمة

لقد تبين من هذه الدراسة المخصصة لركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني مدى أهمية هذا الهيكل المنظم لأداء الجزائريين شعيرة الحج، وتعدُّد الأوجه والأبعاد التي كانت تحيط برحلة الحجاج إلى بلاد الحجاز آنذاك. فقد أضحى ركب الحج الجزائري بمثابة المؤسسة التي تُمكن مجتمع الحجاج - فضلاً عن أداء الحج - من ضمان التواصل المتنوع مع فضاء سفره.

بناءً على الفصول الخمسة التي عرضناها تباعاً وما تضمنته مباحثها من شروح واستنباطات، توصلنا إلى استخلاص النتائج التالية:

أولاً: لم يكن ركب الحج الجزائري غائباً في مسألة تنظيم الحج من الجزائر خلال العهد العثماني، ولم يكن ملحقاً بأركاب حج أخرى، بل كان كياناً وظيفياً قائماً بذاته، ينطلق من الجزائر في رحلته لأداء الحج، ثم يكون مُنتهاه إليها بعد أداء الحج والعودة من الحجاز. وذلك رغم مزاحمة الأركاب المغاربية الأخرى، وشهرة الركب "المغربي"، بسبب دلالات تلك التسمية الواسعة التي كانت تشمل الحجاج الجزائريين أيضاً في ذلك العهد. كما كانت قوافل الحجاج المكوّنة للركب الجزائري تُفيد من جهات ومناطق جزائرية مختلفة، نظراً لشساعة إقليم الإيالة الجزائرية، ثم تُشرع في التكتُّل والاندماج بعد وصولها إلى المدن والمراكز الحضرية الكبرى المجمعّة للركب، مثل: قسنطينة، بسكرة، الجزائر، مليانة، مجاجة، معسكر، تلمسان، توات، تيدكلت... وغيرها.

ثانياً: الركب البحري من أهم أصناف ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني، فكانت السفن تُقل الحجاج الجزائريين من ميناء الجزائر أو من ميناء تونس، باتجاه ميناء الإسكندرية المصري، ومنه نحو الحجاز براً في غالب الأحيان. إلا أننا سجلنا عدم وجود الاهتمام اللازم والضروري بشؤون ركب الحج ومتطلباته من لدن السلطات العثمانية الحاكمة بالجزائر، كما هو الشأن بالنسبة لسلطات المغرب الأقصى - مثلاً - رغم حرص العثمانيين على إرسال "الضرة" أو ناتج أموال أوقاف الحرمين الشريفين إلى الحجاز مع الركب سنوياً، وكذا الإشراف على تقليد منصب "إمارة الركب" لبعض الأسر الجزائرية فقط.

ثالثاً: نالت عشرات البيوتات الجزائرية شرف منصب إمارة ركب الحج الجزائري تعييناً أو اختياراً وإجماعاً، منها: آل الفكون وآل المسعود وآل بن ناجي وآل المرازقة وآل الجوزي وآل أبي

الخاتمة

نعامة وغيرهم. وكان هذا المنصب يورث في البيت الواحد لعقودٍ من الزمن، ويتحلَّى من يتولاه بمجموعة من الخِصال والمقوّمات الضرورية.

رابعاً: شيوع عادة النداء للحج في التجمّعات الكبرى داخل المدن، وفي الأرياف التي يقطنها أغلب السكان الجزائريين. وتشابُه عادات التحضير للسفر والممارسات الاجتماعية عادةً خروج الحجاج في معظم نقاط تجمُّع أو مرور الركب الجزائري. وتنوّع التشكيل البشري الذي يتكوّن منه ركب الحج الجزائري ليشمل العلماء والطلبة والقضاة والأعيان، وكذا بعض الأعوان الذين يُفترض وجودهم في أيّ ركب للحج مثل: دليل الركب الواجب اصطحابه، والعلام رافع رايات الركب وأعلامه، وصاحب الطبل الكبير المستخدم للتواصل بين شيخ الركب وعامة الحجاج....

خامساً: انخراط المرأة الجزائرية بقوة في ركب الحج الجزائري، وبروز أسماء بعض النساء الحاجّات اللاتي تحدّين الصعاب، وسائرن الرجال في رحلتهم الشاقة نحو الحجاز، واشتهرن بالعلم والكرم وحسن العشرة. على غرار: الحاجة عودة، الحاجة فاطمة، الحاجة عويشة، الحاجة شريفة، الحاجة مستورة، الحاجة مباركة، الحاجة آمنة.... وغيرهنّ كثيرات.

سادساً: كانت الإبل هي وسيلة النقل المثلى لجلّ الحجاج الجزائريين، نظراً لوفرتها وإمكانية استبدالها في محطات طريق الحج، مع توظيف البغال ثمّ الخيول على نطاقٍ ضيق. ويقوم الحجاج بحمل أعلاف الدواب على ظهورها من باب أخذ الاحتياط اللازم، بينما يُطلقونها على عواهنها لترعى وتأكل ما توقّر من عشب وكألاً أثناء نزول الركب للراحة في المحطات المتوالية.

سابعاً: اشتهار ركب الحج الجزائري بالقوة والكثرة والنجدة، خاصة في مواسم حجّ القرن 12هـ/18م، واعتراف الحجاج الآخرين بسبقه وريادته على بقية الأركاب المغاربية والمشاركة، بما فيها الركب المصري أعظم أركاب الحج في ذلك الزمان. يكفي دليلاً على ذلك شهادة أحد المشاركة عن حجم ركب الجزائر وضخامته بالقول: "منذ حصل لنا التمييز ما طلع ولا جاء ركب من المغرب مثل هذا الركب، إذ فيه ألوّف مؤلّفة".

ثامناً: اعتبرت مسارات ركب الحج داخل الإقليم الجزائري بمثابة منافذ، يسلكها الحجاج الجزائريون للوصول إلى الطريق الرئيسية الخارجية، وهي الطريق المحاذية للبحر الأبيض المتوسط، مروراً بتونس وطرابلس الغرب ومصر. بينما استُخدمت الطريق الجنوبية الصحراوية عبر إقليم فزان من

الخاتمة

قَبْلَ حجاج الصحراء الجزائرية. وكان بالإمكان التقاء ركب الحج الطالع في موسمه بركب الحج الهابط في الموسم الذي قبله في محطة من محطات الطريق، بسبب طول فترة غياب الحجاج عن أوطانهم، الذي يستغرق سنة كاملة. حيث مواقبت خروج الركب تتراوح بين شهري ربيع الثاني ورجب كحدّ أقصى، بتقدير الوصول إلى المحطة المصرية قبل انقضاء شوال على المعتاد.

تاسعاً: اعتادت أركاب حج بلاد المغرب السير جنباً إلى جنب مع الركب المصري في المقطع الأخير من طريق الحج، المسمّى "درب الحجاز"، المشهور بكثرة بناطه (محطاته). على أنّ السبق للمصري في الذهاب، بينما السبق للمغاربة في الإياب. وقد تميّزت المحطة المصرية عن بقية المحطات، بطول زمن مكوث الحجاج الجزائريين فيها، وبالاحتفالات الرسمية والشعبية المصاحبة لمواسم خروج محمل كسوة الكعبة المشرفة من مدينة القاهرة، في أواخر شهر شوال من كل سنة.

عاشراً: إنّ أكبر خطر كان يتهدّد الحجاج الجزائريين هو الاعتداء على ركبهم، وسلب أموالهم وأرزاقهم من طرف بعض قبائل البدو الرحل أو "الأعراب"، التي أصبحت تفرض ما اعتبرته "عوائد الطريق"، مقابل عدم التعرّض لهم بسوء. لقد سادت تلك الممارسات المشينة الماكرة جلّ مقاطع الطريق، وبصفة خاصة في درب الحجاز، ولم يجدّ الحجاج سبيلاً لدريئها سوى جهودهم الخاصة في حماية ركبهم، في ظلّ عجز الدولة العثمانية عن تأمين جميع المسالك. كما شكّلت إكراهات الطريق الطبيعية وصعوبات تأمين العلف لرواحل الحجاج أعباء إضافية في رحلة ركب الحج الشاقة أصلاً من أولها إلى آخرها.

حادي عشر: تمكّن الحجاج من التأقلم مع المستجدات السياسية والأمنية الحادثة في الأقاليم التي كان الركب الجزائري يمرُّ بها. رغم معاناتهم من تبعات بعضها، مثل الحملة الفرنسية على مصر، والحرب العثمانية على الحركة الوهابية.

ثاني عشر: اختلاف ظروف وميزات مسير ركب الحج في عودته إلى الجزائر عن مسير الذهاب، وذلك من حيث الفترة الزمنية التي بدتْ أقلّ، ومن حيث إصرار أهل المدن والقرى التي يمرُّ بها الركب على الترحيب بالحجاج وإكرامهم. وكذا النشاط التجاري المزدهر عقب الموسم.

ثالث عشر: لمسنا حجم الترابط الاجتماعي الناشئ بين حجاج الركب، وتجنسدهم لأسمى صور التضامن والتآزر فيما بينهم، خاصة إذا ما تعلّق الأمر بحوادث المرض أو الوفاة، أو الذود عن

الخاتمة

المحارم والشرف. حيث كان ركب الحج الجزائري بمثابة مجتمع متنقل، أثر وتأثر بمحيطه الظرفي كما لو كان قاراً، ونجح في إقامة جسور التواصل الإنساني الحضاري مع سكان المدن والحوضر المتتالية، وكرس القيم الإنسانية في علاقاته مع البدو الرحل، في القرى والبوادي التي كان يعبرها.

رابع عشر: لم تكن رحلة ركب الحج الجزائري الطويلة والشاقة إلى الحجاز تنتهي بمجرد عودة الحجاج إلى بلدانهم، وإقامة الولائم والأفراح لمقدمهم، بل بعودتهم كان يبدأ فصل آخر من فصولها، عنوانه الإخبار والإعلام بتفاصيلها ومشاهداتها، واستعراض أحوال المشرق وأخبار أعلامه، وتحليل تطورات الأحداث المختلفة المحيطة بمجالها.

خامس عشر: لولا رحلة الحج المتجددة في كل موسم لجهلنا أسماء الكثيرين من أعلام الجزائر وعلمائها في العهد العثماني، فآثارهم ومآثرهم ارتبطت بسفرهم إلى الحجاز مجاورة أولاً، ثم بزياراتهم لأقاليم المشرق الأخرى تدريساً وعطاءً.

سادس عشر: لقد ألقى الطابع الفكري السائد في محيط رحلة الحج على توجهات الحجاج، وعلى طبيعة النقاشات السائدة والفنون المأمولة، فالمد الصوفي كان جارفاً، والاستقطاب المذهبي بدا حاداً وقتئذ.

سابع عشر: فاجأتنا رحلة حجّ الركب الجزائري السنوية بكونها لم تخل من جوانب الطرفة والغرائبية والاستثناس، بدا ذلك واضحاً داخل مجتمع الركب في حد ذاته، من خلال المحاورات والمناظرات والألغاز بين الأعلام، وفي التفاعل مع محيط الرحلة، من خلال المواقف الطريفة التي كانت تصادف بعض الحجاج، أو الصور الغريبة التي يقف عليها الركب في سفره.

لقد مكنتنا هذه الدراسة العلمية الأكاديمية من الاستئناس بعدد كبير من الرحلات الحجازية الجزائرية وغيرها، ومن خلالها الغوص في تفاصيل وحشيات رحلة الركب الجزائري إلى الحجاز، أو بوصف أدقّ الانخراط في "مجتمع الحجاج" الفاعل، طيلة فترة العهد العثماني بالجزائر.

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نقترح بعض التوصيات أو التصورات التي من شأنها أن تُعيد ربط التاريخ الراهن بما تناولناه من إشعاع حضاري سالف لركب الحج، أحد أبرز تراث الجزائر العثمانية، وتقتبس من ذلك التراث ما توارى من قيم وسلوكيات، نحن في أمس الحاجة إليها:

الخاتمة

- إقامة ندوات ومؤتمرات علمية سنوية بشأن تطوّر "مؤسسة ركب الحج" عبر التاريخ، كما هو مُحدثٌ في المملكة العربية السعودية حالياً، وكذلك في المغرب الأقصى، حيث تُعقد ندوات علمية خاصة، تستلهم من تجارب مواكب الحج بين الفينة والأخرى.
- مبادرة مراكز المخطوطات ومخابرها المعتمدة إلى جمع أو جرد مخطوطات الرحلات الحجازية، المتوارية بين رفوف الخزائن الخاصة، وتمكين الباحثين من دراستها وتحقيقها واستخراج مضامينها، نظراً لقيمتها العلمية التاريخية، وتقاطع اهتمامات تخصّصات عديدة بشأنها.
- اعتماد الشراكة أو التوأمة العلمية بين قطاعي التعليم العالي والشؤون الدينية والأوقاف لإنجاز معاجم وكتب تراجم خاصة، للتعريف بالأعلام العلماء من الحجاج الجزائريين الذين تداولوا على السفر إلى بلاد المشرق طيلة العهد العثماني، وتبيان حجم النشاط أو الإشعاع العلمي الحاصل.

الملاحق

فل لهم يا أهل الديار * حيثكم وأنا طير ولان	فم نيل طلوع الرومرا
سرتصوني في ساع سجلان * بحرمة البروراء وابها	مستغانم وفري اخرى
واذع اهل التصريب وبيز * شتوى قبالة هذا القير	وادعا يسمى يَلسل
صاحب الحكمة والتدبير * يفتح النعوس ويطيها	على رحبها لا بُد سائل
فتعز اليوم كفاك الورد * بُث ليلته واصبح جناد	فم من ثم امين ذباب
سما يا الوردان المركاد * تتالذ وجزع عليها	راه سيدي عابد في الباب
واقطع طلالا وخيرا * توصل القلعة بضمها	فابله ولبط الحطام
تحتها بيهاء بهوطل	طير واندزل واد العنصر
هابا لينة يفاها	وشيا اصطافى به ارض
فم من ثم امين ذباب	مير الارض واصبح شتاول
راه سيدي عابد في الباب	اقطع غلب سام لاجواف
فابله ولبط الحطام	
طير واندزل واد العنصر	
وشيا اصطافى به ارض	
مير الارض واصبح شتاول	
اقطع غلب سام لاجواف	

اطفح المبرح وتهتوف * وبت من ثم لا تلهف	فم نيل طلوع العتار
زر سيدي احمد بن يوسف * وبت ملانة داخلها	زر وادخل هذه الدار
واود المدعون في زكار * وقدمه لا يد تعطيها	
باش تخرج لبرجلان * عند فانس بلاوى فيها	فم يا طير امين سجلان
فم نيل العير وبكسر * البلدة بيت فيها	بت تكرم على الامان
زر مولى سانة نوميك * طر من ثم لوبريك	
امعل الدركة على خنيك * بنات بلد العير نراها	
بت رايي واصبح مسرور * بين ما وشاره وفسور	
خذ ودة سيدي منصور * نيل آلا تدخل قتها	
فم كي نخل البيسان * لجرالير داخل جرحان	
زر سيدي عبد الرحمان * بركم بنعمها بها	
ليلة الجمعة الملم اللقيح * بربك واذا كنت صريح	
تخرج منارها نور يسه * وامرود الدار اذع ليها	

- * ادخل مؤتمة يا مصاح
- * مدمم لمتقم وارواح
- * تسلى من كيسان الراح
- * من عسور الود اسلمها
- * لم يا طير جويك طال
- * طير و انزل في جبل قتال
- * اعرج على البيلان وركل
- * جُرْ حَيَاةَ خَلْفَهَا
- * لم من فسر الطير و رُخ
- * بلع فلسطينه سفروج
- * ادخل و باب الله مهبوح
- * كلها الناس وراحمها
- * لم يا طير سنان تخالو
- * زنج النيس و ادخل للكلب
- * مدمم نازك و افزف
- * يعيك موت مغانيبها
- * لم يا طير ادخل نولس
- * زرا الباهي و ابن يونس
- * بنات طول الليل مؤنس
- * بهم النيس سرقيا
- * اعرج على الباب و استخيف
- * لاسختر ابن صرقة
- * زوم بالمتكف تفبفس
- * و كل تم يزول عليها
- * بالكع انهل يا زومان
- * فخذ لا سطر فيم امان
- * وبن كانت نصح المربان
- * فاملت جز و خانيها
- * خلف العرب في حلمها
- * وجر لارابلس ادخلها
- * فب جريتها و عظمها
- * و كيف تارويل موالها

- * اعرج على الباب مقيته
- * و انزل الدينار البقيته
- * لم يا ولد الطويقة
- * انزل حقاها سابها
- * انبى يا طير يفتن
- * و ابلد النار و وقتن
- * و بى وبن طريف البطن
- * مبن لاعد و ما جها
- * يتخ طريف الزكب و رخ
- * دمتك بوف الصق لاج
- * و الدليل ملتح مطسروج
- * و ليهتم و اش يسترسها
- * ليهة البوقه و امر المسوف
- * برح حها الفصح الزروف
- * نزلتك و النيس اميها
- * و الهوى من لا ذاق يدوى
- * لم يا طير ادخل برفقة
- * الوطن فيم و عفا
- * حقا ما يلد و يلبها
- * حرم حرام بلا مبيته
- * كيف يا طير يكون سكيك
- * لا ريفك مكف يلقك
- * من السب و العلس من يسكيك
- * و لا عرب تسلي بهيها
- * بيت سلب و امسح فسقار
- * و ادخل صر فيها اعتر
- * و اعني دار اكرها
- * انزل سجادوم يا مصاح
- * و مدمم سيق و ارق
- * و اعلمها لا تعطها
- * و اجالس لا تعطها
- * زوم كل حقا و مبال

الملاحق

ملحق رقم 03: نصٌ وثيقةٍ رسميةٍ لتزكية الشيخ عبد الكريم الفكون أميراً على ركب الحج
الجزائري عام 1048هـ/1639م

"الحمد لله، لِيَعْلَمَ مَنْ يَقِفُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْكَرِيمِ، مِنَ الْقَوَادِ وَالْعَمَلِ وَالْخَاصِّ وَالْعَامِ ببلدِ
قسنطينة، سَدَّدَ اللَّهُ الْجَمِيعَ، وَبَعْدُ فَإِنَّ الشَّيْخَ الْعَالِمَ الْقَدْوَةَ التَّقِيَّ النَّاسِكَ الْأَبْرَّ النَّحْرِيَّ الْمُؤَلَّفَ
الْبَلِيغَ، سَيِّدِي عَبْدَ الْكَرِيمِ الْفُكُونَ، دَامَتْ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ عِنَايَتُهُ وَنَفَعَنَا بِبَرَكَاتِهِ، جَدَّدْنَا لَهُ عَلَى
مُقْتَضَى مَا بِيَدِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ، فَلَمَّا كَانَ تَوَجُّهُ لِلْأَرْضِ الْمُشْرِفَةِ وَزَارَ قَبْرَ الْمُصْطَفَى، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ، بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَظَهَرَ لَهُ يَتَّبِعُ طَرِيقَ إِمَامِ التَّحْقِيقِ شَيْخِ الْأَشْيَاخِ الْعَارِفِ بِاللَّهِ
الْمُحَقِّقِ الْمَتَبَرِّكَ بِهِ فِي الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ سَيِّدِي أَحْمَدُ زُرُوقٌ، نَفَعْنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِ.

وَأُذِّنَا لَهُ بِضَرْبِ الطَّبْلِ، وَيَتَوَجَّهَ بِالْمُسْلِمِينَ كَمَا كَانَ، وَيَكُونُ رِقَاسَ (مَبْعُوثِ) الرَّسُولِ، عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَا مَانِعَ لَهُ وَلَا مَعَارِضَ وَلَا مُدَافِعَ، لِأَنَّهُ أَحَقُّ بِهَا وَيَقُومُ بِحَقِّهَا. مَوْصِي فِيهَا سَعَى
وَقَلَّدَ إِلَيْهِ وَإِتْبَاعَ الطَّرِيقِ فِيهَا اقْتَدَى وَاهْتَدَى، وَالرَّفِيقَ بِالرَّفِيقِ، وَالسَّائِقَ الْمَزْمَلِ لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ، يَسِيرُ
عَلَى قَدَرِ سَيْرِهِمْ، وَلَا يُؤْثِرُ الْبَعْضُ عَلَى بَعْضِهِمْ. قَصَدْنَا بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهُ الْعَظِيمَ، وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ
الْجَسِيمِ.

وَكُتِبَ بِأَمْرِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بَاشَا - أَيَّدَهُ اللَّهُ - بِتَارِيخِ أَوَائِلِ
رَمَضَانَ الْمَعْظَمِ عَامِ ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ وَأَلْفٍ. وَبِأَوَّلِهِ خَاتَمٌ بِهِ مَا نَصَّهُ أَوْصِيَاءُ الْعِبَادِ عَلِيٍّ.

أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص 225.

ملحق رقم 04: نماذج لشيوع الوقف على الحرمين الشريفين بالجزائر العثمانية

أ - نموذج وقف على الحرمين الشريفين عام 1066هـ/1656م

"أوقفَ الحاج أحمد بن علي الدار التي على ملكه بناحية باب عزون على ولديه أحمد ومريم، وعلى من سيولد له في المستقبل ذكوراً وإناً للذكر مثل حظّ الأنثيين، ثم على عقب أولاده وأعقاب أعقابهم ما تناسلوا، فإن انقرض عقب الذكور رجع ذلك على عقب البنات وعقب أعقابهن ما تناسلوا، فإن انقرضوا عن آخرهم رجع ذلك حبساً على فقراء الحرمين الشريفين".

ب - رأي علماء الجزائر في أوقاف لم تُعيّن مراجعها عام 1174هـ/1760م

"بمقتضى الشرع القويم والصراط الواضح المستقيم حيث لم تُعلم الجهة التي يُصرف إليها ما ذُكر، أنّ غلّة ذلك تُصرف في غالب قربات البلد، وذلك فقراء الحرمين الشريفين مكة المشرفة والمدينة المنورة".

"تأمل العلماء في القضية المذكورة تأملاً كافياً وأمعنوا نظرهم فيها إمعاناً شافياً، فظهر لهم دامت عافيتهم وقويت عنائتهم بدليل الشرع القويم والصراط الواضح المستقيم أنّ الحبس إذا لم يُعيّن المرجع وترك الحبس مهملًا، فالنص في ذلك أنه يرجع بعد انقراض ذرية الحبس لأقرب عصبته، وبعد انقراض العصبه يكون لغالب أوقاف البلد وذلك مكة والمدينة شرفهما الله تعالى".

خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص ص: 901-905.

الملاحق

ملحق رقم 05: نماذج تقديرية لمجموع الزمن الكلي لرحلة الحج

مُنطلقُ الرّكب	تاريخ الذهاب	تاريخ العودة	مجموع زمن الرحلة
مدينة الجزائر (بحراً)	رجب 1091هـ/ جويلية 1680م	ربيع الثاني 1092هـ/ أبريل 1681م	09 أشهر (توقفات عادية)
الشرق الجزائري	جمادى الثاني 1179هـ/ نوفمبر 1765م	ذو الحجة 1180هـ/ أبريل 1767م	19 شهراً (توقف طويل بتونس)
الغرب الجزائري	ربيع الثاني 1241هـ/ نوفمبر 1825م	جمادى الثاني 1828م	أكثر من سنتين (زيارات بالمشرق)
وادي الساورّة	ربيع الأول 1001هـ/ ديسمبر 1592م	شعبان 1002هـ/ أبريل 1594م	17 شهراً (تعطّل بالقاهرة)
منطقة تيدكلت (عين صالح)	جمادى الثاني 1188هـ/ أوت 1774م	شعبان 1189هـ/ أكتوبر 1775م	15 شهراً (تعطّل بالطريق)
وادي مزاب	رجب 1196هـ/ جوان 1782م	ربيع الثاني 1197هـ/ مارس 1783م	09 أشهر (توقفات عادية)
منطقة الرّاب (بسكرة)	جمادى الثاني 1063هـ/ ماي 1653م	ربيع الثاني 1064هـ/ فبراير 1654م	10 أشهر (توقفات عادية)
توات (أدرار)	جمادى الأول 1232هـ/ ماي 1817م	رمضان 1233هـ/ جويلية 1818م	15 شهراً (تعطّل بالطريق)

من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)

الملاحق

ملحق رقم 06: نماذج عن وفيات بعض الحجاج ضمنَ الركب الجزائري

اسمُ الحاج	موطنه	صِفته	تاريخُ الوفاة	مكائنها	ملاحظة
الحاج محمد آغا	مدينة الجزائر	موظف بالديوان	محرم 1041هـ أوت 1631م	المدينة المنورة	بعد أداء المناسك
محمد الفكون	قسطنطينة	والد أمير الركب	1045هـ 1635م	المويلح (درب الحجاز)	في رحلة العودة
عبد الرحمن السائح الكنتي	أقبلي (تيدكلت)	أمير ركب الحج	منتصف القرن 11هـ القرن 17م	البقيع المدينة المنورة	والد الشيخ أبي نعامة
عويذة بنت محمد	بلاد الرّاب	عمّة أمير الركب	أواخر 1063هـ نوفمبر 1653م	طريق المدينة المنورة	بعد أداء المناسك
؟ (عجوز)	الجزائر	من عامّة الحجاج	1091هـ 1680م	رشيد (مصر)	في رحلة الذهاب
يحيى الشاوي الملياني	مليانة الجزائر	عالمٌ وأميرُ الركب	1096هـ 1685م	في السفينة الإسكندرية	دُفن بالقرافة (القاهرة)
محمد المنور التلمساني	تلمسان	شيخٌ وعالم جليل	1173هـ 1759م	القاهرة	في رحلة العودة
عبد الرحمن بن السخري	بني عامر (سطيف)	عالمٌ فقيهٌ	أوائل 1179هـ 1765م	في طريق الحج	في رحلة الذهاب
أحمد الصديق	الجزائر	خطيبٌ ومعلمٌ ولد الداوي	صفر 1180هـ جويلية 1766م	القاهرة	دخول مصر في العودة
الحاج إبراهيم	؟	عالمٌ فاضلٌ	ذو الحجة 1179هـ ماي 1766م	مكة المكرمة	بعد الرجوع من عرفة
محمد بن القاضي	جبل زواوة (القبائل)	حاكم بلاد زواوة	محرم 1180هـ جوان 1766م	الينبع (درب الحجاز)	في رحلة العودة
سيدي مهنا الصنهاجي	قسطنطينة	وليُّ صالح	صفر 1180هـ جويلية 1766م	القاهرة	كبيرٌ في السن
أحمد بن إدريس	أمدوكمال	ابن عمّ أمير	ربيع الثاني 1180هـ	صعيد مصر	في رحلة

الملاحق

العودة		سبتمبر 1766م	الركب	(الزّاب)	
في رحلة العودة	كفّر حمام (مصر)	ربيع الثاني 1180هـ سبتمبر 1766م	من عامة الحجاج	بني عامر (سطيف)	الطيب بن بونشادة
في رحلة العودة	قرية عَرام (شرق تونس)	منتصف 1180هـ أواخر 1766م	قاضي مدينة بسكرة	بسكرة	؟
في رحلة العودة	تونس	1180هـ 1766م	زوجة الشيخ الورثلاني	قصر الطير (سطيف)	عويشة بنت عبد الله
في رحلة العودة	تونس	1180هـ 1766م	زوجة ابن الورثلاني	قصر الطير (سطيف)	فاطمة بنت عبد الله
في رحلة العودة	عيون القصب (درب الحجاز)	محرم 1189هـ مارس 1775م	شيخ فاضل	تيمي (توات)	الحاج العباس بن إبراهيم
في رحلة العودة	القاهرة (مقبرة المنوفي)	صفر 1189هـ أبريل 1775م	عالم جليل	منطقة توات	عبد الرحمن بن عمر التلاني
في رحلة الذهاب	مدينة قابس (تونس)	شعبان 1196هـ أوت 1782م	من عامة الحجاج	وادي ميزاب	سلمان ؟
في رحلة الذهاب	معطن النبط (درب الحجاز)	ذو القعدة 1196هـ نوفمبر 1782م	من عامة الحجاج	صحراء الجزائر	التومي ؟
بعد أداء المناسك	طريق المدينة المنورة	ذو الحجة 1196هـ ديسمبر 1782م	من عامة الحجاج	وادي ميزاب	عيسى بن أحمد
في رحلة العودة	البقيع المدينة المنورة	محرم 1197هـ ديسمبر 1782م	إمام بلدة القرارة	وادي ميزاب	عيسى بن سلمان
في رحلة العودة	المويلح (درب الحجاز)	محرم 1197هـ ديسمبر 1782م	مؤدّن ركب الحج	وادي ميزاب	سعيد بن قاسم
بعد الحجّة الرابعة	عين غزالة درنة (ليبيا)	1212هـ 1797م	جدّ الأمير عبد القادر	غريس معسكر	الحاج مصطفى الغريسي
في رحلة العودة	مصر	أوائل ق 13هـ أواخر ق 18م	مفتي وهران	وهران	أحمد التهامي
بعد أداء	الجديدة	محرم 1233هـ	من العامّة	توات	الحاج بابا حمو

الملاحق

المناسك	جنوب المدينة	أواخر 1817م			
في رحلة العودة	السيخة (شرق ليبيا)	1233هـ 1818م	شيخ فقيه	تنلان توات	الحاج عبد الرحمن التتلاي
في رحلة العودة	قرب الهاروج (ليبيا)	1233هـ 1818م	من العامة	توات	الحاج اسويلم
في رحلة العودة	بلد القصير (السويس)	مستهلّ 1237هـ 1821م	والد المفتي ابن العنابي	الجزائر	محمود بن محمد

من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)

الملاحق

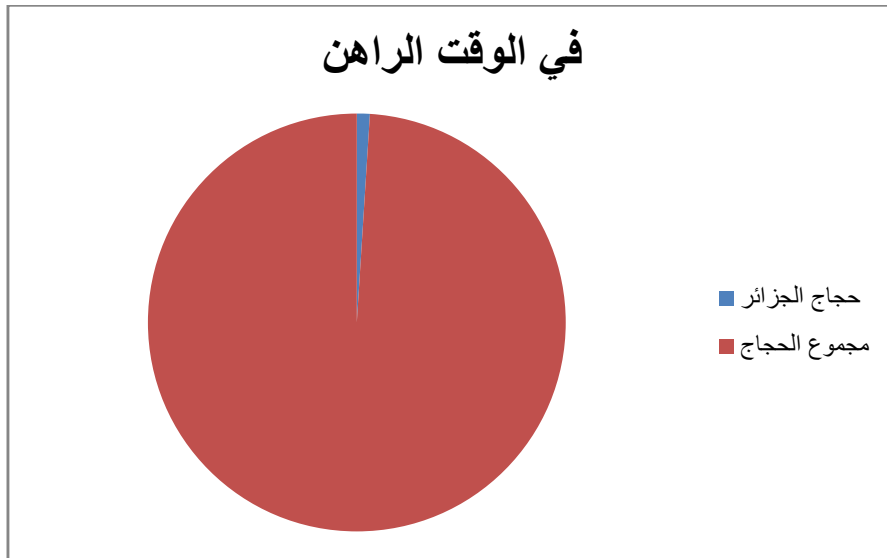
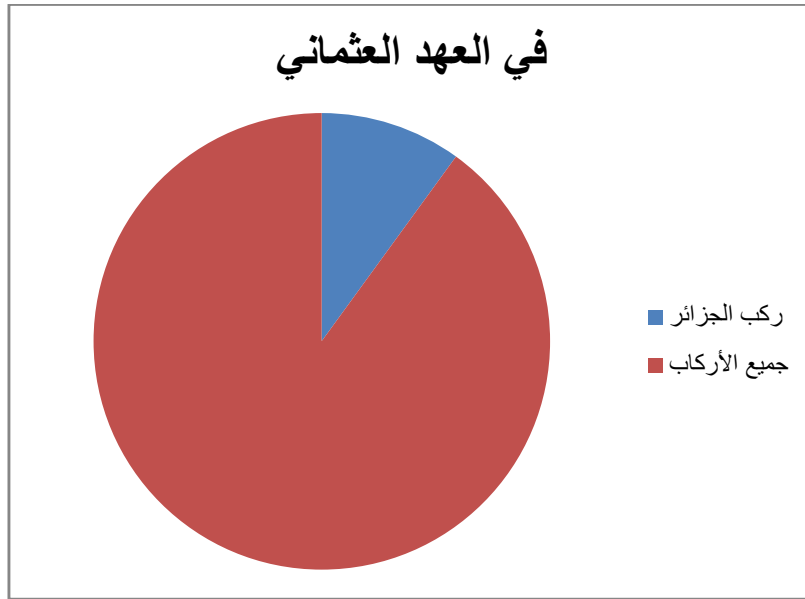
ملحق رقم 07: أسماء أهم عيون الماء المنتشرة في طريق ركب الحج

الرقم	اسم المعطن (العين)	الموقع	مِيزة مائه
01	الغيسران	شرق الجزائر	لا بأس به
02	الشبيكة	مدخل توزر التونسية	عذب
03	الوديان	شرق تونس	صالح
04	مطراو	صحراء ليبيا	لا بأس به
05	النعيم	صحراء ليبيا	عذب
06	المنعم	صحراء ليبيا	زلال
07	الراضة	أجدابيا (شرق ليبيا)	لا بأس به
08	سلوك	شرق ليبيا	عذب
09	التميمي	إقليم برقة	حسن
10	السروال	إقليم برقة	لا بأس به
11	الثقّة	إقليم برقة	قبيح آجن
12	الجرجوب	إقليم برقة	لا بأس به
13	الشمّام	إقليم برقة	لا بأس به
14	عجروود	درب الحجاز	مالح
15	بئر الصعاليك	درب الحجاز	عادي
16	ظهر الحمار	درب الحجاز	لا بأس به
17	عيون الأقباب	درب الحجاز	عذب جار
18	بئر السلطان	درب الحجاز	لا بأس به
19	عكرة	درب الحجاز	قبيح
20	واد فاطمة	مكة المكرمة	عذب جار

من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)

الملاحق

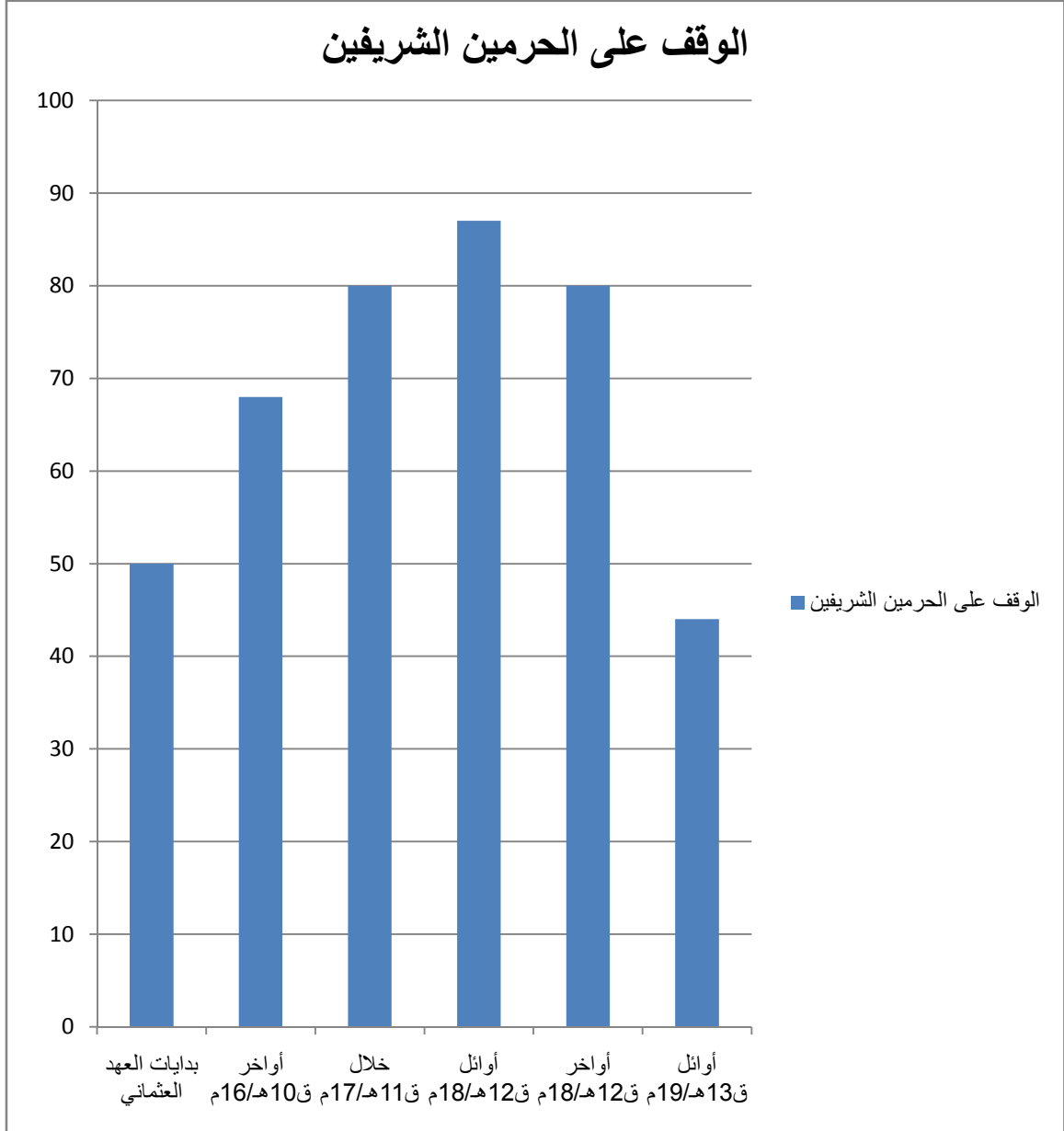
ملحق رقم 08: نسبة الحجاج الجزائريين من إجمالي عدد الحجاج (بين عهديين)



من إنجاز الباحث (مقارنة تقديرية بناءً على ما توفّر من معلومات)

الملاحق

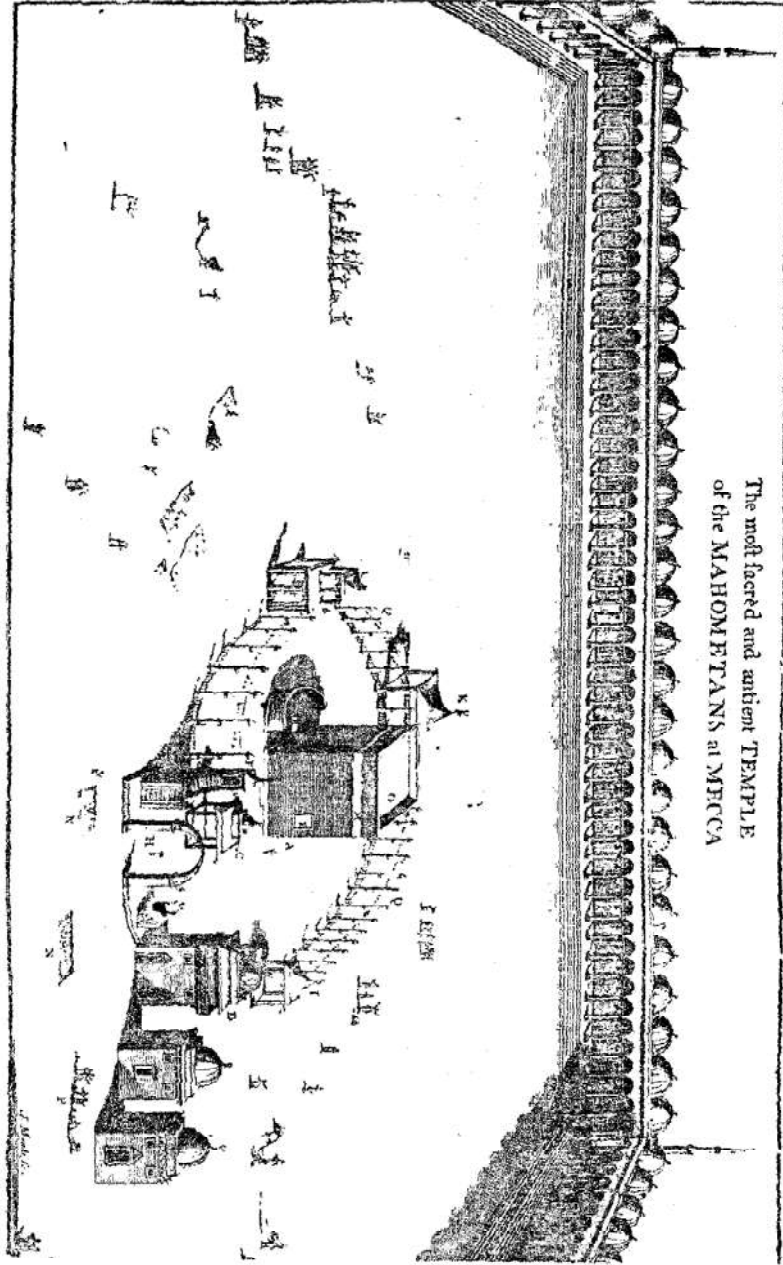
ملحق رقم 09: معدلات الوقف على الحرمين الشريفين من الوقف الإجمالي بالجزائر في بعض مراحل العهد العثماني



مُستخرَجٌ من جدول توزيع الحالات المرجعية في الوقف بالجزائر العثمانية ل:
خليفة حماس، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص 907.

الملاحق

ملحق رقم 10: منخطط المسجد الحرام بيد حاج من ركب الجزائر في موسم حج
1091هـ/1680م



دحلة جوزيف - ١٧

جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 17.

ملحق رقم 11: أسماء بعض زادٍ ومُعَدَّات الحجاج في ركبِ الحج

وتزوّد	وخَيْرُ	زادِكَ	تقوى	ويُصاحِبُها	طعامٌ	وماءٌ
وانتخب	أسرعَ	المراكبِ	سيراً	وجمّالاً	تطوى	بها الأفلأءُ
وانتخذ	للفصولِ	خيرَ	لباسٍ	سيماً	عندما	يحينُ الشتاءُ
وانتخذ	ما يقيك	ساقينك	برداً	مثلَ	وارقلةٍ	بها استدفاءُ
وكذا	ما تَكُنُّ	فيه	فإمّا	مثلُ	بيتِ يقي	وإمّا حِباءُ
وكذا	مفرشٌ	أخي	وفراشٌ	ووسادٌ	متى	يكنُ إغفاءُ
واصحَبِ	الشَّمعِ	للإضاءةِ	والفأ	نوسَ	تَحْظُ	بها به يُستضاءُ
وانتخذ	قيماً	صدوقاً	أميناً	معَ	خُدّامِ	كُلِّ أمرٍ تشاءُ
ثمَّ	آلاتِ	مثلِ	قَدْرِ	مُحاسِ	معَ	كسْكَاسِها
ثمَّ	قُفِّ	لها	ومُعْرِفَةٌ	تمَّت	طنجِرةٌ	يليهَا
وكذا	طاوَةٌ	وشُعْلٌ	وزندٌ	وقدومٌ	ومَحْمَنٌ	ودِلاءُ
وجبالٌ	وميجمٌ	معَ	سَطَلٍ	وكذا	قِطعةٌ	عَدَاكَ الشَّقَاءُ
وبطّأتُ	الإدامَ	كالشَّحمِ	والسَّمِ	نِ	وخَلٌّ	ووقتُهُ الرَّمضاءُ
وكذا	سُفرةٌ	وصحْنٌ	لأَكْلِ	ولكُلِّ	مما	ذكرتُ
وانتخذ	يا فتى	عَرارةً	دبشٍ	وليكنُ	لكَ	بالأمورِ
وانتخذ	ركوةً	وطاسَةً	شُرْبِ	في	سِمَاطِ	العَلِيْقِ
ولتصاحبُ	بُطيطةً	السَّمَنِ	أو شبِ	ه إِذا	لمَ	يكنُ لكَ
واعجننَ	السُّويقَ	بالسَّمَنِ	إنَّ أمَ	كنَ	معَ	عَسَلِ
فإذا	يتعدَّرُ	الطَّبْحُ	يوماً	كانَ	فيه	لأَكليه
وليُصاحِبِكُ	كاغِدٌ	ودواهُ		معَ	أقلامِها	لِما قدُ
مفرضٌ	ومشطٌ	وموسى	ومرا	ه	ويحفظُ	كُلَّهِنَّ
وخيوطٌ	منَ	كلِّ	نوعٍ	وابْرا	تُ	ومنَ
ثمَّ	مُكحلةٌ	بِكُحْلِ	وميلٌ	ثمَّ	لقاطُ	شوكِ
وتدكّرُ	حوائجاً	نافعاتٍ		وتجنّبُ	لِما	اقتناهُ

الملاحق

وَأَنْتَخِبَ قَرِيبًا وَثِيقَةً خَزِرٍ جِيْدَاتٍ لِيُمْكِنَ اسْتِسْقَاءُ
وَتَخَيَّرَ لَهَا تَبَارِجَ تَحْمِيهِ هَا لَكِي لَا يُصِيبُهَا إِفْرَاءُ
وَأَتَّخِذْ يَا فَتَى مِنَ الْعِطْرِ شَيْئًا رَبِّ وَقْتٍ بِهِ يَكُونُ الشَّرَاءُ
لَا تَكَلَّفْ بِسِلْعَةٍ إِنَّ فِيهَا خَطَرًا وَهِيَ مِحْنَةٌ وَبَلَاءُ
بَلْ دَنَانِيرُ جِيْدٌ مِنْ نُضَارٍ فِي حَزَامِكَ حَبْدًا الرُّفْقَاءُ
وَلِيُصَاحِبَكَ مَا تُصَلِّيَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِلْدٍ مَتَى يَكُنْ إِذَا
وَاصْحَبَنَّ مَنَاسِكَ الْحَجِّ إِذْ لَا يَسْتَوِي الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَلَاءُ
وَالْتَرَمَ كُتُبًا تُفِيدُكَ عِلْمًا فَهِيَ نِعَمَ الْأَصْحَابِ وَالْجُلَسَاءُ
وَدَلِيلُ الْخَيْرَاتِ لَا تَسَهُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ كَاسْمِهِ لَا مِرَاءُ
وَاصْحَبَنَّ سَبْحَةً تُذَكِّرُكَ الذِّكْرَ وَمَا لِلْمَظَلِّ عَنْكَ عَدَاءُ
وَاصْحَبَنَّ مِثْلَ زَيْبِقٍ مَعَ حَنَاءٍ ءَ فَذَاكَ لِلْقَمَلِ مِنْهُ جَلَاءُ
وَأَتَّخِذْ يَا لَيْبُ أَلَةَ حَرْبٍ رَمًا عَرَضَتْ لَكَ الْأَعْدَاءُ
وَأَتَّخِذْ لِلطَّرِيقِ خَيْرَ رَفِيقٍ إِنَّ ذَاكَ لَعَمْرِي الْعَنْقَاءُ
وَلتُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ كَثِيرًا فَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ شِفَاءُ

محمد المنوني، المرجع السابق، ص 89 وما بعدها (مُلحق رحلة العامري التلمساني في

القرن 12هـ/18م)

ملحق رقم 12: قصيدة شوقية لأبي محمد عبد الله البسكري (ت 713هـ/1313م)

دار الحبيب أحق أن تهواها
 وعلى الجفون إذا هممت بزورة
 فلأنت أنت إذا حلكت بطيبة
 لا تحسب المسك الذكي كثيرها
 طابت فإن تبغ التطيب يا فتى
 وابشر ففي الخبر الصحيح تقرّر
 واختصها بالطيبين لطيبها
 لا كالمدينة منزل وكفى بها
 خصت بحجره خير من وطئ
 كل البلاد إذا دكرن كأحرف
 حاشا مسمى القدس فهي قريبة
 لا فرق إلا أن تم لطيفة
 جزم الجميع بأن خير الأرض ما
 ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
 وبهذه ظهرت مزيتها طيبة
 حتى لقد خصت بحجره حبه
 ما بين قبر للنبي ومنبر
 هذي محاسنها فهل من عاشق
 إني لأرهب من توقع بينها
 ولقلما أبصرت حال مودع
 فلکم أراکم قافلين جماعة
 فسما لقد قاسى فؤادي بينكم
 إن كان يُزعجكم طلاب فضيلة
 أو خفتموا ضرباً بها فتأملوا
 وتحنن من طرب إلى ذكراها
 يا ابن الكرام عليك أن تغشاه
 وظللت ترتع في ظلال زبائها
 هيهات أين المسك من ربها
 فأدم على الساعات لثم ثراها
 أن الإله بطيبة سماها
 واختارها ودعا إلى سكنها
 شرفاً لحلول محمد فيها
 الثرى وأجلهم قدراً وأعظم جها
 في اسم المدينة لا خلا معناها
 منها ومكة إياها
 مهما بدت يجلو الظلام سناها
 قد حاز ذات المصطفى وحوها
 كالتفس حين زكت زكا مأواها
 فعدت وكل الفضل في معناها
 الله شرفها به وحبها
 حيا الإله رسوله وسقاها
 كلف شجي ناجل بنواها
 فيظل قلبي موجعا أواها
 إلا رثت نفسي له وشجها
 في إثر أخرى طالبين سواها
 جزعا وفجر مقلتي مياها
 فالخير أجمعه لدى مثواها
 بركات بقمعتها فما أركاها

أَفْ لَمَنْ يَبْغِي الْكَثِيرَ لَشَهْوَةٍ
فَالْعَيْشُ مَا يَكْفِي وَليْسَ هُوَ الَّذِي
يَا رَبِّ أَسْأَلُ مِنْكَ فَضْلَ قِنَاعَةٍ
وَرِضَاكَ عَنِّي دَائِمًا وَلُزُومَهَا
أَنْتَ الَّذِي أَعْطَيْتَ نَفْسِي سُؤْلَهَا
بِجَوَارِ أَوْفَى الْعَالَمِينَ بِذِمَّةٍ
مَنْ جَاءَ بِالْآيَاتِ وَالنُّورِ الَّذِي
أَوْلَى الْأَنْامِ بِخَطَّةِ الشَّرْفِ النَّبِيِّ
إِنْسَانٌ عَيْنِ الْكَوْنِ سِرُّ وَجُودِهِ
حَسْبِي فَلَسْتُ أَفِي بَعْضِ صِفَاتِهِ
كَثُرَتْ مَحَاسِنُهُ فَأَعْجَزَ حَصْرُهَا
إِنِّي اهْتَدَيْتُ مِنَ الْكِتَابِ بِآيَةٍ
وَرَأَيْتُ فَضْلَ الْعَالَمِينَ مُحَدَّدًا
كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى تَقْصِي مَدْحِ مَنْ
(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
هَذَا الْفَخَّارُ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا فَبَدَلِكُمْ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ غَيْرَ مُقَيَّدٍ
وَعَلَى الْأَكَابِرِ آلِهِ سُورِجِ الْهُدَى
وَكَذَا السَّلَامُ عَلَيْهِ ثُمَّ عَلَيْهِمْ
أَعْنِي الْكِرَامَ أُولِي النَّهْيِ أَصْحَابَهُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ وَهَذِهِ

وَرَفَاهَةٍ لَمْ يَدْرِ مَا عُقْبَاهَا
يُطْعِي النَّفْسَ إِلَى خَسِيسِ مُنَاهَا
بِيسِيرِهَا وَتَحْصُنًا بِجِمَاهَا
حَتَّى تُؤَافِي مُهَجَّتِي أُخْرَاهَا
وَقَبِلْتَ دَعْوَاهَا فَيَا بُشْرَاهَا
وَأَعَزَّ مَنْ بِالْقَرَبِ مِنْهُ يُبَاهِي
دَاوَى الْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى فَشَفَاهَا
تُدْعَى الْوَسِيلَةَ خَيْرٍ مَنْ يُعْطَاهَا
(يس) أَكْسِيرُ الْمَحَاسِنِ طَه
لَوْ أَنَّ لِي عِدَدَ الْحَصَى أَفْوَاهَا
فَعَدَّتْ وَمَا تَلَقَى لَهَا أَشْبَاهَا
فَعَلِمْتُ أَنَّ عِلَّاهُ لَيْسَ يُضَاهِي
وَفَضَائِلُ الْمُخْتَارِ لَا تَتَنَاهِي
قَالَ الْإِلَهُ لَهُ وَحَسْبُكَ جَاهَا
- فِيمَا يَقُولُ - يُبَايِعُونَ اللَّهَ
وَاهَا لِنَشَاتِهِ الْكَرِيمَةِ وَاهَا
تُهْدَى النَّفُوسُ لِرُشْدِهَا وَغِنَاهَا
وَعَلَيْهِ مِنْ بَرَكَاتِهِ أَمَّاهَا
أَكْرَمَ بَعِثْتَهُ وَمَنْ وَالْآهَا
وَعَلَى صَحَابَتِهِ الَّتِي زَكَّاهَا
فِيئَةَ التَّقَى وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهَا
بَحَرْتُ وَظَنِّي أَنَّهُ يَرْضَاهَا

ملحق رقم 13: أمثال وأقوال مرتبطة بركب الحج في العهد العثماني

- "جمال طرابلسي وقربةً مصرية"

مثلٌ شاع بين الحجاج المغاربة في العهد العثماني، مؤداه أن أنفع الزاد لمن عوّل على إتمام السفر إلى الحج وتيسير بعض ظروفه هو: جمال من جمال مدينة طرابلس الليبية، الشهيرة بقوة التحمّل والصبر على العطش والأثقال. وكذا قربة جلدية من القرب المصرية المتميّزة بجودة الإتقان، وحفظ الماء على مسافات طويلة. لذلك كان الحجاج الجزائريون - حينئذٍ - يستبدلون رواحلهم بالإبل الطرابلسية، حين يصلون تلك المحطة.

- "الحجُّ زادٌ وراحلة"

مثلٌ لتوضيح أهمّ مطلبين يجب توفّرها عند من يرغب في الحج خلال تلك الأزمنة، مألٌ ومؤونة، إضافةً إلى راحلة (جمال، فرس، أو بغلة...) .

- "حجّ حجةً صعوكية؟"

هي حجةً في إطارٍ غير منظم، مستقلة عن الركب وضوابطه التنظيمية، في معزلٍ عن وظائف السفر الجماعية المشتركة المعهودة بين الحجاج، من حراسةٍ ونصبٍ للخيام وجمعٍ للحطب ورعيٍ للرواحل.... وهي بذلك ليست مكلفة. كان يلجأ إليها الضعفاء والفقراء، وكذا العالة منهم على غيرهم من الحجاج طيلة السفر، فيغلب عليهم وصف "الحجاج الصعاليك".

- "حجّ وجاز على برقة!"

- "حرقه وغرقه ولا برقة!"

كان هذا المثل يُضرب للعجب غاية العجب ممن يتمكن من الحجاج من اجتياز مفازة برقة الليبية المقفرة المخيفة والمهلكة، إمّا بمفرده أو في عددٍ قليل من الحجاج المتخلفين عن الركب. ويبيّن أنّ خطر تلك المفازة الموحشة ليس أقلّ وقعاً من الغرق أو الحرق.

الملاحق

- "ركب الحج غدوة عام ورواحه عام"

مثلٌ يُشيرُ إلى طول الفترة الزمنية التي كان يستغرقها ركب الحج في سفره البعيد إلى الحجاز، والتي تصل أحياناً إلى العامين، ما بين ذهاب وإياب.

- "مائة دقه ولا شربة من الشقة"

مثل شائع باللغة الدارجة في ذلك العهد، والشقة المذكورة هي مورد ماء قبيح آجن مالخ، يوجد في صحراء بركة الليبية، يتمي من الزمة العطش إلى شربه من الحجاج لو أنه ما شربه، بل يُفضّل أن يُضرب مائة ضربة على أن يتناول شربة واحدة منه!

- "المال المودع بع وانتفع"

مثلٌ لتنبية الحجاج الجدد على أنّ الرأي الصائب في السفر هو بيع ما فضّل من الإبل لديهم على الحاجة، وليس إيداعها في الوكالات المخصصة لذلك، ومتى احتاج الحاج إبلاً بديلة اشترى، وارتاح من مشاكل سماسة الإيداع والكراء، الذين يتلقون الحجاج بطمع ونهم في مصر والحجاز.

- "الماشي للحج مفقود والراجع مولود"

للدلالة على أنّ حدوث الوفاة في رحلة الحج الشاقة والخطيرة بكل المقاييس والأبعاد أمرٌ عادي في ذلك الزمان، وأنّ العائد منها كمن كُتب له عمراً ثانياً!

- "مكة في الشرق ورجالها في الغرب"

كناية عن تعلق الحجاج المغاربة الشديد بالحرمين الشريفين، وتمسكهم غير المتناهي بشعيرة الحج رغم بُعد المغرب عن المشرق، وصعوبات السفر المتراكمة آنذاك.

- "من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منى!"

يُضرب في العجب من ضيق مشعر منى وازدحامه بالحجاج ورواحلهم وأمتعتهم وأسواقهم أثناء موسم الحج، ثمّ تبين سعة ذلك المكان وامتداده بعد ارتحال أركاب الحج عنه مباشرة. وكذلك هو حال الدنيا... خرابٌ بعد عمارة!

الملاحق

- "قَطَعْنَا سَبْعَ وَغَرَاتٍ!"

مثلُ يُرَدِّده الحجاج عندما يفرحون بقطع سبع مرتفعات، شكَّلت دوماً صعوبات وعقبات في طريق سير ركب الحج في مقطع درب الحجاز.

- "سَرَّ مَكَّةَ بِيَقَى فِي مَكَّةَ"

مثلُ دارجٌ على ألسنة الحجاج الجزائريين، يدعو إلى حفظ أسرار ومشاهدات موسم الحج، وعدم نقل الأخبار أو التفاصيل السلبيّة المسيئة لرحلة الحج المقدسة.

- "شَيْخُهَا جَمَلٌ"

كان يُضرب في الحالات المتكررة التي يرتحل فيها الركب من أحد المنازل دون إذن شيخ الركب، بل بمجرد سماع صوت رُغاء الجمل! فيظنُّ أول من يسمعه أنّه إيعازٌ من قيادة الركب للارتحال فيرتحل، ثمَّ يتبعه آخرون، وهكذا حتى يرتحل جميع الركب بصوت جمل، وليس بأمر شيخه! وفيه كناية عن ضعف شخصية أمير الركب أحياناً.

- "وَمَا هَذَاكَ إِلَى أَرْضِ كَعَالِمِهَا"

أي ضرورة استئجار ركب الحج للدليل أو الخبير الماهر العالم بالطريق، الذي يُجَنَّب الحجاج خطر التّيّه في بعض المقاطع الموحشة، لأنّه أدري وأعلم بالطريق من الحجاج.

- "لَا بُدَّ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الْمَفَازَةَ شَاتَهَا"

مثلُ يحوي بعض التشاؤم من المفازات الموحشة التي كان ركب الحج يتيه فيها، وتشبيهه الخسائر البشرية أو المادية من جرّاء عبورها، كمن أخذ "شاة" على الأقل من شخصٍ ضريبةً لمروره! فأصبح الحجاج يذكرونه كلّما جاوزوا إحدى المفازات في الطريق.

- "لَا تَأْمَنِ اللَّصُوصَ وَلَوْ هُمْ فِي صُحْبَتِكَ"

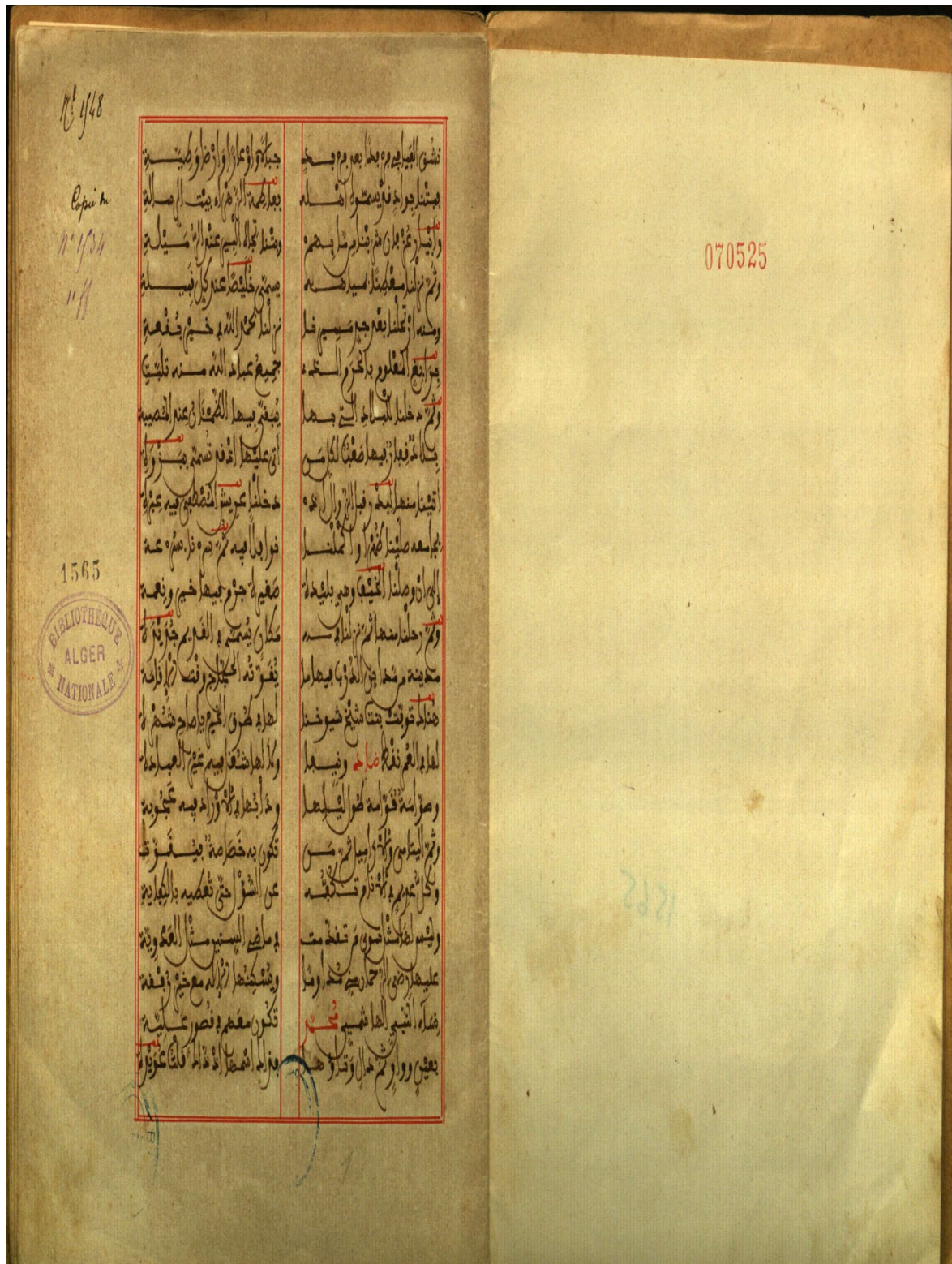
مثلُ لتنبيه الحاج وتحذيره من "الحجاج الصعاليك" المسافرين مع الركب في كلّ موسم، وتشبيهه بعضهم بالصعاليك، قطعاً الطرق الحقيقيين.

الملاحق

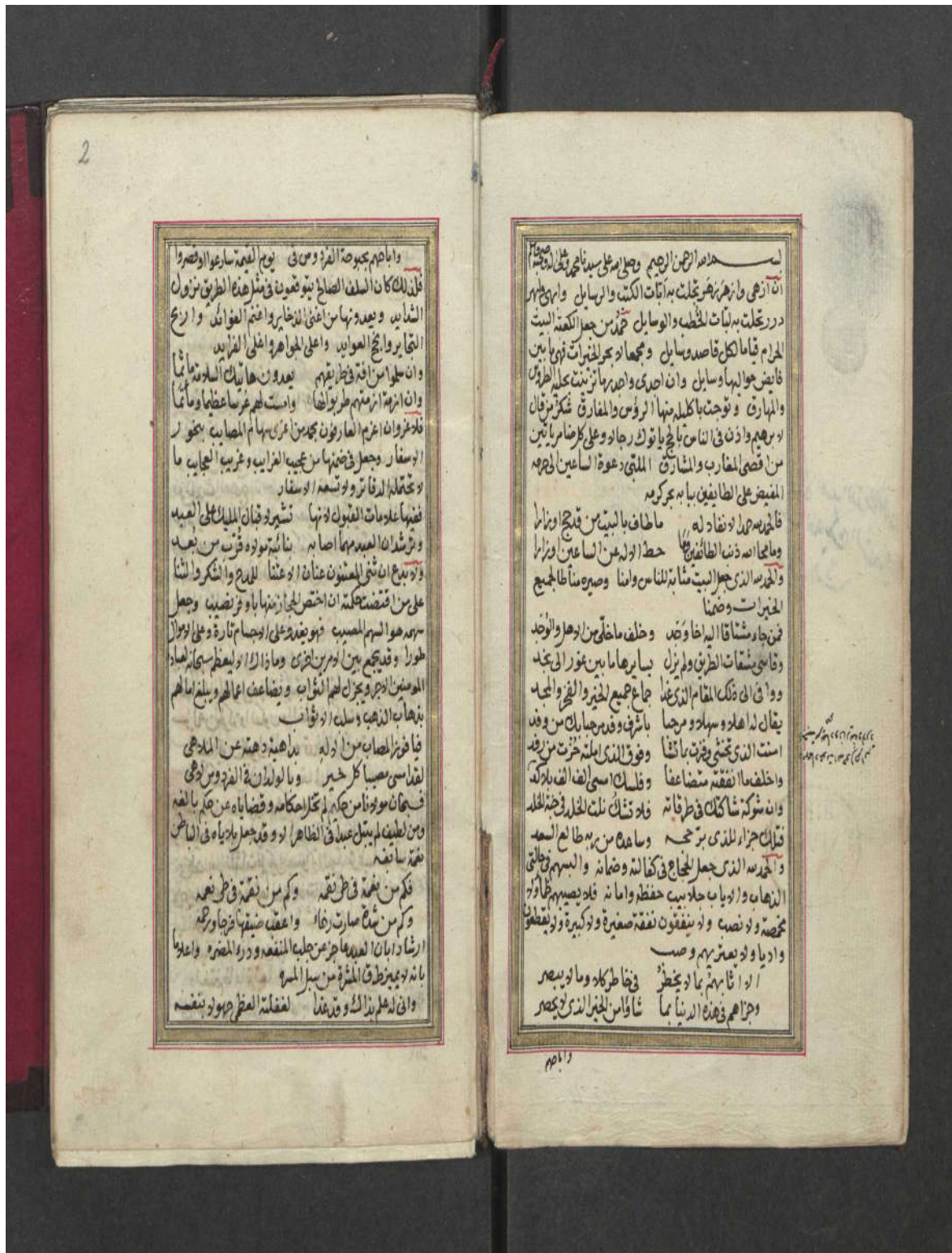
- "لا رجالَ إلا رجال الحوراء، ولا جمالَ إلا جمال الدوراء"

الحوراء بندر من بنادر درب الحجاز، رجاله أهل غاراتٍ شديدةِ الوقع على أركاب الحج. والدوراء أو الدورة بمعنى الرجعة، أي أنّ الجمال القوية المطلوبة للحج هي التي تصبر في رحلة الرجوع من الحج، إذ هو آخر السفر، وفيه يقلُّ علف الجمال، ويزداد ثقل أحمالها. فالجمال الشديدة في العودة فعلها كفعلِ رجال الحوراء الأشداء.

من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)



المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر: رقم 1565.



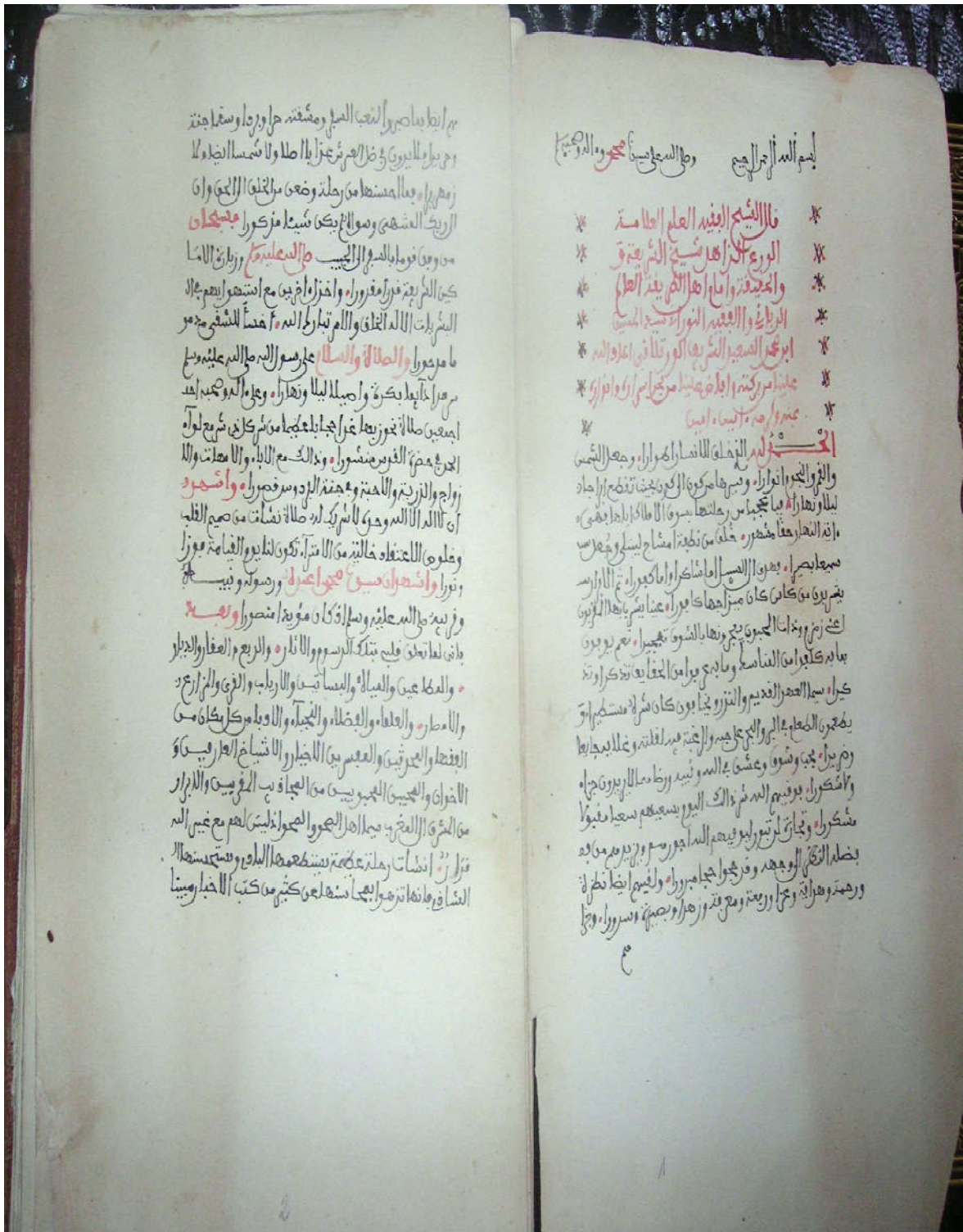
لسه هذه الزمن الرجم وصل على سيدنا محمد ^{صلى الله عليه وسلم}
 ان ارضي وانزهر بهر تجلت به آيات الكتب والرسائل وامرهم
 در تجلت به نبات الخشب والوسايل فمن جعل الكعبة البيت
 الحرام قايما لكل قاصد وسايل ومجاهد بحمل الخيرات في باين
 فانيض حوالها وسايل وان احدى واحده ما تزنت على الطريق
 والمبارق وتوجت باكله منها الرؤوس والمفارق شكر من قال
 لا يبرهم واذن في الناس بالي باؤنك رجاء وعلى كرام يا بين
 من قضى المغارب والمشارق الملقى دعوة الساعين في وجهه
 المغني عن الطائفين يا بحر كرمه
 فانه من لا يوفد له ما طاف بالبيت من قديم اوزار
 وما حمله ذنبا الطائفين حط الوله عن الساعين اوزار
 والحمد الذي جعل البيت مثابة للناس وانما وصيه ما طاب جميع
 الخيرات وضمنا
 فمن جاء مشافا اليه خاوصه وحلف ما خلق من بهار والوجد
 وقاسي شفاقات الطريق ولم ينزل بسايرها ما بين غور الى نجد
 ووافق في ذلك المقام الذي عنده جامع جميع الخير والفرح والحمد
 يقال له اهله وسهله ومرجيا بارشفي وقره جمالك من وفد
 است الذي تخمى وقرب بانثا ووقوف الذي ملته خربت من رفد
 واخلف ما تقدمه مضاعفا وقلبك اسم الف الف بلال
 وان شوكه شاكلك في طرفاته فلو تشاك نلت الخلد في خبث الخلد
 فذلك جزاء الذي برحمه وساعده من به طاع السعد
 والحمد لله الذي جعل الحج في كفايته وضمانه والسهم في طاق
 الذهب والادياب حلايب حفظه وامانه فلو يصيبهم طاول
 محضه ولو نصب ولو يفتون نفقة صغيرة ولو كبيرة ولو يفتون
 واديا ولو يصيبهم وصب
 اذ انما هم بما لا يحضر في خاطر كاه وما لو يصير
 وجرهم في هذه الدنيا بما شاق من الخير الذي لا يفسد

في نسخة اخرى من نسخة
 في نسخة اخرى من نسخة

واهم

2
 واما هم بعبوة الفزدوس في يوم الجمعة ساروا وفضوا
 فلذلك كان السلف الصالح يتوعدون في مثل هذه الطريق من زول
 السحاب ويعدونها من اغني الخبايا والاعم الفوائد وازرع
 القباير وانح العوايد واعلى الجواهر واعلى الفرائد
 وان حلوا من افة في طريقهم يعمرون هاتيك السبلتة تائبا
 وان ازمة ازمتهم طربوا لها وامست لهم عرا عظاما واما
 فلو غروا وان اعزم العارضون بحسين عري ساهم المصائب بخوار
 السفر وجعل في ضنها من عجيب الغرائب وغريب العجائب ما
 وتعلمه الرفاير ولو تسعه السفر
 فبها علمات القبول لانها تسير في قبال الملك على العبد
 وتزئد ان العبد بها اصابه نالته تلوته قربت من بعد
 ولا يدع ان تولى المشيئة عن ان اوعنا اللوح والشكر والشا
 على من افضت حكمة ان اختصر الخبايا بها وترضيد وجعل
 سيم هو السهم المصيب فهو يفتد على انصام تارة وعلى اوبال
 طورا وقد جمع بين ادم من الخزي وماذا اذ لا يعظم سبحانه العباد
 الموصون اذ جرحك لهم الثواب وينصاعف اعلمهم وبلغ اعلمهم
 بذهاب الذهب وسلب الثواب
 فباقر المصائب من اذله نراهه دهمه عن الملاهي
 لقماس صبا كرخير واولاد في الفزدوس اذ
 فحان بوذناس حاكم الحكامه وقضاياه من حكم بالغم
 ومن لطيف لم يسل عندي في الظاهر لو قد جعل اذياه في الناس
 فقمة ساقية
 فكم من نفحة في ظرفه وكم من نفحة في ظرفه
 وكم من سقا سارت رجا واعقد ضيقها في جاوره
 ارشاد امان العبد بما جرت عليه المنفعة ودره المضرة وانعلا
 بانه يميز طرق المنفعة من سبل المضرة
 والى له علم بذلك وقد غدا لغفلة العظم جولو ينقص

مخطوط بجامعة لبيزيك، فيينا، رقم: 746.



بسم الله الرحمن الرحيم
وطالع السليمانية محجور والوجه

- * فالشيخ الفقيه العلم العلامة
- * الورع الكرام شيخ الشريعة
- * والحجة واما اهل القم بعد العلم
- * الرباني والفقير النوراني السيد الحسين
- * ابن علي السعيد الشرف الورتلاني اعلاه
- * حيا من ركنه افاض علينا من محاسن احوالنا
- * بحمد الله ورضوانه

الحمد لله الذي خلق الانسان ليعرفه وجعل الشمس والقمر والنجوم انوارا ويسر لها كونها في كنفها تنطق بالحكمة ليلها ونهارها بما تجتنب من ركنها بسوء الاماكن اياها في حيا اذ النهار حقا مشفورا خلقها من نطفة امشاح ليلها وحيا من صبرها بصيرا بهي القبول اما اشكر او اما كبر او اما انا من يقرب من كان كافا ميزانها كابر او عينا من ياكلها لا يورث لشيء من رزقنا الميمون ينجي منها بالشوق تجميعا مع يوم من بهاء كل عام من الناسط وما بهي من اهل الحفاقة تذكروا وتكبروا سيما العصور القديمة والنزول بما يكون من مستحسبها ويحمر الصلح في البر والحي على حبه والحيمة في رقلته وتلا بعبادها من يراهم وشوقا وعشقا في السمو وتبدي رضاء على ابيون حيا واشكورا في قديم الله شذالك اليوم بتسبيحهم بسجودا مشكورا وتجارا ليرتويهم فيهم الله اجور مع وزرهم من به بصله التقى الوجهه وفرحوا بجماله واهلهم ايضا نظرة ورهنته هلالا وحيا اروعته ومع قدره هرو بصمته وسروره وحيا

ع

من ابطا بصيرا ليعب الصلح ومثقتنه حل وزنه وسما جنة
وحيا والديون في ظل العرش عزرا باطلا ولا شمس الضل ولا
زهره في عالمها من رطله وضعي من الخلق المجمع وان
الربك المشهي وهو الخلق يكتفينا من كورا **بصحا**
من وحي فومال الصبر اليه **الصلوة** رزاقنا الاما
كني التي يتر فرام فروره واخره اخذ من مع استشهوا بهم بال
المشربات الاله الخلق والام تبارك الله فحسنا للشقي من
ما من حورا **والصلاة** على رسول الله صلى الله عليه وسلم
من هرا خالها بكرة واصيلا ليلها ونهارها وحيا الله وحيد ابد
اجمعين صلاة فخور بها خراجا بلعجا من شكري شيع لول
الجن في حمة الغور منسورا وذلك مع الاباء والامهات واللا
زواج والذرية واللحمة وعجفة الرد وسرف حورا **واصبر**
ان الله الا الله وحيا لا شريك له صلاة تضافت من صميم القلب
وخلوي اللحنفاه خالته من الاثنا تكون لتاييد القيامه حورا
ونورا **واشهر ان سيق حورا** ورسوله وبيته
وفي ليلة من الله عليه وسلم ان كان مؤبدا منصورا **وعبد**
باني لغات من قلب تلك الرسوم والانداء والبرم العفار والديار
والعالمين والعباد والبساتين والارباب والقرى والزرع
والاعطاب والاعلاء والفضلاء والنجباء والادباء كل مكان من
القطر والعمري والعمري بين الخبار والاشياخ العارفين
الانوار والهيمن الميمون من العجايب البري من الارباب
من الشرف العزيب جلال الصور والصور ليس لهم مع غير الله
قزاق انشأت رحلتهم بيمينه بيمينه اللادون وتستعجال
الشاق فانها تفرحوا بها مشهلا من كتب عن كتاب الاخبار مينا

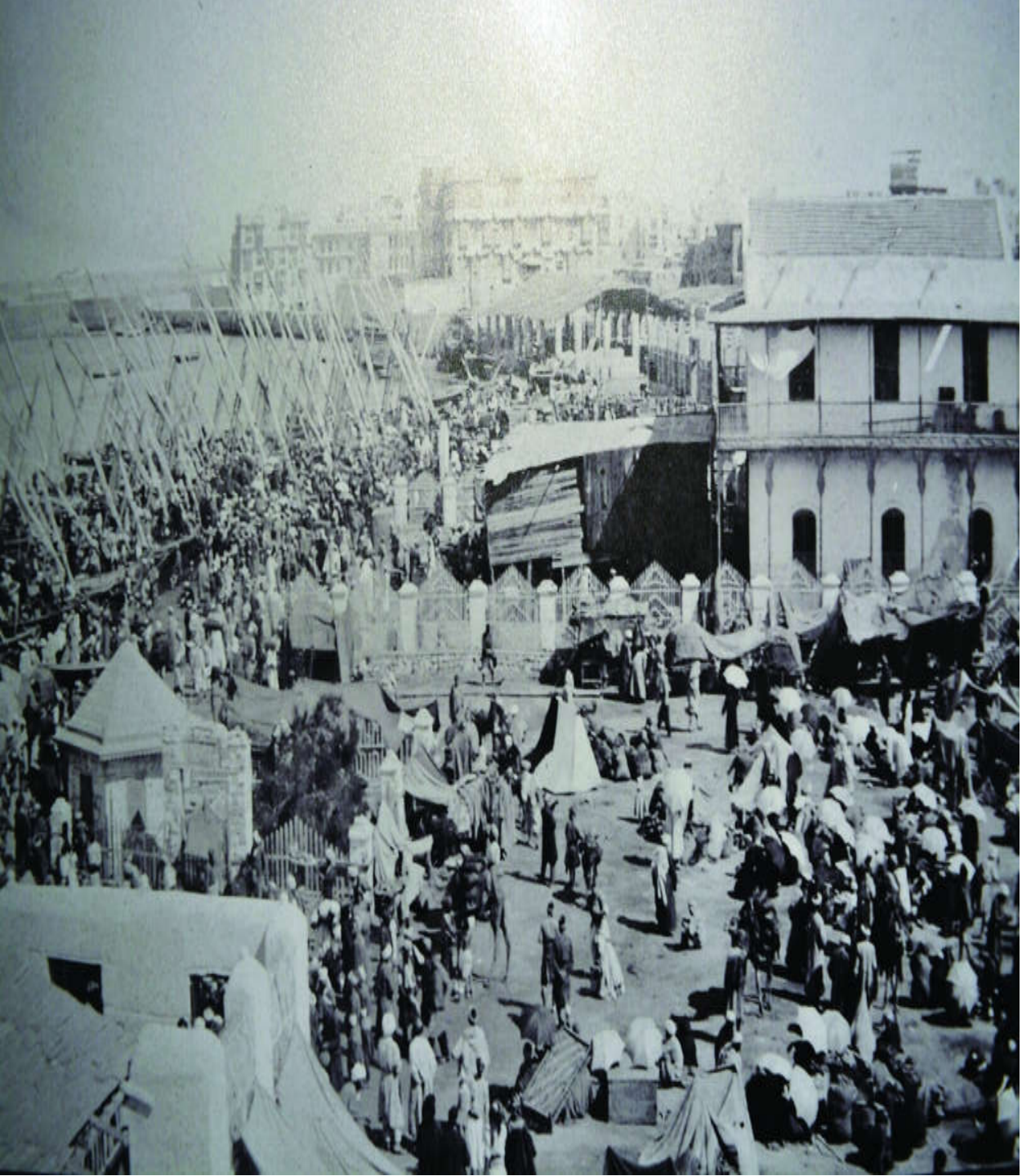
خزانة برج بن عزوز، بسكرة، الجزائر.

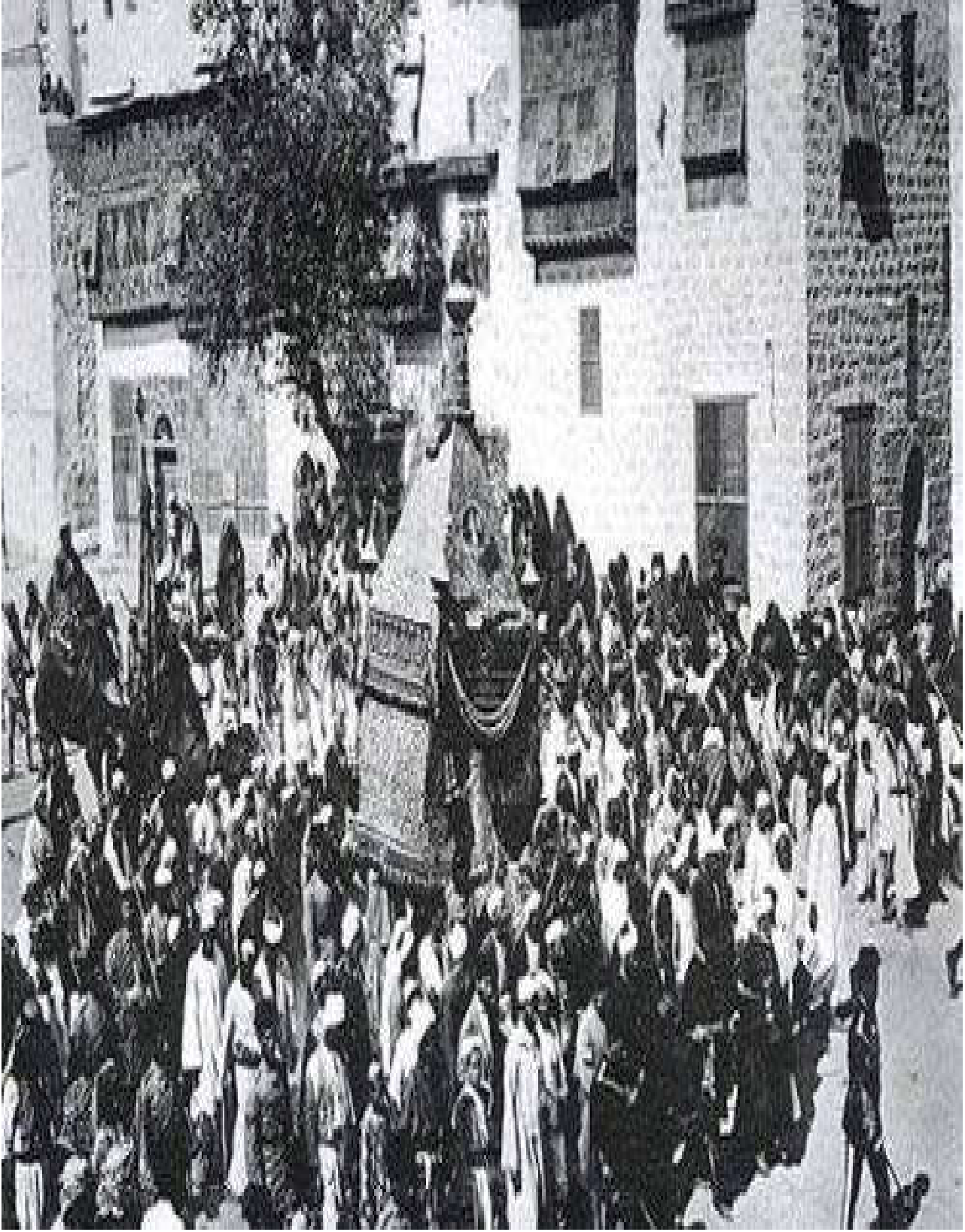
بلغ أبو زيد الواسطي سيد عبد الرحمان
عنه آمين آمين
الحمد لله الذي فرغ على المكلفين عبادة جميع
العتيوق وعفرت نوبهم همه وهوذا لك ختام
على ما عهدنا إلى خير صبره واشكره على ما منحنا من
التوفيق واشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له
شهادة نرجو بها من عذاب الخزي وشهادة ان
سيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث الى خلائقه
اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه الذين
افضلهم ابوبكر الصديق ورجد فلما بعث الله على
بالتوجه ليج بيت الله الحرام فزاره فمعه عليه
افضل الصلاة والسلام وذلك لما نكرت لذلك
همة الاخوار في الله يسر يوم من سيد عبد الرحمان
وارحمه سيد ادرين بن تيجنا العلامة يسر يوم
استشاره في ذلك فلا تشرن عليهم في الجود له

1

الملاحق

ملحق رقم 18: صورة لنزول الحجاج في ميناء جدة (الركب البحري)

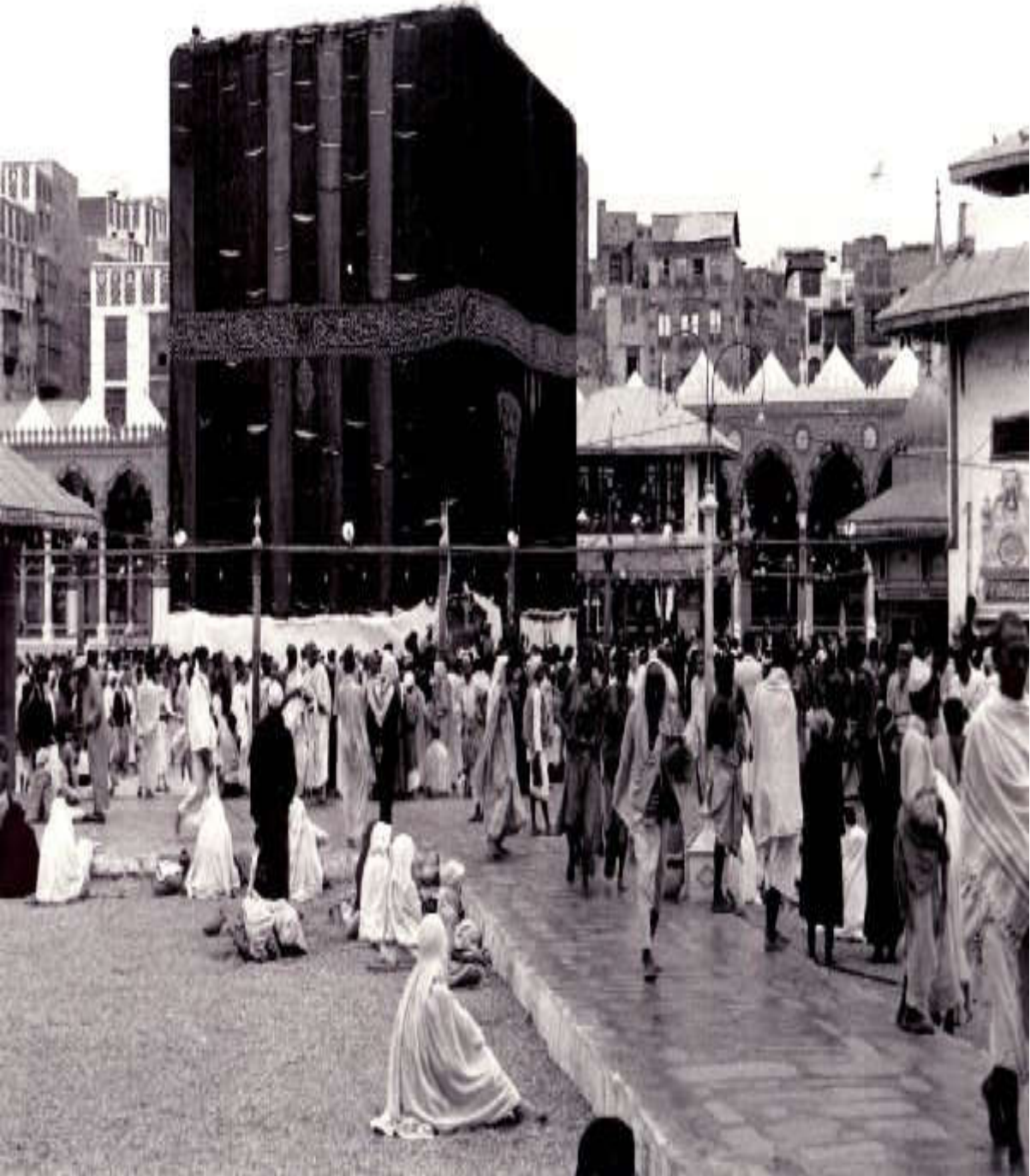




الملاحق

ملحق رقم 20: صورة للحجاج من المشاعر





**SNOUCK HURGRONJE: BILDER AUS MEKKA, LEIDEN,
BRILL: 1889.**

المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

أولاً: المصادر المخطوطة

01. بونّ محمد: كاشف الغمّ والعَمامة عن حياة الشيخ أبي نعامة، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيلي، أدرار.
02. المجاجي عبد الرحمن بن محمد بن خروب: رحلة منظومة حول الحج إلى مكّة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، رقم: 1565.
03. القبلاوي الفلاني أبو عبد الله: رحلة الفلاني القبلاوي، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيلي، زاوية كنتة، أدرار.
04. الشرقي محمد أبو عبد الله ابن الطيب: الرحلة الحجازية، نسخة مصورة من مخطوط بجامعة لبيزك، فيينا، رقم: 746.
05. التواتي التلاني عبد القادر بن عומר: الرحلة إلى الحج، مخطوط بخزانة الشيخ أحمد بن حسان، قصر عريان الراس، تساييت، أدرار.
06. التواتي التلاني عبد الرحمن بن عمر: الرحلة الحجية، مخطوط بخزانة بن الوليد، قصر با عبد الله، تيمي، أدرار.
07. رسالة من الحاج عثمان جنبلات وكيل الجزائر في مصر إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/249.
08. رسالة من وكيل الجزائر لدى الباب العالي إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/137.
09. رسالة من شريف عبد الله قرمانلي إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/151.
10. رسالة إلى باشا الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/48.

المصادر والمراجع

ثانياً: المصادر المطبوعة

11. الأزدي أبو داود: سُنن أبي داود، ط خ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة، دمشق، 2009م، ج04.
12. الأنصاري التلمساني محمد بن سعد: روضة النسرین في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، ط خ، تحقيق: يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
13. الأغواطي الحاج ابن الدين: رحلة الأغواطي، ط خ، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
14. البوني أحمد بن قاسم: الدُّرّة المصونة في علماء وصلحاء بونة، ط خ، تحقيق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2007م.
15. البرتلي الطالب محمد أبو عبد الله: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ط01، تحقيق: إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
16. بتس جوزيف: رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط01، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1995م.
17. البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، ط01، دار ابن كثير، دمشق، 2002م.
18. البغدادي ابن رشيد محمد بن أبي بكر: القصيدة الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية، ط03، تحقيق: محمد بن إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.
19. الجبرتي عبد الرحمن بن حسن: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ط02، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998م.
20. جونز هارفرد: موجز لتاريخ الوهّابي، ط01، ترجمة: عويضة بن متيريك الجهني، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2005م.
21. الجزائري ابن ميمون محمد: التُّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر الحممية، ط02، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
22. الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ط01، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903م، ج02.

المصادر والمراجع

- 23 الجزيري عبد القادر الأنصاري: الدُّرر الفرائد المنظَّمة في أخبار الحاج وطريق مكَّة المعظَّمة، ط01، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ج02.
- 24 الجيلالي عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الجزائر العام، ط02، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.
- 25 جيرار بيير سيمون: وصف مصر موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، ط03، ترجمة: زهير الشايب، دار الكتب، القاهرة، 1978م، ج04.
- 26 الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد: طبقاتُ المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، ط01، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.
- 27 الدرعي ابن ناصر أحمد بن محمد أبو العباس: الرحلة الناصرية، ط01، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2011م.
- 28 هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ-1732م، د ط، ترجمة: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007م.
- 29 الهلالي السجلماسي أحمد أبو العباس: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، د ط، تحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وحدة، 2012م.
- 30 الورثلائي الحسين بن محمد: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثلانية)، تعليق: ابن مهنا القسنطيني، تقديم: محفوظ بوكراع وعمار بسطة، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
- 31 الزهارة الشريف: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهارة نقيب أشرف الجزائر، د ط، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- 32 الزياني أبو القاسم: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور بترًّا وبحرا، تحقيق: عبد الكريم الفيلاي، ط02، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991م.
- 33 الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ط خ، تحقيق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- 34 الحَمِيرِي محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط02، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.

المصادر والمراجع

35. الحفناوي أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م.
36. الحُضَيْكِي محمد: الرحلة الحجازية، ط01، تحقيق: عبد العالي لمدر، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2011م.
37. الطبري محمد بن جرير أبو جعفر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط 01، تحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرساني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م.
38. الكنسوسي محمد بن أحمد أبو عبد الله: الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، د ط، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د س، ج 01.
39. ابن المبارك أحمد بن العطار: تاريخ بلد قسنطينة، ط خ، تحقيق: عبد الله حمادي، دار الفائز للنشر والطباعة والتوزيع، قسنطينة، 2011م.
40. المحبِّي محمد أمين بن فضل الله الحموي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ط 01، دار صادر، بيروت، د س، ج 02.
41. المكناسي محمد بن عبد الوهاب: إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، ط 01، تحقيق: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي: 2003م.
42. ابن المفتي حسين بن رجب شاوش: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، ط 01، تحقيق: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، 2009م.
43. المصعبي إبراهيم بن بجمان الیسجني: رحلة المصعبي، ط 01، تحقيق: يحيى بن بهون حاج محمد، العالمية لخدمات النشر، غرداية، 2006م.
44. المقرئ التلمساني أحمد أبو العباس: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، د ط، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.
45. المقرئ التلمساني أحمد أبو العباس: رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، ط 01، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.
46. مرداد أبو الخير عبد الله: المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة، ط 02، تحقيق: محمد سعيد العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة، جدّة، 1986م.

المصادر والمراجع

47. النايلسي عبد الغني بن إسماعيل: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، د ط، تقديم: أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.
48. الناصري أحمد بن خالد أبو العباس: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، د ط، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج 08.
49. الناصري المعسكري محمد أبو راس: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، د ط، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
50. نيور كارستن: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ط01، ترجمة: عبير المنذر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2007م، ج 01.
51. السوسي محمد المختار: أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، د م، الرباط، 1959م.
52. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، د ط، ترتيب: يوسف النبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، د س.
53. الشنوسي محمد: الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس: 1976م.
54. العبدى محمد بن أحمد الكانوني: البدر اللائح والمتجر الرابع في مآثر آل أبي محمد صالح، ط01، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، الرباط، 2011م.
55. العبدري البنلنسي محمد: الرحلة المغربية، ط01، تقديم: سعد بوفلاحة، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2007م.
56. العزيزي علي بن أحمد بن نور الدين: السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير، ط01، المطبعة الخيرية، القاهرة، 1887م.
57. العياشي أبو سالم: الرحلة العياشية (ماء الموائد)، ط01، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006م.
58. العياشي أبو سالم: تعداد المنازل الحجازية (الرحلة الصغرى)، ط01، تحقيق: عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013م.
59. ابن عمّار الجزائري أبو العباس أحمد: نخلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ط01، مطبعة بيب فونتانة الشرقية، الجزائر، 1902م.

المصادر والمراجع

60. العظمة عبد العزيز: مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، ط01، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1987م.
61. الفاسي ابن زاكور: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
62. الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ط01، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.
63. القدوري عبد المجيد: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، د ط، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1991م.
64. القيسي (السراج) أبو عبد الله محمد بن أحمد: أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعارب، د ط، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، 1970م.
65. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ط 01، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006م.
66. روش ليون: اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، ط01، ترجمة: محمد خير محمود البقاعي، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011م.
67. الرشيد أحمد: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج، د ط، تحقيق: ليلي عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.
68. شالر وليام: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، د ط، ترجمة وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
69. التازي عبد الهادي: أمير مغربي في طرابلس (ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاق)، د ط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 2006م.
70. التونسي محمد بن عمر: تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، د ط، تحقيق: خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م.

المصادر والمراجع

71. التلمساني محمد بن مرزوق (الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، د ط، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعبيد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
72. التمكنوتي علي بن محمد: النفحة المسكية في السفارة التركية، د ط، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002م.
73. تشرشل شارل هنري: حياة الأمير عبد القادر، ط01، ترجمة وتقديم: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م.
74. خوجة حمدان بن عثمان: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، دار الطباعة السلطانية، اسطنبول، 1592م.
75. ابن الخوجة محمد: صفحات من تاريخ تونس، ط01، تحقيق: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
76. ابن خلدون عبد الرحمن: رحلة ابن خلدون، ط01، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت: 2004م.

ثالثاً: المراجع باللغة العربية

77. ألبتر عزيز سامح: الأترك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ط01، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989م.
78. أنساعد سميرة: الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين، ط01، الوكالة الأفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، 2011م.
79. الباروني عمر محمد: الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، ط01، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952م.
80. البوعبدلي المهدي: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، ط01، جمع: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
81. بلعالم محمد باي: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعبادات وما يربط توات من الجهات، د ط، دار هومة، الجزائر، 2005م.

المصادر والمراجع

82. جارشلي إسماعيل حقي: أشرف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ط01، ترجمة: خليل علي مراد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003م.
83. جعفري أحمد أبا الصافي: المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الأفريقية، ط خ، دار نور شاد، الجزائر، 2015م.
84. جعفري أحمد أبا الصافي: الشيخ سيدي محمد الإداعلي حياته وشعره، ط01، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2008م.
85. دي غوري جيرالد: حكام مكة، ط01، ترجمة: محمد شهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000م.
86. الزبيري محمد العربي: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د س.
87. حجي محمد: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط01، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964م.
88. حوتية محمد: توات والأزواد خلال القرنين 12 و13هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ط01، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م.
89. حماش خليفة: كشاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي، ط02، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2016م.
90. كنون عبد الله الحسني: شرح الشمقمقيّة، ط05، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م.
91. الكنتي الهاملي عقباوي عزيز بن بوبكر: النفحات البهية في أفنان الشجرة الكنتية، د ط، مطبعة عزي، غرداية، د س.
92. كروم عبد الله: الرحلات بإقليم توات دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، ط خ، دار دحلب، الجزائر، 2007م.
93. لبيب رزق يونان ومزين محمد: العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912، ط01، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982م.
94. مانتران روبير: تاريخ الدولة العثمانية، ط01، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993م، ج01.

المصادر والمراجع

95. مؤنس حسين: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، د ط، دار المعارف، القاهرة، 2003م.
96. المنوني محمد: من حديث الركب المغربي، ط01، مطبعة المخزن، تطوان، 1953م.
97. السباعي أحمد: تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع وال عمران، ط05، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1999م، ج02.
98. سبنسر وليم: الجزائر في عهد رياس البحر، ط خ، ترجمة وتقديم: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م.
99. سيد عمر محمد عبد العزيز: قطف الزهرات من أخبار علماء توات، ط02، دار هومة، الجزائر، 2002م.
100. سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط خ، دار البصائر، الجزائر، 2007م.
101. سعد الله أبو القاسم: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
102. سعد الله أبو القاسم: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنّابي، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
103. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
104. سعد الله أبو القاسم: تجارب في الأدب والرحلة، ط01، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
105. سعيدوني ناصر الدين: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001م.
106. سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830، ط01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.
107. عبد المعطي حسام محمد: البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م.

المصادر والمراجع

108. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-
1798م، د ط، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1982م.
109. عواطف بنت محمد يوسف نواب: كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر
تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، دار الملك عبد العزيز، الرياض،
2008م.
110. عويس عبد الحليم: أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الفكر الإسلامي الإصلاحي
بالجزائر، ط01، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1985م.
111. علي عمر سميرة فهمي: إمارة الحج في مصر العثمانية 1517-1798م، د ط، الهيئة
المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م.
112. فالنسي لوسيت: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م، ط01،
ترجمة: إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.
113. قدي عبد المجيد: صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة، د ط، د م، د س.
114. رمون أندريه: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ط01، ترجمة: لطيف فرج، دار
الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م.
115. غيتاوي مولاي التهامي: الفتح الميمون في تاريخ قورارة وعلماء تميمون، د ط، العالمية
للطباعة والخدمات، الجزائر، 2013م.

رابعاً: المراجع باللغة الأجنبية

- 116- Ben Messaib: Itinéraire de Tlemcen a la Mekke, par: Mohamed
Ben Cheneb, Revue Africaine, volume 44, 1900, Alger.
- 117- Bernard Saffroy: chronique du Touat, Ghardaia: Centre de
Documentation Saharienne.
- 118- Et-talib Ahmed Ben Towair Al-ganna: Rihlat elmona wel
minna (Pèlerinage à La Mekke), Revue Africaine, volume 55, 1911,
Alger.

المصادر والمراجع

119- Louis Rinn: Marabouts et Khouan, étude sur L'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Alger: 1884.

خامساً: المعاجم والقواميس

120. جعفري مبارك ومقلاقي عبد الله: معجم أعلام توات، ط01، منشورات الرياحين، الجزائر، 2013م.
121. دوزي رينهارت: تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، د ط، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980م.
122. الزبيدي محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ط 02، تحقيق: علي هلاي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 2004م، ج 02.
123. ابن زكريا أحمد بن فارس أبو الحسين: مجلد اللغة، ط 02، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.
124. الزركلي خير الدين: الأعلام، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.
125. كحالة عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط08، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
126. ابن منظور محمد جمال الدين: لسان العرب، د ط، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د س.
127. نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر، ط02، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.
128. الفيروز آبادي محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، ط 08، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م.

سادساً: الملتقيات والدوريات

129. أرحومة هدى الصادق: عالم الرياضيات النسّاب ابن حمزة المغربي، المجلة الجامعة، العدد 15، جامعة الزاوية (ليبيا)، 2013م.
130. ولد السالم حمّاه الله: رحلات الحج من شنقيط وإسهامها في التواصل المشرقي المغربي، المؤتمر الدولي الأول لندوة الرحالة العرب والمسلمين، الدوحة، 2010م.

المصادر والمراجع

131. حمّاش خليفة: الأسرى الجزائريون في أوروبا في العهد العثماني من خلال المصادر المحلية، أعمال الملتقى العلمي الأول "سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر"، مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة قسنطينة، ماي 2008م.
132. حمّاش خليفة: دكان الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدارة، العدد 01، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2009م.
133. حميدة بن زبطة: ترجمة القاضي محمد عبد الله بن الجوزي، ملتقى إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث، جامعة أدرار، 19-20 أبريل 2010م.
134. لبصير سعاد: دوافع الهجرة العلمية والدينية من الجزائر في العهد العثماني، ملتقى سوسيولوجية الهجرة.
135. معاشي جميلة: الإنكشارية في الجزائر بين الهجرة والتهجير، ملتقى سوسيولوجية الهجرة.
136. عزي عبد الرحمن: التواصل القيمي في الرحلة الورثانية، المؤتمر الدولي "ثقافة التواصل"، جامعة فيلادلفيا، عمان، نوفمبر 2009م.
137. فيلالى كمال: الهجرة العلمية والطلابية إلى قسنطينة في عهد عبد الكريم الفقون علامة العصر (988-1073هـ)، ملتقى سوسيولوجية الهجرة.
138. غطاس عائشة: أوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر إبان العهد العثماني من مظاهر التواصل بين الجزائر وبلاد الحجاز، أعمال المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول حول "العلاقات بين دول الخليج والمغرب العربيين الواقع والمستقبل"، تقديم: عبد الجليل التميمي وفهد بن عبد الله السماوي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2005م.

سابعاً: الرسائل الجامعية

139. بن داود نصر الدين: بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 07 إلى القرن 10هـ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف: محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2009-2010م.

المصادر والمراجع

140. حمّاش خليفة: الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، إشراف: فاطمة الزهراء قشي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006-2007م.
141. قبايلي هوارى: مسألة الحج في السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر 1894-1962م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، إشراف: بوعلام بلقاسمي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013-2014م.
142. شدرى معمر رشيدة: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671- 1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف: فلة موساوي القشاعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م.
143. شويتام أرزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م.
144. غطاس عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي بالحميسي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2000-2001م.

ثامناً: الحوامل الإلكترونية

145. موقع: <http://ibadiya-ahlalhaqe.blogspot.com>، بتاريخ: 2016/07/02م.
146. موقع: www.manarahnet.net، بتاريخ: 2015/03/04م.

الفهارس

فهرس الأعلام والقباثل

فهرس الأعلام والقباثل

أ

- أحمد باي: ص58، 98.
- أحمد بوجيدة: ص54.
- أحمد زروق: ص116، 134، 238، 245، 248، 254.
- أحمد بن سماية: ص54.
- أحمد بن عمّار (الرحالة): ص230، 253.
- أحمد بن غانم: ص54.
- أحمد المنصور الذهبي (السلطان): ص43، 53، 256.
- الأعراب (القباثل): ص146، 147، 148، 151، 152، 157، 160، 177، 185،
200، 202، 203، 246.

ب

- بلّي (القبيلة): ص149.
- بعداش الطاهر: ص221.

ج

- جهينة (القبيلة): ص149.
- الجوزي: ص21، 70، 77.
- الجزيري (الرحالة): ص141، 255، 264.

د

- الدايجة بنت بن قانة: ص113.
- أولاد دراج (القبيلة): ص116.
- الدرعي ابن ناصر (الرحالة): ص28، 50، 148، 226، 239، 243.

هـ

- الهلالي السجلماسي (الرحالة): ص108، 264.

و

- الوارجلاني أبو يعقوب: ص28، 31.
- الورثلاني الحسين (الرحالة): ص26، 28، 30، 39، 44، 61، 68، 81، 88، 104، 112، 115، 147، 164، 167، 186، 192، 195، 196، 209، 222، 230، 232، 248، 250، 253، 255، 259.

ز

- الزبيدي مرتضى: ص18، 229، 244.
- الشريف الزهار: ص58، 130.
- الزياني أبو القاسم (الرحالة): ص54، 212.
- الزين أحمد: ص221.
- الزموري علي: ص221.

ح

- حرب (القبيلة): ص149، 157، 158.
- حسين (الداي): ص58، 59، 60، 62، 66، 121، 158.

ي

- يحيى اليعلاوي: ص221.
- يحيى الشاوي: ص71، 226، 227.

م

- مبارك بن بوقرانة: ص221.
- مباركة بنت الحلاب: ص117.
- المجاجي عبد الرحمن (الرحالة): ص50، 104، 143، 181، 207.
- محي الدين (والد الأمير): ص55، 60، 63، 71، 86، 192، 241، 250.
- ابن أبي محلي (الرحالة): ص49، 33، 244، 254.
- الباي محمد الكبير: ص244، 254.
- محمد بن عثمان (الداي): ص62، 118.

- محمد المنور: ص 228.
- ابن مندبل: ص 138، 204.
- ابن مسايب (الرحالة): ص 45، 80، 109، 128، 133، 135، 145، 204، 234.
- مستورة بنت موسى: ص 117.
- مصطفى الجزيري (الجزائري): ص 54.
- مصطفى رايس (القبطان): ص 58، 66.
- المصعبي إبراهيم (الرحالة): ص 75، 93، 197.
- مراد الثالث (السلطان): ص 53.
- ستي مرتم: ص 113.
- ابن مرزوق: ص 29، 31، 32، 70، 258.
- آل المسعود: ص 48، 68، 69، 74، 77.

ن

- نابليون بونابرت: ص 161.
- ابن ناجي: ص 60، 69، 73، 116، 226، 232.
- الناصري أبو راس (الرحالة): ص 217، 230، 231، 236.
- أبو نعامة: ص 47، 71، 81، 261.
- النمامشة (القبيلة): ص 147.

س

- سليم الأول (السلطان): ص 56، 156.
- المولى سليمان (السلطان): ص 217.
- سليمان القانوني (السلطان): ص 167.
- السنوسي: ص 98، 113، 232، 240، 242.
- سعد الله أبو القاسم: ص 28، 29، 80، 221، 243.
- آل سعود: ص 65، 120، 215، 216، 217، 252.
- أولاد سعيد بن سلامة: ص 44.

ع

- عايشة بنت محمد الخياط: ص 117.
- ابن عبد المؤمن: ص 32، 33، 45، 68.
- أولاد عبد النور (القبيلة): ص 44.
- الأمير عبد القادر: ص 55، 60، 63، 47، 71، 86، 150، 241.
- عبد الرحمن الأخضرى: ص 93، 242.
- عويدة بنت محمد: ص 116.
- عويشة بنت عبد الله: ص 116.
- العياشى أبو سالم (الرحالة): ص 36، 37، 40، 42، 48، 49، 61، 68، 73، 74،
76، 81، 89، 90، 95، 102، 105، 109، 111، 114، 118، 150، 158،
225، 227، 235، 246، 255، 260.
- عيسى النعالى: ص 225، 226، 239، 240، 245، 255.
- علي بن ولي: ص 223.
- علي الجزىرى (الجزائرى): ص 54.
- العلمى أحمد: ص 221.
- العنزى محمد: ص 221.
- العرب (القبائل): ص 100، 115، 144، 147، 148، 149، 150، 151، 155،
159، 191، 200، 202، 248، 263.
- العربان (القبائل): ص 147، 149، 150.
- عزّوج بربروس: ص 69.

ف

- الحاجة فاطمة بنت أحمد: ص 116.
- فاطمة بنت محمد: ص 114، 117.
- فاطمة بنت عبد الله: ص 116.
- الفكون محمد: ص 68، 196، 176، 242.

فهرس الأعلام والقباثل

- الفكون عبد الكرم: ص45، 68، 76، 68، 85، 87، 196، 224، 245، 257.
- الفلاني القبلاوي (الرحالة): ص121، 195.

ص

- صالح باي: ص62، 118.
- أولاد صولة (القبيلة): ص147.
- الصحراوي أبو العباس: ص230.

ق

- القوراري بلقاسم: ص70، 76.
- القوراري المسناوي: ص84.
- القشي النقاوسي: ص242.

ر

- الراشدي عبد القادر: ص221.
- الريغي بن جلاب: ص238.

ش

- الشليحي: ص221.
- شعبان بن جلول: ص221.
- الشرقي ابن الطيب (الرحالة): ص36، 69، 189.

ت

- سيدي التواتي: ص69، 226.
- التواتي الغلاوي: ص71.
- التواتي عبد العزيز: ص227، 240.
- التومي عبد الله: ص221.
- التيجيني محمد: ص63، 130.
- التليلي أحمد: ص232.

فهرس الأعلام والقباثل

- التناآنل عبء الرءمن (الرءالة): ص 46، 86، 92، 96، 108، 142، 165، 197، 228، 229.

- التناآنل عبء القاءر (الرءالة): ص 47، 169.

ء

- ءلر الءلن بربروس: ص 69.

- ابن ءلءون عبء الرءمن: ص 258.

- الءنافسة (القبلة): ص 96، 109.

ض

- الضربانل: ص 221.

ء

- الءمارل أءمء: ص 32.

- الءرلسل مصطفل: ص 81، 197، 233، 250.

- الءرلسل عبء الرءمن: ص 239.

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الأماكن والبلدان

أ

- أجدابيا: ص 135.
- أزمير: ص 53، 54، 239.
- أمدوكال: ص 44، 68.
- اسطنبول: ص 53، 54، 57، 223، 226.
- الإسكندرية: ص 44، 51، 52، 53، 54، 58، 59، 60، 62، 66، 74، 77، 136، 137، 148، 155، 158، 179، 181، 183، 185، 194، 196، 204، 210، 212، 225، 227، 237.
- أقبلي: ص 46، 47، 70، 131، 135.
- الأغواط: ص 49، 129، 181، 201، 211.

ب

- بجاية: ص 35، 44، 45، 116، 197، 247، 249، 250.
- بولاق: ص 137، 167، 179، 205، 234.
- البيان (الجبال): ص 128، 164.
- بني عباس: ص 49، 130.
- بنغازي: ص 135، 203.
- بسكرة: ص 44، 48، 69، 74، 93، 107، 129، 185.
- بركة الحاج: ص 140، 141، 156، 178، 207.
- برج حمزة: ص 128، 129.
- برقة: ص 39، 108، 116، 134، 135، 137، 148، 163، 165، 179، 180، 197، 214، 233، 243، 263.
- بغداد: ص 192، 241، 250.

ج

- الجبل الأخضر: ص 164، 165، 184.

فهرس الأماكن والبلدان

- الجزائر: ص 17، 22، 26، 28، 31، 32، 33، 35، 36، 37، 38، 39، 41، 42،
43، 44، 46، 48، 50، 52، 53، 54، 58، 59، 61، 64، 67، 69، 74، 75،
76، 77، 79، 81، 82، 83، 84، 85، 86، 89، 93، 97، 99، 100، 102،
105، 106، 107، 108، 112، 113، 117، 118، 119، 120، 122، 127،
128، 132، 133، 134، 138، 144، 147، 149، 151، 154، 156، 161،
166، 187، 193، 197، 204، 207، 209، 210، 213، 218، 220، 224،
226، 239، 245، 250، 253، 255، 259، 262، 265.
- جزيرة جربة: ص 49، 54، 133، 252.

د

- دمياط: ص 137، 202.
- دمشق: ص 56، 222، 224.
- الدرب الحجازي: ص 37، 40، 41، 115، 138، 139، 140، 142، 143، 148،
149، 150، 152، 156، 157، 159، 163، 164، 165، 166، 172، 177،
178، 185، 197، 198، 199، 201، 207، 259، 260، 264.
- درنة: ص 135، 165.

هـ

- الهند: ص 186، 190.

و

- وارجلان: ص 35، 44.
- وهران: ص 46، 60، 63، 93، 182، 204.
- ونشريس: ص 44.

ز

- الزّاب: ص 19، 28، 32، 51، 56، 57، 110، 180، 188، 206، 212، 228.
- زواوة: ص 28، 37، 45، 100، 175.
- زويلة: ص 116، 181، 223.

ح

- بلاد الحجاز: ص35، 39، 40، 41، 43، 46، 48، 49، 50، 51، 58، 65، 79،
80، 81، 88، 89، 90، 94، 97، 102، 106، 112، 114، 122، 127، 132،
135، 140، 142، 145، 183، 188، 218، 222، 223، 229، 231، 238،
239، 241، 242، 244، 248، 251، 253، 255، 263.

- حلق الوادي (الميناء): ص53، 54، 182.

- بلاد الحرمين الشريفين: ص24، 25، 57، 59، 40، 74، 75، 77، 79، 80، 81،
83، 85، 92، 109، 114، 115، 117، 124، 125، 127، 142، 145، 147،
148، 156، 157، 168، 175، 176، 194، 197، 205، 206، 207، 213،
215، 217، 220، 222، 232، 238، 239، 240، 241، 249، 251، 253.

ط

- الطائف: ص227، 240.

- طبرق: ص135.

- الطور: ص145.

- طرابلس: ص35، 36، 38، 39، 40، 41، 44، 49، 51، 54، 68، 74، 91، 97،
98، 101، 107، 112، 118، 119، 128، 129، 132، 133، 134، 136،
137، 148، 151، 161، 165، 171، 177، 181، 185، 194، 207، 223،
234، 242، 260، 261.

ي

- اليمن: ص170، 186، 190، 197، 214، 224، 254.

- الينبع: ص144، 149.

ك

- الكاف: ص128، 132، 133.

ل

- ليبيا: ص95، 98، 110، 130، 131، 165، 184.

م

- مازونة: ص 44، 45.
- مالطة: ص 153، 154، 155.
- مجاجة: ص 44، 45، 46، 128.
- المدينة المنورة: ص 40، 82، 84، 103، 114، 117، 141، 145، 171، 172،
175، 176، 177، 178، 186، 192، 195، 206، 215، 224، 225، 228،
240، 241، 252، 260.
- المويلح: ص 139، 143، 149، 156، 164، 178، 185، 196.
- مزاب: ص 49، 111، 189.
- مكة المكرمة: ص 24، 25، 26، 43، 56، 64، 65، 75، 82، 117، 141، 145،
149، 150، 169، 170، 172، 175، 178، 186، 189، 190، 205، 215،
223، 225، 240، 241، 242، 245، 250، 252، 254، 255، 263.
- مليانة: ص 35، 45، 248.
- مئى: ص 169، 170، 186، 213، 252.
- المنصورية: ص 137.
- المسيلة: ص 44، 48، 129.
- معسكر: ص 35، 44، 45، 46، 81، 254.
- مصر: ص 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 48، 54، 55، 56، 57، 58،
62، 64، 65، 67، 74، 76، 91، 95، 98، 101، 103، 106، 107، 108،
112، 115، 118، 119، 121، 122، 127، 132، 134، 135، 138، 140،
141، 143، 144، 148، 151، 154، 156، 161، 165، 168، 171، 179،
185، 192، 197، 225، 228، 231، 235، 244، 253، 258، 260، 263.
- مصراتة: ص 134، 163، 203، 248.
- بلاد المغرب: ص 36، 38، 40، 79، 80، 83، 115، 119، 135، 154، 175،
177، 189، 227، 234، 245، 256، 264، 266.

فهرس الأماكن والبلدان

- المغرب الأقصى: ص 37، 38، 39، 41، 42، 43، 44، 48، 77، 130، 133،
148، 183، 193، 216، 223، 238، 259، 264.

- مراكش: ص 36، 38، 105، 225.

- المشرق: ص 38، 42، 43، 58، 71، 76، 79، 83، 113، 119، 149، 172،
183، 185، 187، 190، 212، 213، 220، 222، 223، 225، 228، 232،
240، 242، 244، 245، 246، 248، 256، 260، 264، 266.

ن

- نفاوة: ص 130، 132، 133.

س

- وادي الساورة: ص 48، 49، 130، 181.

- واحة سيوة: ص 137، 191، 202.

- السودان (الغربي): ص 131، 183، 242، 256.

- السويس: ص 56، 60، 140، 141، 142.

- سوسة: ص 189.

- سطيف: ص 44، 128.

- سيناء: ص 142.

ع

- عجرود: ص 141.

- عين ماضي: ص 129، 130، 201.

- عين صالح: ص 30، 31، 102، 112، 116.

- عنابة: ص 39، 43.

- سيدي عقبة: ص 129، 248.

- العراق: ص 197، 236، 241.

- عرفة: ص 65، 80، 82، 120، 150، 169، 249، 264.

ف

- فاس: ص25، 49، 196، 205، 214.
- فزان: ص72، 98، 105، 130، 131، 135، 137، 163، 195، 201، 256.

ص

- صفاقس: ص133.

ق

- قابس: ص132، 133، 175، 185، 197، 243، 248.
- القاهرة: ص56، 60، 64، 91، 94، 101، 112، 119، 136، 137، 138، 139،
141، 148، 156، 168، 172، 178، 179، 180، 183، 185، 195، 203،
204، 207، 222، 226، 227، 228، 233، 237، 244، 248، 241، 261.
- القدس: ص222.
- قورارة: ص47، 70، 104، 130، 148، 192.
- القليعة (المنيعة): ص109، 130.
- القنادسة: ص48، 49، 208.
- قسنطينة: ص32، 35، 38، 44، 45، 53، 60، 63، 68، 88، 97، 100، 116،
121، 88، 97، 100، 116، 118، 121، 128، 129، 132، 147، 155،
204، 221، 224، 238، 248، 261.

ر

- رابغ: ص145، 202.
- وادي ريغ: ص130، 132.
- رشيد: ص54، 137، 155، 202، 225.

ش

- الشام: ص56، 58، 142، 170، 178، 186، 197، 207، 214، 221، 224،
225، 236، 241، 242.
- الشلف: ص44، 46.

ت

- توات: ص33، 35، 44، 46، 47، 48، 70، 71، 86، 87، 93، 96، 105،
121، 130، 148، 151، 181، 188، 197، 228، 248.
- تونس: ص37، 40، 41، 45، 48، 50، 53، 54، 55، 56، 60، 67، 77، 87،
97، 100، 116، 118، 121، 128، 129، 132، 133، 135، 147، 148،
171، 177، 179، 181، 184، 187، 188، 189، 193، 207، 223، 225،
231، 234، 245، 248، 252، 261.
- توزر: ص51، 129، 132، 133، 148، 208.
- تيدكلت: ص46، 47، 48، 70، 130، 131.
- تيمي: ص130.
- التكرور: ص46، 47، 70، 54، 131.
- تلمسان: ص35، 44، 45، 70، 82، 93، 128، 204، 233، 239، 245، 248.
- تمنطيط: ص130.
- تقرت: ص50، 130، 238.

خ

- خنقة سيدي ناجي: ص69، 107، 129، 226.
- الخضيرة: ص144.

غ

- غزة: ص142، 207، 225.
- غريس: ص46، 209، 249.

02	المقدمة
	الفصل التمهيدي: ركب الحج مفاهيم وبدايات
17	أولاً: مفهوم الركب وأبعاد التسمية
17	1. الركب لغة
23	2. الركب اصطلاحاً
27	3. حدود التقاطع بين "الركب" و"الرحلة"
30	ثانياً: أخبار الركب الجزائري قبل العهد العثماني
30	1. بدايات ركب الحج الجزائري
32	2. استمرار دورية الركب مع مجيء العثمانيين
	الفصل الأول: ركب الحج الجزائري تنظيمه وإمارته
35	أولاً: الركب الجزائري استقلالته وخصائصه
35	1. دلائل تميز الركب الجزائري وخصائصه
38	2. تمايز أركاب الحج المغاربية في العهد العثماني
43	ثانياً: أصناف الركب الجزائري وجهاته
43	1. أجزاء الركب الجزائري البري إقليمياً
51	2. الركب الجزائري البحري أو الحج بجزراً
56	ثالثاً: علاقة السلطات العثمانية بالركب الجزائري
56	1. اهتمام سلاطين آل عثمان بأمور الحج
57	2. ارتباط أترك الجزائر بالحج ومستلزماته
61	3. حدود الوصاية العثمانية على شؤون الحج بالجزائر
63	4. حالات الاضطراب في توجه الركب الجزائري للحج
67	رابعاً: إمارة ركب الحج الجزائري ومقوماتها
67	1. أشهر بيوتات إمارة الركب الجزائري

72	2. مقوّماتُ الإمارة وصلاحياتُ أمير الركب
76	خلاصةُ الفصل الأول
الفصل الثاني: الإعدادُ لرحلةِ الحجِّ وتشكيلُ الرّكب	
79	أولاً: الحجُّ عند الجزائريين ومظاهرُ التعبير عنه
79	1. تعلقُ الجزائريين بفريضةِ الحجِّ
82	2. شيوعُ الوقفِ على الحرمين الشريفين بالجزائر العثمانية
85	ثانياً: تجهيزُ الرّكب وعاداتُ التحضير للسّفَر
85	1. الأذانُ في الجزائريين بالحج ومصادرُ التمويل
88	2. الرّاد والمؤونة في الرحلة إلى الحج
92	3. العاداتُ غداةً إزماعِ السفر إلى الحج
94	ثالثاً: الرواحلُ المستعملة للحج ومصادرُ غذائها
94	1. الإبلُ المطيئةُ المثلى لرحلة الحجِّ
100	2. رواحلُ أخرى مستخدمة في الذهاب للحج
102	3. صعوباتُ تأمين العلف والكأ للدواب
103	رابعاً: التشكيلُ البشري للركب الجزائري
103	1. مكوّنات الركب الرئيسية واختصاصاتها
113	2. المرأة الجزائرية وأحوالها مع رحلة الحج
117	خامساً: حجمُ الركب الجزائري ومراحلُ سيره
117	1. حجمُ الركب وأسبابُ التباين في عدد الحجّاج
120	2. تباينُ مواقيت خروج الركب الجزائري
122	3. المراحلُ المألوف قطعها في سير الركب
124	خلاصةُ الفصل الثاني
الفصل الثالث: طرقُ الحجِّ ومحطّاتها وإكراهاتُ مجالها	
128	أولاً: مساراتُ الركب ومحطاتُ العبور الرئيسية
128	1. الطرقُ الداخلية الرئيسية لركب الحج

131	2. محطات عبور الركب الجزائري الخارجية
146	ثانياً: إشكالية تأمين مسالك ركب الحج ومعايره
146	1. مظاهر الاعتداءات على الحجاج ومسوغاتها
155	2. الجهود المبذولة لتأمين الطرق والمسالك
160	3. جدلية إسقاط ركن الحج بسبب غياب الأمن
162	ثالثاً: المعوقات الطبيعية وسبل مواجهة الركب لها
162	1. الركب وأساليب مواجهة العطش
164	2. تباين التضاريس الجغرافية ومشقة اجتيازها
166	رابعاً: اجتياز الركب للتحديات ووصوله إلى الحجاز
166	1. معاناه الحجاج بسبب مستجدات الأوضاع
168	2. إقامة الركب الجزائري بالحرمين الشريفين وتبعاتها
171	خلاصة الفصل الثالث
	الفصل الرابع: التواصل الاجتماعي في رحلة الركب وظروف عودته
175	أولاً: خط عودة الركب إلى الجزائر ومميزاته
175	1. مشاعر فراق الحرمين والرغبة في المجاورة بهما
177	2. التغيرات الحاصلة في خط سير العودة
182	ثانياً: ركب الحج والنشاط التجاري
182	1. الحجاج الجزائريون بين أداء الحج والتجارة
184	2. ازدهار الأسواق الموسمية بمناسبة الحج
186	3. أهم السلع وأشكال المعاملات التجارية
191	ثالثاً: العلاقات الاجتماعية البينية وأبعادها
191	1. مظاهر التضامن والتآزر في ركب الحج
195	2. حوادث الوفاة في ركب الحج الجزائري
198	3. سلوكيات وعادات سيئة من بعض الحجاج
200	رابعاً: تواصل الركب الاجتماعي الإنساني مع مجاله

200	1. في البوادي والبنادر
203	2. في المدن والحواضر
208	خامساً: عاداتُ استقبال الركب ودوره في الإخبار
208	1. مظاهرُ الفرح والسرور بمقدم الركب الجزائري
210	2. المخاطر الصحية الناجمة عن أوبئة الحجاج الجزائريين
212	3. ركبُ الحج ودوره في الإعلام والإخبار
218	خلاصةُ الفصل الرابع
الفصل الخامس: الإشعاعُ العلمي والفكري للركب الجزائري	
221	أولاً: العطاءُ العلمي لأعلام الحجّ الجزائريين
221	1. المزاجية بين الحجّ والنشاط العلمي
223	2. الأعلام من الحجّاج الجزائريين ومكانتهم بالمشرق
233	ثانياً: المثاقفةُ مراكزها وتوجُّهاتها في رحلة الركب
233	1. النزول أو الجوازُ بمحطّات الركب العلمية
241	2. ركبُ الحجّ ونشرُ المصنّف الجزائري
243	3. العلوم والفنون المأمولة من طرف الحجاج
245	ثالثاً: تأثرُ ركب الحجّ بالمناخ الفكري السائد
245	1. المفاضلة بين المغرب والشرق من منظور الحاج
247	2. ركبُ الحجّ والمدُّ الصُّوفي الغالب
250	3. التباينُ المذهبي في مواجهة ركب الحج
254	4. سجالاتُ فقهية حول مسائل مستجدّة
258	رابعاً: مظاهرُ الاستثناس والغرائب في سفر الركب
258	1. الترويحُ عن النفس في رحلة ركب الحج
261	2. معاينةُ الغرائب والطرائف في سفر الركب
265	خلاصةُ الفصل الخامس
268	الخاتمة

فهرس الموضوعات

274	الملاحق
304	قائمة المصادر والمراجع
318	فهرس الأعلام والقبائل
324	فهرس الأماكن والبلدان
331	فهرس الموضوعات

ملخص الأطروحة

" ركبُ الحجّ الجزائري خلالَ العهدِ العثماني دراسةً تاريخيةً من خلالِ الرّحلات
الحجازية "

تُعالج هذه الأطروحةُ موضوعَ سفرِ الجزائريين إلى بلاد الحجاز في العهد العثماني (1518-1830م)، من أجل أداءِ مناسك الحج مع قدوم كلِّ موسمٍ من مواسمه، وتركُّزُ على الإطار المنظم الذي كان يجمع الحجاج الجزائريين في تلك الرّحلة المقدسة، وهو ما عُرف باسم "ركب الحج". وتُبيّن مدى استقلالية ركب الحج الجزائري عن بقية الأركاب المغاربية، وتُعرّف بأسماء أشهر البيوتات التي تولّت مهام إماراة ركب الحج، وكيف كان يتمُّ التزوّد والتحضير لخروج الركب من الجزائر في ذلك العهد. كما تهتمُّ أيضاً بموضوع طُرُق الحج ومحطاتها، والمعيقات الطبيعية والبشرية المواجهة للحجاج في سفرهم. وتستعرض مظاهر التواصل البيني داخل الركب، أو الخارجي مع فضاء الرحلة، انتهاءً بالإشعاع العلمي المرادف لركب الحج في ذهابه وإيابه.

الكلمات المفتاحية: ركبُ الحجّ الجزائري، أميرُ الركب، الحجاج، الرّحلة، الرواحل، الطريق، المحطات، الحجاز، درب الحجاز، بلاد الحرمين الشريفين، التواصل الاجتماعي، أعلامُ الركب.

Summary:

"The Algerian Pilgrimage Carnival During The
Ottoman Era. A historical Study Through The Hijazi's
Voyages"

This dissertation discusses the subject of Algerian's voyage to Hijazi's land during the Ottoman era (1518–1830); for the seek of pilgrimage each year, and it also focuses on the organized frame that gathered the Algerian's pilgrims in that holy journey, which was known with "pilgrimage carnival".

This dissertation shows how independent was the Algerian pilgrimage carnival from the rest of Moroccan carnivals, furthermore, it defines and shows the famous names and villages that served the pilgrimage carnival, and how was the carnival getting its supplies and preparing to voyage from Algeria in that era. In addition to that, it gives big importance to the subject of pilgrimage's ways and stations, as well as the natural struggles and human struggles that faced pilgrims in their voyage. It also illustrates the ways of communication inside and outside the carnival ending with the amount of knowledge that the carnival gained in its way of going and return.

Key words: the Algerian pilgrimage carnival, carnival's prince, pilgrims, voyage, travelers, road, stations, Hijaz, Hijaz road, country of the two holy mosques, social communication carnival's figures.